

منزل الأموات

فيودور دوستويفسكي

- Author : Fyodor Dostoevsky ♦ المؤلف: فيودور دوستويفسكي
- Title: The House of the Dead ... ♦ العنوان: منزل الأموات
- Translated by: Abbas Hafez ♦ ترجمة: عباس حافظ
- Afaq's first edition: 2017 ♦ طبعة أفاق الأولى 2017
- Cover Design by: Amr El Kafrawy ♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- Publishing Consultant: Sawsan Bashir ♦ مستشار النشر: سوسن بشير
- General Supervisor : Tarek Hashim ♦ الإشراف العام: طارق هاشم



رقم الإيداع:

٢٠١٦ / ١٩٩٨٣

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 069 - 4

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-0111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ١١١١٦٠٢٧٨٧

فيودور دوستويفسكي

منزل الأموات

ترجمة

عباس حافظ

مراجعة

محمود محمود

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

دوستويفسكي، فيودور.

فيودور دوستويفسكي : منزل الأموات - ترجمة: عباس حافظ

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2017

472 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 19983 / 2016

الترقيم الدولي 4 - 069 - 765 - 977 - 978

1 - الأدباء

2 - دوستويفسكي، فيودور

فيودور دوستويفسكي
Fyodor Dostovesky

المؤلف وأسلوبه

يعد فيودور دوستويفسكي سيد الكتاب «الواقعيين» في روسيا، ويكاد يفوق في هذه الناحية أعلام الأدب الروس الأفاضل، وهم تولستوي، وترجينيف، وتشيكوف، ووجه براعته وفتون ريشته، إنه يكشف للعالم عن أسوأ جروحها، ويعري للناس عن أقسى آلامها وقروحها، ويدعوهم إلى مشاهدة مساوي المدنية ومعايها ومقاييسها، وهو يصف روسيا التي نشأ فيها، وتمرد على القيصرية في أرضها، وثار على طغاتها ومستبديها، ولكن الصور التي رسمها لحياة المعذبين والمكذوبين لا تزال صادقة إذا هي طبقت على ما يشوب الحضارة في آفاق سواها، وهو ليس الرسام المتخيل لما يرسمه، ولكنه الرسام الذي عاش في رسومه، وخاض كل معالم صورته، لا كشاهد ولكن كطريد، أكره على مخالطة المعذبين، والعيش مع العتاة والمناكيد.

ولعل أروع ما يميزه عن القصاصين الرسامين لمآسي الحياة، وشقوة البشر، إنه لا يخرج الصورة التي رسمها من مسندها، ويقيمها في مكان مرتفع، ويقف ممسكاً «بالمؤشر» ليتحدث إلى الناس عما أراد أن يصوره فيها من عبرة، ولكنه يرسم الصورة، ثم يتركها في موضعها، وينسحب بعيداً منها، ولك أن تذهب إذا شئت فتنظر إليها، وترى ما أنت راء، بغير حاجة إلى «مؤشر» ولا ضرورة لشرح أو بيان، فإذا كانت فيك بشرية، فإن البشرية التي في الصورة متحدة إليك؛ لأن الرسام غير «الواعظ»، فقد كان هو كذلك خاطئاً مع الخطاة، عانيًا مع العناة، معذبًا مع المعذبين.

وقد اخترنا له هذه القصة، من بين قصصه الكثيرة؛ لأنه رسم فيها حياة السجناء، إذ كان هو نفسه سجينًا، قضى في محابس سيبيريا ومنافيتها، قرابة سبع سنين، حين استهدف لثقمة الطغيان، بتمرده على الظلم والبغي والعدوان.

ولعل نهضتنا في عهد الثورة لإصلاح السجون جاعلة لهذه القصة الإنسانية الحاملة على مفاجع الحياة فيها بأغرب الألوان، أثرًا بالغًا في تعقب المساوئ المماثلة لما في سجوننا بالتحسين والإصلاح، ومطاردتها بمعاول الهدم والبنیان.

وكان مولد دوستوفسكي بموسكو في ٣٠ أكتوبر عام ١٨٢١، ومنفاه إلى سيبيريا في عام ١٨٥٤ وقد استأنف

العمل الأدبي فأخرج أروع القصص، وقضى نحبه في ٢٨
يناير عام ١٨٨١، ولا يزال أهل القرن العشرين يقرأونه أو-
على الأصح- يقفون أمام صوره الروائع مذهولين من فرط
التأثر والإعجاب.

عباس حافظ

تعريف بالكاتب والكتاب

نهض الأدب الروسي في القرن التاسع عشر نهضة كبرى واحتل مكانة سامية بين الآداب العالمية الأخرى. ولمعت في هذه الفترة أسماء كثيرة في سماء الأدب كان من أبرزها فيودور دوستوفسكي مؤلف هذه القصة التي نقدمها اليوم إلى قراء العربية.

ولد هذا الكاتب الموهوب عام ١٨٢١ ومات في عام ١٨٨١. وقد ألحقه أبوه بمدرسة حربية يتعلم فيها فن الهندسة. بيد أن الشاب لم يطق الحياة العسكرية ولم يستسغ دراسة العلوم. فانصرف عن العلم والجندي وانكب على الكتب الأدبية يلتمسها التهام المنهوم، وظهرت ميوله الأدبية منذ حداثته.

وفي عام ١٨٤٨ انضم إلى جماعة ثورية يتزعمها بتراشفسكي، فقبضت عليه السلطات الحاكمة وقدمته إلى المحاكمة، وصدر عليه حكم بالإعدام، خفف إلى السجن مع الأشغال الشاقة والنفي إلى سيبيريا. وبعد أربع سنوات

من سجنه أفرج عنه وألحق بخدمة الجيش جنديًا مبعدًا عن بلاده، ولم يسمح له بالعودة إلى روسيا إلا بعد عشر سنوات، استأنف بعدها جهودها الأدبية المتواصلة. وقد كان للفترة التي قضاها في السجن أثر بعيد الغور حد من ثورته، وقل من حماسته، وأضعف من بنيته، ولكنه زاد من قدرته على الإنتاج الأدبي فأخرج كثيرًا من القصص الرائعة الخالدة.

وهو يهتم في جميع قصصه بتحليل النفس الإنسانية، ويعالج أمراض المجتمع في أشخاص رواياته. وهو يعتقد أن لدى كل امرئ نزعة إلى الخير مهما كان شريًا، ونزعة أخرى إلى الشر مهما فاض قلبه بالخير. ومن ثم كان عطوفًا على الناس متسامحًا معهم، واقعيًا يرى أن الأخلاق الكريمة لا بد أن تتأثر بما يحوطها من ظروف. لا يحكم على المرء بعمله ونجاحه، وإنما يحكم عليه بنيته وسعيه. وكان تأثيره في جميع كتاب القصة من الغربيين بالغًا.

إن السجن لم يعلم دوستوفسكي حكمة الصمت المطلق في شئون السياسة والاجتماع. ففي الأيام المظلمة التي قضاها في المنفى أنعم التفكير فيما يقاسي الشعب من عناء، وأخذ بعد عودته إلى بلاده يبحث في خير الوسائل التي تعينه على نقل آرائه ومشاعره إلى الجماهير، ففكر في إصدار مجلة ينشر فيها قصصه تباعًا في فصول، ويضمنها ما يرى في المشكلات القومية القائمة التي كانت مثار البحث والجدل بين الناس في ذلك الحين. وحفزه إلى تنفيذ المشروع الفائدة

المادية التي كان يتوقعها ويترقبها.

عاد دوستوفسكي إلى بطرسبرج في عام ١٨٥٩ بعد غيابه عنها أكثر من عشر سنوات. وحاول أن يلائم بين نفسه المتغيرة والمجتمع المتطور الجديد، فكابد في سبيل ذلك أزمة نفسية حادة. فقد علت في البلاد صيحة التحرير والإصلاح. وفي عام ١٨٦١ صدر قرار بإلغاء الرق. إلا أنه لم يخفف ما كان يعانيه الفلاحون من شظف العيش، وما كانوا يكابدون من بؤس وشقاء. وبرغم ما أدخل على نظام القضاء من تعديل في صالح الشعب، وبرغم الخطوات الواسعة التي خطتها الأمة نحو العدالة الاجتماعية فقد قويت شوكة الثائرين، وازدادت النار التي تتأجج في صدورهم لهيبًا، وانضم كثير من المثقفين إلى طبقة الساخطين، مزودين بتعاليم كارل ماركس وآرائه الجديدة. وتطرف الثائرون في آرائهم وحرصوا الجماهير على العنف والإرهاب، والتقى الشعب والحكام في معارك دامية، أثارت سخط دوستوفسكي وصرفته عن مشاركتهم نشاطهم ودعوتهم.

هذا هو الجو السياسي الذي كان يسود بطرسبرج عندما عاد إليها دوستوفسكي بعد منفاه. وأراد الثائرون أن يمجّدوه في العاصمة كسجين مضطهد، وتحمسوا له وأحاطوه بهالة من التقدير والتقدير، غير أن كاتبنا لم يبتهج لهذا الاستقبال الحماسي الحار. ولم يكن ذلك لأن إذلاله في سجن سيبيريا قد علمه درسًا في الخضوع للسلطة الحاكمة، فما زال يطوي

بين جنبه نفساً طموحة نائرة نزاعة إلى الحرية والمساواة بين الناس. ولم يكن ذلك لأنه أشد محافظة وأقل تقدماً في آرائه من شباب الجيل الناهض الناشئ، فإن الحبس والنفي والتشريد لم يؤد به إلى التخلف والجمود في آرائه الاجتماعية والسياسية. لم يكن عزوفه عن تهليل أبناء العاصمة له راجعاً إلى هذا أو إلى ذاك، وإنما كان راجعاً إلى أنه بدأ يرتاب في صحة الآراء الجديدة، وبخاصة ما كان منها يهدف إلى السخرية بالدين. كما أنه كان لا يحب أن يشرك معه جمهرة الناس عند التفكير في وسائل الإصلاح، وإنما كان يحب التفرد في معالجة الأمور ووصف الدواء لكل الأدواء.

في هذا الجو وفي هذه الظروف كان دوستوفسكي يشغل ذهنه بفكرة إنشاء المجلة. وكان عليه أن يتخلص مما كان يحوطه من أشواك. وأن يتغلب على كل ما يصادفه من عقبات. فهناك منافسة الصحف القديمة، وهناك رقابة رجال الشرطة عليه باعتباره سجيناً سابقاً، وهناك صعوبة استصدار تصريح بإخراج المجلة. واستطاع الرجل في نهاية الأمر أن يذل جميع هذه الصعاب وأن يخرج صحيفته إلى النور وأن يعرض آراءه على الجمهور.

ويرجع نجاح مجلة «الوقت» وسعة انتشارها إلى ما كان يذيعه فيها دوستوفسكي من آثاره الأدبية، ومن أهمها هذه الرواية التي تقدمها للقراء اليوم تحت عنوان «منزل الأموات»، والتي نشرها فصولاً متسلسلة في مجلته. وكان لنشرها على

هذه الصورة أثر في تكوين القصة ذاتها، فهي عبارة عن فصول مختلفة لا تربطها عقدة واحدة، يصف فيها حياة المساجين وصفاً دقيقاً، ويحلل مشاعرهم تحليلًا رائعاً صادقاً، ويروي بعضهم قصة الجريمة التي أدت به إلى السجن ويرغمك الكاتب على أن تمنحهم قلبك وعطفك.

والقصة في جملتها أقرب إلى المذكرات منها إلى الرواية المحبوبة. هي مذكرات رجل قضى في السجن عشر سنوات عقوبة له على قتل زوجته. مذكرات يدون فيها بكل أمانة وإخلاص تجاربه وملاحظاته في سجن أمسك بسبيرييا. ولم يحاول دوستوفسكي أن يقحم خبرته الشخصية عن حياة السجن خلال صفحات الكتاب، حتى تكون المذكرات أقوى أثراً في نفوس القراء. ولم يحاول أن يقف من قارئه موقف المرشد الواعظ الذي يرسل الحكمة مباشرة فتفقد كثيراً من أثرها وقوتها. وتتسم القصة بالواقعية الصارمة، وإن القارئ ليعجب كيف استطاع المؤلف أن يجرد الكتاب كل هذا التجريد من تجاربه الخاصة التي كان لها أثر كبير في حياته. بل إنك لا تلمس في الكتاب إلا لمساً خفيفاً جداً أن الكاتب يشير إلى ضرورة إصلاح السجن. ويجب أن نذكر أن التجربة التي خرج بها دوستوفسكي من السجن هي أن الحبس عقوبة لا مفر منها ينبغي أن تفرض على من يرتكب الجريمة، وأن الأيام التي قضاها في السجن جعلته يؤمن بأن المرء يمكن أن يتطهر عن طريق تحمل الآلام.

ويأخذ بعض النقاد على قصة «منزل الأموات» أن دوستوفسكي لم يرتفع بها إلى مستواه الفني في القصص الأخرى من حيث تصوير الشخصيات وتحليلها. ولئن كان في هذا النقد بعض الحق، فإننا لا ننكر على الكاتب قدرته الفنية الفائقة على حسن اختيار المواقف التي استخلصها من تجاربه في السجن وعرضها على القراء عرضاً جميلاً. فكان منظر المسجونين في الحمام العام، ومنظرهم وهم يشهدون المسرحيات الترفيحية، من المناظر الحية التي لا يمكن أن تنسى. وليست القصة سرّداً مجرداً للحوادث التي تقع في السجن، أو مذكرات معروضة بغير غرض ودون انتقاء. وإنما أراد الكاتب أن يؤكد مما اختاره من مشاهد أن كثيراً من المجرمين لا تنقصهم صفة الشجاعة، ولا تخلو نفوسهم من حب الخير، ونبيل الغرض. ومن هذا العطف على المجرمين نستطيع أن نتبين إيمان دوستوفسكي بما لدى الجماهير الروسية من غرض نبيل وروح عالية.

ولم يعتمد دوستوفسكي في قصته هذه على عرض المواقف دون تحليل الأشخاص كما يزعم بعض الناقدين. فهو ينفذ بخياله إلى ما يدور في أذهانهم، ويقدمهم للقارئ تقديمًا سيكولوجيًا بارعًا. إنه لا يأبه كثيراً بالتحدث عن صلاتهم في السجن بعضهم ببعض أو عن نشاطهم وحركاتهم داخل المحبس. وإنما تراه ينفذ إلى أفئدتهم ويحاول أن يكشف عما تنطوي عليه. فيم يفكرون؟ وأي البواعث دفعتهم

إلى ارتكاب الآثام؟ وكيف يتأثرون بما يفرض عليهم من عقوبات؟ وبعض هؤلاء المسجونين يكون في النهاية في ذهن القارئ صورة حية لا يمكن أن تزول.

ولقد أظهر دوستوفسكي منذ أحداثه وفي قصصه الأولى اهتمامًا بالغًا بالجريمة والمجرمين، واستعان بما لديه من ملاحظة دقيقة أن يدرك - وهو في سجن امسك بسييريا - كثيرًا من الحقائق عن طبيعة المجرمين مما كان يصدر عن زملائه المساجين من أقوال وأعمال. وقد بلغ ذروة التحليل النفسي فيما رواه لنا عن أرلوف وبتروف. وقد كان كلاهما على صلف وكبرياء واعتداد بالنفس شديد. يتصرف باندفاع وبغير تعقل أو تبصر. ولعل هذه هي الصفة التي يتصف بها أكثر المجرمين. ويقوم في نفسه صراع بين قوة الإرادة من ناحية والخضوع والاستسلام من ناحية أخرى، وتتغلب الإرادة على الخضوع فتقع الجريمة. ويكون مقترفها إلى الحيوان المتوحش أقرب منه إلى الإنسان الذي يعيش في مجتمع.

«منزل الأموات» إذن وصف دقيق لما يضطرب في نفس المجرم من هواجس وأفكار، قبل ارتكاب الجريمة وبعدها، يعرضه دوستوفسكي في مهارة فنية فائقة، وقدرة قصصية بالغة، تملأ القارئ روعة، وتبعثه على الرغبة في الإصلاح.

محمود محمود

مقدمة

في أصقاع سيبيريا النائية، ووسط السهول المترامية، والجبال العالية، أو الغابات الألفاف الخالية من المسالك والدروب، تقوم قرى خشبية صغيرة، ودساكر متناثرة يعيش فيها ألف من السكان، أو على أكثر تقدير، ألفان، وهي أقرب شبهًا بالقرى المتوسطة المجاورة لموسكو منها بالمداين والبلدان، وتحوي عادة ضباطًا من الشرطة وملاحظين وموظفين من مختلف المراتب والألوان، وكل مخفر أو نقطة بوليس في سيبيريا تبدو رغم البرد الشديد أشبه بالموضع الدافئ المنشق المكنون، وأهلها قوم لا يعرفون سماحة رأي، ولا حرية تفكير، كل شيء عندهم يجري على القديم والمألوف، ويسير وفقًا للتقاليد الصلبة التي حرص الدهر عليها، وتواضعت الأجيال. أما الموظفون فيها الذين يصح أن يقال عنهم إنهم «الطبقة الأرستقراطية» في سيبيريا فهم إما قد ولدوا فيها ونشأوا، أو جاءوا إليها عادة من بطرسبرج أو موسكو يحدوهم الظفر بالمرتب الإضافي أو بدل السفر المضاعف، أو فتنة الأماني في المستقبل. وقد رأينا الذين عرفوا كيف يحلون مشكلة العيش فيمكنون غالبًا فيها ولا يبغون عنها رحيلاً، ثم ينبتون فيها نباتًا حسنًا، ويثمرون في

أرضها ثمرًا حلواً كثيراً، وأما الآخرون ممن هم أخف أصلاً، ولا طاقة لهم على حلها، فلا يلبثون أن يملوا فيها المقام، ويعجبون لأنفسهم آسفين كيف جاءوا. ثم يرتقبون بفارغ الصبر انتهاء السنوات الثلاث المقررة لمدة خدمتهم فيها. فإذا انتهت بادروا إلى التماس النقل والعودة إلى أوطانهم ساخطين على سيبيريا، ساخرين منها، وهم في الحق لها ظالمون، لا من وجهة نظرهم كموظفين فحسب، بل من عدة وجوه أخرى أيضاً. فقد يجد المرء في سيبيريا عيشاً هنيئاً ومقاماً رغداً. فالمناخ فيها بديع، وكثير من أهلها تجار مفرطون في اليسار، سماح كرام أجواد، أو أغنياء في بسطة من العيش، وفتياتها وشوابها متفتحات كالورد، عفات على خلق عظيم. وترى الطير فيها رافات فوق الشوارع، متهالكات على الصائدين والشمبانيا المستهلكة فيها غزيرة فوق المألوف. والكافيار - البطارخ - عجب العاجبين، والزراعة في جهات منها تغل أحياناً أكثر من ريع غيرها خمسة عشر ضعفاً، وفي الحق إنها لأرض بركات وخير كثير، لمن يعرف كيف يحصد مزاياها. والقوم فيها يعرفون.

ففي إحدى تلك القرى البهيجة المكتفية بذاتها والتي تحوي أفنن الناس نفوساً، والتي لا تزال ذكرها منقوشة على لوح خاطري التقيت بـ أليكسندر بتروفتش جورياتشيكوف، وهو رجل كان فيما مضى من دهره سيداً ماجداً، وصاحب أرض، وكان مولده في روسيا ثم أصبح سجيناً في القسم الثاني من «الليمان» محكوماً عليه لقتله زوجته بالسجن عشر سنوات. وجاء بعد انتهائها يقضي بقية الحياة في ضعة وسكينة، نزلاً في تلك القرية رضي فيها المقام، وكان المعروف عنه عند الجهات الرسمية أنه يسكن في قرية مجاورة. ولكنه في الواقع كان يقيم في تلك البلدة لأنه استطاع أن يكسب

ثمن قوته فيها بإعطاء دروس للأطفال والولدان، وكثيرًا ما يلتقي المرء في سيبيريا بمعلمين كانوا من قبل سجناء، والناس لا ينظرون إليهم بعين الازدراء ولا يولونهم جانب السخرية والامتهان، بل يستعينون في الغالب بهم على تدريس اللغة الفرنسية. ولولاهم لما عرف القوم في أصقاع سيبيريا النائية عن هذه اللغة قليلًا ولا كثيرًا وإن كانت اللغة شيئًا لا غناء عنه مطلقًا للنجاح في الحياة.

وكان أول لقائي بأليكسندر بتروفتش في دار «إيفان إيفانتش جوفزديكوف» وهو موظف من الطراز القديم، كريم مضيف، ظفر بحسن تقدير في مدة خدمته، وله خمس بنات مجتهدات مختلفات الأسنان، وكان أليكسندر بتروفتش يعطيهم أربعة دروس في الأسبوع لقاء ثلاثين كويكا^(١) عن كل درس، وقد استرعاني مظهره حين لقيته، فقد كان شاحبًا أشد الشحوب، ناحل القد، هزيلًا، هشًا، لا يكاد يدعى شيخًا، ولا متقدمًا في العمر لأنه يكاد يناهز الخامسة والثلاثين، ويبدو أبدًا في ثوب أوروبي نظيف. فإذا تحدث أحد إليه نظر إليه مليًا وأصغى في أدب بالغ إلى كل كلمة موجهة إليه كأنما يفكر فيها، وبطيل الفكر، أو كأن المرء يسأله عن لغز أو يستنزل منه سرًا. ثم يجيب بوضوح وإيجاز كأنما يزن كل كلمة، ويتدبر كل لفظ حتى ليستشعر محدثه حرًا، ويضيق به ذرعًا ويستريح لانتهاه الحديث.

وقد سألت عنه يومئذ «إيفان إيفانتش» فعرفت أنه رجل لا عيب فيه ولا غبار عليه، وإلا لما رضي إيفان أن يستعين به على تعليم بناته. وإنما كل ما به أنه نافر لا يستروح إلى الناس، ولا يأنس المجلس، ويتجنب المجتمع وأنه واسع العلم غزيره، يقرأ كثيرًا ويتكلم قليلًا، وأنه من المشقة على المرء

(١) عملة روسية تساوي مليمًا واحدًا.

أن يتحدث إليه، وإن قطع بعضهم بأنه مجنون، ولكنهم يرون أن هذا ليس عيباً، ذا خطر وشأن وأن خلقاً كثيراً من وجهاء البلدة وأصحاب المكانة المرموقة بين أهلها لا يترددون في إظهار العطف عليه بمختلف الوسائل، ويجاهرون بأنه قد ينفع في كتابة العرائض وما إليها. وكان المظنون أن له قطعاً صلات طيبة في روسيا، وقد تكون له روابط بأهل المكانة. ولكن تبين أنه منذ دخل السجن قطع كل صلة بهم، فهو في الواقع عدو نفسه، وكان كل من في البلدة يعرض أيضاً قصته، ويعلم أنه قتل زوجته في العام الأول من زواجهما بسبب الغيرة وسلم نفسه إلى القضاء فكان تسليمه له عاملاً كبير الأثر في تخفيف الحكم عليه، فإن أمثال هذه الجرائم ينظر إليها دائماً كنكبات ويرثى لحال مرتكبيها، ولكن هذا الرجل الغريب أبى مع ذلك إلا أن يعتزل الناس فلا يغشى دورهم إلا ليعطي دروساً.

ولم أوجه إليه في أول الأمر عناية خاصة. ولكن لست أدري كيف بدأ شيئاً فشيئاً يثير اهتمامي.

فقد كان يحيط به شيء كاللغز، ومن المستحيل إطلاقاً التحدث بحرية إليه، وكان بالطبع يجيب عن كل سؤال ألقيته عليه بشكل يوحي بأنه يرى الإجابة فرضاً مقدساً عليه. ولكنني كنت أشعر عقب أجوبته بأنه ليس من المناسب أن أعاود سؤاله. فقد كانت أمارات الألم والإجهد تلوح عقب الجواب على صفحته.

وأذكر أنني في ذات مساء رائق خلال الصيف كنت عائداً إلى بيتي من دار إيفان إيفانتش في رفته فخطر لي فجأة أن أدعوه إلى تدخين «سيجارة» في دارنا، فإذا بنظرة رعب شديد أعجز عن وصفه تشيع من وجهه، وإذا به يضطرب أشد الاضطراب، ويغمغم بكلام متقطع وينظر إليّ بغتة نظرة

غاضب، وينطلق عني مسرعًا عائدًا أدراجته، حتى لقد بهت وتولاني من أمره عجب بالغ.

ومن ذلك الحين جعل ينظر إليّ بفزع كلما التقينا، ولكنني لم أرّد، فإن شيئًا ما كان يجذبني إليه، وبعد شهر ذهبت لغير سبب خاص أزور جورياتشيكوف في بيته، وليس من شك في أن تصرفي هذا كان حماقة مني وقلة لياقة، وكان يقيم بأرباض المدينة في بيت امرأة عجوز من الطبقة العاملة، لها بنت مصدورة جاءت سفاحًا بصبيبة مليحة مرحة تناهز العاشرة، وكان أليكسندر بتروفتش جالسًا بجانبها يعلمها القراءة حين دخلت عليهما، ولشد ما كان اضطرابه حين رأيته، كأنما قبض عليه متلبسًا بجريمة، فقد ارتبك أشد الارتباك ووثب من مجلسه وهو يحذجني ببصره، وأخيرًا جلسنا ومضى يرقب كل نظرة مني بانتباه شديد، كأنما تخالجه ريبة بها، ويحسب أن لها معنى خفيًا، ومدلولًا معمى. وخيل إليّ أن الريبة لديه بلغت حد الجنون، وجعل ينظر إليّ بكراهية كأنما يسألني متى أنت منصرف..

وبدأت أتحدث عن بلدتنا وحوادث اليوم وأبنائه، فبدأ لي أنه لا يعرف من أخبارها المعلومة لكل إنسان فيها شيئًا بل أدهى من ذلك أنه لا يأبه بمعرفتها، ولا يعني بسماعها. ثم تحدثت عن الإقليم وحاجاته ومطالبه فجعل ينصت في صمت، وينظر في وجهي مدهوشًا، حتى أحسست في النهاية خجله من قلبي، ولكنني استطعت بعد لأيٍ إغراءه بكتب ومجلات وجريدة كانت قد وصلت أخيرًا في البريد وكنت أحملها معي، فعرضت عليه أن أعيره إياها غير مفضوضة، أو على حالها كما وصلت، فنظر بلهفة إليها، ولكنه لم يلبث أن غير رأيه فرفض أخذها زاعمًا أنه لا يجد فسحة من الوقت للمطالعة.

واستأذنت في الانصراف، وشعرت بعد خروجي كأن عبئاً أليماً أزيح عن صدري، واستحييت مما كان مني، فقد بدا لي أنه من حماقة المستنكرة أن يضايق المرء رجلاً جعل أكبر همه أن ينزوي عن الناس ما استطاع الانزواء عنهم، ولكن الأمر قد وقع، فلات حين خجلة، وأذكر إنني لم أر كتاباً واحداً في حجرته، فلم يكن إذن ما سمعته حقاً من أنه واسع المعرفة كثير القراءة. ولكنني لاحظت وأنا أمر بنوافذه مرة أو مرتين، في ساعة متأخرة من الليل ضياء ينبعث منها، فجرى في خاطري هذا السؤال: ماذا تراه يفعل ساهراً إلى مطلع الفجر، أتراه يكتب؟ وإذا كان كذلك، فماذا تظنه كاتباً...

وقضت ظروف أن أغيب ثلاثة أشهر عن البلدة، ولما عدت في الشتاء علمت أن أليكسندر بترفش قضى في الخريف نحبه، متبذراً الناس، بمنأى عن المجتمع، حتى لم يرسل في طلب طبيب يستنفذه، وكاد يصبح في البلدة نسياً منسياً، واقفر مسكنه، فبادرت من ساعتى إلى التعرف بصاحبة البيت لأعلم منها ما الذي كان يشغله، وهل كتب شيئاً، ولقاء عشرين كوبيكا جاءني برزمة من أوراق كتبها، واعترفت لي العجوز بأنه مزق كراستين. وكانت امرأة صموئلاً عبوساً جهمة يشق عليك أن تستخرج منها شيئاً كثيراً فلم أظفر منها بجديد لا أعرفه، وكل ما عرفته أنه لم يكن يفعل شيئاً، وكانت تنقضي الشهور عليه فلا يفتح كتاباً، ولا يتناول قلماً، بل كان دأبه أن يقطع الليل كله ذهاباً وجيئة في حجرته ساهماً مفكراً، أو أحياناً مكلماً نفسه، وكان يحب حفيدتها الصغيرة «كاتيا» ويولع بها، ويحنو عليها كثيراً وخاصة منذ سمع أنها تدعى بهذا الاسم، واعتاد في عيد القديسة كاترين أن يقيم قداساً على روح ميت عزيز عليه، وكان يضيق بالزائرين. ولم يكن يغادر الدار إلا ليعطي دروساً وكان ينظر شذراً من طرف عينه إليها وهي العجوز المسنة

كلما ذهبت مرة في كل أسبوع لتنظيف غرفته قليلاً وتنسيق متاعها، وما تحسبه قال لها كلمة واحدة كل تلك السنين الثلاث التي قضاها نزيلاً عندها.

وسألت «كاتيا» هل تذكر معلمها؟

فنظرت إليّ ولم تتكلم، وولت وجهها إلى الجدار وأخذت تبكي.
وكذلك استطاع هذا الرجل أن يجعل واحدًا من الناس على الأقل يحبه.
وحملت أوراقه وأنفقت يومًا كاملاً في تصفحها.

وتبين لي أن ثلاثة أرباعها ليست سوى مزق تافهة لا شأن لها، أو كراسات لبعض تلاميذه. ولكن كان بينها دفتر كبير بخط يد رائق. ولكنه لم يتم، ولعل الكاتب اطّرحه جانباً ونسيه، وهو يحوي وصفًا متناثرًا غير مرتبط للسنين العشر التي قضاها أليكسندر بتروفتش في الليمان، فقد رأيت في مواضع منه منقطع السياق مبتور السرد، وفي أخرى تتخلله فقرات من قصة أخرى. وبعض ذكريات غريبة رهيبة قد دونت على عجل بغير نظام ولا حسن سياق، كأنما أوحى بها دافع غلاب، أو حملة عليها باعث قاهر.

وعدت أتلو هذه الشذرات مرارًا، وكدت أقتنع بأنها كتبت في حالة جن وخبال، ولكن ذكرياته بسبيل الفترة التي قضاها في السجن، وسماها في الدفتر «مشاهد من منزل الأموات» بدت لي غير خالية من التشويق، وفتنتني حديث هذا العالم الجديد العجيب الذي كنت إلى الساعة أجهله. وشاقتني من قصته غرابة بعض الوقائع، وطائفة من الملاحظات الخاصة عن تلك المخلوقات الضائعة؛ فجعلت أقرأ بعضها بفضول شديد. وقد أكون بالطبع مخطئًا، ولكنني سأبدأ باقتطاف فصلين أو ثلاثة فصول منها على سبيل التجربة، تاركًا الحكم عليها لجمهرة القارئین ..

القسم الأول

الفصل الأول

منزل الأموات

كان سجننا قائماً على حافة ساحة الحصن، قريباً من أسواره، فكان المرء أحياناً يطل من فجوة في الجدار على عالم الله؛ ليحاول أن يرى شيئاً، فلا يبصر غير شق مستطيل من السماء، وغير الجدار الشاهق الذي علاه العشب الخشن، وحجبت الحشائش المترامية عليه أديمه، وغير الحراس القائمين حوله، وهم رائحون غادون ليل نهار، فلا يلبث أن يذكر أن أمامه أعواماً طوَّالاً سيقضيها خلف تلك الأسوار، وأنه سيظل يختلف إلى تلك الفجوة ليطل منها على ذلك العالم كدأبه، وسيرى ذلك الجدار عينه، ويشهد أولئك الحراس أنفسهم، والشق المستطيل من السماء ذاته لا السماء القائمة فوق السجن، بل السماء الطلق الفضاء المترامية.

صوّر لنفسك فناء رحيباً يمتد مائتي قدم طوَّالاً، ومائة وخمسين عرضاً مسدس الأضلاع، يحيط به سياج من أعمدة عالية مغمية في جوف الأرض متلاصقات معززات بألواح مدببة الأطراف، ذلك هو السياج الخارجي للسجن، على جانب منه باب حديدي لا يفتح ليلاً ولا نهاراً، وعليه الحراس

قيام، ولكنه يفتح عند خروجنا إلى العمل، ومن ورائه يترامى عالم النور، ودنيا الحرية، حيث يعيش الناس كبقية البشر، ولكن الذين يعيشون في هذا الجانب منه يمثلون العالم عبقرًا، وأرض حور وجان، لا سبيل إليها، فهنا يقوم عالم منفصل، لا يشبهه شيء، وله قوانينه وأزياءه وسلوكه وعاداته، بل هنا... منزل الموتى من الأحياء، تختلف الحياة فيه عن كل ما عداها، وله أناسيه وحده وسكانه.

هذا هو الركن المستقل عن الدنيا الذي أريد أن أصفه... فأنت لا تكاد تدخل هذا الفناء حتى تطالعك عدة أبنية فيه، فعلى كلا الجانبين من «الحوش» الداخلي الفسيح ينهض مبانٍ مستطيلان من طبقة واحدة، هما ثكنة السجن، وهنا يعيش السجناء موزعين على عنابر، وفي أقصى الفناء بناء آخر شبيه بهما، وهو المطبخ، وقد قسم قسمين ليكون كل قسم منهما مطعمًا أو «ميسًا»، يليه بناء آخر أعد مخازن للميرة والمتاع والمرابط، كلها تحت سقف واحد. أما سرّة الفناء فخاوية كساحة فسيحة الجوانب يصطف فيها السجناء ويتمم عليهم، وينادون بأسمائهم صبحًا وظهراً ومساءً، وفي بعض المناسبات عدة مرات في النهار كأن يرتاب الحراس في العد أو يختلف الأمر فيه عليهم. وقد ترك جزء كبير من الفناء فضاء بين الأبنية والسياح، يختلف إليه السجناء الذين يميلون إلى العزلة وأصحاب الأمزجة المكتئبة في وقت فراغهم للمشى رواحًا وغدوًّا خلف الأبنية والأخلاء إلى أفكارهم بمنأى عن الأعين ونجوة من الرقباء، فكنت كلما لقيتهم فيه أحب أن أنظر في وجوههم العابسة الموصومة، وأروح أتخيل ماذا يمكن أن تكون الأفكار الجائلة في أذهانهم، وكان بينهم سجين جعل باله كلما سنحت له ساحة فراغ أن يعد الأعمدة القائمة على السياج، وكانت ألفًا وخمسمائة، راح يعدّها عدًا غير

مستثن منها أحدًا، كل منها يمثل عنده يومًا فكان في كل يوم يعلم واحدًا حتى يستطيع بنظرة واحدة أن يعرف من جملة الأعمدة التي لم يحصها عدد الأيام التي لا تزال باقية على وفاء مدته. وكان يفرح الفرح الصادق كلما أتم ضلعًا من الأضلاع، وكانت أمامه عدة سنين يترقب وينتظر، ولكن المرء في السجن يجد فسحة من الوقت ليتعلم فيها الصبر. وقد رأيت يومًا سجينًا لبث في السجن عشرين سنة ثم أفرج عنه فمضى يودع رفقاءه ويستأذنها في المنصرف، وكان منهم خلق يذكرون مقدمه حين كان شابًا غير مكترث بشيء، ولا آبه بجريمته، ولا حافل بعقوبته، فإذا هو عند خروجه الأشيب المكتهل المكتئب المكفهر. وقد مضى في صمت يطوف ستة «عنابر» مودعًا، وكلما دخل عنبرًا منها وقف خاشعًا يصلي أمام «الأيقونة» ثم ينحني لرفاقه يسألهم ما قد فرط منه، والصفح عما قد أخطأ، وأذكر أيضًا سجينًا كان في سالف الدهر مزارعًا حسن الحال في سيبيريا. فدعي في ذات مساء إلى «البوابة» وكان قد سمع منذ ستة أشهر أن زوجته السابقة قد تزوجت سواه، فانتابه الهم وهذه المصائب هذًا، وكانت في ذلك المساء قد جاءت بنفسها إلى السجن وسألت عنه، وتصدقت عليه، ولبثا دقيقتين يتحدثان ويبكيان ويتودعان وداع الأبد، ورأيت وجهه حين عاد إلى العنبر... أي نعم، في هذا المكان قد يتعلم المرء كيف يتجلد ويصبر.

وكنا إذا أدر كنا الليل نساق إلى العنابر وتغلق علينا الأبواب ليلاً، فكنت أكتئب وأنقبض كلما أدخلنا إلى العنبر، وهو غرفة مستطيلة خفيضة السقف مكتومة ترهق الأنفاس، معتمة إلا من بصيص القناديل مليئة برائحة شديدة خانقة، ولست أدري الآن كيف استطعت أن أعيش فيها عشر سنين، وكان لي ثلاثة ألواح فوق الإفريز الخشبي، وهو كل ما أوتيته، وكان ثلاثون رجلًا

يرقدون جنباً إلى جنب في هذا «العنبر» وحده فوق ألواح قائمة على تلك الأرضية الخشبية، وكنا في الشتاء ندخل «المنامة» باكزين، فنقضي أربع ساعات معاً قبل أن نهجع، ويأخذ الكرى منا بمعاقد الأجفان، وفي تلك الفترة تشتد الجلبة، ويكثر الصراخ وترتفع الضحكات وتتعالى الأيمان ويتراشق القوم باللعنات والسباب، وترن أصوات السلاسل والأغلال، وترتفع ذوائب الدخان، وتنبعث الروائح الكريهة، وتبدو الرؤوس الحليقة والوجوه التي أرهقتها القترة، والثياب المهلهلة والأسمال، وكل ما هو دنس ملوث مهين... أي شيء ترى المرء يعجز عن احتماله. إن الإنسان لمخلوق سريع الإيلاف لكل شيء، وأحسب هذا الوصف أحسن تعريف له.

وكان السجن يحوي في الجملة مائتين وخمسين سجيناً، وكلما كان العدد يختلف أو يتراوح، بعضهم يدخل، وآخرون يوفون مددهم فينصرفون، وقوم تتوفاهم المنون، وكلهم من كل نوع، وحرف، وصوب، وبخيل لي أن لكل إقليم في روسيا، وكل ولاية وصقع، من يمثلونه، ولا يخلو السجن من الأغراب والأجانب وبعضهم قد جاء من جبال القوقاز، وهم جميعاً مقسمون تبعاً لصنوف جرائمهم، أو بالحري تبعاً لعدد السنين التي حكم بها عليهم، وأعتقد أنه ما من جريمة إلا كان لها عندنا محابيس وسجناء، وأكثر سكان اليمان من فئة «السلنو كاتورزني» أي المساجين المدنيين الذين يقضون مدد عقوبات وأحكام شديدة.

ومن هؤلاء سجناء حرموا إطلاقاً من جميع حقوق الملكية، فأصبحوا شظايا منقطعة عن المجتمع الإنساني، تعلو وجوههم دمغة العار شاهداً إلى الأبد على أنهم طريدون من الحضيرة البشرية منبوزون، وتختلف الأحكام بالأشغال الشاقة الصادرة عليهم بين ثماني سنوات واثنى عشرة، فإذا قضوها

أرسلوا إلى بعض القرى في سيبيريا للمقام فيها كمستوطنين.

وكان الليمان يحوي أيضًا سجناء من القسم الحربي، وهؤلاء لا يحرمون من الحقوق، كما هو المتبع في كتائب التأديب الروسية، ولا تتجاوز الأحكام عليهم مددًا قصيرة، ثم يردون عند الوفاء بها إلى الموضع الذي جاءوا منه للخدمة في الفرق السييرية، فكان خلق كثير منهم يعودون وشيكًا إلى السجن لبعض الجنايات الخطيرة إلى حد ما، فيقضون في هذه المرة مددًا أطول، أو على الأصح، عشرين عامًا. وهم يدعون «التأبدة» ولكنهم لا يحرمون من الحقوق، وثم فريق كبير العدد هونًا ما، هم من أرباب المجرمين وأشدهم نكرًا، ويسمون «بالقسم المخصوص» وقد أتوا من جميع ربوع روسيا وأصقاعها ويعدون أنفسهم سجناء «مؤبدين» ويجهلون المدد المحكوم بها عليهم ويقضي القانون بمضاعفة أشغالهم أو جعلها ثلاثة أضعاف أشغال الآخرين، ويعثون في السجن ريثما تعرض مشروعات في سيبيريا تحتاج إلى تشغيل أمثالهم فيها إلى الحد الشديد المرهق، وقد اعتادوا أن يقولوا لغيرهم من المساجين «إنكم هنا إلى حين. أما نحن ففي العبودية مقمchon..» ولكني سمعت أن هذا القسم قد ألغي في السجون. وأن القسم المدني نقل أيضًا من «ليماننا» وأنشئت كتبية تأديبية واحدة من المساجين، ونقل الموظفون المشرفون على السجن أيضًا بطبيعة الحال، وأنا هنا أصف العهد الماضي وما كان يجري فيه.

ويبدو لي كل شيء قديم العهد غابرًا كأنه اليوم حلم من الأحلام، ولا أزال أذكر كيف دخلت السجن. فقد كان ذلك مساء في شهر يناير والظلام قد خيم، والسجناء عائدون من الشغل متأهبون لوقفة «التمام»، وفتح صف ضابط غزير الشارب أخيرًا باب هذا المنزل الغريب الذي قدر عليّ أن أقضي

فيه عدة سنين، وأحتمل فيه أحاسيس ومشاعر لم أكن يومًا أتصور شيئًا منها. أو أستطيع تكوين أقل فكرة عنها، لو لم أواقعها فعليًا وأجربها. فما كنت مثلاً أتصور كيف أقضي عشرة أعوام لا أخلو لحظة فيها لنفسي، أو أتمثل ما في ذلك من عذاب أليم، وشقاء ممض، ففي وقت الشغل لا يفارقني الحارس، وفي العنبر مع مائتي سجين، فلا فرصة لحظة لخلوة، ولا متسع برهة لمعزل... ولكن لم يكن هذا بأقسى ولا أسوأ شيء قضى عليّ أن أعانيه...

وكان معنا في السجن قتلة بحكم الظروف، وسفاكون بالمهنة ولصوص وسطاؤون، ورؤساء عصابات، وإلى جانبهم سراق اعتياديون، ومشردون ألفوا النشل والاختلاس.

وهناك قوم يصعب على المرء أن يدرك لماذا جاءوا، وإن كان لكل منهم قصته، وهي قصة مضطربة، مختلطة، مرهقة، كالخمار الذي يحسه الشارب بعد ليلة شراب، وقلما كان هؤلاء يتحدثون عن ماضيهم، كراهية منهم للحديث عنه، والظاهر أنهم يحاولون ألا يفكروا فيه، وقد عرفت من بينهم قتلة يلوحون مرحين مفرطي المرح، مستخفين لكل شيء، حتى ليقطع المرء بأن ضمائرهم لا تخزهم في يوم من الأيام. ولكن هناك أيضًا وجوه مكفهرة وسجن قاتمة مقطبة، وأشخاص صامتون لا يتكلمون أبدًا. وفي النادر عادة أن نشهد فيهم أحدًا يتحدث عن حياته؛ والفضول بينهم ممتنع، أو على الأصح ليس باللائق عندهم ولا بالمألوف، وإن مضى أحدهم في مناسبات قليلة - ولأنه لا يجد شيئًا آخر يفعله - أكثرًا من الكلام، مطيلاً الحديث، بينما يروح المستمع مصغيًا له في برود ووجوم. فليس أحد هنا مستطیعًا إثارة الدهشة في نفس سواه، وكثيرًا ما نسمعهم قائلين في رضا غريب «نحن نعرف كيف نقرأ». وأذكر كيف أنشأ لص، وقد لعبت الخمر برأسه - والسكر في السجن

أحياناً ميسور- يقص علينا كيف قتل صبيّاً في الخامسة، وكيف أغراه أول الأمر بدمية أو لعبة، ثم مضى به إلى سقيفة خالية، فَتَكَلَه، فلم يلبث السجّناء في العنبر، وكانوا إلى تلك اللحظة يضحكون لنكاته، أن صاحوا صيحة رجل واحد فاضطر الرجل أن يسكت، ولم يكن صياحهم عن غضب، ولكن لأنه لا حاجة إلى الحديث «عن هذا»؛ لأن الحديث عنه لا يصح. وقد أسلفت أن فيهم عارفين للقراءة؛ وأقول هنا، والشيء بالشيء يذكر أن علمهم بها هو علم الفصحى، لا اللكنة والدارج. وأكبر ظني أن أكثر من نصفهم يقرأون ويكتبون، ففي أي مكان تستطيع أن تجد من بين مائتين وخمسين فلاحاً من أهل روسيا النصف قراء وكاتبين... لقد سمعت أن بعضهم استنتج من هذه الوقائع أن التعليم يضر الكافة، ولكن هذا الاستنتاج خطأ، وأن هناك عوامل أخرى لها أثرها في هذا الأمر ورد فعلها وإن وجب أن نعترف بأن التعليم ينمي ملكة الثقة بالنفس في نفس الشعب والاعتماد عليها. وهذا لا يمكن أن يكون نقصاً أو عيباً.

وكانت كل فئة من المساجين تختلف عن الأخرى بالزي، فنصفهم يرتدون «جاكتات سوداء»، والنصف الآخر رمادية، وهذا هو الحال في السراويل «البنطلونات»، فرجل منها سوداء شديدة السواد، ورجل أخرى في مثل لون الرماد، وقد حدث ذات يوم ونحن في الشغل أن نظرت إلى فتاة تبيع أرغفة خبز وأطالت النظر ثم انفجرت فجأة ضاحكة وهي تقول: «عجباً.. ما أبشع وما أنكر... ليس عندهم كفاية من قماش أسود، ولا كفاية من قماش رمادي». وآخرون يلبسون «سترات» كلها رمادية اللون إلا الأكمام والأرداف فهي تقرب إلى السمرة. وكان حلق رؤوسنا مختلفاً، بعضنا تبدو حلقاته بالطول والبعض الآخر عرّضاً.

وأنت تستطيع من أول نظرة أن تكشف ظاهرة واضحة يشترك فيها أفراد هذه العشيرة الغريبة جميعاً، حتى أبرزهم شخصية وأشدّهم شوكة، وهم الذين يسيطرون بغير قصد على الآخرين ولهم عليهم عن غير عمد سلطان ظاهر وهذه الظاهرة هي الاجتهاد في اتخاذ سمت واحد، ونهج عام. فهم جميعاً- إذا استثنينا منهم أفراداً معدودين- لا يملون المرح، ولا يكونون من المجون، وينظر الآخرون إليهم بعين الاحتقار لهذا السبب بالذات، عبوسون مكفهرون حاسدون إخوان حق، يمتلكهم الغرور إلى حد شنيع، ويغلب عليهم الزهو ويستمكن منهم التفاخر، وسرعة البادرة، وفرط التشبث «بالشكليات»، ويعدون الامتناع من إبداء الدهشة لشيء أعظم الصفات، وأكبر المزايا والمواهب حتى ليلوح الجمع كله في جنون بالحرص على المظاهر، والمحافظة على التقاليد ولكن كثيراً ما تنقلب في ومضة واحدة المباهاة الصارخة إلى ضعف بالغ، وخور شديد، ولا يخلو الأمر من أقوياء الشخصيات حقاً. وهؤلاء تغلب عليهم الصراحة، والبساطة، والرزانة فلا يتأثرون بشيء. ولكن العجيب أن من بين هؤلاء الأقوياء أفراداً بلغ منهم الغرور حد الغلو ودرجة المرض، حتى ليصح أن تقول إن الغرور واحترام المظاهر هما كقاعدة عامة أجلى شيء فيهم. وجمهرتهم فاسدة فاجرة، والغيبة والنميمة بينهم شائعتان، لا تنقطعان، والعيش جحيم، وظلام دامس، وحلقة بهيمة. ولكن أحداً لا يجرؤ على التمرد على القواعد المفروضة، أو التنكر للعادات المرعية في السجن، بل كلهم لها مذعن مستسلم، وإن كان فيهم نفر من الشذاذ تشق عليهم طاعتها ولكنهم مع هذا مذعنون إليها نازلون على أحكامها. وبينهم قوم جاءوا إلى السجن لجُنة انتابتهم، فاستخفوا وهم أحراراً طلقاء بكل شيء فارتكبوا في النهاية جرائمهم ذاهلين أو غير

مستولين أو بغير قصد ولا غرض، كأنما كانوا في شرود فكر أو هذيان، أو سكر شديد، أو أحياناً كثيرة لهياج الغرور المركب فيهم إلى أبعد الحدود. ولكنهم لا يلبثون أن يستخذوا في السجن ويقضى على بطشهم وإن كانوا قبل دخوله مثار الرعب في قرى بجملتها، ومدن بأكملها، فإذا جاء أحدهم أدرك وشيكاً أنه قد أتى مكاناً لا عهد له به، ولا سلطان له على أحد من أهله، فإذا به رويداً يذعن، وإذا به شيئاً فشيئاً رائنض نفسه على مراعاة السلوك العام، أو النهج الظاهر، في مراعاة كل سجين لكرامته الخاصة وشعوره الشديد بوجوب احترامها، كأن مركزه كسجين مقضي عليه هو بمثابة رتبة، أو مكانة بل رتبة شريفة أيضاً ومكانة موقرة، فلا تشهد عليهم أمانة خجل أو ندامة أو أسف، وإن كان هناك تسليم ظاهر أو نوع من الهدوء الفلسفي، حتى لقد اعتادوا أن يقولوا: «نحن قوم ضعنا وما دمنا قد جهلنا كيف نحيا في أفق الحرية فلا مندوحة لنا عن المشي في «الشارع الأخضر» وعد الصفوف»^(١). وقد عجزنا أن نطرز بالذهب، فاليوم فلنكسر الأحجار على الطريق تكسيراً، وهي كلمات تقال أحياناً على سبيل الأمثال والعبر ولكنها لا تقال يوماً ككلام جدي، بل هي مجرد ألفاظ وتعبيرات، ولا أعتقد أن أحداً من المساجين يقر في نفسه بأنه قد خرج على القانون. ولو حاول إنسان - من غير السجناء - أن يلوم سجيناً على جرمه أو يعيره به - وإن كان لومه أمراً غير معروف في روسيا - لقبول بوابل غير منقطع من الشائم والسباب، وما أبرع السجناء فيها وما أعجبهم تفناً وابتكاراً... فهم حقاً متفنون فيها، برعة حذاق، حتى أصبح الشتم عندهم علماً وطريقتهم فيه ألا يعتمدوا على اللفظ بل كل

(١) يراد بالشارع الأخضر «عقوبة الجلد» وهم لا يجلدون في السجن بالسياط ولكن بالعصي وتسمى في الروسية «البالكى» وكانت شائعة في عهد القيصر نيقولا الأول حتى لقب «نقولا البالكى» أي العصا. ولم أستطع أن أهتدي إلى سر تسميتها «بالشارع الأخضر».

همهم فيه المعنى، والروح، والصفة المشبهة، وهو ما يجعل شتمهم أدهى وأخبث وأكثر أذى. وقد أعانهم على السمو بهذا العلم والإجادة البالغة في كثرة شجارهم، ودأبهم على الملاهة، وإذا عرفنا أنهم يحملون على الشغل بالقوة، أدركنا أنهم بلداء فارغون مكاسيل، وبالأحرى لا خلاق لهم، فإن لم يكونوا قبل السجن سفلة فاجرين، جعلهم الحبس كذلك، وقد احتشدوا فيه بغير إرادتهم، فهم غرباء بعضهم عن بعض، ثم تلاقوا فيه وافدين.

وكانوا يقولون عن أنفسهم عادة: «إن إبليس لا بد من أنه قد أخلق ثلاثة أزواج من الأحذية قبل أن يجمعنا برمتنا هنا» فلا عجب إذا رأيت النميمة والكيد والغيبة المعروفة عن النساء والدس والحسد والشجار والكرامية ظاهرة جليلة في هذه الحياة الجهنمية. وما أحسب أن في العجائز من هن أسلط ألسنة من هؤلاء القتلة وقطاع الرقاب. وأقررها مرة أخرى أن فيهم رجالاً أقوياء الشخصيات رجالاً ألفوا أن يتقدموا الصفوف ويسيطروا، صلاباً لا يخشون شيئاً ويحترمهم الآخرون بالغريزة؛ ولئن كانوا في الغالب شديدي الغيرة على سمعتهم، حريصين على هيبتهم فلا يزالون في الجملة سماحاً لا يحاولون الإرهاق، ولا يعمدون إلى الطغيان، ولا يتلقطون الشجار على التافه من الأمور، بل يسلكون مسالك العزة البالغة، ويتمسكون بالكرامة المتناهية، ويأخذون الأمور بالعقل والسداد، ولا يكادون يوماً يشقون عصا الطاعة على السلطات، لا عن مبدأ، ولا عن شعور بالواجب، بل شبه تعاقد مع السلطات لمصلحة الفريقين. فلا عجب إذا هم عوملوا بعين الاعتبار.

وأذكر كيف دعي في ذات مرة أحد أولئك السجناء، وهو رجل لا يعرف الخوف، مقدم مستحصد الإرادة، معروف لأولي الأمر بنزعات الوحشية، وقسوته الشديدة، لمعاقبته على مخالفة ارتكبتها، وكان ذلك في يوم صائف،

وفي غير ساعات الشغل، وجاء الضابط المسئول مباشرة عن إدارة السجن إلى مقر الحرس بنفسه، وهو بموضع قريب من «البوابة» ليحضر تنفيذ العقوبة، وكان المساجين يخشون هذا الضابط «الميجور» المشؤم المحترم كأنه القدر، ويرعشون أمامه خوفاً وهلعاً، فقد كان قاسياً بطاشاً إلى حد الجنون، و«يطير في الوجوه» كما يقولون. وكان أشد ما يخشونه منه عينيه النفاذتين كعيني الفهد، لا يخفى عليهما في السجن شيء، كأنما يبصر وإن لم ينظر، فإذا جاء عرف في الحال ما يجري في أقصى ركن منه، وكان المساجين يسمونه «ذا الثماني الأعين» وكانت طريقته مجافية للحكمة لأنه بهذه التصرفات الوحشية، النكدة، المؤذية، إنما كان يحق أناساً حسبهم ما هم فيه من حنق، ويزيد المغيظين غيظاً، ولولا أن من فوقه «المأمور» - حاكم السجن - وهو رجل كريم وأخو حجي، كان أحياناً يخفف من غلواء نعمته، وانفجار وحشيته، لأدى حكمه إلى متاعب بالغة. ولست أفهم كيف لم ينته إلى نهاية سوى، وكيف لا يزال حياً يرزق، وفي خير وعافية، وإن كان قد حوكم على سوء أفعاله وقبح تصرفاته.

ولما نودي ذلك السجين ارتد وجهه شاحباً، ولكنه حين طرح أرضاً ليضرب بالعصا، لم تختلج فيه خالجة، ولم ينبس، بل تجلد للعقوبة صامتاً، ونهض هادئاً، ساكن الأوصال، وينظر نظرة فلسفية إلى هذا الحادث الذي نزل به، ولكنهم كانوا من قبل يعاملونه أبداً بحذر وحيطه. ولكنه في هذه المرة اعتقد لسبب ما أنه لم يخطئ، فغافل حارسه، ودس في كفه مطواة إنجليزية حادة، ومن أشد الممنوعات حمل المطاوي والمدي وما إليها، وكان التفتيش يجري غالباً وعلى حين غرة للبحث عما خفي منها، وهي مخالفة غير هينة؛ لأن العقوبات عليها صارمة، ولكن من المشقة أن يعرف

أحد كيف يتمكن المجرم أن يخفي، وماذا يريد من إخفائه، خاصة ولا غناء في السجن عن المدي والآلات الحادة، فلا عجب إذا لم يكن يوماً يخلو منها وإذا أخذت من أصحابها جاءوا عاجلاً بجديد منها.

وذهب المساجين يهرعون إلى السور وينظرون من الشقوق بقلوب واجفة، وهم يعلمون أن نتروف لن يرتضي في هذه المرة أن يطرح أرضاً ليجلد، وأن خاتمة «الميجور» قد اقتربت، ولكنه في اللحظة الأخيرة وثب إلى مركبته ومضى تاركاً تنفيذ العقوبة لضابط آخر، فراح السجناء فيما بعد يقولون: «لم ينقذه من الهلاك إلا الله» وأما نتروف فقد تجلد للعقوبة بهدوء تام؛ لأن غيظه فتر عقب انصراف «الميجور» وسكنت ثورته.

وقد رأيت السجنين يطيع ويخضع إلى نقطة معينة. فإن هناك حدوداً لا ينبغي تجاوزها. ولا أحسب ثمة أغرب ولا أعجب من فورات الغضب في نفوس السجناء ونفاد صبرهم وتمردهم، فقد يظل أحدهم صبوراً عدة سنين مستسلماً متجلداً لأقسى العقوبات، ثم إذا به ينفجر فجأة لأمر صغير أو شيء تافه أو لا شيء يذكر، وقد يقال من وجهة نظر معينة إن جنوناً لا بد قد أصابه، وهو فعلاً ما يقوله الناس عنه.

وقد أسلفت عليك أنني لم أرتيلة الأعوام العدة التي قضيتها في السجن بادرة توحى بندامة أو تبكي ضمير في نفوس نزلائه. ولا شهدت أثراً للتفكير في الجريمة أو حزن وأسف على اقترافها. وإن أكثرهم يعتقدون في قرارة نفوسهم اعتقاداً تاماً أنهم كانوا محقين، وهذا هو الواقع، وليس ثمة شك في أن مرد هذا الاعتقاد في الغالب إلى الغرور والأسوة السيئة والمفاخرة الكاذبة أو «الخج» والتبجح، ولكن من جهة أخرى من ذا الذي يستطيع أن يقول إنه قد سبر أغوار هذه القلوب المضيفة وقرأ ما خفي فيها عن الناس

جميعًا، واطلع على ما استسر في أعماقها، وإن كان بلا شك ممكنًا خلال كل تلك السنين أن يدرك المرء شيئًا أو يكشف لمحات، تصلح شواهد على ما قد يعمل في تلك القلوب من ألم خفي وعذاب دفين، ولكن الواقع ليس كذلك على اليقين، والظاهر أن تعليل الإجرام من ناحية العرف والرأي المتواضع عليه، غير ممكن، وأن معرفة فلسفته أشق قليلًا مما يظن، وأن السجون والأشغال الشاقة بغير شك لا تصلح للمجرم وإنما تعاقبه، وتحمي الجماعة من تكرار العدوان على سلامتها وأمنها، ولكنها من ناحيته لا تزيده إلا حقدًا عليها، وكراهية لها، واشتهاء للذات المحرمة، ولا تأثير لديه غير الاستهتار المخيف، والاستخفاف المروّع، ولكنني مقتنع اقتناعًا جازمًا بأن الطريقة الممتدحة المقررة، وهي الحبس، لا تؤدي إلا إلى نتائج خاطئة خداعة ظاهرية؛ لأنها تستنزف عصارة الإنسان، وتزعج روحه وتوهنها وترعبها، ثم تقدمه إلينا «كمومياء» خلقية ذابلة، نصف بلهاء، على اعتبارها «نموذجًا» للكفارة والندامة والإصلاح. وما من ريب في أن المجرم المتمرد على الجماعة يكرهها ويكاد دائمًا يعد نفسه محقًا، والجماعة هي المخطئة، وقد تلقى أيضًا العقاب على يديها، وهو لهذا السبب يكاد يعد نفسه قد تطهر وأبرأ منها ذمته، وصفى معها حسابه، والواقع أن هناك وجهات نظر تكاد تحمل الإنسان على الشفع للمجرم وتبرير تصرفه، ولكن المرء رغم هذه الوجهات من الرأي وغيرها من الآراء لا يسعه إلا الاعتراف بأن هناك جرائم عدت في كل زمان ومكان، ومن بداية العالم، وفي جميع القوانين، جرائم لا خلاف عليها وستعد كذلك ما ظل البشر بشرًا، وإن كنت في السجن قد سمعت قصصًا عن أبشع الجرائم وأبعدها عن الطبيعة البشرية، قصصًا لأشنع جنایات القتل، تروى في وسط ضحكات استخفاف صبياني، ومرح

شديد، وقصف بالغ.

وإن أنس لا أنسى قصة قتل رجل لأبيه، وكان القاتل من أهل الطبقة الراقية، وفي خدمة الدولة، وولدًا في العشيرة «مدللًا» فكان سلوكه سيئًا، وكان يركض أفراس اللذات، ويستدين أينما ذهب، ويستلف من كل ناحية - وحاول أبوه وهو شيخ يسند في حدود الستين أن يرده عن غيه، ويكبح جماحه، وكانت له دار وضيعة صغيرة، وتذهب الظنون إلى أنه يملك كذلك مالا، فما كان من الفتى إلا أن قتل أباه طمعًا في إرثه، ولم تكتشف الجريمة إلا بعد انقضاء شهر على ارتكابها، فإن القاتل نفسه هو الذي أبلغ الشرطة أن أباه قد اختفى وأنه لا يدري أين ذهب. ومضى ينفق ذلك الشهر كله في شهوات عرمة ولهو بعيد المدى، ولكن الشرطة تمكنوا من العثور على جثة القاتل في غيبة القاتل، فقد رأوا في فناء البيت خندقًا يشقه شقًا لتصريف المياه القدرة، ووجدوا الخندق مغطى بالألواح، وما أن كشفوا الغطاء عنه حتى وقعت أعينهم على الجثة في جوفه، وكان القاتل في ثيابه وحسن بزته ورأسه الأشيب مفصول عن جسده، ولكن باقٍ في مكانه منه، وقد وضع القاتل وسادة تحته، ولم يعترف الجاني، وجرد من رتبته وحقوقه، وحكم عليه بالسجن والأشغال الشاقة عشرين عامًا. ورأيت طيلة الفترة التي قضيتها معه أشد الناس مزاحًا، وأكثرهم مجانة، وكان مخلوقًا غريبًا، خفيف العقل في مثل خفة الريش وإن لم يكن بالأحمق ولا بالأبله، ولم ألاحظ يومًا عليه أية قسوة تسترعي النظر، وكان السجناء يحثرونه لا لجرمه، لأن أحدًا لم يكن يذكره أو يشير إليه، بل لحمقه وشدوذ سلوكه، وكان في أحاديثه يذكر أحيانًا كثيرة أباه، وقال لي يومًا وهو يحدثني عن قوة البنية المتوارثة في أسرته: «إن أبي مثلًا لم يشك مرضًا إلى آخر حياته». ويبدو لي هذا الجمود الوحشي

في الشعور مستحيلًا، وهو «ظاهرة» في الواقع لا مجرد جريمة عادية، وإن انطوت على نقص في التكوين، وبشاعة في العقل والجسم، لم يهتد العلم إلى تحليل لها حتى اليوم. ولم أصدق قصة هذا المجرم بالطبع حين سمعتها، ولكن الذين جاءوا من المدينة ذاتها وعرفوا تاريخه بالتفصيل حدثوني عن الجريمة بحذافيرها. وكانت في الواقع من الواضح بحيث لا يسع المرء إلا تصديقها.

وقد سمعه المساجين في ذات ليلة يصرخ قائلاً: «امسكوه... امسكوه... اقطعوا رأسه.. رأسه.. رأسه..».

ويكاد السجناء جميعًا يهزون ويتكلمون في نومهم، وأغلب ما يجري على ألسنتهم في النوم شتائم وإيمان وكلام لصوص، وحديث مدي وسكاكين وبلطات وفؤوس، وقد ألفوا أن يقولوا: «إننا قوم خاسرون أخرجت من بطوننا أمعائنا، فنحن لهذا السبب نصرخ في الليل...».

ولم يكن الشغل الشاق أو المسخر عملاً يمتنه السجن أو محترفًا يحترفه، ولكنه طريقة إجبارية يؤديها، أو يشتغل الساعات المقررة عليه، ثم يعود إلى السجن، فكان السجناء ينظرون إلى الشغل بعين الكراهية، ولولا العمل الخاص الذي يشغل به نفسه، ويلقي إليه بكل باله، ويضع فيه جملة همه، لما استطاع العيش في السجن، وإلا فكيف يرتقب من أناس حشدوا هذا الحشد، وكانت لهم في الحياة تجارب، وأحبوا الدنيا، ورغبوا في العيش، ثم جيء بهم إلى هنا على كره، وانتزعوا من المجتمع والحياة العادية انتزاعًا، أن يعيشوا في هذا المحبس عيشًا منظمًا مألوفًا بمحض إرادتهم ومطلق اختيارهم...؟! إن الفراغ هنا من شأنه أن يحدث في نفس السجن نزعات إجرامية جديدة لم تكن تخطر بباله، وليس أحد بمستطيع أن يحيا بغير عمل،

ولا ملكية مشروعة، ولكنه يفسد ويغوى ويستحيل إلى حيوان أعجم، فلا عجب إذا راح كل إنسان في السجن بدافع التلهف وباعث البقاء، يلتمس صنعة خاصة، ويعتمد على شغلة معينة. وكان النهار في أشهر الصيف يكاد ينقضي كله في العمل الجبري، ولم يكن في الليل القصير متسع للنوم، أما في الشتاء فيغلق العنبر على السجناء إذا ما خيم الظلام، فأى عمل يمكن أن يؤديه في الساعات الطوال شتاء، وأي شاغل يشغله، ومن هنا رأينا رغم أوامر المنع وشدة الحظر كيف ينقلب كل سجن مصنعاً ضخماً، «وورشة» كبيرة، وليس العمل بممنوع رسمياً فيه. ولكن الممنوع بتاتاً أن يملك السجين في المحبس آلات وعدداً، ولا غنى في أي عمل عنها، ولكنهم يعملون خلصة، ويخيل لي أن أولي الأمر أحياناً يعضون الأعين ويتغاضون، وقد جاء خلق كثير إلى السجن وهم لا يعرفون شيئاً. ولكنهم تعلموا من غيرهم، ثم إذا هم يخرجون عند الإفراج عنهم صناعات برعة ماهرين، منهم الحذاؤون والأساكفة والحائكون والنجارون الدقيقون وصناع الأفقال ونقاشو الخشب والمذهبون، وكان من بينهم يهودي يدعى «إيساي بومشتاين» وهو جوهرى وصائع يشتغل بالرهن، وكانوا جميعاً يعملون ويكسبون ويتلقون تكليفاً بأعمال من الناس في المدينة، والمال هو كما تعلم «الحرية مسكوكة نقوداً» فهو أعلى عشرة أمثال قيمته عند السليب من الحرية المحروم منها، وما دام في جيب السجين نقود ترن فيه وتوسوس، فهو واجد فيها بعض العزاء وإن لم يستطع إنفاقها. ولكن الإنفاق ممكن في كل وقت وموضع، ثم لا تنس أيضاً أن الفاكهة المحرمة أحلى وأطيب وأعذب مطعماً ومذاقاً، بل في الإمكان الحصول على «الفودكا» في السجن. والتدخين في القصبات «الغليون» ممنوع بتاتاً. ولكن كلهم فيه يدخن، وقد أنقذهم المال والتبغ

من الاسقربوط وأمراض أخرى، وأنجاهم العمل من الإجرام، فلولا له لأكل بعضهم بعضًا كما تفعل العناكب الحبيسة في آنية من الزجاج، وإن كان العمل والمال ممنوعين، وقد يحدث تفتيش ليلاً من حين إلى آخر، وتضبط الممنوعات جميعاً وقد يبالغ السجناء في إخفاء المال، ولكن الذين يتولون التفتيش يكشفون أحياناً مخابئهم، وهذا هو بعض الأسباب التي تدعوهم إلى تبذيره في شرب الخمر، وتمنعهم من ادخاره، ومن هنا دخلت «الفودكا» السجن، وعقب كل تفتيش يتلقى الذين تضبط ممنوعات معهم عقوبة شديدة إلى جانب فقدانهم ما يملكونه، ولكنهم لا يلبثون أن يستعصوا عنه جديداً، ويمضوا فيما هم ماضون فيه، كأن لم يحدث شيء، ولا يخفى هذا على أولي الشأن، ولا يتبرم المساجين من هذه العقوبات ولا يتشكون، وإن كان العيش على هذا النحو كالمقام فوق فوهة البركان.

أما الذين لا يعرفون صنعة، فلا يعدمون شيئاً منها، وإن لهم فيها لوسائل تكاد تعد مبتكرة، فبعضهم مثلاً لا يشتغلون بغير الشراء والبيع، وهم أحياناً يبيعون سلعة لا يدور بخلد أحد خارج السجن أن يشتريها أو يبيعها، أو يعدها سلعة على الإطلاق، ولكن السجناء فقراء، فهم من شدة الفقر بارعو الحيلة، ولهم مقدرة كبيرة على الإتجار والتعامل، فإن الخرقه البالية لها ثمنها وقيمتها وحسابها، والأسعار في السجن تختلف، والقيم تتباين، وبعضهم يشتغل بالإقراض، ويمارس التسليف، ويصادفون فيه نجاحاً، فمن يسرف من السجناء أو يلازمه النحس يحمل آخر ما يملكه إلى المقرض، فيأخذ منه بضعة نقود نحاسية بفائدة مروعة، فإذا غلق الرهن أو لم يسدد المدين دينه، في الموعد المضروب لسداده، يبيع الشيء المرهون بغير تردد ولا إبطاء، ولا ملامة. وقد راج الرهن رواجاً جعل المقرضين يقبلون من الراهنين أشياء

لا يملكونها، بل هي من متاع السجن ومهماته ومعرضة للتفتيش عنها، كالثياب والأحذية وما إليها من الضروريات للسجين في كل وقت، ولكن هذه المعاملات قد تتخذ أحياناً اتجاهًا آخر ظاهرًا لا غرابة فيه ولا عجب منه، فقد يذهب الرهن بعد قبض النقود إلى كبير الجنود رأسًا ويبلغه نبأ ارتهان مهمات السجن، فلا يتوانى كبيرهم في استرجاعها من المقرض دون أن يرفع عن الحادث تقريرًا إلى السلطات العليا، والغريب ألا يعقب هذا الحادث شجار ولا تقوم معركة، بل يرد المقرض الشيء الرهن لديه في صمت ووجوم، ويبدو كأنما كان يتوقع ما وقع، بل قد يعترف بأنه لو كان في مكان الرهن لفعل هذا الذي فعله بالذات، فإن هو سب أو شتم بعد ذلك فلا حقد في صدره ولا ضغينة، بل لمجرد التنفيس عما به، والتخفيف من حرقة «الفصل» الذي جرى معه.

والواقع أن السجناء يسرق بعضهم بعضًا بصورة مروعة، ويكاد يكون لكل سجين صندوق له قفل ليحفظ فيه مهمات السجن وأمتعته، وهو أمر مسموح به، ولكن هذه الصناديق ليست في أمان، فإن من بينهم لصوصًا بارعين، ولست مبالغًا إذا قلت إن سجينًا منهم كان يلازمني مخلصًا، ويتصل بي متوددًا صادق المودة. سرق يومًا مني «الإنجيل» وهو الكتاب الأوحى الذي يسمح لنا به، وجاء في اليوم ذاته فاعترف بفعلته، لا عن ندامة، ولكن أسفًا لي على أنني قضيت وقتًا طويلاً في البحث عنه.

وقد رأيت سجناء أتجروا «بالفودكا» فلم يلبثوا أن أثروا وجمعوا مالا كثيرا، وسأتحدث عن هذه «الشغلة» تفصيلاً فيما سيلي من فصول هذا الكتاب، وهي ظاهرة عجيبة، ولكن الواقع أن من بينهم خلقًا كثيرًا حكم عليهم بالسجن للتهريب فلا عجب إذا دخلت الفودكا إليه رغم الحراسة

والإشراف والرقابة، وبهذه المناسبة أقول إن التهريب جريمة ذات طابع خاص. فهل يمكن أن تصدق أيها القارئ مثلاً أن الكسب منه أمر ثانوي عند فريق من المهربين فلا يحتل في خواطرهم المكان الأول. ولكن هناك أمثلة لهذا وأشباهها، فإن المهرب يشتغل بالتهريب عن ميل، أو عن شهوة مستأثرة، فهو من هذه الناحية «متفنن» يغامر بكل شيء، ويتعرض لأخطار رهيبة، ولكنه أخو خبث ودهاء، ويعرف كيف يراوغ، ويخرج من المآزق، ويشتغل أحياناً بنوع من الوحي والإلهام، حتى ليصح أن أقول إن التهريب «غية» أو شهوة لا تقل في شدتها عن «القمار»، وأعرف سجيناً ضخماً البدن، عظيم الجثة، ولكنه على فرط ضخامته يبدو الهادئ الرفيق، الوديع، حتى لا يكاد المرء يتصور كيف دخل مثله السجن، فقد كان من الوداعة والسلاسة إلى حد يصعب معه أن تتصور كيف لبث في السجن طويلاً، لم يشتجر مع أحد، ولم يختلف وزميلاً، ولكنه كان «مهرباً» انحدر من الحدود الغربية، فلم يستطع أن يقاوم النزوع إلى تهريب «الفودكا» إلى السجن، وكثيراً ما عوقب عليه، ولشد ما كان يرتاع من الجلد ويغرق منه رعباً، وكان يتلقى نظير الفودكا التي يهربها نقوداً تافهة لا تذكر؛ لأن التاجر الذي يصرفه هو وحده الكاسب منها، الرابح من تجارتها، ولكن صاحبنا العجيب كان يهوى الفن للفن، وكان بكاء كالنساء «عياطاً»، وكم من مرة عقب توقيع العقوبة عليه يقسم مغلظ الأقسام أنه لن يعود إلى التهريب، ولكنه كان في النهاية تتحطم إرادته، فيعاود... ومن هنا لم يكن السجن يوماً بفضل هذا السجين وأمثاله، يخلو من الخمر.

ولا يزال في الليمان مورد آخر للدخل لا يغني السجناء ولكنه مع ذلك لا ينقطع، بل هو أيضاً المرغوب فيه، المرحب به، وهو «الإحسان»، وأحسب

أهل الطبقة العليا في روسيا لا يدرون إلى أي مدى بعيد يعنى تجارنا وأرباب المهن لدينا، وفلاحونا بهؤلاء «التعساء» المناكيد، فلا يكاد البر بهم ينقطع فيضه، وهو يأتي عادة في صورة خبز وفطير ورغفان مستديرة أو كعك، وقلما يأتي مالا ونقودًا، ولولا هذا البر المتاح، لساءت حال السجناء في عدة جهات، ولا سيما الذين يودعون المحابس رهن التحقيق، وقيد المحاكمة، وهم عادة يعاملون أسوأ مما يعامل به السجناء عامة، ويوزع هذا الإحسان عليهم بدقة بالغة، فإذا لم تكف الأرغفة القوم بالسواء قطعت تقطيعاً عادلاً، قد يصل أحياناً إلى ستة أجزاء فيتناول كل سجين منها نصيبه.

ولا أزال أذكر أول مرة تلقيت فيها إحساناً، فقد كان ذلك عقب وصولي إلى السجن، إذ كنت عائداً من طريحة الصبح وحدي مع الحرس، فالتقينا على الطريق بأم وابنتها، وهي صبية في العاشرة مليحة في مثل براءة الملائكة. وكنت قد رأيتهما فيما قبل، وعرفت أن الأم أرملة جندي قضى زوجها نحبه في شرح الشباب بمستشفى السجن، بينما كان ينتظر المحاكمة، وكنت يومئذ في المستشفى ذاته مريضاً، وجاءت الأم وصبيتها تودعانه، فانتحبتنا أشد الانتحاب وبكتا ما شاء الله لهما البكاء، فلما رأته وأنا عائد من الشغل ذات صباح اصطبغ وجهها أرجواناً، وأسرت كلاماً لأمها. فإذا بالوالدة تقف بغتة عن المسير، وتتحسس حقيبتها، وتجد في جوفها قرشاً، وتدفع به إلى الصبية، فلم تلبث هذه أن عدت في أثري وصاحت بي قائلة: أيها الفقير خذ هذا القرش لله، وألقت بالدرهم في يدي، فتناولته من كفها وانطلقت عائدة إلى أمها فرحة راضية، وقد حافظت على ذلك القرش وقتاً طويلاً.

الفصل الثاني مشاهداتي الأولى

إن ذكرى الشهر الأول، أو الأيام الباكرة لعهدي بحياة السجن، تنهض الساعة أمام خيالي جليلة المعالم، بارزة الصورة، ولكن أعوامي الأخرى فيه تمرق في ذاكرتي معتمة، سريعة، قاتمة، وبعضها يلوح كأنما قد توارى بالحجاب، أو غرق وهوى في المؤخرة، أو كأنه قد ذاب وتلاشى جملة، تاركًا من ورائه أثرًا إجماليًا، أثرًا مرهقًا، بشعًا، خانقًا..

أما سائر ما بلوته في أيامي الأولى في سيبيريا فلا يزال حيًا اليوم، كأنه وقع أمس الدابر، وهذا شيء كان محتمًا أن يحدث.

وأذكر أن أهم ما وقع في خاطري من أول خطوة إلى السجن والعيش فيه، أنني سوف لا أجده شيئًا غريبًا، ولا غير مألوف، ولا غير منتظر، ويبدو لي أنني شهدت في خيالي لمحات منه، وأنا في طريقي إلى سيبيريا، وكنت أحاول أن أتمثل ما أنا في السجن ملاقيه، وما عسى أنا واجده، ولكنني لم ألبث

أن رأيت جملة من أغرب المفاجآت تطالعني، وأبشع الحقائق في انتظاري عند كل خطوة، ولم أدرك إلا بعد حين عندما قضيت ردحاً من الزمن في السجن، شذوذ هذا العيش وغبابته. وقد ظلت منه في عجب، ولبثت منه على الأيام في دهشة، فلا يسعني إلا أن أعترف بأن تلك الدهشة التي تولتني منه لم تتركني طيلة أعوامي العدة فيه، فلم أستطع إيلافه يوماً من الأيام، وكان أول أثر له عند دخولي الashمئزاز الشديد، والنفور المتناهي، وإن كان من الغريب أن أقول إن الحياة في السجن بدت لي أسهل كثيراً وأيسر مما كنت أتصورها وأنا في الطريق إليها، وكان السجناء مقيدين في الأصفاد، ولكنهم يروحون في السجن ويغدون أحراراً طلقاء، يتشائمون ويتسامرون ويغنون ويؤدون أعمالاً لحسابهم، ويدخنون ويشربون «الفودكا» أيضاً، وإن كان شاربوها أفضأ قليلاً، وبعضهم إذا جن الليل يلعبون الورق، وقد بدا لي «الشغل» مثلاً غير شاق، كما يوصف، ولا «عقابي» كما يقال، ولم أدرك إلا بعد وقت طويل أن مشقته وطبيعته «العقابية» ليستا في صعوبته واستمراره بغير انقطاع، بل هما بالحري في جبريته وإلزامه، وعنصر «السخرة» فيه، فإن الفلاح الطليق المستمتع بحريته أشق عملاً، وقد يسهر عليه طيلة الليل وبخاصة في فصل الصيف، ولكنه إنما يعمل لنفسه، ولتحقيق هدف معقول، يجعله أيسر كثيراً عليه مما هو على السجين الذي يؤدي عملاً إجبارياً لا نفع له إطلاقاً منه، ولا يفيد منه شيئاً لذاته، حتى لقد خطر لي أن المرء إذا أراد أن يحطم إنساناً «ويعدمه» العافية، وينزل به أهرب العقوبات ويشير في أشد القتلة وحشية أشد الرعب منه والفرق من تصوره قبل مواقته، فما عليه إلا أن يدفع إليه بعمل لا فائدة مطلقاً منه، ولا معنى له، ولا حكمة فيه، ولئن كانت الأشغال الشاقة الحالية متعبة للسجين خلواً من أية عائدة عليه، فلا

تزال في ذاتها كعمل معقولة، وإن السجين الذي يضرب الطول، ويصنع الآجر، ويحفر الحفر، وينقش الجدران، ويبني الأبنية، إنما يعطى عملاً له معنى، وشغلاً معقولاً، حتى ليزداد أحياناً به اهتماماً، وعليه إقبالاً، ويجتهد في الافتنان فيه، والبراعة في إنجازه، والسرعة في تأديته، ولكنه إذا أرغم على صب الماء من وعاء إلى آخر مراراً وتكراراً، أو دق رمل باستمرار، أو نقل أكوام من التراب من موضع إلى موضع سواه، فأكبر ظني أنه سيشنق نفسه بعد بضعة أيام أو يرتكب آلاف الجرائم، مؤثراً الموت على احتمال هذا الإذلال، والرضا بهذا الهوان، والتجلد لهذا التعذيب، إذ ليس ثمة شك في أن العقاب على هذا النحو تعذيب وضرب من الانتقام، بل هو أمر غير معقول لأنه يؤدي إلى هدف مفهوم، ولكن كل عمل إجباري لا يخلو حتماً من عنصر هذا التعذيب، أو شيء من هذا السخف، أو بعض هذا الإذلال والهوان، فلا عجب إذا كانت الأشغال الشاقة أشد إيلاماً من أي شغل حر، أو عمل اختياري، لمجرد أنه إلزام وتسخير وإجبار.

وكان دخولي السجن شتاء، في شهر ديسمبر، فلم تكن لدي عندئذ فكرة عن الأشغال في الصيف، وهي أشق خمسة أمثالها في الشتاء، حين يكون الشغل عادة قليلاً في سجننا. وقد أُلّف السجناء أن يذهبوا إلى ضفاف نهر «ارتيش» لتكسیر «صنادل» حكومية قديمة، أو العمل في الورش، أو جرف الجليد من الأبنية وصنع الرخام أو دقه، وكان الشغل لقصر نهار الشتاء ينتهي وشيخاً فنعود جميعاً باكراً إلى السجن فلا نؤدي عملاً إلا إذا كان لأحدنا شيء خاص منه يؤديه، ولعل الثلث منهم هم الذين يشغلون أنفسهم به، أما الباقون فيقطعون الوقت فارغين جائلين في جنبات السجن على غير هدى، أو متلاحمين يسب بعضهم بعضاً أو يدس زميل كيداً لزميله، أو يأخذون في

شجار أو يسكرون إذا بقيت لديهم فضلة من مال يشترون بها خمرًا، وعندما يدخل الليل يقامرون في حلقات الميسر بآخر قميص لهم وكل ذلك ونحوه من الملالة والبطالة والفراغ من العمل.

وقد تبين لي فيما بعد أن بجانب الحرمان من الحرية، والشغل المسخر عذابًا آخر في السجن أقسى وأشد من أي شيء سواه، وهو العيش المشترك، ولست أنكر أنه مشاهد في أماكن أخرى غير السجون، ولكن في المحبس أناسًا لا يستريح كل امرئ إلى عشرتهم، ولا يرضى المقام بين ظهرائهم، وإنى لعلى يقين أن كل سجين شعر بهذا التعذيب، وإن كان ذلك في أكثر الأحوال لا شعوريًا.

وبدا لي الطعام كافيًا نوعًا ما، وكان السجناء عادة يعلنون أنه ليس حسنًا إلى هذا الحد في الكتائب التأديبية بروسيا الغربية، ولكني لا أستطيع أن أحكم؛ لأنني لم أذهب إليها فضلًا عن أن خلقت كثيرًا منهم كانوا يحصلون على طعام خاص، فكان سعر الرطل من اللحم البقري نصف درهم، وفي الصيف بضعة مليمات، ولكن القادرين على شرائه هم وحدهم الذين أتوا مألًا، بينما يقتصر الأكثرون على الطعام الذي يقدم إليهم، وحين يمتدح السجناء هذا الغذاء يقصدون الخبز دون سواه، ويحمدون الله على أن صرفه لهم بالجملة لا بالأنصبة، ولا بالبطاقات، فإن توزيعه على الطريقة الأخيرة، أي كل ونصيبه يثير الوجل والرعب في نفوسهم. ولو أنه كان يوزع عليهم بالوزن ل بقي ثلثهم جوعًا ساغبين، ولكن التوزيع المشترك من شأنه أن يجعل لكل منهم قدرًا موفورًا منه، وكان خبزنا على الأخص طيبًا ذاعت شهرته في البلدة كلها، وكانت جودته تنسب إلى «الفرن» الناجح المقام في داخل السجن، ولكن حساء الكرب كان رديئًا تعافه النفس، فقد كان يطهى في

«قيزان» واحد، ويكتفّ قليلاً بشيء من البقل، وهو في أيام الشغل خاصة يبدو خفيفاً مائعاً كالماء، ولشد ما ارتعت لكثرة الصراصير فيه، وإن لم يلاحظها السجناء إطلاقاً.

ولم أذهب إلى الشغل طيلة الأيام الثلاثة الأولى فقد جرت العادة أن يترك السجن الجديد في راحة من وعشاء السفر، ولكنني ذهبت في اليوم الثاني لتغيير سلاسل، إذ لم تكن من النوع المقرر، فقد صنعت حلقات أو «جلاجل» كما كان السجناء يسمونها، وهي عادة توضع خارج الثياب، ولكن السلاسل المنصوص عنها في اللوائح والتي لا تمنع السجن من العمل ليست مصنوعة من الحلقات، بل من أربعة أسياخ من الحديد في مثل سمك الأغلة تربطها معاً ثلاث حلقات، وهي توضع تحت السراويل يشدها إلى الحلقة الوسطى رباط يمسك «بالقايش» أو الحزام الذي يضعه السجن لصق قميصه.

ولا أزال أتمثل أول صباح لي في السجن فقد انبعث من جانب مبنى الحراس القائم عند البوابة قرع الطبل إيذاناً بمطلع النهار، فلم تكد تمضي عشر دقائق حتى بدأ الجاويش المعين للخدمة «النوبتجي» بفتح أبواب «العنابر». وأخذنا نستيقظ ونغادر على بصيص القناديل مهادنا فوق الألواح ونحن نرعى من البرد، وكان أكثر المساجين صامتين واجمين لا يزال النعاس غالباً عليهم، وهم يتشاءبون، ويتمطون بأصلابهم، وتنغصن منهم الجباه الموصومة، وبعضهم يرسم علامة الصليب على صدورهم، والآخرين يشجعون، والرائحة تخنق الأنفاس، ولكن ما كادت الأبواب تفتح حتى دخل الهواء النقي الصبيح، وراح يغمر المكان، ويبدد الأبخرة، وازدحم المساجين حول الجرادل، وأخذوا بالتناوب يتناولون بالكوز ملء

أفواههم من الماء ويغسلون وجوههم وأيديهم مما في أفواههم منه، والعادة أن يجلب الماء في العشية السقاء أو «الباراشتك» في الدلاء، وتقضي اللوائح بأن يخصص في كل عنبر سجين يختاره الزملاء لتأدية هذا العمل لقاء إعفائه من الشغل، فيتولى تنظيف العنبر ومسح الأرضية الخشبية وتنسيق السرر والمهاد، وإحضار «جردل» الليل ودلوين آخرين من الماء النقي لغسل الوجوه في الصباح والشرب منه في سحابة النهار، فلا يكاد القوم يزدحمون حول الدلو حتى يأخذوا في الشجار على الكوز الأوحده الذي أمامهم إذ ليس لهم سواه.

ولما وقفنا على الماء متزاحمين، انطلق سجين طويل القوام غضوب ناحل أدكن البشرة، تلوح أورام غريبة في رأسه الحليق «الزلطة» يصيح وهو يدفع سجيناً آخر ربعة بديناً محمر الوجه ممراحاً، لينحيه عن مكانه: «إلى أين يا رأس الصرصار.. قف مكانك...».

ولكن الآخر صاح به: «وعلام هذا الصياح، ألا تدري أن الذي يجد مكاناً يدفع ثمن مكانه... هيا تقدم إن استطعت، ما باله يقف هكذا كالصنم، أيها الإخوان ما باله «كاللهو الخفي».

وأحدثت هذه الكلمة أثرها فضحك منها خلق كثير، وكان هذا هو كل ما أراده الرجل البدين الممرح، والظاهر أنه كان يقوم مجاناً بدور المضحك في وسط السجناء.

ونظر إليه العملاق بأشد السخرية والازدراء، ومضى يقول، وكأنه يتحدث إلى نفسه «يا خنزير.. لقد سمن على خبز السجن، وسيلد لنا قطيعاً من الخنازير على عيد الميلاد...».

واستولى الغضب أخيراً على البدين، فصاح فجأة وقد احمر وجهه:
«ولكن أنت.. أي طائر غريب تكون؟...».

قال: طائر وبس.

- من أي نوع؟

- هذا النوع..

- أي نوع هو؟..

- هذا النوع... وبس.

- أي نوع؟...

وتبادلا النظرات في غضب، وراح البدين ينتظر الجواب وهو يهز قبضتيه، كأنما يريد الدخول في شجار على الفور.

وكنت في الواقع أنتظر منهما أن يشتجرا، وأن العراك بلا ريب واقع، فقد كان الأمر جديداً عليّ، ومثار دهشة في نفسي، ولكنني تيقنت فيما بعد أن هذه المشاهد لا ضير مطلقاً منها، وإنها تقع كمهزلة للتسلية العامة، وقلما تؤدي إلى اشتجار، فهي بعض ما يبدو في السجن من مناظر ومناهج سلوك. ووقف العملاق هادئاً ذا جلال، وأحس أن القوم ينظرون إليه ويرتقبون هل يصعد بجواب يشين سمعته أو يحفظها عليه، وأن عليه أن يصونها ويبين أنه طائر حقاً وأي نوع من الطير هو.

ونظر إلى خصمه باحتقار صامت لا يبين، محاولاً الغض من قدره والمبالغة في الإزراء به، بالنظر إليه من فوق كتفه، كأنما يتفحص حشرة، وانشئ يقول برفق ووضوح: «من نوع الديك..» فقبل هذا الجواب منه

بقصف راعد من الضحكات.

وصاح السجين البدين: إنك لمجرم، وما أنت «بديك».

فقد أحس أن خصمه قد أزرى به فتار حنقه، واستولى الغضب عليه.

ولكن لم يكد الشجار يدخل مدخل الجد حتى بادر السجناء إلى تنحية كل منهما عن خصمه، وضح القوم في العنبر كله صائحين بهما «علام هذه الضجة» وانبرى أحدهم من ركن قصي يقول: «لخير لكما أن تشتجرا من بح الحلق بهذا الصراخ».

وقال آخر: أكبر ظني أنهما سيشتجران، إننا قوم شجعان طوال الألسنة، لا يخيفنا أن نجتمع على الواحد منا سبعة رجال.

وصاح ثالث قائلاً: «إنهما لرجلان طيبان، أحدهما جيء به من أجل رطل من الخبز. أما الآخر فشيمته لعق الصحون...».

وعندئذ أهاب الجندي الموكل بحفظ النظام داخل العنبر والمكلف بالنوم ليلاً فيه على فراش خاص أعد له في ناحية قصية منه، قائلاً: «كفى.. سكوئاً.. حسبكم...».

وصاح أحدهم: «هاتوا الماء يا أولاد... إن بتروفتش الكبير قد صحا من النوم. طاب صباحك يا بتروفتش، أيها الأخ العزيز...».

فتذمر الجندي ودس ذراعيه في دفء معطفه الساخن قائلاً: «أخ.. أخ حقاً.. وأنا الذي لم يشرب يوماً معكم بقرش واحد.. أنا لمثلك أخ؟».

وبدأت عملية التفتيش أو «التمام». وأخذ النهار يشرق بضياءه على الكون، واجتمع في المطبخ زحام منهم كثيف، وراح السجناء وهم في أقمصتهم الوبرية وقلانسهم الملونة يحيطون بالخبز الذي كان أحد الطهاة

يقطعه لهم، وكان المساجين هم الذين يختارون طهاتهم: طاهيين لكل مطبخ وفيه تقطع الخبز واللحم سكين واحد ليس أكثر.

وفي كل ركن، وحول الموائد كان السجناء بقلانسهم فوق رؤوسهم، وفرائهم على أجسادهم، وأنطقتهم مشدودة حول خصراتهم، قد استعدوا للخروج للشغل في الحال، وقد وضعت أمام بعضهم أقداح خشبية من الشاي يغمسون الخبز فيه ثم يرشفونه، وكانت الجلبة لا تطاق، وإن كان قوم منهم يتحدثون برفق وهدوء في أرجاء المكان.

قال فتى سجين وهو يجلس بجوار زميل متقدم في السن عابس ترمت أسنانه: «بالهناة والشفاء للشيخ أنطوفتش.. طاب نهاره..».

وأجاب هذا قائلاً: «طاب نهارك إن كنت في دعوتك صادقاً» ولبث معرضاً عنه لا يرفع بصره، ويحاول مضغ الخبز بلثته بعد أن خلا فمه من الأسنان.

وعاد الفتى يقول: «لقد ظننتك يا عم أنطوفتش ميتاً.. أي والله كنت أحسب أنك قد مت».

وأجاب الشيخ: «كلا... من يعرف فتموت أنت أولاً... وآتي أنا بعدك...».

ومضيت أجلس بجوارهما، وكان عن يميني سجينان لا يطرقان بعينيهما ولا يتحركان، وكل منهما يحاول في حديثه إلى صاحبه الحرص على كرامته وإيراز مكانته..

قال أحدهما: «لا خوف من أن يسرقوا مني شيئاً، بل لعل الفرصة أكثر مواتة لي فأسرق أنا منهم، لا هم مني».

وقال الآخر: «وإنني لزبون شائك أيضًا».

ورد الأول قائلاً: «أتراك كذلك..» إنك «رد سجون» عائد ككل أحد سواك هنا، هذا هو الوصف الذي يطلق علينا جميعاً.. إنها لتجردك من كل شيء ولا تقول لك شكرًا.. هذا هو الذي استنزف مالي يا أخي، لقد جاءني بنفسها منذ أيام ولكن أين كان ممكناً أن أذهب معها.. هل أذهب إلى دار «فيدكا» بها، إن له داراً في أقصى البلدة ابتاعها من اليهودي «إسكاي سولومون» الذي شنى نفسه بعد بيع داره.

وقال الآخر: «أعرف ذلك، وكان يبيع «الفودكا» هنا منذ ثلاثة أعوام وكنا ندعوه «جريشكا» أو «الحلة السوداء».. أنا عارفه».

وأجابه صاحبه وهو يحاوره: «كلا، لست تعرفه، الحلة السوداء كانت كنية رجل آخر».

قال رجل آخر: «أتدعي العلم الواسع... سأتيك بعدة شهود».

وقال محدثه: «تأتيني بشهود، من أين أتيت ومن تكون؟...».

قال: أتسألني من أنا.. لقد اعتدت أن أضربك بلا فخر ثم تسألني من أنا؟!!

- أنت ضربتني!.. لم يخلق بعد الذي يضربني... والذي فعل هو الآن تحت الثرى...

- أنت وباء جانح...

- طاعون سيبيريا «يشيلك»..

- سيف تركي يدخل في بطنك...

وتلت هذه الشتائم عاصفة من سباب.

وصاح بهما الذين من حولهما قائلين: «حسبكما... حسبكما... لقد عادا إلى ما كانا أبداً فيه، إن أمثالهما لا يتحملون العيش في ظلال الحرية، فليهنأهما أكل الخبز هنا..

ولم يلبث القوم أن أسكتوهما.

والسبب هنا مسموح به، فهو بمثابة «هز» الألسنة، ونوع من التسلية العامة إلى حد ما، ولكنه لا يترك حتى ينتهي بمعارك، وقلما يعترك الخصوم لأن المشاجرات تبلغ للضابط، ويعقبها تحقيق، ويأتي الضابط بنفسه، وينتهي الأمر بإيذاء المتضاربين جميعاً، فلا بدع إذا منعت، والواقع أن المراد بها هو تسلية القوم، وتجربة الملكات اللغوية، وكثيراً ما يخدع المتلاحمون أنفسهم، فيبدأون غضاباً محنقين حتى ليخيل للمرء أنهم سينقضون بعضهم على بعض في اللحظة التالية، ولكنهم لا يفعلون، وكل ما في الأمر أنهم يمشون في الشتائم إلى حد معين ثم يتباعدون متحين، ولشد ما كان هذا عجباً في نفسي أول الأمر، وقد أسلفت عليك أمثلة من ملاحاتهم وسبابهم، ولم أستطع في البداية أن أنصور كيف يتبادلون السباب على هذا النحو هازلين، وكيف يجدون فيه لهواً ورياضة ولذة، ولكن لا يصح أن ننسى غرورهم ومباهاتهم فإن البارع في السباب أو الشتائم المفتن محترم بينهم مرموق المكانة، يصفقون له كما يصفق للممثل المجيد.

وكنت قد لمست في الليلة الماضية أنهم جعلوا ينظرون إليّ شذراً، ولمحت في أعينهم فعلاً نظرات سوء حاقدة، ورأيت بعضهم يحيطون بي ظناً منهم أنني أحمل نقوداً، فراحوا يشيرون عليّ بالنصيحة، ويعلمونني كيف أفعل بالأغلال التي في قدمي، وجاءوني من أجل النقود طبعاً بصندوق له قفل لأضع فيه الأمتعة التي صرفت لي من السجن، وبعض الثياب الداخلية

التي أحضرتها معي، وفي اليوم التالي سرقوها مني واشتروا بها شرابًا، وأصبح أحدهم فيما بعد ملازمي لا يكاد يفارقني وهو المتودد المتلطف، وإن لم يكف يومًا عن سرقتي في كل فرصة مواتية، وكان يفعل ذلك بلا أدنى ارتباك، بفعله بغير شعور أو وعي، كأنما يؤدي واجبًا، فما كنت مستطيعًا أن أغضب منه أو أنافره.

وقيل لي فيما قيل إنه يصح لي أن أدبر الشاي لنفسي، وأنه يحسن بي أن أحصل على وعاء له، وراحوا يحضرون لي وعاء بالأجرة، وأشاروا عليَّ بأن أستعين: طاهيًا معينًا قائلين إنه لقاء ثلاثين كوبيكا في الشهر يستطيع أن يطهو لي أي شيء أريده، إذا أحببت أن أكل وحدي وأبتاع أغذيتي... واستقرضوني طبعًا، ومضى كل منهم يتقدم إليَّ يطلب قرضًا ثلاث مرات في اليوم الأول.

والعادة أن ينظر السجناء إلى «السادات» نظرة البغضاء والكراهية، ولئن كان الجميع محرومين من حقوق مراكزهم ومراتبهم في الحياة، وهم في السجن سواسية، فلا يزال المساجين عامة في معزل عن المتعلمين والسادات، ولا يعدونهم رفقاء لهم وزملاء وصحبًا، وليس هذا من جانبهم نفورًا مقصودًا أو عصبية واعية محسة، بل هو أمر يبدو اعتباطًا، ويلوح صادقًا غير متعمد ولا مقصود بالذات، فهم يحبون أن يعدونا سادات ليعيرونا بسقوطنا قائلين لنا «تجلدوا اليوم وذوقوا، لقد كان السيد منكم في موسكو يستقل المركبة كالأمير ولكنه هنا يجلس ويفتل الحبال...» وهذه واحدة من عديد السخریات وألوان العبث والتهكم بنا.

وكانوا يفرحون بمشهد آلامنا، وإن حاولنا إخفاءها عنهم، وكانت نوبات الشغل شاقة علينا؛ لأننا لم نؤت قوة بنائهم، ولا نستطيع الوفاء لهم

بكل ما يسألون من معونة وغياث، وما أحسب شيئاً أشق من الظفر بثقة الناس عامة، وأولئك الناس خاصة، ولا أصعب من كسب محبتهم.

وكان في السجن من أهل الطبقة العليا عدة أفراد، ومن بينهم أولاً خمسة أو ستة «بولنديين» وسأتحدث فيما بعد عنهم على حدة، وكان المساجين يكرهونهم خاصة، بل يولونهم من البغضاء أكثر مما يولونه للسادة الروس، وقد رأيت البولنديين - وأنا هنا أتحدث عن السجناء السياسيين منهم - مؤدبين في حق السجناء ولكنه أدب متعمد مصنوع خليط بإزاء، وهم من هذا الأدب معتزلون إلى حد بعيد، لا يتصلون منهم بأحد ولا يخالطون منهم مخلوقاً، ولا يواتيهم إخفاء كراهيتهم لهم، فكان هؤلاء يكيلون لهم بكيلهم، ويقابلون الكره بالكره.

وكان معنا في السجن أربعة غيري من الروس المتعلمين، أحدهم مخلوق صغير وضع «تلفان» يحترف الجاسوسية احترافاً، وكنت قد سمعت عنه قبل مجيئي، وقطعت كل صلة لي به من أيامي الأولى في السجن، وآخر هو الذي قتل أباه وأسلفت عليكم ذكره، وثالث يدعى أكييم أكيتمش وهو إنسان عجيب قلما رأيت مثله في حياتي، ولا تزال له ذكريات ماثلات في خيالي، فقد كان طويلاً نحيلًا غيبًا أمياً سمجاً مدققاً كالألمان، وكان من عادة المساجين الضحك منه والتهافت به، وإن كان بعضهم يخشى الاتصال به لشدة تدقيقه في تحري الأغلاط، والتماس المعاييب والهفات، وسرعة البادرة إلى الغضب والانفعال، وقد بدأهم من أول الأمر بالمهاجمة، فاشتجر معهم بل دخل في معارك، وإن كان أميناً صادقاً إلى حد بالغ، فإن رأى ظلمًا تدخل ليدفعه، وإن لم يكن عليه منه بأس وليس منه ضير، وكان ساذجاً صريحاً إلى أبعد حد، فإن اشتجر معهم صارحهم مليماً زاجراً بأنهم «لصوص» وسراق وإخوان

سوء، وراح يعظهم وينهاهم عن السرقة والاختلاس، وكان من قبل ضابطاً برتبة «الملازم» في القوقاز، فقال إنه بدأ طالباً في المدرسة الحربية، فضابطاً صغيراً في المشاة، ثم ظل على تلك الحال ردحاً طويلاً من الزمن حتى رقي في النهاية وعين قائداً في إحدى القلاع، وأقدم أحد رؤساء القبائل الموالية على إشعال النار في القلعة واقتحامها تحت جنح الليل، ولكن الاقتحام باء بالخيبة، وكان أكيم فطناً حذراً فلم يبد شيئاً يوحى بأنه عرف الفاعل، وعزا الهجوم إلى القبائل المعادية، وبعد شهر من الحادث دعا «أكيم» رئيس القبيلة الذي أقدم على تلك الفعللة إلى زيارة ودية فجاء بسلامة نية غير مستريب، وراح «أكيم» يصف سريته، ويثبت على الرجل جريمته، ويعنفه على مسمع من جنوده جميعاً، مبيناً له أنه من العار عليه أن يحرق القلاع، وانطلق يتحدث إليه في إسهاب عما ينبغي للزعماء المواليين أن يفعلوا، ويشرح له السلوك الذي يجب اتباعه في المستقبل، وفي النهاية أطلق عليه الرصاص، وأرسل في الحال تقريراً وافياً عن الإجراء الذي اتخذه إلى ولاية الشان، فأمروا بمحاكمته أمام مجلس عسكري، وحكم عليه بالموت، ولكن الحكم خفف إلى السجن في سيبيريا اثنتي عشرة سنة في القسم الثاني مع الأشغال الشاقة، وقد راح يعترف لي بأنه يدرك حق الإدراك أنه أخطأ في تصرفه، وجافى القانون بفعلته، وأنه كان يعرف ذلك أيضاً قبل أن يطلق الرصاص على زعيم القبيلة، ويعلم أن الموالي أو الحليف تجب محاكمته طبقاً للقانون، ولكنه رغم علمه بهذا لا يستطيع أن يرى وجه إدانته في ضوء المنطلق السليم.

وأنشأ يجيب عن اعتراضاتي «لست أدري والله أي ذنب جنيته.. ألم يحرق فعلاً قلعتي، أفكان منتظراً مني أن أشكره على إحراقها...».

وكان السجناء يحترمونه لتدقيقه ومقدرته العملية، وإن تضاحكوا منه

وسخروا، فما من صنعة يدوية إلا كان العليم بها، فكان نجارًا «دقيقًا» يصنع الدواليب، وإسكافًا يرقع النعال، وحذاء ونقاشًا ومذهبًا وصانع أقفال، وقد تعلم ذلك كله في السجن وتولى تعليم نفسه كل شيء، حسبه أن يلقي عليه نظرة ليعرف كيف يؤديه أو يصنعه، حتى لقد اعتاد أن يصنع الصناديق الصغيرة على اختلاف أنواعها، والسلال والمصاييح ودمى الأطفال ولعبهم، وكان يبيعها في المدينة، فعرف بذلك كيف يكسب قليلاً من المال، ولكنه جعل ينفقه عاجلاً في شراء مزيد من الثياب الداخلية، أو اقتناء وسادة ناعمة أو مرتبة «مطبقة» وكان ينزل في العنبر الذي نزلته، وكان كبير العون لي في الأيام الأولى من مدة سجنه.

وكانت العادة عند إخراج المساجين للشغل أن يصطفوا سماطين أمام مبنى الحرس، ومن أمامهم وخلفهم الجنود شاكي السلاح معمرى البنادق. ولم يلبث أن خرج إلينا ضابط من المهندسين ورئيس «الورشة» وعدد من «الأسطوات» الذين يتولون الإشراف على شغلنا، وراح رئيس العمال يقسمنا جماعات ويرسلنا إلى الجهات التي تحتاج إلينا.

وذهبت مع آخرين منا إلى ورشة الهندسة، وهي بناء حجري خفيض السقف قائم في حوش رحيب الجنات تكدست فيه الأدوات المختلفة والمواد المنوعة، فكان فيه مصنع «للمكبرية» وآخر لصنع الأقفال، وثالث للنجارة، ورابع للنقش وما إليها، وكان أكيم أكيمتش يجيء إلى هذا المصنع الأخير ليشغل فيه، فيغلي الزيت، ويخلط الألوان، ويلمع الموائد وغيرها من الأثاث، فتبدو صقيلة الأديم في مثل لون الجوز.

وبينما كنت أنتظر تغيير سلاسل، مضيت أتحدث إليه عن مشاهداتي الأولى في السجن والأشياء التي أثرت في نفسي.

قال: «نعم، إنهم لا يحبون السادات، وخاصة السياسيين منهم، ويودون لو ينقضون عليهم فيفترسونهم افتراسًا، ولا عجب فأنتم أولًا قوم مختلفون عنهم، ولا تنس أيضًا أنهم جميعًا عبيد أو جنود، فاحكم أنت بنفسك هل تتصور أن أمثالهم يحبونكم، اسمع مني أن الحياة هنا قاسية، وهي في الكتائب التأديبية أقسى واشقى، وبعض القوم هنا جاء منها، فلا غرابة إذا رأيت هؤلاء لا يكفون عن مديح هذا السجن، قائلين: إن النقلة إليه أشبه شيء بالانتقال من جهنم إلى الجنة، وليس الشغل هو المشكلة، فإن السلطات في القسم الأول كما يقال ليسوا جميعًا عسكريين وإن كان سلوكهم يختلف عما يشاهد هنا، وللمساجين فيه كما علمت أن يتخذوا بيوتًا صغيرة لمقامهم، ولم أكن يومًا هناك، ولكن هذا ما يقال لنا، وفيه لا يحلقون لهم رؤوسهم، ولا يلزمونهم ارتداء زي موحد، وإن كان من الخير عندنا هنا أن تُخلَق الرؤوس بالموسى ويُتخذ زي عام، ذلك أدنى إلى النظام، وأبهج للعين على كل حال، ولكن إخواننا هنا لا يحبون ذلك؛ وانظر أي طعام هنا وأي خليط من السوق، فواحد كانتوني^(١)، وآخر شركسي، وثالث من «المؤمنين القدامى»، ورابع فلاح أرثوذكسي ترك زوجته وأولاده الصغار الأعزاء وراءه في روسيا، وخامس يهودي، وسادس «نوري» أو من معاشر «الغجر»، وسابع لا يعلم إلا الله من يكون، وهم جميعًا ملزمون أن يعيشوا معًا، ويتألفوا بأية حال، ويأكلوا من وعاء واحد، ويناموا فوق سرير واحد، ولا شيء من الحرية يتاح لهم، فإن احتجت إلى رغيف زيادة أكلته حتمًا في خفية، وكل درهم أنت مضطر إلى إخفائه في حذائك، وليس أمامك غير

(١) أي من أبناء العساكر الذين ينشأون في مستعمرة حربية ويلزمون الخدمة في الجيش وهي فئة لم يبق منها الآن أحد.

السجن ومزيد منه، ولا سبيل لك من صون سمعك وعقلك عن سماع الكلام
الفارغ بجملة أنواعه وصنوفه....».

ولكنني كنت أعرف ذلك كله من قبل، وإنما كنت أريد أن أسأله خاصة
عن «الميجور»، وكان أكيـم صريحاً ليس شيء عنده بسر، وأذكر أن الأثر
الذي أحدثه في نفسي لم يكن طيباً من كل وجه، ولكنني كنت مضطراً أن
أعيش عامين تحت حكمه، وتبين لي أن كل ما قاله عن الميجور صحيح
من جميع نواحيه، مع فارق واحد، وهو أن التأثير الذي تحدثه الحقيقة أو
الواقع أقوى أمداً من التأثير الذي يحدث من الوصف والتصوير، فقد كان
الرجل مرعباً، وكانت سلطته من هذه الوجهة على مائتي نفس في السجن
لا تقف عند حد، وإن كان لا يعدو في ذاته رجلاً حقوداً غير منظم، لا أكثر
ولا أقل، وكان عيه الأول بل أكبر معاييه أنه كان ينظر إلى السجناء كأنهم
أعداؤه الطبيعيون، وقد أوتي في الواقع شيئاً من المقدرة، ولكن كل شيء
حسن فيه يبدو في صورة مشوهة؛ فهو سيئ المزاج حاد الطبع لا يقوى على
ضبط نفسه، حتى ليدخل أحياناً إذا جن الليل فيلمح سجيناً نائماً على جنبه
الأسير أو مستلقياً فيأبى إلا معاقبته في اليوم التالي، ويروح ناهراً يقول: «لا
بد من أن تنام على جنبك الأيمن كما أمرتك» فلا عجب إذا كان في السجن
مكروهاً يخشى منه كما يخشى من الوباء أو الطاعون. وكان وجهه يلوح
أحمر أرجوانياً متوحشاً، وكان كل إنسان يعرف أنه قد ترك عنانه في يد تابعه
«فيدكا»، فهو عليه المسيطر، وأحب شيء في العالم إليه هو كلبه الغزير الشعر
«تريزوركا» حتى لقد كاد يجن أسى عليه حين مرض، ويقال إنه جعل ينتحب
عليه كما لو كان ابنه، وطرده طبيباً بيطرياً وكاد يضر به على نحو ما كان يفعله
مع الآخرين، وسمع من تابعه «فيدكا» أن هناك سجيناً مدرّباً على معالجة

الحيوانات وبيطريًا ناجحًا في شفاؤها؛ فأرسل في الحال يطلبه، وما كاد يمثل بين يديه حتى صاح به: «أنقذني واشف تريزوركا... أغمرك ذهبًا...».

وكان الرجل فلاحًا من سييريا، وبيطريًا بارعًا في الواقع حاذقًا، وإن كان فلاحًا بكل معنى الكلمة.

وقد حدث السجناء بعد زيارته للميجور بوقت طويل حين نسيت القصة فقال نظرت إلى «تريزوركا»، فإذا الكلب راق فوق وسادة بيضاء على المتكأ، وتبين لي أن ما به لا يعدو التهابًا، وأنه لا بد من فصده إذا أريد حقًا شفاؤه، وجعلت أسائل نفسي ماذا ستكون الحال إذا لم يبرأ، بل ماذا سيحدث لو مات، فلم ألث أن قلت: يا سعادة المأمور، لقد دعوتني في وقت متأخر، ولو كنت دعوتني أمس أو اليوم الذي قبله، لاستطعت علاج الكلب مما به، ولكني الآن لا أستطيع...».

ومات الكلب.. فعلاً.

وسمعت قصة طويلة عن محاولة لاغتيال الميجور، فقد كان في السجن منذ عدة سنين سجين عرف بلطف معشره ورفق سلوكه. ولوحظ أيضًا عليه أنه قليل الكلام، وكان القوم ينظرون إليه نظرهم إلى امرئ غريب من الناحية الدينية، وكان يقرأ ويكتب، وكان في السنة الأخيرة له يعكف على قراءة الكتاب المقدس ليل نهار، ويصحو والناس نيام، في موهن الليل، فيضيء شمعة من شموع الكنائس، ويصعد فوق الفرن، ويفتح الإنجيل ويقرأ فيه إلى الصباح، وفي ذات يوم صعد وقال للجوايش إنه لن يذهب للشغل، وأبلغ النبأ للميجور فاستشاط غيظًا، جاء بنفسه مسرعًا، فرمى السجين نفسه فوقه وفي يده قطعة من حجارة كان قد أعدها من قبل، ولكنه أخطأ الهدف فقبض عليه وحوكم وعوقب.

جرى ذلك كله سريعاً ولم تنقض ثلاثة أيام حتى مات في المستشفى .
قال، وهو محضور: إنه لم يرد أحداً بأذى، وإنه كان يريد تعذيب نفسه
وتعريضها للألم.

ولم يكن الرجل متسبباً إلى أية طائفة دينية من الطوائف المخالفة أو
المعتزلة، وظلت ذكراه في السجن مقترنة بالاحترام.

وأخيراً غيروا لي السلاسل، وجاءت إلى الورشة بنات يعن أرغفة من
الخبز، وكان من بينهن فتيات وصبيات صغار، فلا يزلن يأتين إلى السجن بها
حتى يكبرن، وكانت أمهاتهن يخبزنها ويدفعن بها إليهن لبيعها، فإذا كبرن
جنن لا لبيع الرغفان، ويكاد هذا ينطبق عليهن جميعاً، وكان منهن أخريات
لم يعدن صغاراً. وكان الرغيف المستدير يباع بدرهمين، وكان المساجين
جميعاً أو إلا قليلاً منهم يشترون منهن.

وبدا لي أن أحدهم وهو نجار أشيب محمر الوجه يتسم لهن ويغازلهن،
وكان قبيل مجيئهن قد ربط منديلاً أحمر اللون حول عنقه، ودنت امرأة بدينة
من الفلاحات يشيع الجدري في وجهها فوضعت المشنة فوق «دِكتَه» .
وبدا بينهما الحديث.

قال وهو يتسم ابتسامة الراضي عن نفسه: «لماذا لم تظهري أمس...؟» .
قالت: لقد جنّت بالشرف، ولكنني لم أقع لك على أثر .
قال: كنت مطلوباً وإلا لكنت هنا بلا ريب ..

وفي اليوم الذي قبل البارحة جاءت «اللمة» كلها لتراني .

قالت: من اللاتي جنن؟

فأجابها بقوله: «جاءت مارياشكا، وجاءت هافروشكا، وجاءت

تشيكونده، واثنان من الفئة التي لا يتجاوز أجرها عشرة مليمات».

فسألت أكيم أكيمتش: «ما معنى هذا! هل هذا ممكن؟».

قال، وهو يغض من عينيه استحياء: «هذا هو ما يحدث». وكان الرجل أخا حياء وعفة.

وكان هذا فعلاً يحدث، ولكن نادرًا، ورغم ما يعتوره من صعب بالغة، وإن كان السجناء أكثر اهتمامًا بالشراب منهم مثلاً بهذا الضرب من اللهو، على فرط المشقة الطبيعية التي تقترب بنوع المعيشة التي يعيشونها مكرهين عليها مرغمين، فضلًا عن الصعاب التي يلاقونها في الحصول على النساء؛ لأن الأمر يتطلب تهيئة الزمان والمكان، والتدبير الضروري، وتحديد الموعد، والاهتداء إلى الخلوة، وهذا أشق شيء، كما يتطلب الأمر إرضاء الحراس وهو في ذاته صعب، والحاجة إلى إنفاق مبلغ من المبالغ كبير إذا راعينا حال المساجين.

وقد اتفق لي فيما بعد أن أكون أحيانًا شاهدًا لمناظر ومواقف غرامية من هذا القبيل، وأذكر أننا كنا ثلاثة جالسين في ذات يوم من أيام الصيف تحت سقيفة على ضفاف النهر نضرب «طوبا» في آلة لصنع الآجر، وكان حراسنا ليني العريكة طيبين، وإذا بفتاتين تظهران.

وانبرى السجين الذي جاءتا تريانه، وكان يرتقبهما من وقت طويل يحييهما على هذا النحو: «أين كتما كل هذا الدهر الطويل، أراهن أنكما كتما عند آل زفير كوف».

قال إحداهما بفرح: «أتراني قد أطلت الغياب.. ما أحسبني غبت أطول مما تغيب السواددة فوق الشاخص القائم للتسديد إليه...».

وكانت أقدر امرأة يتصورها الخاطر وهي التي تدعى تشيكونده، وأما الأخرى فكانت من فئة القرش أو العشرة المليمات، وهي في متناهى القبح بحيث لا تنعت ولا توصف.

ودار السجين الغزل بعينه إلى الأخرى فقال لها: «وأنت أيضاً لم أراك منذ عهد بعيد، ما بالي أراك قد نحلت؟».

قالت: «ربما، لقد كنت أبداً سميئة، ولكن الناظر يحسبني الآن قد بلعت إبرة...».

قال: أو لا تفارقين الجنود؟

قالت: كلا.. هذه أكذوبة حدثتك بها الألسنة الحداد، ولكن ماذا في هذا.. فلئن كنت نحيلة ككل خليعة أخرى فلن أتخلي عن الفتیان الجنود.

قال: اتركيهم وأحيينا.. إن لدينا نقوداً..

ولاستكمال الصورة لا تنس أن هذا الجريء كان سجيناً حليقاً يرتدي ثياباً مختلفة الألوان ويحرسه الجند، ويمشي مقيداً في السلاسل والأصفاد. واستأذنت من أكيمة أكيمة في العودة إلى العنبر، وانطلقت في رفقة الحارس فإذا السجناء قد بدأوا يعودون، وكان الذين يشتغلون بالقطعة أول العائدين، وكانت الوسيلة الوحيدة التي تجعل السجين يكاد في الشغل هو تكليفه العمل بالقطعة، وقد تخصص لهم أحياناً «طريحة» ضخمة فيؤدونها عادة في وقت أقصر مما يستغرقونه في الشغل باليوم؛ لأنه إذا أتم «طريحته» جاز له أن يعود دون عائق، أو دون أن يمنعه أحد.

ولا يأكل المساجين كلهم معاً، بل كلما جاء منهم جمع لم يجدوا أحياناً مكاناً لهم على الموائد في المطبخ، ورحت أجرب «الحساء» ولكني

عفته لأنني لم أعتده، ومضيت أصنع لي شايًا. وكنا نجلس في طرف المائدة أنا ورفيق لي من طبقتي الاجتماعية، وطفق السجناء يروحون ويغدون، ولا يزال المكان متسعًا لهم؛ لأن آخرين منهم لم يكونوا قد عادوا بعد، ورأيت خمسة منهم يجلسون معًا إلى المائدة المستطيلة، وجاء الطاهي فصب لهم في وعاءين حساء، ووضع على الخوان أمامهم صفحة ملأى بسمك مقلي، والظاهر أنهم كانوا يحتفلون بعيد أو نحوه ويأكلون طعامًا خاصًا، وكانوا يلقون نحونا نظرات نفور وكراهية، وجاء أحد البولنديين فجلس بجوارنا، وإذا بسجين فارح يدخل المطبخ ويدير عينيه في الجالسين جميعًا ويصيح قائلاً: لم أذهب بعد إلى العنبر، ولكنني أعرف الأخبار كلها.

وكان يلوح في الخمسين من العمر فاحلاً مفتول العضل، وعلى سحته شيء من دهاء يختلط بشيء من المرح، وأبرز شيء في معالم وجهه شفته السفلى، فقد كانت تبدو سميقة ممطوطة تحيل وجهه مضحكًا.

وراح يجلس بجانب الجمع الذين يتناولون طعامهم الخاص وأنشأ يقول لهم: «هل استمتعتم بليلة طيبة.. لماذا لا تقولون طاب صباحك، مرحبًا أصحابنا القادمين من كبرسك..».

قال قائلهم: لسنا من كبرسك يا أخي..

فعاد يقول: «إذن من بمتوف..».

قال: «ولا من بمتوف أيضًا، ولن تنال منا شيئًا يا صاح، اذهب اسأل فلاحًا غنيًا..».

قال: «إني أشعر بكرهة اليوم في بطني.. فأين فلاحكم الغني هذا وأين يعيش؟».

قالوا: «إن الجالس هناك، إنه فلاح غني.. فاذهب إليه..».

قال: إن «جازان» اليوم في قصف، إنه يشرب «بالقرش كله»..
وهنا قال آخر: إنه ليساوي اليوم عشرين روبلاً، إن بيع الفودكا يا أولاد
عملية رابحة.

وعاد السائل الملحاح يقول: ألا ترحبون بصديق، ليس أمامي إذن غير
العشاء «الميري».

قالوا: اذهب اطلب قليلاً من الشاي، إن لدى هؤلاء السادات رشفات
منه.

قال ذو الشفتين الممطوطتين: «أي والله ما أحب الشاي إلى نفسي،
ولكن أخجل أن أسألهم، إن لنا كبرياءنا وكرامتنا».
والتفت نحونا.

قلت: سأعطيك قليلاً منه إن أحببت، هل تحب شيئاً منه؟..
قال: أتسألني هل أحبه... أحبه أي نعم.. من غير كلام..
ودلف إلى الخوان.

وانبرى السجين العبوس الجهم يقول: في بلده يتناول حساء من نقيع
«الأحذية» ولكنه هنا تعلم كيف يستطيع الشاي ويريد أن يشربه شرب
السادات والغطاريف...

قلت: ألا يشرب هنا أحد شايًا؟

ولكنه لم ينزل إلى الرد على سؤالي.

وصاح أحدهم: وها هم أولاء يجلبون رغفاناً... ألا نأخذ نحن منها
رغيفاً؟.

وجيء بالأرغفة، ومضى سجين شاب يطوف بقدر وفير منها، وكان يبيعه في السجن، فقد اعتادت الخبازة أن تعطيه رغيفاً عن كل عشرة رغفان يبيعهما، فكان اعتماده على هذا الرغيف العاشر.

ودخل السجن منادياً على رغفانه وهو يصيح: «رغفاناً.. رغفاناً.. آتية من موسكو ولا تزال ساخنة، وأنا أكلها. أنا نفسي أكلها، ولكني لا أملك نقوداً. يا جدعان هذا هو الرغيف الباقي، ألا من يشتريه منكم لأجل خاطر أمه..

وأضحك هذا الاستنجد منه بالعاطفة البنوية السجناء جميعاً، فأقبلوا على شراء رغفان منه.

وانبرى الفتى يقول: «اسمعوا يا أولاد، إن «جازان» سيقع في المحذور حتماً إذا استمر على هذا الإلحاح على الشراب، والله لقد أساء اختيار الوقت لسكره، وأراهن على واحد لعشرة إن ذا الأعين الثمان سيطوف الآن للتفتيش».

وقال آخر: سيخفونه إذا جاء... أترأه سكران طافحاً..

وأجاب أحدهم: «يا دوب» إنه هائج يتحرش بكل من حوله.

وقال غيره: «سينتهي الأمر إلى خناقة».

وسألت البولندي الجالس بجواري: «عم تراهم يتحدثون؟...».

قال: عن «جازان» السجين الذي يتجر بالفودكا هنا، فهو كلما اقتصد مالا كافياً أنفقه في الشراب، وهو رجل حقود شكس قاس، فإذا أفاق فهو الهادئ الرفيق، وإنه ليهاجم القوم بالسكين إذا اشتد السكر به، وعندئذ يضطر القوم إلى كبحه.

- وكيف ذلك؟

- يرتمي بضعة عشر منهم عليه ثم يضربونه ضربًا بشعًا حتى يغمى عليه، أو يصبح نصف ميت، ثم يرقدونه في فراشه ويغطونه بفروة.
- ولكن قد يقتلونه.

- لو أن أحدًا غيره لقتل من زمن، إن له لقوة مروعة، بل هو أشد بأسًا من أي أحد هنا وأصح بنية، فإذا صحا في اليوم التالي بدا مفيقًا ليس عليه بأس.
ومضيت في أسئلتي للبولندي أقول: هلا نباتني، ما لي أراهم هنا يأكلون طعامًا خاصًا، ونحن كذلك نشرب شايًا في ناحية، ولكنهم ينظرون إلينا بحسد وحقد فما معنى هذا؟.

قال: لا من أجل الشاي الذي ترشفه، ولكن من النعمة عليك لأنك سيد مهذب ولست على شاكلتهم، وكثير منهم يودون لو يجدون سبيلًا إلى التحرش بك والاشتجار معك، وإهانتك وإذلالك، وسوف تلاقي هنا فصولًا أليمة، ووقائع لا تسرك، ونحن نقيم في حرج بالغ، والحياة في السجن أشق علينا مما هي عليهم، فلا غنى للمرء منا عن اتخاذ الفلسفة رياضة لنفسه، وعصمة لها من شرهم، وسوف نتلقى ألوانًا منه وأشكالًا لأنك تأكل طعامًا خاصًا وتشرب شايًا. وإن كان خلق كثير منهم يجدون من الطعام ما أنت واجده في أغلب الأحيان. ومن الشاي قليلًا لأن ما يجوز لهم لا ينبغي لك.

ونهض مبتعدًا عن المائدة.

ولم تمض بضع دقائق حتى تحققت كلماته...

الفصل الثالث

مشاهداتي الأولى

لم يكدم... ي، البولندي الذي كان يحدثني، يخرج من المطبخ، حتى دخل جازان مترنحاً وهو سكران منزوف.

وما أن رأيت هذا السجين ثملاً في رائعة النهار، ويوم شغل يقتضي من الجميع العمل، تحت إشراف ضابط قد يأتي إلى السجن في أية لحظة، وعلى عين الجاويش الذي لا يغادره، وبمشهد من الحراس القيام في كل مكان، ما أن رأيت على تلك الحال من السكر في وسط هذه الشدة العامة، والنظام المفروض، حتى تبلبلت كل الخواطر والأفكار التي بدأت تجتمع في ذهني عن الحياة في السجن، قبل أن يتواتى لي تحليل الوقائع والأحداث التي أحارتنني أشد الحيرة في الأيام الأولى من دخولي.

وقد أسلفت عليك أن المساجين لا يعدمون عملاً خاصاً يؤدونه، وإن مثل هذا العمل هو لهفة طبيعية تلازم الحياة في السجن، وقلت إن السجين إلى جانب هذه اللهفة يحب المال حباً جمّاً، ويستهتر به استهتاراً، ويغلبه على كل ما عداه، حتى لا يقل عن الحرية ذاتها في تقديره وولوعه، وإنه

ليطرب حين يسمع وسوسته ترن في جيبه، فإن أقفرت منه تخاذل، وابتأس، واضطرب، وتجهمت نفسه، وكدر خاطره، ولم يعد ثمة حائل يحول بينه وبين السرقة، أو اقتراف أي إثم، ولئن كان هذا هو شأن المال في السجن وغلاء قدره، فلا يزال سريع الزوال من كف السعيد الموفق إليه، أولاً لمشقة الاحتفاظ به من السرقة، وصيانتته من انتزاع المنتزعين، لأنه إذا اكتشفه «الميجور» خلال دورة التفتيش بادر إلى مصادرتة، ولعله منفقته في تحسين أغذية السجن وأطعمته ووسائل الترفيه فيه، ولكنه على أية حال ذاهب إليه، واقع تحت حوزته، وإن كان في الأغلب الأعم يستلب من السجن أو يسترق استراقاً، إذ ليس له في السجن أحد يستطيع الثقة به أو ائتمانه عليه.

وقد اكتشفنا فيما بعد سبيلاً إلى صيانتته وادخاره، حتى يبقى في مأمن من السارقين، وهو أن نوكل بحفظه سجيناً من المتدينين القدامى - أو معاشر المسيحيين المحافظين - جاءنا من «ستراودوبفسكي» وهو رجل ضئيل البدن أشيب في الستين، وكان أثره في نفسي بالغاً في اللحظة الأولى؛ لأنه لم يكن على شاكلة الآخرين، فإن في وجهه وملامحه شيئاً من هدوء ورفق، حتى لأذكر إنني كنت أشعر بسرور غريب كلما نظرت إلى عينيه الساجيتين الصريحتين تحيط بهما غضون دقيقة كالأشعة في الوميض، وكثيراً ما تحدثت إليه، ولا أحسبني لقيت في حياتي أحداً أكثر منه رفقاً ولا أحرَّ منه قلباً، وكان قد جاء إلى السجن لجريمة خطيرة، فقد حدث بين أبناء طائفته في إقليمهم أن فريقاً منهم اعتنق مذهب الكنيسة «الأرثوذكسية»، وشجعته الحكومة على هذه الردة عن طائفتهم، وبذلت جهوداً كبيرة في سبيل تحويل خلق كثير، فما كان من هذا الشيخ وبعض أهل العصبيّة من قومه إلا أن نهضوا نهضة رجل واحد للذود عن العقيدة كما يقول، وكان

أصحاب الردة قد ابتنوا كنيسة أرثوذكسية في الولاية فأشعلوا فيها النيران حتى أنت عليها، وحكم على الرجل بتهمة التحريض على الحريق بعقوبة الأشغال الشاقة، وكان تاجرًا حسن الحال، فترك من خلفه زوجًا وأطفالًا، ولكنه أقبل على المنفى شجاعًا بأسلًا؛ لأنه من هوسه الديني عد العقاب «استشهادًا» في سبيل «العقيدة»؛ ولم يكن يسع المرء عقب قضاء فترة معه إلا أن يسائل نفسه: كيف أمكن أن يكون مثل هذا الشيخ الحليم الوديع كالحمل، متمردًا ثائرًا. وقد تحدثت إليه عدة مرات عن «العقيدة» فلم يشأ أن ينحرف عن رأيه قيد أنملة، وإن لم يبد في أجوبته وردوده أثرًا لغضب أو حقد، وهو الذي هدم كنيسة ولم ينكر أنه الهادم، وتبين لي من حديثه أنه يعد ما فعله والعذاب الذي أصابه عملاً مجيدًا باهرًا، ولكنني على فرط دراستي له ومراقبتي لأحواله، لم ألمح أقل أثر في نفسه لزهو أو غرور، وكان في السجن من أهل طائفته أفراد آخرون أغلبهم من سيبيريا، وهم قوم أصحاب علم واسع، وفلاحون أذكىاء درسوا الكتاب المقدس حق دراسته، وتشبثوا بكل حرف فيه، وتمسكوا بالفاظه، وهم جدليون منطقة إخوان دهاء وخيلاء وهجامون شديدي العصبية لا يعرفون سماحة، ولكن الشيخ كان من طراز آخر، ولعله كان أكثر منهم علمًا وأوسع اطلاعًا، ولكنه يتحاشى الجدل، ويجنب نفسه اللجاجة، وينزع إلى الاتصال بالناس والتحدث إليهم والامتزاج بهم، وكان ممرحًا ضحوكًا، ولكن ضحكته لم تكن كضحكات السجناء خشنة جافة مستهترة، بل ضحكة رفيقة صريحة في مثل براءة الولدان وسذاجة ضحكهم، وهي بهذه البراءة موائمة لشعره الأشيب؛ وإني ليخيل لي - وقد أكون مخطئًا - أنك تستطيع أن تعرف الإنسان من ضحكته، فإن أرضتك ضحكاته قبل أن تعرف عنه شيئًا، فلك أن تقول عن ثقة واطمئنان

إنه رجل خير وفضل، ولئن كان هذا الشيخ قد اكتسب احترام الجميع في السجن، فلم يدخل هذا الاحترام على نفسه يوماً شيئاً من الزهو، ولا آثار لديه أدنى غرور، وقد اعتاد السجناء أن يدعوه «يا جد» وتحاشوا شتمه أو نبيله بمسيئة أو إضرار، وأكاد أتصور أي نفوذ كان حتماً له في أبناء طائفته، وأي سلطان لمثله على نفوسهم، ولئن أوتي شجاعة صادقة وجلداً لا يداخل المرء شك فيه على احتمال عقوبته، فقد كان في أعماق قلبه حزن بالغ لا سبيل إلى العزاء عنه، بل حزن يحاول إخفاءه عن الجميع. وكنت أقيم معه في «عنبر» واحد، ففي ذات ليلة صحوت في الثالثة من الصبح على صوت نحيب هادئ وبكاء كظيم، وإذا بي أبصر الشيخ جالساً فوق الموقدة ذاتها التي اعتاد ذلك السجن العاكف على قراءة الإنجيل والذي ألقى حجراً على الميجور، يصلي لله ويخلد إلى العبادة، وكان الشيخ كذلك يصلي وقد نشر الكتاب المقدس بين يديه، وسمعته خلال نحيبه يضرع إلى الله قائلاً: «رب، لا تتخل عني، ربي ألهمني من لدنك قوة، أواه... يا أطفال الصغار الأعزاء... لن أراكم آخر الحياة...».

ولست أستطيع أن أصف مدى الحزن الذي استمكن مني.

وإلى ذلك الشيخ بدأ أكثر المساجين شيئاً فشيئاً يسلمون المال، خيفة عليه أن يسرق أو يصادر، ليتولى صيانتهم، ويعنى بالمحافظة عليه، وكانت جمهرتهم لصوصاً ولكن لم يلبث الإيمان بأمانة الشيخ أن راج فجأةً ولسبب ما يقوى لديهم، وعرفوا أنه كان يخفي المال الموكل به في مكان مجهول لا يمكن أن يهتدي أحد إليه، وجاءنا يوماً أنا وبعض البولنديين يشرح لنا السر. قال: إن على أحد الأعمدة القائمة فوق السياج فرعاً يلوح لاصقاً من الشجرة بجذعها غائب الجذور فيه، ولكن في الإمكان اقتلعه، فإذا اقتلع

انكشف عن تجويف غائر في الخشب، فكان الشيخ الذي يناديه المساجين «بالجد» يخفي المال في هذه الثغرة، ثم يعيد الفرع إلى موضعه فلا يستطيع أحد أن يعرف شيئاً.

ولكنني أخشى أن أكون قد «شطحت» عن سياق قصتي... ولكنني أردت أن أبين لماذا لم يكن المال يبقى طويلاً في جيوب المساجين، فإن الحياة في السجن - بغض النظر عن مشقة إبقائه - حياة مكتئبة موحشة، والسجين بفطرته ملهوف على الحرية، هائج الشوق إليها، وهو من مركزه الاجتماعي المستهتر غير المكترث، فلا عجب إذا فتته الرغبة في الترويح عن نفسه بأي سبيل، والظفر بالذات حيث يجدها، وإنفاق كل ما يملكه في القصف وسط الضوضاء والأنغام لكي ينسى بؤسه ويزيل اكتابه ولو لحظة عابرة، وإن المرء ليعجب لفريق منهم كيف يعكف على العمل بغير انقطاع عدة أشهر لينفق كل ما كسبه خلالها في يوم واحد، لا يذر منه شيئاً ثم يعود فيقضي شهوراً أخرى ريثما تنتابه النوبة من جديد فيأتي على ما كسبه جميعاً... وهكذا دواليك.

وقد رأيت منهم خلقاً كثيراً قد أولعوا بشراء ثياب جديدة لم تكن يوماً من ملابس السجن ولا من طرازها، بين سراويل سود تختلف عن «البذلات» وأردية و«جاكتات»؛ وكان الإقبال أيضاً شديداً على الأقمصة القطنية المرصعة بأزرار معدنية، وكانوا يلبسون أحسن ثيابهم في الأعياد ويطوفون العنابر ليشهدوا الآخرين على ما اقتنوا، ويعرضوا على الأنظار حالاتهم القشبية. وكان ولوعهم بالثياب الجميلة وفرحهم بالبزات الجديدة أشبه شيء بفرح الأولاد بها واغبتابهم بالظهور على الناس في رونقها الجميل؛ وليس في هذا عجب فإن المساجين في أمور كثيرة أطفال، ولكن

هذه الأشياء الجميلة لا تلبث كأن ترهن أحياناً أو تباع بالبخس أو «تراب» الفلوس في الليلة ذاتها.

أما البدار إلى الشراب فيحدث رويداً، والعادة أن يرجأ حتى يحل عيد، أو ذكرى ميلاد، فيضع السجين شمعة أمام صورة العذراء - الأيقونة - وينهض من فراشه للصلاة ثم يرتدي أحسن ثيابه ويعد غذاءً طيباً، فيشتري لحماً وسمكاً وتُصنع له فطائر مما ألف أهل سيبيريا اصطناعه ويقبل على الطعام كالثور، وقلما يدعو إليه أصحابه إلى مقاسمته. ثم تعرض «الفودكا» فيشرب بطل الساعة، كأنه المولى العظيم، ثم ينطلق طائفاً أرجاء السجن نشوان مترنحاً، محاولاً إظهار سكره للقوم، وعربدته، ليستحق الاحترام العام؛ فإن معاشر الروس يحسون في كل مكان شيئاً من العطف على السكران، أما في السجن فهو أبداً المرموق الموقر الكاسب العطف. وللسجن عادات وتقاليد معينة بسبيل الأفراح، والأعياد ومناسبات القصف والمراح، فلا يعدم السجين الفرح القاصف استئجار الموسيقى ليوم عيده، ففي السجن «بولندي» قزم كان جندياً هارباً من الجيش وأخا شر ونكراً، وهو بالعزف على القيثارة خبير، ولديه أداة منها هي كل ما يملكه من حطام الدنيا، والعزف عليها هو كل مُحترفه، ومورد كسبه فهو يعزف قطعاً مرقصة صخابة للسجناء المحتفلين بأعيادهم، وعليه أن يتبع السجين السكران الذي استأجره من عنبر إلى آخر عازفاً على قيثاره بكل قوته؛ وكثيراً ما تلوح على وجهه أمارات الملل والإجهاد، فلا تلبث الأصوات أن ترتفع صائحة به «اضرب»، ألسنت مأجوراً!... فلا يملك غير المضي في عزفه، وأما السجين فهو أبداً مطمئن إذا أخذ في السكر إلى رعاية الزملاء له إذا طفق ونزف من الشراب لبه، واثق أنهم سيرقدونه على فراشه، أو يخفونه عن أولياء الشأن إذا قدموا فجأة، غير

ملتمسين منه على ما هم صانعوه جزاء، وفي وسع الجاويش وكبار الجنود الحراس الذين يقيمون في السجن للمحافظة على النظام، أن يطمئنونهم أيضًا؛ لأن السجين الثمل لن يحدث أي اضطراب وزملاءه سيرعونه، وإن هو أثار ضجة أو عربد بادروا إلى قمعه أو شد وثاقه، وهكذا جعل صغار المشرفين في السجن يغضون الأبصار عن السكر ولا يحبون الانتباه إليه، ويعرفون أن الحال سوف يسوء إذا منعت «الفودكا» عن السجناء.

وكانت «الفودكا» تشتري في السجن من أفراد فيه يسمون «الخمارين» وهم كثير، وقد وفقوا في هذه التجارة المستمرة بغير انقطاع، وإن ظل عدد الذين يشربون ويمرحون يسيرًا لأن الشراب والقصف يقتضيان مالا، والمال في السجن عزيز، أو صعب المنال.

ويبدأ أولئك «الخمارون» تجارتهم بوسيلة مبتكرة في الواقع، ولنفرض أن سجينًا لا يحذق حرفة، ولا يعرف مهنة، ولا يحب أن يجهد نفسه في عمل معين، وفي السجن من أمثاله كثير ولكنه يريد الظفر بشيء من المال وهو في طلبه المتعجل النافذ الصبر، فإن هذا السجين إذا كانت لديه فضلة منه اعتزم الإتجار «بالفودكا»، وهو مشروع جريء بالغ الخطر منطوي على كثير من المغامرة، فقد يدفع الثمن بظهره سياطًا وعصيًا وتصادر سلعته ويفقد ماله وما جمعه، ولكنه مع ذلك لا يتردد في الإقدام، ولا يبالي المجازفة، فيبدأ «الخمار» منهم تجارتهم بقليل من المال ويقوم نفسه بتهريب الخمر ويتولى وحده تصريفها فينتفع بالعملية دون شريك، ثم يكررها مثنى وثلاث، فإن لم يضبط أسرع في بيع المخزن لديه ويروح ينشئ تجارة واسعة النطاق، وعندئذ يصبح صاحب مشروع أو متعهدًا أو رب رأس مال، فيستعين على تجارته بالوكلاء والأعوان وتقل عندئذ أخطار المغامرة، وينمو ماله على الأيام

ويعرض مساعدوه أنفسهم للخطر دونه.

وفي السجن قوم بددوا كل ما ملكت أيديهم في الميسر والخمر وهم مخلوقات شقية، وأناس بائسون، لا حرفة لهم ولا صنعة ولكنهم أوتوا قدرًا من الشجاعة والجسارة والإقدام، ولا يملك الرجل منهم غير ظهره، وهو لا يزال له نفعه عنده وقيمته، لأنه لا يلبث أن يستعينه على الكسب، فيذهب إلى «الخمار» ويعرض عليه خدماته في سبيل تهريب «الفودكا» له، ولهذا رأينا للخمارين عدة صنائع وأعوان، ولديه خارج السجن جندي أو عامل أو في بعض الأحيان امرأة، يتولى عنه لقاء جُعل لا بأس به شراء «الفودكا» من إحدى الحانات بمال التاجر ونقوده ويخبئها في مكان ما على الطريق الذي يسلكه السجناء عند خروجهم للشغل. ولا يتشني الوسيط في هذه الصفقة يومًا عن اختبار مدى جودة «الفودكا» قبل الشراء، ثم يخلطها بالماء ويترك للسجين التاجر أمر قبولها أو رفضها: وليس هذا في مركز الحر الطليق الذي يملئ شروطه، فهو مكره على الرضا بما يقدم إليه، بل هو على كل حال شاكر إن أصاب الخمر من طريق وسيطه، مهما يسوء نوعها لأنه على الأقل لم يفقد ماله بجملته.

ويتولى التاجر تعريف الوسيط بأعوانه وصنائعه، فيذهب إليه هؤلاء «بكرش ثور» بعد تنظيفه وملئه ماء ليظل لينًا رخوًا حتى توضع «الفودكا» فيه، ثم يتناوله السجين المساعد فيلفه حول خاصرته ليخفيه عن الأنظار، ولا يخفى أن هذه العملية تقتضي من المهرب كل البراعة وتحتاج منه إلى كل دهائه وحيطته لأن الأمر يتصل بكرامته، ويتطلب منه مخادعة الحراس والديدبان، وهو فعلاً القدير على تضليلهم وخداعهم لأن الحارس في الغالب جندي جديد «خام» لا يداني اللص البارع في ذكائه وخبئه، وليس

من شك في ضرورة دراسة أخلاقه ومدى انتباهه ومبلغ حذره قبل ممارسته التهريب، كما ينبغي للمهرب البحث في الوقت المناسب للعمل والمكان المضروب له، وقد يكون السجين المستعان على التهريب مطلوبًا منه أن ييني «فرنًا» فإذا شوهده وهو يتسلقه، فمن ذا الذي يدري ما غرضه من التسلق أو يعرف ما هدفه، وليس منتظرًا من الحارس أن يصعد في أثره، فإذا عاد إلى السجن من مكان العمل دس في يده خمسة عشر أو عشرين «كوبيكًا» لوقت الحاجة، و ينتظر «الأونباشي» عند البوابة، وهذا الجندي هو الذي يفتش كل سجين عند عودته إلى السجن ويتحسس قبل فتح الباب لدخوله. ويعتمد المهرب عادة على تردد الجندي في تحسس بدنه والاستقصاء في فحصه لكي يزوغ بما حملة حول خاصرته، ولكن الجندي الحذر أحيانًا لا يتساهل أو لا «يصهين» ويدقق الفحص فيكشف الخمر المخبوءة، وعندئذ لا يبقى أمام السجين غير مغافلة حارسه ودس النقود بهدوء في كف الجندي وكان قد أعدها في راحته، وبفضل هذه المناورة يوفق السجين في تهريب «الفودكا» ودخول السجن بها، ولكن هذه الطريقة قد تفشل أحيانًا أخرى وعندئذ ليس أمامه غير دفع الثمن بظهره، والاستهداف للجلد؛ لأن الأمر يرفع إلى الميجور فيأمر بجلده والقسوة بالعصا عليه، وتصادر «الفودكا» منه، فيتحمل المساعد الغرم ولا ينم عن الزميل الذي استعانه، لا لكرهيته للنميمة، ولكن لمجرد أن النميمة في هذه الحال لا تجدي؛ لأنه سيجلد حتمًا سواء تكلم أو لم يتكلم، وإذا وجد بعض العزاء في تعريض صاحب المال للجلد أيضًا، فلا يزال يحتاج إليه مرة أخرى، ومن الحكمة ألا ينم عنه، وتقضي تقاليد السجن والاتفاق السابق بالألّا يتقاضى المساعد من مستأجره شيئًا من التعويض عن جلده، وإن كانت النميمة شائعة في السجن مألوفة،

فإن السجين الذي ينقلب خائناً «نمأماً» على إخوانه لا يتعرض لتحقير ولا يتلقى امتهاناً ولا إذلالاً، أو لا يخطر ببال أحد منهم النقمة منه أو الغضب عليه أو الانصراف عنه أو تحاميه، بل يقبلون على مودته، ويتحببون إليه، ولو حاولت أن تبين لهم مذمة الخيانة ونكرها لما فهموا ما تعنيه، ولا أدركوا مرادك، فقد كان السجين الذي قطعت علاقتي به لحقارته وخسته وفساد سيرته صديقاً «لفيدكا» تابع الميجور يتودد إليه بالتجسس على المساجين، فكان هذا التابع يبلغ سيده كل ما يسمعه منه، وكنا جميعاً نعرف الأمر ولكن لم يدر يوماً بخلد أحد منا أن نعاقبه أو نوجه لوماً إليه.

ولكني «شطحت»...

وأعود الآن إلى سياق حديثي.

قلت: إن النجاح يصادف المهربين أحياناً فإذا استطاع الأجير الدخول بالخمير تناولها «الخمارة» ودفع الثمن وأخذ في حساب التكاليف، وقد يبدو له أنه أنفق كثيراً، وأنه لا معدى له عن زيادة أرباحه بتخفيفها مرة أخرى وخلطها بالماء. وقد يضيف جنة عليها مثل وزنها أو نحوه، ثم يستعد «للزبائن»، وقد «يطب» زبون منهم في أول عيد بعد وصول «الفودكا» أو في يوم عمل عقب جهد شاق بذله بضعة أشهر كان يكد خلالها كالثور ويقتصد في قروشه لينفقها جميعاً في يوم واحد فكر من قبل فيه، وحدده لنفسه ولبث طويلاً يداعب خاطره، ويتراءى له في أحلامه ليلاً، أو في أحلام يقظته نهاراً وهو ماضٍ في عمله، تبقى فتنتها على روحه، ويبعث خيالها النشاط في نفسه خلال حياة السجن اليومية، والعيش الجهم المألوف بين جدرانها فإذا جاء اليوم الموعود وانبثق فجر الأمانى من الشرق، والمال مدخر لم يستلب منه ولم يسرق، مضى به إلى الخمار، فيبدأ هذا بإعطائه خمراً نقية ما أمكن، أي

مغشوشة مرتين ليس أكثر، فإذا أخذت الزجاجة تتناقص ملاءها في كل مرة ماء، وتقاضاه عن كل كأس خمسة أو ستة أضعاف ثمنها في الحانة، فتصور كم تكون الكؤوس التي لا غنى للشارب عنها من هذه الخمر الخليطة بالماء حتى يصل إلى حد السكر منها، وكم يدفع في سبيل معاقبتها؟.. ولكن السجين لانقطاعه عن الشراب وقتًا طويلاً لم يعد يألفها، فلا يلبث بالطبع أن يسكر منها، ثم يواصل السكر عادة حتى يستنفد ماله كله، فيخرج ما ابتاعه من ثياب جديدة فيشرب بها لأن الخمار يقبل الرهون أيضاً، بادئاً بقبول الحديد والقشيب ثم الأسمال والأخلاق ثم ملابس السجن في النهاية، فإذا ما شرب السجين بكل شيء في حوزته، إلى آخر خرقة كانت لديه استلقى لينام، وفي غداة اليوم التالي استيقظ مخموراً مصدوعاً يكاد رأسه ينشق من الخمار الذي ينتهي به السكر حتماً، فيذهب إلى الخمار متوسلاً إليه أن يعطيه رشقة من الفودكا كدواء من الخمر بالخمر، ويظل بعد ذلك محزوناً أسفاً محتملاً بأساءه، ويبدأ من يومه بالكد ويعود إلى العمل عاكفاً عليه عدة أشهر أخرى متحسراً على يوم اللذات الذي أضاعه ويوم الشراب الذي ذهب غائباً في جوف الأبد، مترقباً بروح متجدد، يوماً مماثلاً في هناءته ومراحه، يوماً سيأتي في حينه وإن لاح له بعيداً.

أما صاحبنا «الخمار» فهو بعد الظفر بمبلغ كبير من المال، أو عشرات الروبلات يعد «الفودكا» للمرة الأخيرة غير مضيف إليها شيئاً من الماء لأنه يريد هذه المرة لنفسه مكتفياً بما باعه منها، وقد حان له أن يستمتع باللذة كذلك، وعندئذ يبدأ القصف والشراب والطعام وتشنيف الآذان بسماع الأنغام والألحان، ويروح أيضاً بما في وسعه من الوسائل يرقق قلوب صغار المستخدمين في السجن من حراس وأجناد، وقد تستمر هذه الحفلات

عدة أيام فلا يلبث الخمر التي أعدها أن تنفذ فلا يجد أمامه غير الخمارين الآخرين، وهم مرتقبوه من البداية فيبتاع خمرًا منهم ويخلد إلى الشرب حتى يضيع آخر درهم معه، وأحيانًا يقع نظر أحد من أولياء الشأن في السجن عليه وهو سكران، كالمأمور أو الضابط «المنوب» مهما يبالغ السجناء في إخفاء أمره، فيساق إلى مبنى الحرس فيجرد من نقوده إن بقي لديه شيء منها، ثم يجلد في النهاية ويقوم من الجلد فينهر نفسه ويعود إلى السجن، ثم لا تمضي بضعة أيام حتى يعاود الإتجار بالفودكا كما فعل أول مرة.

وبعض السجناء، من المفاريح وإخوان اللذات، «وأهل الحظ» وهم بالطبع الأغنياء، يشتهون النساء، وتذهب نفوسهم حشرات في أثرهن شوقاً ولهفة، وهم أحياناً برشوة طيبة للحراس الذين يرافقونهم في روحاتهم إلى الشغل وغدواتهم، يؤخذون سرّاً إلى مكان ما في البلدة بدلاً من الذهاب إلى العمل، ولا تخلو البلدة من دار صغيرة منعزلة في أقصى الجهات منها، يقوم فيها القصف على قدم وساق، وتبدد فيها الأموال تبديداً. والعادة أن يتخير السجين الذي يريد اللذة ويتغنى هذا الضرب منها، الحارس السمع العليم بهذه الشئون ونحوها، فيسبر أولاً غوره، ويطمئن مقدماً إليه، والمألوف أن يكون أمثال هذا الحارس وإخوانه «مرشحين» أنفسهم لعقوبة السجن، دالفين إليه غير عابئين بالمصير، فإن في المال إغراء، والسجين موفور الكرامة إذا جمع شيئاً منه، وأغلب الظن أن هذه «الرحلات» إلى النساء تبقى سرّاً لا يعرفه أحد ولكنها والحق يقال نادرة الوقوع لكثرة المال الذي تقتضيه ولأن للمستهترين باللذة الجنسية وسائل أخرى آمنة من الخطر.

ولم أكد أقضي عدة أيام في السجن حتى أثار دهشتي خاصة سجين شاب على قسط كبير من الملاحاة يدعى «سير وتكين»، فقد كان مخلوقاً غريباً

من عدة وجوه أو «لغزاً» مستغلّقاً على الأذهان، وقد بدھني منه قبل كل شيء وجهه المتسم ومحياه الجميل، وأحسبه لم يجاوز الثالثة والعشرين، وكان ينزل في «القسم المخصوص» أي إنه كان من السجناء المؤبدين أو بمعنى آخر إنه كان من أسوأ المساجين الحربيين. ووجه العجب منه أنه كان يلوح لطيفاً خفيفاً يقل من الكلام، ويندر أن يضحك، وله عينان زرقاوان، وقسمات جميلة، وصفحة رقيقة البشرة، وشعر أشقر. وكان من الملاحه بحيث لا يكاد رأسه الحليق يشوه حسنه، أو يفسد عليه صباحته، ولم يكن يعرف حرفة، ولا يتقن صنعة، ولكنه كان أحياناً يملك مالاً، على قلته، وكان يبدو مكسلاً بليداً، غير معني بشيابه، ولكن بعضهم أحياناً كان يعطيه ثوباً نظيفاً ليرتديه، كقميص أحمر فيسر ويتهيج بهذه الثياب الخليفة عليه، ويمشي في السجن مرحاً ليبدو بها على الأعين، ولم يكن يشرب أو يقامر، ولا أكاد أذكر أنه اشتجر يوماً مع أحد، وإنما كانت عادته أن يتمشى خلف بناء السجن واضعاً يديه في جيبيه هادئاً حالماً مسترسلاً مع أخيلته، وإن لم يدر أحد فيم كانت أحلامه، وإلى أين كان يذهب به خياله، فإذا ناداه إنسان في بعض الأحيان من الفضول ووجه إليه سؤالاً، أجاب في الحال وباحترام لا بلهجة السجين وقحته، وإن جاءت ردوده عادة قصاراً لا تفصح عن شيء كثير. وراح ينظر إلى سائله نظرة طفل في العاشرة، وإذا كان لديه شيء من المال لم يتبع به شيئاً ضرورياً له كإصلاح رداء أو شراء حذاء وإنما مضى يشتري أرغفة أو كعكاً من زنجيل، وأكب عليها يأكلها كما يفعل الصبي الذي يناهز الحول السابع، وقد سمعت السجناء أحياناً يقولون له «يا لك من يتيم يا سير وتكين مقطوع» يائس^(١) وقد ألف في غير ساعات العمل أن يهيم على وجهه في جنبات السجن، بغير عمل يؤديه وإن كان أكثر السجناء فيه منهمكين، فإن

(١) من لفظة «سيروتا» ومعناها البيتيم، فهي تورية من اسمه «سير وتكين» - الناقل.

قبلت له نكتة أو مزحة ساخرة، وكثيرًا ما كان هو وزملاؤه في القسم عرضة للنكات والأمازيح، دار بعينه وانطلق إلى عنبر آخر صامتًا لا يحير جوابًا، وأحيانًا يصطبغ وجهه أرجوانًا، إذا كانت النكتة قاسية أو المزاح ثقيلًا، وكثيرًا ما جعلت أسائل خاطري من العجب، كيف جاء إلى السجن مخلوق هادئ كهذا، سليم النية طيب القلب. واتفق لي يومًا وأنا في مستشفى السجن مريض أن ألتقي به، وكان هو كذلك معتلًا، وجاء سريره بجوار سريري فبدأنا في ذات مساء نتجاذب أطراف الحديث. فلم يلبث أن تحمس ومضى عرضًا يحدثني كيف أخذ كجندي وكيف انتحبت أمه وهم آخذوه، وكيف لقي الضر والعذاب في أيام جنديته، وقال إنه لم يطق لها احتمالًا لأنه كان يجد القسوة والشدة والإيلام من كل أحد وأن الضباط جميعًا كانوا له كارهين.

قلت: وكيف انتهت تلك الأيام، وما الذي جاء بك إلى هنا وفي القسم المخصوص أيضًا.. لك الله يا سيروتكين!

قال: لم أفض في الكتبية غير عام واحد يا ألكسندر بتروفتش، وجئت إلى هنا لأنني قتلت قائدي..

قلت: سمعت هذا يا سيروتكين ولكني لا أصدقك، كيف يمكن أن تقتل أحدًا؟...

قال: هذا ما حدث يا ألكسندر بتروفتش، لقد كنت في شقاء أليم، ويأس شديد.

قلت: وماذا يفعل المستجدون الآخرون؟ إن الأمر طبعًا في أوله صعب ولكنهم لا يلبثون أن يألفوه، وفي النهاية يصبحون جنودًا بارعين، فلا بد من أن تكون أمك قد أفسدتك بكثرة التدليل، وطفقت تغذيك لبنًا وأطياب حتى

بلغت الثامنة عشرة.

قال: حقاً لقد كانت أُمِّي تحبني كثيراً، وقد عكفت في فراشها حين أخذوني إلى الجندية، وقد سمعت أنها لم تنهض من سريرها من ذلك الحين.. وكانت الحياة جد مريرة أيام جنديتي، وكان الضابط يكرهني ولا ينقطع عن عقابي.. وعلام كان العقاب؟ فقد ظللت مستسلماً لكل إنسان، مثابراً على كل شيء، لا أذوق «الفودكا» ولا أضعف أمام العادات، لأن الاستسلام للعادات السيئة كما تعلم يا أليكسندر بترفش وخيم المغبة؛ ورأيت غلظة القلب غامرة محيطة بي من كل ناحية، حتى لم أكن أجد فرصة للخلوة والبكاء والاستسلام للنحيب، فإن المرء أحياناً ينتبذ مكاناً قصياً ليكي، ففي ذات مرة أقاموني ليلاً على الحراسة «ديدباناً» بجوار غرفة السلاح، وكان الريح عاصفاً، ونحن في الخريف، والليل بهيم، فاستولى على خاطري حزن شديد ويأس بالغ، فأوقفت بندقيتي على الأرض وألقيت الرمح جانباً، وخلعت الحذاء الأيمن وسددت الفوهة إلى صدري ثم انحيت عليها، وبأصبع قدمي الصغيرة شددت الزناد ولكن الرصاص لم ينطلق، ففحصت البندقية ونظفت الماسورة، ووضعت في «الخزنة» باروداً جديداً، وقدحت الحجر، وعدت أصوب الفوهة إلى صدري، فما قولك في أن البارود اشتعل ولكن القذيفة لم تنبعث؛ فرحت من فرط العجب أسأل نفسي: ما سر ذلك وما معناه؟ وانتعلت الحذاء وركبت الرمح ورحت أمشي ذهاباً وجيئة صامتاً لا أنبس، وعندئذ انتويت أن أفعل ما فعلته، دون أن أعبا بأي مكان ألجأ إليه للفرار من ذلك الموضع ولم يكد ينقضي نصف ساعة حتى جاء الضابط ممتطياً جواده لجولة التفتيش وتقدم نحوي رأساً يقول لي: «أهذه هي الطريقة المتبعة في تأدية واجب الديدبان؟» فتناولت البندقية في كفي وطعته بالرمح المركب

عليها في بطنه حتى نفذ النصل فيه إلى المقبض، وكانت النتيجة أنني قطعت أربعة آلاف ميل لأجيء إلى هنا تنفيذاً لحكم مؤبداً...».

ولم يكذب، وإلا فما عسى أن يكون جرمه ما دام الحكم مؤبداً؟؟ لأن الجرائم الأخرى يعاقب عليها بأحكام أخف من هذا الحكم وأقل صرامة.

ولكن سيروتكين كان الفتى المليح الأواحد بين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة «المؤبدة»، أما الآخرون الذين صدرت عليهم هذه الأحكام ذاتها وهم قرابة خمسة عشر سجيناً، فإن مشهدهم أليم، والنظر إليهم لا يسر أحداً، إلا اثنين أو ثلاثة منهم لا يزال شكلهم «مبلوغاً» أو أقل قبحاً، فقد كان الباقون قبائح السحنات قذري الشكل طوال الآذان، وبعضهم شيب كبار السن. ولعلي واصف هذه الفئة من المساجين فيما سيلي من فصول هذا الكتاب.

وكثيراً ما رأيت سيروتكين متودداً للسجين «جازان» الذي حدثتك عنه في صدر هذا الفصل، ووصفت لك كيف دخل المطبخ مترنحاً من فرط الشراب وكيف ذهب بسلوكه كل ما كنت من قبل أتصوره لحياة السجن وبيئته.

فقد كان «جازان» هذا مخلوقاً شنيعاً، رهيب الأثر في نفس كل إنسان، ولا أحسبني رأيت يوماً حيواناً أشد وحشية وافتراساً منه، وقد رأيت في «توبولسك» الشقي «كاينيف» المشهور بالصوصية، وأبصرت من بعده «سوكولوف» الجندي الهارب الذي حوكم لكثرة الجرائم التي اقترفها ولكن أحداً منهما لم يحدث في نفسي الأثر البشع الذي أحدثه «جازان». حتى لقد كان يخيل لي أحياناً أنني إزاء «عنكبوت» ضخم في حجم الإنسان وجنته، وكان «تترياً» ذا بأس مخيف، بل أشد بأساً من السجناء جميعاً، وهو

أطول من زلعة وكأنه هرقل في شكله وصورته، وله رأس قبيح المنظر غير متناسب الأجزاء، ومشيته مسترخية، ونظراته عابسة من تحت حاجبيه، وكانت تدور في السجن حوله إشاعات غريبة، فقليل إنه كان جنديًا فيما مضى، ولكن السجناء كانوا يقولون فيما بينهم - ولست أدري مدى ما في قولهم من الحقيقة - إنه كان سجينًا ثم فر من سجن «نوشتسك»، وإنه أرسل أكثر من مرة إلى سيبيريا، ففر أكثر من مرة منها، فجاء به أخيرًا إلى سجننا بحكم مؤبد. وقيل أيضًا إنه كان مولعًا بقتل الأطفال الصغار لمجرد المتعة بقتلهم، وكانت عادته أن يغري الطفل بالذهاب معه إلى مكان قفر ثم يبدأ بتخويله وتغذيه حتى إذا أشبع شهوته، واستمتع كل الاستمتاع بمشهد فريسته الصغيرة الراعشة الملتاعة، قتل الطفل بمدية قتلة بطيئة، وهو العامد المتمتع الفرح بفعلته.

وقد يكون هذا كله اختلاقًا عليه بسبب القهر الذي كان «جازان» يحدثه في نفوس الجميع، ولكن هذه الروايات كلها كانت ملائمة لمثله، متفقة مع قبح شكله، وبشاعة منظره، وإن كان سلوكه في السجن إذا صحا من السكر، أو لم يعاقر الخمر، لا غبار عليه. فهو أبدًا هادئ لا يشتجر مع أحد، ويتجنب المعارك وإن كان تحاميه لها يرجع فيما يلوح إلى احتقار السجناء، كأنه أرفع منهم شأواً، وكان قليل الكلام، يعتمد الحذر والتحفظ والاحتياط، وكانت كل حركاته هادئة تنم عن قصد واعتداد بالذات، وتوحي عيناه بشدة ذكائه، وتناهي مكره، وإن بدت على سحته، وفي ابتسامته، سمات السخرية والعجرفة والشموخ والقسوة، وكان يتجر «بالفودكا» ومن أغنى تجارها في السجن ولكنه يسكر منها نحو مرتين في السنة، وعندئذ تظهر عليه وحشية طبعه فيبدأ قبل الانتشاء والثمل، بمهاجمة الناس بالنكات الساخرة وأفحش

الأمازيخ، وأشدّها حقّداً، وأبلغها أذى مما يكون قد أطال التفكير فيه وأعدّه إعداداً، فإذا سكر ولعبت الخمر بعقله دخل في دور الهياج الأعمى، والحقن المجنون حتى لينتزع مطواة ويعدو في أثر الناس بها. فكان السجناء لطول معرفتهم بشدّة بأسه ومرهوب قوته يفرون من وجهه التماساً للنجاة منه، فلا يني يسقط على أي إنسان يلتقي به ولكنهم لا يلبثون أن يهتدوا إلى وسيلة لكبح جماحه وإحكام الرقابة عليه، فينقض عليه فجأة بضعة عشر سجيناً من رفقائه في العنبر دفعة واحدة ويهوون عليه ضرباً ولكمّا بقسوة لا يمكن أن يتصورها أحد، نازلين بالضربات الموجعة على صدره وقلبه وبطنه، وهكذا يلحون في أذيته وقتاً طويلاً، فلا يكفون عنه إلا إذا فقد وعيه وانطرح جثة هامدة، ولا يمكن أن يضربوا أحداً سواه بمثل تلك القسوة لأنهم بها مهلكوه، ولكن هيهات أن يهلك منها «جازان» أو يقضي من أثرها نحبّه، فإذا ما هدأ وسكن على هذا النحو غطوه «بفروّة» وحملوه إلى فراشه، قائلين: «إنه سينام غير متذكر شيئاً مما جرى»، والواقع أنه ينهض في الصباح لا عليه من أذى ويذهب، إلى الشغل صامتاً عابساً مربداً. وكان كلما سكر لم يبق في السجن أحد إلا وهو الواثق أن اليوم سينتهي حتماً بضربه، وكان يعرف ذلك ويصر على السكر.

ومضى الحال على هذا النحو عدة سنين، ثم تبين أخيراً أنه قد بدأ ينهار وتضمحل قواه، وأخذ يشكو من أوجاع مختلفة، وأكثر من الذهاب إلى المستشفى لما بدا عليه من ضعف متزايد على الأيام، حتى راح السجناء يقولون فيما بينهم: إن «الانهيار» قد حل به...

وجاء إلى المطهى يتبعه ذلك البولندي القزم الخبيث بقيثاره، وهو الموسيقار الذي اعتاد «أهل الحظ» استئجاره تشاهياً في القصف والمرح،

فوقف في بهوة القاعة صامتاً يدير عينيه في الوجوه البادية من حوله، وكان الصمت مخيماً على القوم جميعاً، فلما لمحني أنا وزميلي نظر إلينا نظرة حقد وسخرية ثم ابتسم ابتسامة الراضي عن نفسه، وبدأ كأنه قد خطر له شيء ما فدلف متثاقلاً نحونا.

قال بالروسية: «من أين أنيتما بالمال الكفيل بهذه الطرفة الصغيرة... هل لي أن أسأل؟».

فتبادلنا النظرات ونحن صامتان، إذ أدركنا أنه من الخير أن نمسك عن الكلام فلا نجيب عن سؤاله لأنه قد يستشيط غيظاً إذا نحن تناقضنا في الرد عليه.

ومضى يسألنا قائلاً: «إنكما إذن تملكان مالاً.. أليس الأمر كذلك... ومالاً كثيراً... آه، هل أنيتما إلى السجن لتشربا الشاي؟.. تكلما.. لعنة الله عليكما...».

ولما رأى أننا قد اعتزمنا أن نخلد إلى الصمت ولا نأبه به احمر وجهه واهتز غضباً، وكانت بقرب موقفه في الركن «صينية» كبيرة توضع عليها كسرات الخبز المقطع لغداء السجناء أو عشائهم، وكانت من السعة بحيث تكفي لحمل خبز نصف السجن، ولكنها كانت في تلك اللحظة فارغة منه فاحتملها بكلتا يديه ورفعها فوقنا، وقد هم بأن يحطم بها رأسينا وتلك جريمة قتل أو محاولة اغتيال تهدد السجن كله بتتائج سيئة، وعواقب جد وخيمة لما يتبعها من تحقيقات وتفتيش وشدة بالغة، فلا عجب إذا حاول السجناء جهدهم ألا يدعوا الأمور تصل إلى هذا الحد، ولكنهم رغم ذلك التزموا في هذه المرة الصمت والهدوء، وقنعوا بالنظر والترقب، فلم يقل أحد منهم كلمة دفاع عنا، ولا صاح امرؤ منهم بجازان أن يكف عما هو هامٌّ

به، من فرط كراهيتهم لنا، بل لعلهم أحسوا سرورًا بهذا الخطر المحدق بنا. ولكن الحادث مر بخير إذ صاح أحدهم من الردهة به وهو يهيم بإلقاء الصينية علينا «الحق يا جازان... الفودكا قد سُرقت!» فلم يلبث أن ترك الصينية تسقط على الأرض فتتهشم بددًا، واندفع كالمجنون من المطبخ لا يلوي على شيء، وانثنى السجناء يقولون فيما بينهم: «لقد نجاهم الله!».

وظلوا يرددون هذه الكلمات فيما بعد، ولم أستطع أن أتبين عقب الحادث هل كان نبأ الفودكا المسروقة صحيحًا، أم تراه اختلق اختلاقًا في تلك اللحظة لإنقاذنا.

وفي المساء بعد الغسق وقبل إغلاق العنبر رحت أمشي حول السياج، فلم ألبث أن شعرت باكتئاب غامر يتتابني، وهو اكتئاب لم أشعر بمثله مرة أخرى طيلة مقامي في السجن.

إن اليوم الأول، سواء في السجن أو في القلعة أو في سيبيريا عصيب لا يحتمل، أليم لا يطاق، ولكنني أذكر أن ما شغلني أكثر من أي شيء سواه كان خطرًا ظل يطالعي بشبحه أبدًا ويمثل لي كمشكلة لا سبيل إلى حلها ولا أزال إلى اليوم غير مهتد إلى حل لها، وهذا الخاطر هو أن العقوبات على الجريمة الواحدة لا تتكافأ ولا تتعادل، ولست أنكر ألا سبيل إلى المقارنة بين الجرائم، ولو بالتقريب، فمثلاً قد يرتكب جريمتا قتل وعندئذ توزن الظروف المحيطة بكل جريمة منها وتقدر، وتكاد العقوبة في الحالين تكون واحدة، ولكن انظر إلى الفرق بين الجريمتين فقد يكون أحدهما قد ارتكب القتل لا لشيء أو لبصلة، كأن يلتقي على الطريق بفلاح فيقتله ثم لا يعثر معه على شيء سواها، فينقلب إلى أبيه فيقول: «أبت، انظر ماذا حدث، لقد أرسلتني لآتي بغنيمة فقتلت فلاحًا ولم أجد معه غير هذه «البصلة»» وعندئذ يصيح

أبوه به قائلاً: أيها الأحمق! لا تساوي البصلة إلا درهماً... أي إذا قتلت مائة نفس فأصبحت مائة بصلة فكأنك لم تصب إلا «روبلاً واحداً»!، «قصة تلوكها الألسنة في السجن». أما الآخر فيقتل طاغية حرم الشهوة دفاعاً عن شرف خطيبته أو أخته أو ابنته، بينما يقتل ثالث انطلق لاجئاً طالباً النجاة من الأسر، فإذا بجمع من المقتفين المتعقبين لأثره يحيطون به ليمنعوه من المسير في وجهه، فيكون القتل في هذه الحال دفاعاً عن حريته، وحياته وقد يموت في الغالب من شدة الجوع والتعب، ورابع يقتل الأطفال لذة في القتل واستمتاعاً بالدم الحار يمس يديه، ولهواً بمشهد عذابهم، وآخر رفرقة كاليمامة بجناحيها تحت السكين، ومع ذلك كله نرى أولئك القتلة يرسلون إلى السجن بأحكام واحدة وهي الأشغال الشاقة.

ولست أنكر أن هناك تفاوتاً في مدد الأحكام طويلاً وقصراً ولكن هذا التفاوت قليل نسبياً مع كثرة نواحي التفاوت في أنواع الجرائم وصورها، وتختلف الفروق بينها تبعاً لاختلاف شخصيات الجناة وأخلاقهم، فلنعترف باستحالة التغلب على هذا التباين في الأحكام وانتفاء المساواة بينها، ولنقر بأنها في ذاتها مشكلة لا يمكن حلها، كتربيع الدائرة في علم الهندسة ودنيا المهندسين.

وبغض النظر عن هذا التباين، دعنا ننظر في مظهر آخر له، وهو الفارق في تأثير العقوبة ومفعولها، فمن المحكوم عليهم سجين يتلوى من العذاب، ويحترق في السجن احتراق الشمعة، وآخر لم يكن يتصور قبل أن يأتي إليه أن في الدنيا عيشاً هنيئاً كهذا، وأن في العالم ندوة طيبة من الرفاق المتشابهين نفوساً، المتماثلين أمزجة وأرواحاً. وفي الحق إن في السجون لفريقاً من هذا القبيل، أو لنضرب مثلاً رجلاً متعلماً ذا ضمير محرّج، وذكاء وفؤاد، يقتله

مجرد الإحساس بالآلام والشعور بالوجعة أكثر مما يقتله العقاب، وهو في الحكم على نفسه من جراء جريمته أكثر تشددًا وأبلغ قسوة من القانون مهما تكن صرامته، وإلى جواره في السجن من لم تخطر جريمته يومًا بباله، ولا فكر طيلة المحبس فيها، بل يعتقد جازمًا أنه كان في ارتكابها محققًا، ولا تنس أن هناك أيضًا أناسًا يجرمون عامدين ليرسلوا إلى السجن والشغل المؤبد فرارًا من حياة أكثر تأبيدًا، وأشد مشقة في دنيا الأحرار، حيث كان يحيا أحقر حياة، لا يجد يومًا ما يكفي لقوته، ويكد من الصباح إلى المساء لحساب صاحب العمل الذي يؤجره عليه. فإذا جاء إلى السجن وجد العمل أخف وطأة والخبز موفورًا وأجود نوعًا، وقدم إليه اللحم في الأعياد وأصاب البر والصدقات وتواتت له فرصة للكسب والمغنم، وأما الرفقة الذين يجدهم خلف جدرانهم فبينهم أذكاء حاذقون يعرفون كل شيء، وهو ينظر إليهم بدهشة مقترنة بالاحترام؛ لأنه لم يشهد لهم مثيلًا في ماضي حياته، ويعدهم أرقى مجتمع في العالم..

فهل يتساوى العقاب في هاتين الحالتين...؟؟

ولكن علام نتعب أنفسنا بأسئلة لا أجوبة عنها.

ها هو ذا قرع الطبول يرن في الأسماع مؤذنًا أنه قد حان الرجوع إلى العنابر.

الفصل الرابع المشاهدات الأولى

وبدأت نوبة «التمام»، وبعدها تغلق العنابر بالأقفال، فيبقى المساجين فيه محصورين إلى مطلع النهار.

وكان يتولى «التمام» عليهم جاويز وجنديان، فيصطف السجناء أحياناً في فناء السجن، بمحضر الضابط المكلف بالخدمة، ولكن هذه العملية في الغالب تتم في داخل العنابر بمناداة السجناء واحداً بعد واحد، وهذا هو ما حدث في يومي الأول، وقد وقع المشرفون على التمام في عدة أغلاط، ووهموا في الحساب، وذهبوا ثم قفلوا أدراجهم عائدين، حتى انتهوا إلى تصحيح الخطأ، وأوصدوا العنبر علينا، وكنا ثلاثين، ونحن محشورون حشرًا فوق السرر، وكان النوم لم يحن أوانه، فأراد كل منا بطبيعة الحال أن يفعل شيئاً حتى يراود الكرى جفنيه...

ولم يكن للسلطات من يمثلها غير جندي واحد من القدامى وهو من أسلفت عليك ذكره، وفي العنبر أيضاً رئيس من المساجين أنفسهم يعينه «الميجور» مراعاة بالطبع لحسن سلوكه، وقد يحدث في كثير من الأحيان

أن يتورط هؤلاء الرؤساء في حادثة خطيرة فيجلبون وينزلون من رتبهم ويستعاض عنهم بآخرين.

وكان «الريس» في عبرنا هو «أكيم أكيتمش»، وقد أدهشني منه أنه جعل يكثر من الصياح بالسجناء الآخرين، فكانوا يردون على صيحاته عادة بضحكات الساخرين.

أما الجندي القديم فكان منه أحكم، فلم يكن يتدخل في شيء، وإن هو فتح فمه يوماً، فلإرضاء ضميره شكلاً، وقد اعتاد الجلوس في فراشه صامتاً، يرقع حذاءه أو يخصفه، وقلما انتبه السجناء إليه.

وكانت لي ملاحظة واحدة في يومي الأول، ووجدت على الأيام أنها في محلها، وهي أن الذين ليسوا سجناء، كائنًا ما كان شأنهم، سواء الذين هم أكثر اتصالاً بهم كالحراس والجنود المكلفين بالخدمة، أو من لا صلة لهم بحياة السجن، يرون فيهم رأياً مبالغاً فيه، وهو التوجس خيفة من أن ينقض أحدهم عليهم بسكين فيقتلهم غيلة وغدرًا. ولكن من العجب العاجب أن السجناء أنفسهم شاعرون بأن لهم رهبة، وأن الذين من حولهم يخافونهم، وقد أكسبهم هذا الإحساس خيلاء وزهوًا، وإن كان خير رجل يتولى رعايتهم والإشراف على حركاتهم وسكناتهم هو من لا يخشاهم ولا يتوجس خيفة منهم، فإن السجنين - على رغم غروره وزهوه - يفضل كثيرًا من يثق به، ويسكن إليه، وقد يكتسب بهذا مودته، ويظفر منه بالمحبة. وقد اتفق في بعض الأحيان، طيلة مقامي في السجن، أن جاءنا ضابط كبير غير مصطحب حارسًا، فكان مشهد الأثر الذي أحدثه في نفوس السجناء خليقًا «بالفرجة» لأنه كان تأثيرًا حسنًا بالغ الحد، فإن مجيء زائر كهذا لا يساوره خوف، ولا تنازعه خشية، من شأنه أن يثير الاحترام له في نفوسهم، وإذا

جاز أن يحدث أذى، أو يقع حادث أليم، فلن يكون ذلك في حضرته. وقد تبين لي أنه حيث يكون السجناء، يكون هذا الخوف منهم؛ ولست أعرف سر ذلك ومرده، وإن كان له بالطبع أساس، ولا يخلو من سبب، كمظهر السجين وشكله، واعتقاد الناس أنه أخو شر، ورجل سوء؛ كما أن الذين يقتربون من السجن يشعرون بأن هذا الحشد من المخلوقات البشرية لم يحشد باختياره، ولم يتلاق طواعية، وأن الإنسان الحي لا يمكن أن يحول إلى جثة ميت، مهما اتخذ من التدابير في السجن وشدت الحيلة، بل سيبقى بأحاسيسه، وظمئه إلى الانتقام، وتعطشه للحياة، وكل جوارحه وشهواته، والرغبة في إشباعها، وإن كنت مع هذا مقتنعاً بأن لا حاجة بأحد إلى الخوف من السجناء، وليس من السهل أن يسرع الإنسان والسكين في يده لقتل إنسان سواه، والواقع أنه إذا كان ثمة خطر أو أحياناً قلاقل، فإن ندرة حوادثها تدل على أن الاستهداف لها لا يذكر. وأنا أتحدث هنا بالطبع عن سجناء اليمان وحدهم؛ لأن خلقاً كثيراً منهم يغتبطون بأنهم قد وصلوا إلى السجن بعد طول مطاف، وأن مواجهة حياة جديدة لا بأس بها أحياناً، وأنهم لهذا نازعون إلى حياة هدوء وسلام، كما أن الآخرين لن يدعوا الأشرار منهم والنزاعين إلى الأذى، يفعلون سوءاً أو يأتون أمراً إداً، وكل سجين مهما تبلغ به الجرأة أو القحة لا يزال الخائف الوجل من كل شيء في السجن، أما السجين الذي ينتظر العقوبة فأمره مختلف، فهو بلا شك مستطيع الانقضاض على أي إنسان من الخارج، لغير ما سبب أو لمجرد اضطرابه إلى مواجهة عقوبة جلد في غداة اليوم التالي، فإن هو استطاع أن يحدث حدثاً يقتضي تحقيقاً، أو محاكمة جديدة، فلا مندوحة عن تأجيل جلده، أي إن هنا هدفاً، أو دافعاً إلى العدوان، وهو «تغيير الحظ» بأي ثمن، وبكل سرعة ممكنة.

وأعرف حالة نفسية غريبة من هذا النوع.

فقد كان في القسم الحربي من سجننا سجين كان فيما مضى من دهره جنديًا، فحكم عليه بالسجن سنتين دون حرمانه من الحقوق، وكان «فشارًا» شنيع الدعوى، والمباهاة، وجبانًا ظاهر الجبانة، وقلما رأينا المباهاة والجبانة مجتمعين في الجندي الروسي، والظاهر أن جنودنا من كثرة العمل والمشغل بحيث لا يتسع لهم الوقت للتظاهر وإن أرادوا، ولكن إذا رأيت «فشارًا» كثير الادعاء، فاعلم أنه الفارغ الهيابة المنخوب القلب.

وقد قضى دوتوف، وهو اسم ذلك السجين، مدة الحكم ثم أعيد إلى فرقته، ولكنه كسائر من على شاكلته من الذين يرسلون إلى السجن للإصلاح والتقويم، يفسدون أخيرًا فيه، ويزدادون شرًا ونكرًا، فلا يكادون يقضون في العادة أسبوعين أو ثلاثة أسابيع في عالم الحرية، حتى يقبض عليهم مرة أخرى ويردوا إلى السجن، لا لقضاء سنتين في هذه المرة أو ثلاث، ولكن «لتأبيدة» تستطيل خمس عشرة أو عشرين سنة، وهذا هو ما حدث له، فقد سرق شيئًا بعد الإفراج عنه بثلاثة أسابيع بكسر القفل، أو تحطيم الرتاج، وكان وقحًا جريئًا، وعنيديًا صعب المراس، فحوكم وصدر عليه حكم شديد، ارتاع منه أشد الارتاع قبل التنفيذ، للجنين البالغ الذي ركب في طبيعته، فانقض والسكين في يده على ضابط دخل العنبر في اليوم الذي كان مقررًا أن يعجل في غده، وكان يعلم بالطبع أنه بهذا العمل قد زاد كثيرًا في مدة الحكم وأمد «التأبيدة»، ولكنه كان معتمدًا على تأجيل اللحظة الرهيبة التي ستنفذ فيها العقوبة المرتقبة بضعة أيام، أو بضع ساعات على الأقل! وكان من الجنين بحيث لم يجرؤ على إحداث جرح للضابط أو إصابته بطعنة نافذة، وإنما هاجمه مهاجمة «صورية» حتى يكون ثمة جرم، ويقتضي هذا الجرم محاكمة جديدة.

وليس من شك في أن اللحظات التي تسبق تنفيذ العقوبة أليمة للمحكوم عليه، وقد قدر عليّ خلال عدة سنين أن أشهد أفرادًا كثيرين في عشية اليوم الرهيب، وكنت ألتقي عادة بهم في عنبر مستشفى السجن حيث كنت مقيمًا من أثر علة أو مرض، وكان ذلك يحدث في كثير من الأحيان، والمعروف لجميع السجناء في طول روسيا وعرضها أن أرحم الناس بهم، وأحناهم عليهم، هم معاشر الأطباء؛ لأنهم لا يقيمون فارقًا ما بينهم وبين سائر الناس، كما تفعل الجمهرة خارج السجن، إلا الفلاحين، فإن هؤلاء لا يلومون السجناء يومًا على جريمته، مهما تكن من البشاعة والنكر، ويغفرون له كل شيء، للعقوبة التي احتملها والشقاء الذي قدر عليه أن يقاسيه. ومن الأمور التي لا تخلو من الدلالة أن الفلاحين في مختلف بقاع روسيا وأرجائها يتحدثون عن الجريمة باعتبارها «نحسًا» أو قسمة سيئة، ويصفون المجرمين بأنهم «التعساء» المناكيد، وهو وصف بليغ، ونعت عميق المعنى، وأهم ما فيه من مغزى أو أوقع ما ينطوي عليه من دلالة، أنه تقدير لا إرادي أو إلهام من الغريزة.

وفي الحق أن الأطباء هم في عدة حالات للسجناء ملاذ، ولا سيما الذين ينتظرون تنفيذ العقوبات؛ لأن الرقابة عليهم أشد، والتضييق عليهم أقسى، وكثيرًا ما ينقل السجناء المنتظر الذي يتوقع يوم التنفيذ برهبة بالغة إلى المستشفى محاولًا التهرب من العذاب المرتقب، ولو إلى حين، فإذا أخرج من المستشفى أدرك أن اللحظة الأليمة ستحل به في الغداة، فلا يلبث أن يشتد هياجه، ويتفاقم اضطرابه، وإن فريقًا من هؤلاء ليحاولون من الغرور إخفاء ما بهم، ولكن ذلك الزهو الذي يتولاهم لا يفوت فطنة زملائهم، ولا ينطلي على رفقاتهم؛ لأن كل إنسان يدرك ما هو، ولكنه يكتم شعوره ولا يقول شيئًا.

وعرفت في السجن شابًا كان من قبل جنديًا وحكم عليه في جريمة قتل بالجلد لأقصى حدوده، فانتابه دعر شديد، فراح قبل يوم التنفيذ يشرب زجاجة كاملة من الفودكا كان من قبل قد خلطها بنشوق، والعادة أن يشرب السجناء الفودكا قبل «الجلد»، وهي تهرب قبل أن يحين الموعد بوقت طويل، ويُدفع فيها ثمن باهظ، وإن السجن ليؤثر أن يتجرد من كل شيء يحتاج إليه، ويستغنى عنه ستة أشهر، على العجز عن دفع ثمن زجاجة من الفودكا يشربها قبل الجلد بربع ساعة لاعتقاد السجناء جميعًا أن السكران أقل شعورًا بحدة الألم من الصاحي المفيق.

ولكني أخشى أن أكون قد «شطحت».

فأعود إلى قصة ذلك الفتى الذي كان يتوقع الجلد فتعاطى زجاجة كاملة من الخمر، فأقول إنه ما كاد يأتي عليها حتى انتابه مرض شديد وأخذ يقيء دمًا، فحمل إلى المستشفى وهو أدنى إلى المغشي عليه، وقد تبين أن النزيف الذي أصابه أثر في صدره، ولم تنقض أيام حتى ظهرت عليه فعلاً أعراض السل، وقضى نحبه بعد ستة شهور، ولم يعرف الأطباء الذين عالجه السبب الذي أدى إلى موته.

وأحب أن أزيد هنا إلى ما أسلفت بسبيل الجبن الذي يتتاب في أكثر الأحيان الذين يتوقعون عقابًا، إن فريقًا من السجناء يثيرون الدهشة حقًا بشجاعتهم الخارقة للمألوف، وقوة احتمالهم، وانتفاء خوفهم وهلعهم. وأذكر أمثلة منها بلغت فيها الشجاعة حدود الجمود، والتجرد من الإحساس، وهي أمثلة لم تكن نادرة. ولا أنسى خاصة لقائي بمجرم رهيب، فقد أشيع في ذات يوم والصيف قد ألقى مراسيه، في عنابر المستشفى وردّهاته، أن لصًا مشهورًا كان جنديًا من قبل وفر من الجيش، ويدعى «أورلوف» سيعاقب

بالجلد في مساء اليوم ذاته ثم يُرد إلى العنبر، فجعل السجناء المرضى يؤكدون قبل إعادته إليه أنه سيضرب ضرباً مبرحاً، ولبثوا ينتظرون رجعه في قلق، وأعترف أنني أيضاً كنت أرتقب وصوله بفضول شديد، وقلق بالغ، وكنت قد سمعت عنه من قبل روايات عجيبة، فقد كان مجرماً قل أن يجد المرء في البشاعة أمثاله، إذ أُلّف أن يقتل الشيوخ والأطفال غيلة، وكان مخلوقاً ذا قوة إرادة رهيبة، وهو الفخور الشاعر ببطشه وجبروته، وقد اعترف بارتكابه عدة جرائم قتل، وحكم عليه بالضرب بالعصي.

وحان المساء قبل أن يعود، وأضيئت القناديل في العنبر، وهو لما يصل، فلم تكد أعيننا تقع عليه حتى رأيناه في شبه غيبوبة، وهو شاحب في مثل شحوب لون الموتى، وكان شعره وصفاً منفرداً أثيثاً في مثل فحمة الليل لونه، وقد بدا ظهره متورماً يقرب إلى الحمرة و«الازرقاق»، ولبث السجناء ساهرين الليل كله في خدمته، يسعون عليه بالماء ويرعونه كأنه أخ لهم أو محسن، وما إن طلع الغد حتى تاب إلى رشد، ومشى في العنبر ذهاباً وحيئة مرتين، فاندھشت والحق يقال، فقد جاء إلى المستشفى وهو ضعيف واهن بلغ الإعياء منه كل مبلغ، وتلقى في مرة واحدة نصف عدد الضربات التي حكم عليه بها، فلم يسع الطبيب إلا أن يوقف الجلد عند النصف لأنه تبين أن الاستمرار سيودي حتماً به، وفضلاً عن هذا كان أورلوف قليل البدن ضاوياً ضعيف البنية أعياء طول الحبس قبل المحاكمة، وأكبر ظني أن الذين رأوا مساجين قيد المحاكمة لا يزالون يذكرون كيف تظل نظراتهم محمومة، ووجوههم ناحلة مصفرة ذابلة، ولكن أورلوف رغم ذلك كله راح ينقه وشيكاً، ويبل عاجلاً، والظاهر أن قوة روحه أعانت طبيعته، وليس من شك في أنه لم يكن إنساناً عادياً، وهاجني الفضول إلى التعرف به عن

كتب، فظلمت أدرسه أسبوعاً، وفي وسعي أن أقول عن يقين إنني لم أر في حياتي كلها رجلاً في مثل بأسه وقوته، وحديد إرادته، وكنت قد شاهدت في توبولوسك مجرمًا له مثل شهرته، كان من قبل زعيم عصابة وكان وحشًا ضارياً بكل ما في هذا الوصف من معنى، وأنت إذا وقفت بجانبه شعرت بالغريزة أنك بجوار مخلوق رهيب، حتى قبل أن تعرف من هو أو تسمع باسمه، ولكن أشد ما راعني منه موات نفسه، كأنما قد غلب بدنه كل الغلبة على جملة خواصه النفسية حتى لتبين من النظرة الأولى إلى سحته أنه لم يبق من الروح فيه إلا شهوة موحشة تطلب إشباع البدن من بهيمية ونهم وشرافية. وإني لمقتنع بأن «كورينف» - وهو اسمه - كان في دعر شديد ورعدة بالغة قبل الجلد، وإن كان القدير على قطع الرقاب دون أن تهتز شعرة واحدة فيه.

أما «أورلوف» فكان على النقيض التام منه، فإن شأنه شأن رجل انتصرت روحه كل الانتصار على لحمه وبدنه، وبدا جلياً أن قوة شكيمة تجاوزت كل حد، وأنه كان يسخر من كل عقوبة، ويهزأ بكل تعذيب، وأنه لا يخاف في هذا العالم شيئاً، ولم تكن نرى عليه غير طاقة متناهية، وشهوة جبارة للعمل، وظماً شديد للثأر والانتقام، ولهفة حارة على بلوغ الهدف الذي وضعه نصب عينيه؛ وكان من أشد ما راعني فيه تكبره العجيب، فكان ينظر باحتقار لا يتصور إلى كل شيء، وإن لم يتكلف جهداً في كبريائه، ولا هو في الترفع بمتصنع، بل كان طبيعياً فيه؛ ويخيل لي أن ليس في العالم من أحد يستطيع إخضاعه بالسيطرة وحدها، أو بقوة السلطان فحسب. فقد كان ينظر إلى الأشياء بهدوء عجيب، وسكينة مدهشة، كأن العالم لم يعد فيه شيء يمكن أن يثير عجبه، وكان يدرك أن السجناء الآخرين يولونه الاحترام، فلا يتخذ

السمت الذي يكسبه إياه، أو يجلس المجلس الذي يديه في الصورة كذلك، وإن كان الغرور والتظاهر من خواص السجناء بغير استثناء. وهو متوقد الذكاء، صريح إلى حد غريب، وإن كان المقل من الكلام، وقد مضى يجيب عن أسئلتى بصراحة، قائلاً إنه ينتظر الإبلال ليبادر إلى أخذ بقية العقوبة، وينتهي سريعاً منها، وإنه كان يخشى مقدماً ألا يعيش حتى يجلد لها كلها، وانطلق يغمز بعينه وهو يقول: «أما الآن فأني لأشعر كأنها قد انتهت، وإني لمجتاز البقية الباقية منها ومنطلق في الحال مع الجماعة إلى نبرشنسك، وفي الطريق سأهرب، أجل، يقيناً سأهرب، ليت ظهري يصنع معروفاً ويطيب عاجلاً...». وظل الأيام الخمسة التي قضاها في لهفة على موعد خروجه من المستشفى متحرّفاً على اللحظة التي ستؤذنه برحيل، وإن لبث خلال هذه الفترة ضاحكاً مرّحاً مبتهجاً، وحاولت أن أتحدث إليه عن مخاطراته الماضية، فعبس قليلاً لهذا السؤال ولكنه مضى يجيب بصراحة، وحين أدرك أنني أحاول الوصول إلى ضميره لعلّي أكتشف فيه عن أثر لندامة، أو وخز، راح يثأرنى بنظر احتقار شديد، وترفع، كأني قد ارتددت في نظره فجأة طفلاً صغيراً، وصبيّاً أحمر، لا سبيل إلى المناقشة معه كما يناقش المرء رجلاً كبيراً مثله، بل لقد لمحت في وجهه رثاءً لي، ولم تمض لحظة حتى انفجر ضاحكاً مني، وكانت ضحكته صريحة صادرة من القلب خلية من السخرية، وإني لعلّى يقين أنه تذكر كلماتي له عندما كان وحده فضحك في سره كثيراً وأطال ضحكاً.

وأخيراً أخرج من المستشفى، ولما يبرأ ظهره البرء كله، وأخرجت أنا أيضاً في الوقت ذاته، واتفق خروجنا معاً، لأذهب أنا إلى السجن، ويذهب هو إلى مبنى الحرس المجاور للسجن الذي كان حبساً فيه من قبل، فودعني

مصافحًا، وكانت هزته يدي في يده رمزًا من جانبه لثقة بالغة واطمئنان تام، وأعتقد أنه إنما فعل ذلك لأنه كان راضيًا عن نفسه، مغتبطًا بأن اللحظة قد حانت، وما كان في وسعه إلا أن يحتقني ويزدريني ولا بد من أنه عدني ضعيفًا يرثي لحاله، ومخلوقًا مستسلمًا قانعًا، وإني دونه في كل شيء مكانة. وسيق به في اليوم التالي لاستكمال النصف الثاني من عقوبته..

وحين تغلق الأبواب علينا يتخذ العنبر فجأة صورة خاصة، صورة مسكن حقيقي، بل شكل بيت، ودار عشيرة، وعندئذ يتواتى لي أن أرى رفقائي في البيت حقيقة؛ لأن الجاويشية والحراس والموظفين عامة قد يتراءون بيننا في أية لحظة سحابة النهار، فكان السجناء يتصرفون تصرفًا متباينًا، ويسلكون مسلكًا مختلفًا، كأنما يشعرون أبدًا بقلق أو يوجسون خيفة مما قد يحدث، ولم يكن في الحسبان حدوثه، ولكن لا يكاد باب العنبر يوصد حتى يستقروا ويطمئنوا في أماكنهم، ويأخذ كل واحد منهم في عمل يدوي ينجزه، ولا يلبث العنبر أن يضاء فجأة، فلكل سجين منهم قنديل وشمعة، والعادة أن يصنع القنديل من الخشب، فترى سجينًا يخصف نعلًا، وآخر يحيك ثوبًا، ويأخذ جو المكان يزداد من ساعة إلى أخرى رداءة وسوءًا، ويمضي نفر من «المفاريح» أهل الحظ إلى تأليف حلقة منهم، فيجلسون القرفصاء حول «سجادة» في ركن من القاعة للعب الورق، ولا يكاد سجن من السجنون يخلو من سجين يحتفظ بسجادة كهذه لا يتجاوز عرضها ياردة واحدة، وقنديل، وكوتشينة قدرة متسخة ملوثة بدهن وشحم، وهم يسمون ذلك كله «الميدان»؛ ويؤجر صاحب هذه الأدوات للاعبين لقاء خمسة عشر «كوبيكا» في الليلة الواحدة، وهذه هي كل حرفته، والعادة أن يلعب المقامرون لعبة «الورقات الثلاث» أو «الهلوك» أو ما إليها، وهم يلعبون بالنقود، فيضع كل

لاعب أمامه كومة من النقود النحاسية، أو كل ما في جيبه منها، فلا يقوم من مجلسه حتى يخسر كل ما كان معه، أو يجرد رفقاءه من كل ما كان لديهم. وكانت حفلة القمار تستمر إلى موهن من الليل أو أحياناً إلى مطلع النهار، حين تفتح الأبواب الموصدة؛ ولا يخلو عنبرنا والعنابر الأخرى في وقت ما من فريق من السجناء لا يملكون شيئاً؛ لأنهم خسروا كل مالهم في القمار أو الشراب أو من الشحاذين بطبعهم، وأقول «بطبعهم» مشدداً، إذ الواقع أن في كل مكان من روسيا، وفي مختلف البيئات والأحوال أفراداً أذلاء كسالى في الغالب متبلدين، قدّر عليهم أن يعيشوا في فقر مدقع إلى الأبد، وسيظل هؤلاء وأمثالهم قائمين في كل بقعة، ظاهرين في كل صقيع من هذه الأرض، وهم أبداً أخصياء من صلات القريبى لا تربطهم بذى رحم آصرة، مهلهلو الثياب، مستنمعون في كآبة غير منقطعة، ولهفة دائمة على شيء ما، يمثلون لأية إشارة من أحد، ويستجيبون لكل نداء من شهواني مسرف على نفسه، أو غني اغتنى فجأة، ونهض من الوهدة وشيكا، ولأمثال هؤلاء يبدو العمل على كسب الاحترام بين الناس، أو المطالبة بالاستقلال والتصرف الحر الطليق من القيد عبئاً ثقيلاً، ومصائباً أليماً، وعذاباً مقيماً، كأنما قد ولدوا على شرط ألا يكونوا البادئين بشيء من تلقاء نفوسهم، بل ينتظروا حتى يؤمروا، ويلبثوا جامدين حتى يهزوا، وألاً يفعلوا ما يشاؤون، بل ما يشاء سواهم أن يفعلوا، وأن يقضوا الحياة راقصين على مزمار غيرهم، وكل همهم في الدنيا أن ينفذوا إرادة الآخرين. وأدهى من ذلك أن لا ظروف ولا أحداث ولا تقلبات يمكن أن تغنيهم، فهم شحاذون أبداً، وقد تبين لي أن أمثالهم لا يلتقي المرء بهم في أوساط الفلاحين وحدهم، بل في كل طبقة من طبقات المجتمع، وفي كل حزب، وهيئة، وجماعة، وصحيفة، ومجلة؛ بل هذا هو الشأن في كل

عنبر من عنابر السجون، فلا تكاد حلقة القمار تلتئم، حتى ينبري شحاذ منهم لخدمة المقامرين والسعي بين أيديهم، والواقع أن حلقة القمار لا غناء لها عن تابع، وهم يشتركون في دفع أجرته. والعادة أن يؤجر خمسة كوبيكات في الليلة، وأهم شغلته الوقوف طيلة الليل للحراسة، والأغلب أن يقف ست ساعات أو سبعمًا في الدهليز، والحلقة الغامرة، والزمهرير الشديد، ليتسمع لكل دقة وينصت لكل حركة، ويرهف الأذن لكل خطوة، ولكن قد يحدث أحيانًا أن يأتي الميجور أو الضابط «المنوب» لزيارة السجن في ساعة متأخرة من الليل فيتقدم متسللاً في رفق، ويفاجئ المقامرين وهم يلعبون، والسجناء الآخرين وهم يشتغلون على ضياء القناديل والشموع الإضافية، وهو ظاهر للعين من الفناء، وحين ينبعث صرير المفتاح في قفل باب الردهة المؤدية إليه، لا يتسع الوقت أمام السجناء لإخفاء ما كانوا يفعلون، وإطفاء الأنوار، والإيواء إلى الفراش، ولكن الجندي الموكل بالحراسة يستهدف لجزء شديد على تركه القمار يلعب في العنبر، ولهذا قلت حوادث الإهمال إلى حد بعيد؛ ولا يخفى أن دفع خمسة «كوبيكات» له مبلغ ضئيل يستهان به، حتى ولو في السجن. ولشد ما أدهشني قسوة السجين على الحارس في هذا الشأن وسواه، وخلاؤه من الرحمة، وخشونته في المعاملة، ويكفي أن يقول له: «لقد أخذت أجرك فأد إذن علمك» فتكون الحجة على الحارس وليس له عليها اعتراض، ونظير هذا الجعل على تفاهته، يفعل السجين ما بدا له، ويظن أنه قد أدى للحارس صنيعةً، وأجزل عطاءه. والمشاهد دائماً أن يعمد السكران المعربد المبدد ماله يميناً وشمالاً إلى ضرب الحارس؛ ولم أشاهد ذلك في سجن واحد، ولا من حلقة واحدة من المقامرين.

وقد مر بك أن جميع السجناء في عنبرنا أو جلهم قد استقروا على شغلة

يشتغلونها، أو حرفة يحترفونها، إلا معاشر المقامرين؛ أما الباقون الذين لا عمل لهم، وهم لا يتجاوزون الخمسة، فينكفئون تَوًّا إلى مضاجعهم. وكان فراشي بجوار الباب، وعلى الجانب الآخر منه ينام أكيـم أكيـمـش حتى ليكاد رأسه يلصق بي، وكان يسهر في عمله الخاص إلى العاشرة أو الحادية عشرة؛ وكان عمله صنع مصابيح «صينية» مختلفة الألوان تطلب منه في البلد لقاء ثمن لا بأس منه؛ وكان في هذه الصنعة الحاذق البارِع، وهو عليها الدؤوب، وصاحب طريقة في اصطناعها، لا يكف عنها ولا ينقطع، فإذا انتهى منها وضعها جانباً في حسن ترتيب، ونشر مرتبته الصغيرة، وأدى الصلاة، وأوى إلى الفراش خالص السريرة؛ والظاهر أنه كان في مراعاته الدقة والترتيب والتنسيق يحرص على الظهور بها، حتى في الأمور التافهة، والمسائل الدقيقة. وأكبر الظن أنه كان يعد نفسه مجتهداً «شاطرًا» إلى حد الغلو، كما هو شأن أصحاب العقول المحدودة، والأغبياء من الناس. ولم يرقني الرجل من أول يوم، وإن كنت لا أزال أذكر أنني فكرت فيه ملياً يومئذ وأدرت فيه وجوه الرأي كثيراً، وكان أشد ما أدهشني منه أن يأتي مثله إلى السجن، وكان أولى به أن يشق طريقه في الدنيا، وسأضطر إلى الحديث عنه فيما سيلي من فصول الكتاب.

ولكنني سأصف هنا بإيجاز جميع رفقائي في العنبر، فسوف أقضي هنا عدة سنين وسوف يظل هؤلاء على الأيام رفقائي ومعاشري، ولا يخفى على القارئ أنني جعلت أنظر إليهم بفضول عجيب، ولهفة غريبة، ففي شمالي نفر من الجبليين المنحدرين من القوقاز، جاؤوا لقضاء مدد مختلفة، بتهم متعددة، وثلاثة آخرون من تتر «داغستان». أما القادم من تشتشان فرجل عبوس متجهم مربد، لا يكاد يكلم أحداً، ولا ينفك ينظر من تحت حاجبيه نظرات حقد وكراهية، أو يتسم ابتسامات مسمومة مليئة شرًّا دفينًا، أو مفعمة

استهزاء وسخرية. وكان أحد اللزغيين شيخًا ذا أنف مستطيل ناحل مقوس كالخطاف، وهو يبدو بكل سمات اللص السطاء ومعالم صورته؛ أما الآخر - وهو يدعى «نورا» - فقد استولى على نفسي منه لأول العهد به فتون وإعجاب ورضا، وكان لا يزال في ميعة الشباب، ربعة قوي البناء، كأنه هرقل، وإن كان له وجه امرأة من فنلندة، وشعر كتاني، وعينان زرقاوان، وأنف أفطس، وساقان عوجاوان من قضاء حياته الماضية كلها فوق صهوات الخيل، ومتون الجياد؛ وكان بدنه مليئًا بالندوب وآثار الجروح من رماح وقذائف، وكان في القوفاز ينتمي إلى قبيلة موالية للروس، وإن لم يكف خلصة عن الغارات فوق الصهوات مع القبائل الجبلية المعادية على الروس أنفسهم؛ وكان كل من في السجن يحبونه لأنه كان أبدًا لطيف الدعابة، رائق المزاج، متوددًا إليهم متحببًا، يشتغل ولا يشكو، وهو الهادئ الساكن، وإن كان أحيانًا ينظر بغضب وتأفف من قذارة الحياة في السجن ومجاحتها. وكان يهيج غيظًا من كل ما يشاهده فيها من سرقة وغش وسكر، ويكره كل ما يرى من مكر وخب وخداع، ولكنه لم يكن يومًا يلتمس شجارًا، أو يعتمد الدخول في مشادة، وإنما كان دأبه أن ينصرف غاضبًا، ويتولى معرضًا وهو كظيم. ولم يسرق في السجن يومًا أو يتهم أو يدان بمنكر أو عمل سيئ. وكان تقيًا ورعًا، يؤدي فرائض الصلاة، ويصوم رمضان كله، ويقضي الليل عابدًا ضارعًا، فكان الجميع يميلون إليه، ويثقون بنزاهته، واعتادوا أن يقولوا عنه: «إن نورا أسد» حتى لصق هذا الوصف به، وقيل له في معرض «الحض» و«التطمين» إنه سيرسل عقب انتهاء مدته في السجن إلى القوقاز وطنه، فهو اليوم يحيا على هذا الأمل، ويقيني أنه لو حرم منه لقضى من اليأس نحيبه. وكان أثره في نفسي قويًا بالغًا من يومي الأول في السجن؛ فقد كان من المستحيل

على المرء أن يتجاهل هذا الوجه الحاني العطوف الأخاذ بين هذه الوجوه الغاضبة الكاشرة القاتمة الساخرة التي تغشاه من كل مكان؛ فلم يكذب ينقضي نصف ساعة على مقامي في السجن حتى ألقى يده على كتفي وهو يمر قبالي وراح يضحك لي ضحكة منبعثة من طيبة القلب، ولكنني لم أستطع في بداية الأمر أن أدرك معنى تلك الضحكة ومرادها؛ وكان كلامه بالروسية رديئاً، ولم يلبث أن جاءني مرة وربت على كتفي كذلك وهو يبتسم، ثم ظل يفعل ذلك تكراراً في الثلاثة الأيام الأولى، وكان معناها كما فهمت فيما بعد أنه آسف لي، شاعر بالمشقة التي أكابدها في إيلاف هذه الحياة والسكون إليها، وأنه كان يريد إظهار مودته لي، وتشجيعي على الجلد، وتوكيد حمايته لي... فيا لنورا من رجل صادق السريرة كريم...

أما النفر القادمون من داغستان فكانوا ثلاثة، وكلهم إخوة: اثنان منهم توسط بهما العمر، ولكن الثالث، وهو «علي» فلم يكن يتجاوز الثانية والعشرين وإن لاح أصغر سنّاً؛ وكان موضعه من سرر العنبر إلى جوارِي، فلم يلبث وجهه المليح الصريح الذكي الساذج معاً، أن أخذ بمجامع قلبي من اللحظة الأولى. وقد حمدت للقدر أن بعث إليّ به كجار لي، أكثر من حمده على شيء آخر، فقد كانت روحه متجلية بكل دقائقها على صفحة وجهه المليح، بل قل محياه الجميل؛ وكانت ابتسامته أخاذة تبعث الثقة، وتملاً النفس اطمئناناً، كأنها ابتسامة صبي، وتهلل وليد؛ وعيناه النجلاوان السوداوان ريفيتين ناعميتين متلطفتين، حتى لقد كنت أستروح دائماً إلى رؤيته، وأجد المسرة خاصة في النظر إليه، بل أشعر بعزاء عما أنا فيه من شقوة وأسى، ولست فيما أقول مغالياً. وكان أحد إخوته الكبار، وهم خمسة، أرسل اثنان منهم إلى بعض المصانع لقضاء مدة العقوبة فيه، قد أمره وهو

في وطنه أن يأخذ سيفه الكهام، ويركب جواده، ويخرج معهم في سفرة من الأسفار. والمعروف أن الاحترام الواجب للأخ الكبير بين معاشر «الجبليين» من ترامي المدى بحيث لم يجرؤ الفتى بل لم يدر في خلده أن يسأل إلى أين هم ذاهبون، ولا خطر ببال إخوته أن ينبئوه؛ وكانت السفرة في الواقع لسرقه وسطو على تاجر أرمني ثري، يريدون قطع الطريق عليه، وهو ما فعلوه، بعد أن قتلوا حرسه، وقضوا عليه، واحتملوا سلعه وتجره، ولكن جريمتهم اكتشفت، وقبض على الإخوة الستة جميعاً، وحوكموا وصدرت الأحكام عليهم بالأشغال الشاقة في سيبيريا، وكل الرأفة التي أبدتها الحكومة بعلي هي أن الحكم عليه كان أقل أمداً، إذ أرسل إلى سيبيريا لقضاء أربع سنين، وكان إخوته يحبونه أشد الحب، ويحنون عليه حنو الأب لا حنو الإخوة، ويجدون السلوة فيه والعزاء طيلة المنفى به. وكانوا على فرط وجومهم واكتئابهم لا ينون يتسمون وتتهلل أساريرهم كلما رأوه أو تحدثوا إليه، وإن كان قليلاً ما يفعلون، كأنهم لا يزالون يعدونه غلاماً لا يجدي معه الكلام عن الأمور الجدية، والمسائل المهمة؛ بل كانوا إذا تحدثوا إليه يتطلقون وتنفرج أساريرهم القاتمة الكدرة. وأكبر ظني أنهم كانوا يتحدثون إليه عن شيء فكه أو أمر صبياني؛ بل جعلوا على الأقل يتبادلون النظرات ويتسمون فاكهين عند سماع جوابه، ولم يكن هو ليجرؤ على مخاطبتهم، لشدة احترامه لهم. ومن الصعب على المرء أن يتصور كيف استطاع هذا الغلام في حياة السجن أن يحتفظ بقلبه الرقيق، ويحرص على نزاهته الصادقة، وأحاسيسه النبيلة، وآدابه الفاتنة؛ وكيف حما نفسه الخشونة وجنبها الفساد والنكر؛ ولكن الواقع أن طبيعته كانت قوية مكيئة متأصلة، على رغم نعومتها الظاهرة، وعلى الأيام عرفته حق المعرفة، فهو العف كالصبية البريئة، حتى لقد كان أي فعل قبيح أو

استهتار أو سوء أو ظلم أو عنف في السجن يثير غضبه، ويرسل بريق الغيظ إلى عينيه الجميلتين فيزيدهما جمالاً إلى جمالهما، ولكنه كان يتجنب كل شجار أو نزاع، وإن لم يكن ممن يرتضون إهانة، أو يقبلون قحة، بل يعرف كيف يصون عزته. وما كان بحاجة إلى الدخول في شجار لأنه كان محبوباً من الجميع، وموضع مودتهم؛ وكان في بداية الأمر معي مجاملاً متأدباً، ولكنني أخذت شيئاً فشيئاً أجذبه إلى الحديث، فلم تنقض بضعة أشهر حتى أجاد الكلام بالروسية، وإن لم يستطع إخوته أن يجيدوها طيلة مقامهم في سيبيريا. وكان يلوح لعيني فتى على جانب ملموس من الذكاء ونصيب ظاهر من العفة والحياء ورقة الشعور، وكثرة التفكير. وفي وسعي أيضاً أن أقول إنني أعد «عليّاً» شخصاً غير مألوف، ومخلوقاً غير عادي. وأعود بالخاطر إلى لقائي به كأسعد شيء استمتعت به في الحياة، فإن في هذه الدنيا طبائع طيبة بالفطرة، أنعم الله عليها بوفرة من المواهب بحيث لا يخطر يوماً بالبال أنها ستفسد أو تهن في يوم من الأيام، بل يظل المرء مطمئناً عليها، وأنا إلى اليوم عليه لمطمئن... أين تراه الآن... وماذا صنع الدهر به؟..

وكنت في أيامي التالية قد أويت ذات ليلة إلى فراشي، وأخلدت في التفكير، وكان علي بالمصادفة فارغاً ساكناً، وإن كان أكثر وقته دؤوباً أخاً عمل وكد، ولم يكن قد حان النوم بعد، ولكن اليوم كان عيداً عند المسلمين، وهم في الأعياد يُريحون، وقد رقد على فراشه، وشبك يديه خلف رأسه، ساهماً هو الآخر مفكراً.

وإذا به فجأة يسألني «أتراك مكتئباً اللحظة...».

فنظرت بدهشة إليه، إذ عجبت لهذا السؤال السريع الفجائي منه، وعهدي به الدقيق، المفكر، الحكيم؛ ولكنني حين دقت النظر في وجهه،

رأيت عليه من سمات الحزن، واللوعة، لبعض ذكرياته، ما أشعرنى في الحال بأن قلبه الساعة مفعم أسى، فكأشفته بما أحسست، فتنهد وابتسم ابتسامة حزينة... وكنت أحب ابتسامه؛ لأنه كان أبدًا ابتسامًا حارًا رقيقًا يملأ النفس وقدة ودفئًا، كما كان يفتّر في البسمة عن صفين من أسنان كاللؤلؤ تحسده عليها أكثر الغيد حسنًا في هذا العالم.

قلت: «لا أشك يا علي، في أنك الساعة متخيل كيف يحتفلون بهذا العيد في وطنكم داغستان، لا بد من أن يكون الاحتفال هناك بهيجًا».

قال بحماسة وقد برقت عيناه: «أي نعم، ولكن كيف عرفت أنني ذاهب بخاطري إليه؟...».

قلت: وأين لي علم ذلك... إن الحياة هناك خير من هنا مقامًا... أليست كذلك؟

قال: لماذا تقول هذا؟

قلت: أي أزاهر اليوم هناك، وأي جنة...

قال: أوه... خير أن لا تتكلم هكذا...

وبدا عليه أشد التأثر.

قلت: اسمع يا علي... ألك أخت؟

قال: نعم... ولماذا تسأل؟

قلت: لا بد أن تكون حسناء ربة جمال إذا كانت تشبهك.

قال: تشبهني... إنها في الجمال آية... ليس في داغستان كلها من هي أجمل منها ولا أملح، أي والله إنها في الجمال لآية، ولا أحسبك يومًا لقيت مليحة مثلها... وأمي لقد كانت جميلة أيضًا.

قلت: أكانت أمك تحبك؟

قال: آه... ما هذا الذي تقوله، لا بد من أن تكون قد ماتت حزناً عليّ وأسى، فقد كنت الأثير لديها على إخوتي جميعاً، وكانت تحبني أكثر من حبها لأختي... لقد جاءني في الرؤيا ليلة أمس وهي عليّ باكية ناشجة.

واستغرق في صمت طويل ولم يعد إلى الكلام في تلك الليلة، ولكنه جعل من ذلك الحين ينتهز كل فرصة سانحة للحديث معي، وإن كان الاحترام الذي كان لسبب ما يشعر به نحوي يمنعه أبداً من أن يكون هو البادئ بالكلام، ولكنه كان يفرح أشد الفرح حين أكلمه، فمضيت أسأله عن القوقاز، وعن ماضيه، ولم يكن إخوته يمنعون من الحديث معي، بل الواقع أنهم كانوا يحبون ذلك، بل حين رأوا مني ميلاً متزايداً نحوه راحوا أكثر ودّاً لي ومحبة.

وأعاني علي العمل، وكان يبذل أقصى جهده في خدمتي، وكنت أتبين ارتياحه كلما استطاع أن يؤدي أي عمل يرضيني، أو يهون عليّ الحياة في السجن، ولم يكن على محاولاته إرضائي أدنى أثر من رغبة في شيء يظفر مني به، بل بدافع شعور حار صادق لم يعد يستطيع إخفاءه؛ وقد أوتي أيضاً شيئاً كثيراً من المقدرة الميكانيكية، فعرف كيف يجيد صنع الثياب الداخلية والأحذية، وتعلم بعد ذلك النجارة على قدر جهده، وكان إخوته يمتدحونه، ويفخرون به. قلت له في ذات يوم: «اسمع يا علي.. لماذا لا تتعلم القراءة والكتابة بالروسية؟.. إن علمك بها يفيدك كثيراً في سبيريما فيما بعد..».

قال: أود ذلك كثيراً... ولكن على من أستطيع أن أتعلم؟

قلت: إن هنا قوماً كثيرين يقرأون ويكتبون، فإن شئت علمتك.

قال: بالله عليك افعل..

وجلس مستويًا في فراشه، وشبك يديه، وأطال النظر في وجهي متوسلاً
مناشداً.

وبدأنا في مساء اليوم التالي، وكانت لدي نسخة مترجمة من «العهد
الجديد»- الإنجيل - وهو كتاب غير ممنوع في السجن، وبهذا الكتاب
وحده بغير الحروف الأبجدية، تعلم في بضعة أسابيع أن يحسن القراءة كل
الإحسان، ولم تنقض ثلاثة شهور حتى أتم علم لغة الكتاب كله، فقد كان
مقبلاً على التعليم بلهفة وحماسة.

ورحنا في ذات يوم نقرأ معاً خطبة «الجبل»، ولاحظت أنه كان يقرأ
بصوت مرتفع أجزاء منها بشعور خاص، فسألته هل يروقه ما كان يقرأه؟
فألقي نحوي نظرة عجلى واحمر محياه، وانشئ يجب قائلاً: أي نعم، إن
عيسى نبي عظيم وهذا الكلام كلام الله، ما أروعه حقاً وما أبلغه...

قلت: وأي شيء منه أحب إلى نفسك؟

قال: حيث يأمر بالعفو والحب، وتجنب الإيذاء، ومحبة الأعداء ذاتهم،
بالله... ما أحسن هذا قِيلاً..

ودار بعينه إلى إخوته وكانوا مصغين إلى حديثنا، ومضى يقول لهم
شيئاً في حماسة وحرارة، فإذا هم يقبل بعضهم على بعض يتحدثون حديثاً
جداً، ويهزون رؤوسهم هزة الموافقين، وانشئوا بابتسامة وقور رائعة، ابتسامة
أحببتها من معاشر المسلمين أبلغ الحب، لروعتها ووقارها خاصة، يلتفتون
نحوي ويرددون قول أخيه الصغير إن عيسى نبي الله، وإن له معجزات
كثيرة، وإنه اصطنع من الطين مثل هيئة الطير ونفخ فيها فطارت في جو
السماء، وإن هذا مكتوب في كتابهم العزيز، وكانوا مقتنعين بأن قولهم هذا

يسرنى كثيرًا، لمديح المسيح، وكان عليّ سعيدًا مغتبطًا بأن إخوته قد تنازلوا فأرادوا إدخال هذا السرور على خاطري.

ونجحت الدروس الأخرى في تعليمه الكتابة كل النجاح، وجاء عليّ بالورق، ولم يشأ أن يدعني أبتاعه بنقودي، واقتنى أقلًا ومدادًا، واستطاع في شهرين أو قرابتهما أن يكتب ويحسن الخط كل الإحسان؛ وتأثر إخوته فعلاً لهذا التعليم، وتجاوز فخارهم به ورضاهم كل الحدود، وأبدوا العجز عن تقدير مبلغ عرفانهم لصنيعي. وكلما اتفق موقفهم بجواري في الشغل لم يكفوا عن معاونتي، وعدوا ذلك سعادة لهم واغترابًا؛ وكان هذا طبعًا إحساس عليّ كذلك، ولعله قد أحبني مثل حبه لإخوته، ولن أنسى يوم خروجه من السجن، فقد انتبذ بي ناحية قصية خلف البناء وارتدى على عنقي باكيًا، ولم يكن قد عانقني قبل هذه المرة أو أذرف دموعًا في حضرتي.

قال: لقد كنت بي البر الكريم، بل لقد فعلت من أجلي ما لم يكن أبي ولا أمي مستطيعين أن يفعلاه، لقد صنعت مني رجلًا، جازاك الله الجزاء الأوفى، ولن أنساك ما حييت.

أين تراه الآن... أين عليّ العزيز الكريم؟

وإلى جانب هؤلاء الجراكسة، كان معنا في العنبر نفر من البولنديين اتخذوا من أنفسهم حزبًا مستقلًا، أو جمعًا على حدة، لا يختلطون بالسجناء الآخرين، وليس لهم بهم شأن، وقد سبق أن قلت إن اعتزالهم المساجين وكراهيتهم لهم، جعلوا هؤلاء جميعًا يكرهونهم ويحقدون عليهم. وكانوا ستة، وهم أناس حطهم الألم وأعتم زجاجة نفوسهم، وكان بعضهم متعلمين، وسأحدثك عنهم فيما بعد تفصيلًا. وكنت في السنين الأخيرة

لمقامي في السجن أستعير منهم كتبًا، وقد أحدث أول كتاب تناولته أثرًا غريبًا بالغًا في نفسي، وسأشرح هذا الأثر فيما سيلي من هذا الكتاب، فقد استروحت لتلك الكتب أشد الاسترواح، وأنا على يقين أنها لن تفهم بتأنا عند كثير من الناس، وفي الدنيا أشياء لا يستطيع الإنسان الحكم عليها إلا إذا جربها واختبرها؛ وهناك أمر أستطيع أن أقوله وهو أن الحرمان المعنوي أقسى من الحرمان الجسدي والعذاب الجثماني؛ ويوم يدخل الفلاح السجن يجد فيه رفقاء من أمثاله، بل قد يجد بينهم من هم أرفع منه، وإن كان بالطبع قد فقد شيئًا كثيرًا، فقد الأهل والعشيرة وكل شيء، وإن بقيت له بيئته، وظل له محيطه. أما المتعلم الذي يحكم عليه بالعقاب ذاته فهو في الغالب أكثر حرمانًا، وأشد خسارًا، ومن المحتم عليه أن يتغلب على كل لهفات نفسه، ويقهر جملة عاداته، ويعيش عيشًا لا يطيقه، ويحيا حياة لا تكفيه، ويروض نفسه على أن يتنفس هواء غير الذي ألف أن يتنفسه.. إنه لأشبه بسمكة أخرجت من الماء، وكثيرًا ما تكون العقوبة المفروض أنها قد توافرت فيها المساواة أمام القانون أقسى على المتعلم عشرة أمثال منها على الجاهل؛ وهذه هي الحقيقة، حتى وإن لم ندخل في الاعتبار غير العادات المادية التي يقضى على السجين التضحية بها.

ولكن أولئك البولنديين ألفوا منهم جمعًا بمفردهم، فمضوا يعيشون معًا؛ وكان الفرد الأوحده الذي يميلون إليه في العنبر يهوديًا، ولعل مرد هذا الميل إلى شيء واحد، وهو أنه كان يسليهم ويسرهم، وكان هذا اليهودي محبوبًا من السجناء الآخرين أيضًا، وإن مضى كل واحد منهم بغير استثناء يضحك منه ساخرًا. وكان اليهودي الوحيد بيننا. ولست أتمالك من الضحك الساعة، وأنا أتمثله في خاطري. وكنت كلما نظرت إليه تذكرت اليهودي

«بانكل» في قصة جرجول التي سماها «تراس موليا»، فقد كان يبدو كلما خلع ثيابه ليلاً وتأهب للدخول في الدولار حيث ألف النوم مع زوجته، أشبه شيء «بالكتكوت» والواقع أن «إيشاي فومتش» يهوديًا الأوحى في العنبر مثال الكتكوت المتنوف، وهو رجل في الخمسين أو قرابتها، قصير القامة ضعيف البنية، ماكر وفي الوقت ذاته غبي قطعاً بليد الفكر، وكان وقحاً مغروراً إلى جانب جبانة أصيلة فيه. وكانت الغضون والمكاسر تغمر سائر بدنه، وعلى جبينه وخديه تلوح ندوب وآثار توحى بأنه قد دمع على «العروسة» - المجلدة - ولست أستطيع أن أفهم كيف احتمل هذا الرجل ستين سوطاً وكيف عاش بعدها. وكان قد جاء بتهمة القتل، وأخفى وصفة ظفر بها أصحابه من طبيب عقب جلده، وهي وصفة «مرهم» يظن أنه يزيل الدمع من الجلد في أسبوعين، ولم يجروء على استخدام هذا المرهم في السجن، وكان يرتقب نهاية السنوات الاثنتي عشرة المحكوم بها عليه، معتزماً الانتفاع به بعد خروجه، فقد قال لي يوماً: «سأفعل ذلك وإلا فلن يتهبأ لي الزواج، وإني لفي حاجة إليه».

وكنا على مودة مكينة؛ لأنه كان أبداً خفيف الروح رائق المزاج، لم يكدر السجن عليه العيش؛ وكان جوهرياً بالصناعة، ولديه أعمال كثيرة تأتي التوصيات به من البلدة، فقد خلت من الجوهريين والصاغة، وعلى هذا النحو أفلت من الأشغال الشاقة؛ وكان يشتغل أيضاً بالرهن، طبعاً، ويقرض السجناء كلهم بفائدة أو ضمان لماله؛ وكان مقدمه إلى السجن قبل مقدمي، وتولى أحد البولنديين وصف وصوله لي بإسهاب، وهي قصة مضحكة أشد الإضحاك سأقصها في موضع آخر، كما سأحدث عن هذا اليهودي أكثر من مرة.

وكان من بين رفقائي في العنبر أربعة مساجين من «المؤمنين القدامى»،

وهم كهول مكثرون من قراءة الإنجيل، أحدهم ذلك السجين القادم من ستارودبوفسكي كما مر بك، وكان من بينهم أيضًا اثنان أو ثلاثة من روسيا الصغرى -أوكرانيا- كانوا أبدأ متجهمين مربدين، وشاب في الثالثة والعشرين ذو وجه صغير هزيل، وأنف دقيق حاد، له ثماني سوابق في القتل، وجماعة من المزيفين كان بينهم واحد جعل القوم جميعًا في العنبر يضحكون منه ويمجنون، وأخيرًا عدة أفراد كاشرو الوجوه، متجهمو السحنة، قباح الخلقة، صموتون حاقدون، يرسلون أعينهم فيما حولهم كارهين، لا يكفون من هذا النظر الشرر، ويأبون إلا أن يظلوا على هذا النحو من الحقد والصمت والحفيظة عدة سنين، حتى تنتهي مدة عقوباتهم.

كل ذلك لم يأخذ عيني منه إلا لمحات في مساء اليوم الأول من حياتي في السجن، لمحات في وسط ذوائب التبغ، وبهرة الأقدار، والأيمان والأقسام المغلظة، والمشاهد المنكرة، التي يعجز عنها الوصف، بل في وسط الهواء الخائق، ووسوسة السلاسل والقيود. وارتفاع الحناجر بأفدع السباب، والضحكات الجريئة التي لا تعرف الحياء.

وقد رقدت على الألواح العارية التي يتألف منها مرقي، ووضعت ثيابي تحت رأسي؛ لأنني لم أكن قد أخذت من السجن وسادة، والتحفت بفروتي، ولكنني لم أنم وإن أحسست الإعياء، وبلغ مني الجهد كل مبلغ، مما ترادف على نفسي في يومي الأول من المشاهد البشعة والمؤثرات التي لم تكن في الحسابان.

وكان أمامي على الأيام شيء كثير يرتقبني، ولم يكن ليخطر بخلدي، ولم يكن إحساسي ينبئ عنه قبل وقوعه...

الفصل الخامس

الشهر الأول

وبعد ثلاثة أيام من وصولي إلى السجن أمرت بالخروج للشغل، ولا تزال ذكرى ذلك اليوم واضحة المعالم في مخيلتي، وإن لم يقع لي فيه شيء غير مألوف إلا من حيث مركزي، فقد كان في ذاته عجباً، ولكنه كان بعض مشاهداتي الأولى، فلا غرو إذا أنا لبثت أنظر بلهفة ودهشة إلى كل شيء، وكنت قد قضيت تلك الأيام الثلاثة في أشد الاكتئاب، حتى لقد جعلت أردد لنفسى هذه الكلمات: «هذه هي خاتمة مطافي... المقام في الليمان... وهنا سأقضي أعواماً عدة طوَّالاً، بل هذا هو ركني الذي أدخله بألم بالغ، وريبة متناهية، وحزن شديد، ومن يدري... حين يقدر لي أن أعادّره بعد عدة السنين، لعلني سأحس يومئذ الأسف عليه!».

قلت هذه الكلمات الأخيرة بشيء من تلك اللذة الخبيثة المؤذية التي قد تبلغ عند المرء أحياناً مبلغ اللهفة الملحة على فتح جرح قديم عامداً، كأنما يريد التسلي بالمه، وكأن شعوره بشفائه وبلائه متعة حقيقية، ولذة فعلية، ولم

تلبث فكرة الشعور بالأسف يومًا على مغادرة العيش في هذه البؤرة إن أثارت في نفسي خوفًا شنيعًا، واستنكارًا متناهيًا، وشعرت عندئذ كيف يتأتى أحيانًا للمرء أن يتعود ويألف على مر الأيام وتعاقب السنين.

ولكن كان ذلك كله عن المستقبل، أما عن الحاضر فقد كان كل شيء حولي يلوح لي كريهًا... رهيبًا، وإن خيل لي أن ليس كل شيء في الواقع كذلك، فقد أَلْمَنِي ذلك الفضول الوحشي الذي كان يبدو لي في نظرات رفقائي الجدد وهم يحملقون في وجهي أبصارهم، وذلك الغضب المتزايد الذي يختلط بسلوكهم حيال هذا العضو الجديد في جماعتهم، أو هذا السجين الذي كان يومًا من «السادات» المتعلمين، بل ذلك الغضب النافر الذي يقترب أحيانًا من حدود الكراهية والبغضاء. وكان ألمي من ذلك كله شديدًا بحيث أثار في نفسي الלהفة على أن أبدأ الشغل، لكي أتبين وأبلو وشيكًا كل محنة سأمتحن بها، وأن آخذ في العيش كما يعيش الآخرون، وأندمج في بؤرتهم بغير إبطاء. وليس من شك في أن هناك أشياء كثيرة لم أكن قد لاحظتها بعد، أو لم تكن لدي أية فكرة عما أنا غداً مرتقبه، ولم أكن أتوقع عزاء من وسط كان كل شيء فيه سيئًا أليمًا، ولكن الوجوه القليلة الحنون المتوددة التي رأيتها في تلك الأيام الثلاثة شجعتني وبعثت في نفسي الطمأنينة.

وكان «أكيم أكيتمتش» أعطفهم وأكثرهم مودة، على حين رأيت بين الوجوه الأخرى سحنًا كاشرة مليئة بغضًا، وأخرى عاطفة حانية، فجعلت أعزي النفس قائلاً: «إن في كل مكان أشرارًا، وإن بين الأشرار أحيانًا... وما يدريك، لعل في هؤلاء الأشرار من هم شر من أولئك البقية الذين بقوا خارج هذه الأسوار».

وجعلت وأنا أفكر هكذا أهرز رأسي لهذه الفكرة، ولكن رباه! ليتني كنت أعرف في تلك اللحظة التي خطرت فيها تلك الفكرة ببالي أنها صحيحة صادقة.

وهنا - مثلاً - رجل لم أستطع أن أفهمه حق الفهم إلا بعد عدة سنين، مع أنه كانه معي ودائمًا بجواري أكثر الوقت.

وكان هذا السجين يدعى «سوشيلوف». وما كدت أتحدث هنا عن السجناء وكيف أنهم ليسوا شرًا من سواهم، حتى تذكرته رغبًا مني، وتمثلته بغير إرادتي فقد اعتاد أن يخدمني، وكان لي تابع سواء، فقد اقترح علي «أكيم أكيمنتش» من أول الأمر أن أستخدم سجينًا يدعى «أوسيب» قائلًا إنه لقاء ثلاثين كوبيكًا في الشهر سيتولى طهو طعامك كل يوم إذا عفت غذاء السجن، وكان عندي من المال ما يكفي لشراء أغذيتي، وكان أوسيب أحد طهاة أربعة اختارهم السجناء للعمل في المطبخين المخصصين لنا، وكان هؤلاء أحرارًا في قبول هذه المهمة أو رفضها، أو التنحي عنها في أية لحظة يشاؤون، وهم معفون من الشغل في الخارج، ولا يزيد عملهم عن صنع الخبز وإعداد الحساء، وهم لا يدعون طهاة أي ذكورًا - بوفار - بل «طابخات» - بالمؤنث - ستريابكي - لا تحقيقًا لشأنهم؛ لأن الذين يختارون لهذا العمل ينبغي أن تتوافر فيهم قدر الإمكان الحكمة والأمانة، ولكن على سبيل المجون أو من قبيل «النكته»، فلم يغضبوا منها ولم يتبرموا. وكان أوسيب أحد الذين وقع الاختيار عليهم للعمل في المطبخ، فلبث طاهيًا عدة سنين، فلم يكن ليتنحى إلا فترة من الوقت حين تغلب عليه كآبة شديدة، أو تستأثر به لهفة على تهريب «الفودكا»، وكان رجلًا نادرًا في النزاهة ولطف الحاشية، وإن كان قد سجن بتهمة التهريب، وهو العملاق الصلب العود الذي أسلفت

الحديث عنه، وكان الرجل في كل شيء، وبخاصة عقوبة «الجلد»، المتحجب إلى كل أحد، الحليم الرفيق اللين العريكة، لا يدخل أبدًا في شجار، ولكن الولوع بالتهريب استبد به، فلم يكن يستطيع مقاومة هذه اللهفة، رغم خوفه وجبانتته، وقد راح كغيره من الطهاة يتجر في «الفودكا»، ولكن إتياراه لم يكن واسع النطاق كدأب «جازان» مثلاً؛ لأنه لم يؤت جرأته على اقتحام المخاطرة والمغامرة، وأراحني أوسيب بحسن معاملته فلم أكن يوماً أضيق به، وكانت النفقة على شراء طعام خاص تافهة، ولا أحسبني مخطئاً إذا قلت إنني لم أكن أتجاوز على طعامي أكثر من «روبل» واحد في الشهر، عدا الخبز، فقد كان يصرف من السجن وخلا الحساء أحياناً، إذا اشتد بي الجوع تناولته، وأنا له الكاره العافف، ولكن هذه الكراهية أيضاً زالت مع الأيام، وكنت عادة أشتري رطلاً من لحم البقر في اليوم، وكان ثمنه في الشتاء نصف بنس، وقد اعتاد أحد الجنود القدامى الذين يقيمون في العنابر مع السجناء لحفظ النظام أن يذهب إلى السوق لشراء اللحم، وكانوا يتطوعون لشراء ما يطلبه منهم السجناء، أو يكلفونهم في كل يوم ابتياعه، نظير جعل تافه لا يكاد يذكر، إذ كانوا يفعلون ذلك إرضاء لهم، حتى لا يتعبهم أحد، أو يرنق عليهم صفوهم، ولو رفضوا لما أطاقوا العيش في العنابر معهم، فكانوا يشترون التبغ وقوالب الشاي ولحم البقر والخبز «الخاص» وما إليها أو كل شيء عدا «الفودكا» إذ لم يكن أحد يطلب إليهم شراءها، وإن كانوا أحياناً يتخفون بها لمتعة المعاقرة.

وظل أوسيب أعواماً يشوي لي قطعة من اللحم، لا تختلف واحدة عن الأخرى قطعاً أو حجماً، أما كيف كان يشويها فمسألة أخرى، أو في الواقع أمر لا يهم، ومن الغريب أنني لم أبادل أوسيب الكلام سنين طوَّالاً،

وكنـت أـحـاول مـرارة أن أتحدث إليه، ولكنه كان أبداً العاجز عن المضي في الحديث، بل كان يبتسم ويجيب بنعم أو لا، ثم لا يزيد شيئاً، والعجيب أن يكون هذا الجبار القوي الشديد الأسر أشبه بطفل في السابعة.

وكان السجين الآخر القائم على خدمتي هو «سوشيلوف»، ولم أطلب إليه ذلك ولم ألتسمه، ولكنه هو الذي اكتشفني ووضع نفسه رهن أمري طائعاً مختاراً، ولست أذكر كيف وقع هذا ومتى، وكان يغسل لي ثيابي، فقد أعد السجن لنا حفرة كبيرة لتفريغ الماء خلف المبنى، وكانت أحواض الغسيل مقامة فوق تلك الحفرة، فكانت ثياب المساجين تغسل فيها. وجعل سوشيلوف يخترع أعمالاً ويبتكر أشغالاً لإرضائي؛ فكان يعد لي الشاي ويؤدي مختلف المطالب «والمشاوير»، ويأخذ ردائي لإصلاحه، وينظف أحذيتي ويظليها بالشحم أربع مرات في الشهر، وكان يفعل ذلك كله بنشاط وهنكرة، كأن أحداً لا يعرف أنواع العمل الذي يقوم بتأديته. والواقع أنه قرن قسمته في السجن بقسمتي، وتولى كل شيء عني، فلم يكن ليقول مثلاً: «إن لديك كذا قمصاناً، وسترتك ممزقة» بل كان دأبه أن يقول: «إن لدينا كذا قمصاناً وسترتنا ممزقة»؛ وكان يرقب حركاتي وسكناتي ليتعرف حاجتي ويتنبأ بطلباتي، ويجعلها أكبر همه في الحياة، ولم تكن له صنعة، ولا أحسبه أن يصيب من المال غير ما كان يأخذ مني، وكنـت أدفع إليه ما أستطيع دفعه، أنصاف بنسات، فكان بها القانع الراضي، وكان لا بد لمثله من العثور على امرئ يتولى خدمته، فوقع من قسمتي، وأحسبه قد ارتضاني، لما رأى من كثرة مراعاتي للناس ونزاهتي في الأجر، فهو أحد أولئك الذين لن يتاح لهم الغنى في هذا العالم، ولن يتواتى لهم اليسار في هذه الدنيا، بل كان من أولئك الذين يرتضون القيام حراساً على حلقات القمار، فيقفون الليل طوله

في الردهة وسط الزمهير، منصتين لكل صوت في الفناء، أو حركة تنم عن حضور «المأمور»... وكان كل أجرهم خمسة مليمات، فإن أخطأوا الحراسة فقدوها جميعاً، وتقاضاهم الإهمال دفع الثمن، وهو الضرب والأذى من أيدي الذين استأجروهم، وقد وصفتهم فيما مر بك، فإن أبرز ما في خلائقهم هو محوهم لشخصياتهم، في كل مكان يحلون به، وكل زمان يحبونه. وهم أمام الناس لا يؤدون غير دور «ثانوي» بل هم الطبقة «الثالثة» - الترسو - في كل شيء، وهو طبع مركب فيهم.

وكان سوشيلوف مخلوقاً يرثى حقاً له، وإنساناً بلا روح، مستندلاً محطوماً، يائساً، وإن لم يسيء أحد إليه، ولكن الطبيعة هي التي أبت إلا أن يداس بالأقدام. وكنت أبداً أحس لسبب ما الأسف له، وكلما نظرت إليه شعرت هذا الشعور نحوه، وإن لم أدر لذلك سبباً؛ وما كان في وسعي الحديث معه أيضاً لأنه لا يحسن الكلام ويجد المشقة فيه، فلا يثوب إلى نفسه إلا حين أنتهي من الكلام، بتكليفه عملاً ما أو إفاده إلى موضع أو «مشوار»، حتى اقتنعت أخيراً بأني بهذا التكليف أو الإيفاد قد أنعمت عليه، وأثلبت به صدره.

ولم يكن «سوشيلوف» بالطويل ولا بالقصير، ولا هو بالحسن الصفحة، ولا بقبيحها، ولا هو بالغبي ولا بالذكي، وإنما كان في وجهه أثر الجدرى، وفي رأسه فضلة من الشعر، بل لا يستطيع المرء أن يجد وصفاً قاطعاً معيناً يصفه به. وكل ما أدركته أنه ينتمي إلى الطائفة ذاتها التي ينتمي إليها «سبروتكين»، وأن انتماءه إليها من مجرد خشوعه وخلوه من الشعور والوجدان.

وكان السجناء أحياناً يسخرون منه؛ والغالب أن مرجوع هذه السخرية

إلى قبوله «التبادل»، وهو في طريقه إلى سيبيريا لقاء قميص أحمر و«روبل» واحد، فكانت سخرتهم منه أنه باع نفسه على هذه الصورة بثمن بخس ودراهم معدودة. ومعنى «التبادل» هو تغيير الأسماء، ومن ثم تغيير مدد الأحكام والعقوبات، مع الغير من المحكوم عليهم. وهو أمر يبدو غريباً، ولكنه واقع فعلاً، وقد راج في أيامنا بين المساجين، وهم قادمون إلى سيبيريا، وهي طريقة أقرتها التقاليد، وحددتها بعض الإجراءات الشكلية، ولم أصدقها في أول الأمر ولكنني اقتنعت فيما بعد لأنني شهدتها بعيني.

وإليك الطريقة....

تنقل طائفة من المحكوم عليهم إلى سيبيريا، بعقوبات مختلفة، بينهم من قضي عليه بالأشغال الشاقة في «الليمانات»، وآخرون بالأشغال في المصانع، وغيرهم بالمقام في الدساكر أو المستعمرات، فيسافرون معاً، فإذا وصلوا إلى موضع على الطريق كولاية «بيرم» مثلاً، طلب أحدهم التبادل مع سواه، كأن يبدو لأحدهم، ولنسمه مثلاً «ميخيلوف»، عقب الحكم عليه في جناية قتل أو أية جنایات خطيرة مثلها، أن البقاء في السجن مع الأشغال الشاقة مصير لا يطاق ومستقبل لا يغري، ولنفرض أنه مخلوق خبيث ماكر دار مع الدنيا، فهو يعرف من أين تؤكل الكتف، فلا يلبث أن يحاول البحث عن آخر في القافلة المسافرة إلى أصقاع سيبيريا من بين السذج والخانعين المستندلين، لتوفية حكم خفيف، كالنفي أو قضاء بضع سنين في بعض المصانع «الورش»، أو حتى الأشغال الشاقة لمدة أقصر، فلا يعدم واحداً كسوشيلوف هذا، ذاهب للإقامة في إحدى المستعمرات، وقد قطع على قدميه ألفاً وخمسمائة ميل، وليس في جيبه درهم واحد؛ لأن أمثاله لا يملكون في حياتهم شيئاً، وهو في إعياء بالغ، وتعب شديد، لا يأكل غير طعام السجن،

ولا أمل له في الظفر بلقمة طيبة، وهو في لبسة الليمان، لا يقتني من الثياب كساء صالحًا، وهو التابع الساعي في خدمة الآخرين لقاء بضعة دراهم، فماذا يصنع «ميخايلوف» حين يقع على مخلوق من طراز «سوشيلوف» غير أن يتعرف إليه، بل يتودد، ويتلطف، ويطلب له في بعض المحطات شرابًا، وأخيرًا يقترح عليه أن يتبادلًا ويعرفه باسمه، وينبئه بكذا وكيت، ويقول إنه ليس ذاهبًا إلى سجن بل إلى «قسم خاص»، وهو نوع من السجون، ولكنه أفضل مقامًا وأحسن منها منزلًا، وأحسب أن خلقًا كثيرًا من الناس حتى بين الموظفين في العاصمة ذاتها لم يسمعوها بشيء يقال له «القسم الخاص» ولا يعرفون أنه «سجن» من نوع معين في أحد أصقاع سيبيريا النائية، وأن عدد السجناء فيه محدود، فلا يزيد في وقت ما عن سبعين سجينًا، ولعل هذا هو السبب في أنهم لم يسمعوها به، وقد لقيت فيما بعد قومًا سبقت لهم خدمة الدولة في سيبيريا فعرفوها حق المعرفة، ولكنهم لم يسمعوها بذلك القسم إلا مني، وليس في القانون منه غير ستة أسطر، لا يتجاوز معناها غير قوله: «وسيقام في سجن كذا قسم خاص لشرار المجرمين ريثما تعرض أعمال أو مشروعات تقتضي الأشغال الشاقة في سيبيريا». ولا يعرف السجناء فيه أنفسهم هل هو سجن ثابت أم موقوت، وهكذا رأينا النص لا يحدد وقتًا، بل كل ما ورد فيه أنه «ريثما تعرض أعمال...»، ومن هنا كان المراد أنه مأوى للسجناء المؤبدين.

فلا عجب إذا كان سوشيلوف وبقية القافلة لا يدرون عنه شيئًا، حتى ميخايلوف نفسه، فإن كل ما يتصوره عنه يرجع إلى جسامه جريمته، بعد أن تلقى مقدمًا ثلاثة آلاف عصا أو أربعة آلاف، ولا يبعد طبعًا أن يكون قد أدرك من هذا ونحوه أنه مرسل إلى مكان غير لطيف. أما سوشيلوف فذاهب

إلى إحدى المستعمرات، فهل ثمة موضع أطيب، أو منزل أفضل... فإذا ما قال له «ميخايلوف»: هل تحب أن نتبادل؟ لم يسعه وهو الساذج الثمل من الشراب الذي طلب له، والصنيع الذي غمره ميخايلوف به إلا القبول، فلا يجرؤ على الرفض فضلاً عن أنه سمع من الآخرين أن «التبادل» جائز وأن قومًا تبادلو من قبل، فليس في الأمر شذوذ ولا غرابة ولا جديد، ولا يلبث الرجلان أن يتفقا، ويستغل ميخايلوف الجريء الداهية سداجة سوشيلوف الأبله، فيشتري منه اسمه لقاء قميص أحمر وروبل فضية، يدفعهما إليه أمام شهود، ويصحو سوشيلوف في الغداة مفيقًا، وقد ذهبت الخمر عنه، فيعطي شرابًا مرة أخرى، ومن المهانة أيضًا أن يرجع المرء في صفقة عقدها، ولا تلبث قطعة «الروبل» أن تذهب في شراء الخمر ويلبثها القميص الأحمر وشيكًا، وإذا هو لم يقم على عهده، وتراجع عن الاتفاق، كان ملزمًا أن يرد النقود، فمن أين لمثل سوشيلوف أن يظفر بروبل فضية، وإذا لم يدفع أرغمه القوم إرغامًا، وهي مسألة يتشدد القوم فيها كل التشدد، إذ ما دام قد تعهد فليقم على تعهده، وإذا لم يفعل أكلوه أو افترسوه افتراسًا، وقد يضربونه أو يهددونه بالقتل إذا لم يذعن.

والواقع أنه لو تمادى القوم في هذا الأمر لقضي على هذه الطريقة، ولم يعد أحد يلجأ إلى التبادل، إذ لو جاز الرجوع عن العهد وفسخ الاتفاق بعد تناول المال، فمن ذا الذي يقيم على العهد بعد ذلك، وهذا في الواقع أمر يخص الجماعة، ويرتبط الكل به، ومن هنا كان تشددهم فيه واستمسكهم به، فلا يلبث سوشيلوف أن يدرك أن لا مخرج له فيذعن صامتًا بغير تبرم ولا احتجاج، ويعلم القوم جميعًا، ويرشي الآخرون بالشراب والمال إذا اقتضى الأمر، وسواء لديهم أي الرجلين ذاهب إلى الشيطان، ما داموا قد

شربوا واستمتعوا، فلا عجب إذا هم أمسكوا ألسنتهم، وحين تقبل القافلة إلى المرحلة التالية على الطريق يتمم عليهم بالمناداة، فإذا نودي «ميخايلوف» أجاب سوشيلوف «حاضر» وحين ينادى هذا باسمه يجيب الآخر عنه. ثم يواصل الجمع السير وينتهي الأمر بلا مزيد من الحديث. وفي طوبولسك يفرزون، فيرسل الأول إلى إحدى المستعمرات والآخر إلى «القسم الخاص»، ويعين عليه حرس إضافي فيصبح الاحتجاج بعدئذ مستحيلًا، ولو اشتكى سوشيلوف، فأى دليل لديه يدعم به شكاته، وكم من السنين يستغرقها التحقيق في مسألة من هذا القبيل، ألا يجوز أن يجد في أمره شيء... وأين أشهاد... ولو جاء بشهداء لأنكروا وأبوا أن يؤيدوه... فلا محيص عن قبول القميص الأحمر «الروبل» الفضية، نظير ذهابه إلى «القسم الخاص».

وإذا كان السجناء قد ضحكوا منه ساخرين، فما كانت سخريتهم منه لأنه ارتضى «التبادل»، وإن كانوا في الواقع يحتقرون أن يتبادل أحد حكمًا قاسيًا بحكم خفيف، ويسخرون بالسواء من المغفلين والحمقى الذين تدخل عليهم الخديعة، بل لأنه ارتضاه لقاء ثمن بخس، قميص أحمر وروبل واحد، فإن السجناء عادة يتقاضون مبلغًا كبيرًا لقاءه، وأحيانًا لا يقبلونه إلا إذا أخذوا عشرات من الروبلات، ولكن سوشيلوف من الخانعين المستذلين، فهو ضئيل القدر في أعين الجميع حتى لا يستأهل مجرد الضحك منه.

ومضت علاقتي بسوشيلوف طيبة عدة سنين، فأصبح شيئًا فشيئًا متفانيًا في خدمتي كل التفاني، وبدا لي ذلك جليًا فلم يسعني أنا أيضًا إلا التعلق به، ولكنه في ذات يوم لم يفعل ما طلبته منه، وإن كنت قد نفحته بشيء من المال، فقلت له بقسوة لن أغفرها لنفسى: «أناخذ المال يا سوشيلوف ولا تفعل ما سألتكه» فلم يحر جوابًا وأسرع ليؤديه، ولكنه انفلت فجأة حزينًا مكتئبًا،

وانقضى يومان فقلت لنفسي: لا أظنه يبدو كذلك لما قلته له، وكنت أعرف أن سجيناً يدعى «أنطون فاسيليف» كان يرهقه لدين يسير، ومضيت أقول لخطاري: «أكبر ظني أنه لا يملك مالاً وأنه يخاف أن يسألني»، وفي اليوم الثالث قلت له: «يا سوشيلوف، أحسبك تريد أن تطلب مني مالاً لتسدّد دين أنطون فاسيليف، فهاكه» وكنت جالساً فوق فراشي وهو واقف قبالي، فبدأ التأثير عليه بالغاً من عرض المال عليه، وتفكيره من تلقاء ذاتي في متاعبه، وبخاصة لأنه كان من جانبه يرى أنني أجزلت له العطاء في الأيام الأخيرة، فلا مجال للأمل في مزيد، وراح ينظر إلى المال ثم إلى وجهي وانقلب فجأة منصرفاً، فبلغت مني الدهشة كل مبلغ وانطلقت في أثره ووجدته خلف السجن واقفاً قبالة السور مطرقاً معتمداً بالسياج.

قلت: ماذا بك يا سوشيلوف؟

ولكنه لم يدر بعينه نحوي، وتبين لي وأنا منه في دهشة شديدة أنه يوشك أن يبكي.

قال بصوت منقطع وهو يحاول أن يتولى عني بصفحته: «يا أليكسندر بتروفيتش، هل تحسبني... أؤدي لك ما تريد... من أجل المال... ولكني... أواه...».

ولم يتم، وإنما تولى مرة أخرى إلى السور بوجهه ضارباً جبهته به وانفجر في نحيب.

وكانت تلك أول مرة أشهد فيها رجلاً في السجن يبكي، فأقبلت عليه أواسيه جاهداً، ولئن كان قد مضى بعد ذلك أكثر تلبية لخدمتي وأوفر حماسة، فقد تبين لي من أمارات خفية لا تكاد تبدو للعين أن قلبه لا يمكن أن

يغفر لي ذلك اللوم الذي وجهته إليه، وإن كان غيري من السجناء يضحكون منه في كل حين ويهزأون به، وأحياناً يشتمونه ويسبون له الأخضرين، وهو المتحجب إليهم المتلطف، لا يتألم يوماً، ولا يتأذى مما يفعلون به.

حقاً ما أشق فهم الإنسان، حتى بعد طوال السنين!!....

وهذا هو الذي جعلني لا أرى السجناء في أول الأمر على حقائقهم أو على ما بدوا يتراءون لي عبر السنين، بل هذا هو ما حملني على أن أقول إنني على فرط تدقيقي في تدبر الأشياء، ولهفتي على معرفتها، وتركيز اهتمامي في كشف خفاياها، لم أستطع أن أدرك شيئاً كثيراً مما كان يلوح أمام عيني، وكان من الطبيعي أن تبدهني في البداية أبرز الحقائق، وأجلى الوقائع. ولكن أكبر الظن أنني كنت أنظر إلى هذه أيضاً نظرة خاطئة، وأن كل ما تركته في نفسي لم يكن سوى إحساس مرهق، وشعور كئيب قاتم، وهو ما لبث قائماً في أعماق نفسي حتى لقيت «أ.....» السجين الذي وصل إلى السجن قبل مقدمي بوقت قصير، والذي أحدث في مشاعري أثراً أليماً لا عهد لي بمثله في الأيام الأولى من حياتي في السجن، وكنت أعرف قبل دخولي أنني سألقي «أ.....» هذا فيه، فلما التقينا راح يسمم أيامي الأولى خلف جدرانه، ويزيد في عذابي النفسي، فلا أملك الساعة غير الحديث عنه.

لقد كان هذا الرجل أبشع مثل على مدى الوهدة ومبلغ الانحطاط الذي يمكن أن يتردى الإنسان فيه، والحد الذي قد يصل إليه تدميره لكل خليفة كريمة فيه، بغير مشقة ولا وخز ضمير.

كان أ..... فتى من أسرة طيبة أسلفت عليك ذكرها، حين تحدثت عن نقل أخبار السجناء إلى «الميجور» وتودده لتابعه «فيدكا».

وإليك موجز قصته...

لقد اشتجر مع أهله في موسكو لسوء سلوكه، فذهب إلى «بترسبرج» قبل أن يتم دراسته، ومضى في سبيل كسب المال ينقل معلومات إلى البوليس بوسائل مشينة وأساليب نكراء، يبيع بها عشرات النفوس بيعاً؛ لإشباع شهوته الجائعة الساغبة، لأشنع الملذات، وأبشع المحارم. وفتنته مغريات المدينة ومشاربها، فأدمن لذاته، وأقبل كل الإقبال على شهواته، حتى اجتراً، وإن لم يكن بالغبي ولا بالأبله، على خطة جنونية أبعد ما تكون من الحكمة، فلم يلبث أن افترض أمره، وكشفت خبيثته، وتبين أنه بنقله معلومات إلى الشرطة أساء إلى أبرياء، وخدع الآخرين، فحكم عليه بالسجن عشر سنين، وجاء إلى سجننا ليقضيها وهو لا يزال في نضارة العمر، والحياة قد بدأت تفتتح أمامه، وكان من المتوقع أن يكون هذا الانقلاب الرهيب الذي طرأ على مصيره قد أحدث أثراً كبيراً في خليقته، وجمع كل قوى المقاومة فيه، وبدله تبديلاً، ولكنه ارتضى حياته الجديدة هادئ الأوصال، وأقبل عليها غير متأثر، ولا متمرد، ولا كاره نافر، بل بالعكس لم يعفها، ولم يثأب عليها، ولم يخفه منها شيء غير الاضطرار إلى العمل والحرمان من الحانات والمشارب ومراكز اللذات في المدينة، بل بدا له فعلاً أن مركزه كسجين أطلقه حرّاً يرتكب ما هو أبشع من قبل وأنكر إثمًا، وكان في ذلك القائل: «ما دام المرء سجينًا، فليكن كذلك، وليفعل المنكرات ولا بأس عليه منها ولا معاب...».

ذلك كان رأيه، وإنني لأعد هذا المخلوق المنفر الكريه ظاهرة، وقد قضيت عدة أعوام في وسط القتلة والأشرار والمجرمين، ولكنني أستطيع أن أقول إنني لم أر في حياتي كلها سقوطاً أدبيًا تامًا كهذا، ولا شهدت يومًا فسادًا كهذا الفساد، ولا سفالة أدنى من هذه السفالة، فقد كان من بيننا سجين

قتل أباه، كما حدثتك من قبل، ولكنني مؤمن بأنه من عدة وجوه كان من غير مقارنة أنبل وأرفق من «أ.....» هذا، فقد ظل طيلة مقامي في السجن يلوح لي مجرد كتلة من لحم وأسنان ومعدة وظمأ لا يرتوي وتعطش شديد لأكثر اللذات بهيمية، وأحقر الشهوات صنوفاً، وهو القدير في سبيل إشباع أنفها شأناً وأشدها ثقلياً، وأغربها أطواراً، على سفك الدماء، وقتل النفس الزكية، واقتراف أي جرم إذا تيسر له إخفاء معالمه.

ولست فيما أقول مغالياً، فقد عرفني الأيام أي مخلوق هو، وأفهمني أنه مثل لما قد يصل الإنسان إليه إذا لم يكبح جماح جانبه المادي، أو شهواته الجسدية، وازع من خلق أو زاجر من مبدأ. ولشد ما كنت أثور، وتتمرد نفسي وتتقزز كلما لمحت على وجهه ابتسامته الساخرة المستهترة التي لا يفتر عنها.

لقد كان حيواناً بشعاً، ومشوهاً خلقياً، زد عليه أنه الماكر، البارع، الوسيم، المتعلم، أخو المواهب، ولكن مثله هو شر من الوباء في المجتمع والنار والطوفان والمجاعة...

وقد سبق أن قلت: إن السجن كان مليئاً بفساد شديد وإن الجاسوسية والخيانة والغدر رائحة فيه، وإن السجناء لم يكونوا من تفشيها بينهم غضاباً ولا متبرمين، بل لقد كانوا بالعكس متوددين لصاحبنا أ.... هذا وأكثر نلطفاً إليه منهم لنا، فإن الدلالة التي كانت له على «الميجور» السكير رفعت من شأنه لديهم وأثقلت موازينه، كما ذهب هو أيضاً يقنعه بأنه يجيد الرسم والتصوير ويحمل السجناء كذلك على التصديق بأنه كان ضابطاً في فرقة الحرس، فألح الميجور على إرساله إلى بيته ليرسم صورة زيتية له بالطبع، فعرف كيف يصانع تابعه «فيدكا» الذي كان له نفوذ خارق للمألوف في نفس

سيده، وهو نفوذ جعل له سلطاناً على كل من في السجن وكل ما فيه، فكان أ.... يقوم بدور الجاسوس بيننا لقضاء حاجته والانصياع لأمره. وكان هذا إذا ضربه بجمع يده في وجهه راح في العادة يسبه قائلاً: إنه جاسوس وخائن، وقد يحدث أحياناً أو في الغالب على الأصلح أن يجلس «الميجور» ويأمر أ.... أن يمضي في رسمه ونقشه عقب ضربه رأساً. والواقع أن «الميجور» كان يعتقد أنه رسام بارع، لا يكاد يقل عن «برولوف» الذي سمع به، ولكنه في الوقت ذاته كان يعتقد أنه من حقه أن يلطمه على وجهه. وأكبر الظن أنه كان يرى أنه الآن سجين ليمان، وإن كان الفنان الصانع الماهر، وأنه حتى ولو كانت براعته الفنية عشرة أمثال براعة «برولوف» فلا يزال «الميجور» فوقه منزلة، وأكبر منه قدرًا، وأنه لهذا يستطيع أن يفعل به ما يشاء، فكان مثلاً يأمره بأن يخلع له نعليه أو بنقل قذارة، وإن ظل طويلاً عاجزاً عن التغلب على اعتقاده أنه الرسام العظيم.

ولبت هذا الفنان متراحياً في رسم الصورة حتى سلخ فيه عامًا أو قرابته ولم ينته، فأدرك الميجور أخيراً أنه قد خدع، وأيقن أن الصورة لن تتم، وأنها بالعكس راحت كل يوم أقل شبهاً به من اليوم السابق، فاستشاط غيظاً وضرب الفنان «علقة»، ورده إلى السجن ليؤدي أشغالاً شاقة عقاباً له. ولا ريب في أن أ.... أسف على هذه الخاتمة، وأحس مرارة خسارة أيامه الناعمة وزمان الرغد الذي استمتع به، وتناول «الفتات» المتخلف من مائدة الضابط، ومرافقة تابعه «فيدكا» والمتع التي كانا يبتكرانها في مطبخه، وعلى كل حال لم يلبث الميجور بعد أن تخلص من أ.... أن كف عن اضطهاد م.... وهو سجين كان ذلك الجاسوس يشي أبداً به عنده.

وكان م.... يوم جاء أ.... إلى السجن السجن السياسي الوحيد فيه،

وكان في شقاء شديد وبؤس مقيم، لا يشارك السجناء الآخرين شيئاً، ولا يأتلف معهم، وإنما ينظر إليهم بعين الاستنكار والنفور، ولا يراعي ما قد يحبه إليهم، أو يوفق بينه وبينهم، فلبث منهم في معزل، ولم يعرف كيف يسايرهم، فقابلوه بمثل كراهيته، وبادلوه مقتاً بمقت.

والواقع أن مركز سجين سياسي من طراز م... هذا سيء في العادة أليم، ولم يكن يعلم ما هي الجريمة التي اقترفها أ.... وساقته إلى «الليمان»، ولم يتوان هذا، وقد أدرك أي رجل هو في تأكيد القول له أنه إنما عوقب على تهمة لا تمت إلى «الخيانة» بسبب، وكانت هذه التهمة الأخيرة هي التي حوكم بها م.... بالذات، فاغتبط هذا أشد الاغتياب بوقوعه على رفيق له وصديق، ومضى ينشط لخدمته في أيامه الأولى من السجن ويعمل على تسليته والتسرية عنه، متصوراً أنه لا بد من أن يكون في بؤس شديد وهم بالغ، وأنشأ يعطيه مالا ويغذيه، ويبض بآخر درهم لديه، ويقاسمه الضروريات، ولكن أ.... أضمر له البغضاء من أول وهلة، وأكن له الحقد لا لشيء سوى أنه رجل رفيق الخلق، تنفر نفسه من الدنيا، وتعف عن المنكر؛ ولأنه إنسان من طراز غير طرازه، فكان كل ما يقوله م.... عن الميجور والسجن، يبادر أ.... في أول فرصة تسنح له إلى نقله للمأمور، فأضمر هذا أشد الكراهية له، وأخذ في اضطهاده، ولولا تدخل حاكم الليمان لانتهى الأمر بفاجعة. ولم يعبأ أ.... حين تبين م.... فيما بعد مدى سفالته، بل بالعكس مضى غير مكترث إليه، وجعل ينظر إلى وجهه ساخراً متهكماً، فقد سره ما عرف الآخر عنه وأرضاه. وقد حدثني م.... عن هذا عدة مرات. وقد حدث بعدئذ أن فر هذا المخلوق المهين مع سجين آخر وحارس، ولكنني سأعود إلى هذا الحادث فيما سيلي من الكتاب وكان في أول الأمر قد أراد أن يطويني ويخدعني في حقيقته، ظناً

منه أنني لم أسمع بقصته، ولا أزال أكرر أنه سمم أيامي الأولى في السجن وجعلها أشقى وأنكد، حتى لقد روعني أن أدرك إلى أي وهدة مهينة ودرك سافل هبطت، وأي محيط وجدنتي قد ألقيت في بهرته، وبدالي أن كل شيء هنا حقير مهين، ولكنني كنت في ذلك مخطئاً لأنني جعلت أ.... قياسي، ووزنت الناس من حولي به.

وقضيت تلك الأيام الثلاثة الأولى هائماً في السجن على وجهي، أو مستلقياً على فراشي، وأعطيت القماش الذي صرف لي إلى سجين موثوق به كان أكيم أكيمنش قد اقترح عليّ الالتجاء إليه ليصطنع من ذلك القماش قمصاناً لي، مقابل أجر طبعاً لا يتجاوز بضعة دراهم عن كل قميص، وتزودت بناء على نصيحة أكيم أيضاً «بمرتبة» تطبق وتنشر مصنوعة من اللباد، ولها غطاء من التيل، ولكنها في رقتها وقلة سمكها متناهية، وابتعت أيضاً وسادة محشوة صوفاً، وهي جامدة إلى حد أليم حتى يألّفها المرء ويعتادها. وكان «أكيم» منهمكاً في إعداد ذلك كله لي والمعاونة على الظفر به، وراح يصطنع بيديه لحافاً من خرق قديمة اقتطعها من سترات وسراويل مهجورة كنت اشتريتها من بعض المساجين، والعادة أن تصبح ملابس السجن، حين تبلى، ملكاً له، فلا يني في بيعها مهما تكن من القدم والبلى؛ لأنه يرجو أن يصيب من يبيعها أي شيء. وكان ذلك كله في بداية أمري مثار عجبي وموضع دهشتي، وكان هذا هو أول لقائي وصلاتي بأناس من طبقة الفلاحين، وقد وجدنتي بينهم فجأة من أفراد هذه الطبقة الوضيعة ذاتها سجيناً كبقية السجناء، عاداتهم عاداتي، وأفكارهم أفكار، وإيلافهم إيلافي من الناحية المظهرية، والوجهة القانونية، وإن لم أشاركهم في الحق شيئاً منها، فلا عجب إذا ارتبكت وبهت كأني لم أسمع من قبل بها، ولم أكن

أتوقعها، ولكنني كنت في الواقع قد سمعت وعلمت، ولكن الحقيقة تحدث في النفس أثرًا غير ما يحدثه فيها السمع والعلم. فمثلاً لم يكن يخطر لي ببال أن الخرق البالية يمكن أن ينظر إليها كأنها أشياء ذات قيمة أو سعر، ولكنني مع ذلك استطعت أن أصطنع منها «مضربية» أو لحافاً، وما كنت أتصور أن السجناء يصرف لهم قماش كذلك القماش، فقد كان يبدو كالنوع السميك الذي يستخدم في الجيش، ولكنه لا يلبث بعد قليل أن يصبح كالغربال مزقاً وأسمالاً، وإن كانت الملابس المصنوعة منه مقدراً لها أن تمكث سنة، ولكن كان من الصعب أن تتحمل هذا الوقت الطويل كله، فإن السجن يشغل ويحمل أثقالاً، فلا غرو إذا بليت وشيكاً وامتلات ثقباً. والمقرر أن تعيش السترات المصنوعة من الفرو أو أوبار الأنعام ثلاث سنين، وكان السجناء يرتدونها نهاراً، وتحت الأغطية ليلاً، والمعروف أن السترة المصنوعة من هذا الوبر متينة، ولكن من المشاهد المألوفة أن ترى سجيناً في نهاية العام الثالث بادياً بها مرقعة بقماش عادي من القنب، وقد بعث أرديتي الناحلة من هذا النوع بأربعين «كوبيكا» في نهاية المدة المقرر لها. وإن كانت السليمة منها نوعاً، قد تباع بستين أو سبعين، وهو قدر كبير من المال في السجن.

وكان المال كما قلت من قبل ذا قدر لا يستهان به في الليمان وخطر عظيم، حتى ليصح لك أن تقول وأنت مطمئن إن آلام السجن الذي يملك منه شيئاً مهما صغر قدره، أقل من عشر معشار آلام الآخر الذي ليس لديه منه شيء، وإن كان هذا يتناول من السجن كل شيء مقرر له، فلا حاجة به إلى المال كما يقول ولادة الشأن، ولكنني أكرر القول بأن السجناء لو لم يتيسر لهم الحصول عليه لذهبت ألبابهم، وفقدوا عقولهم، أو لमतوا متساقطين كالذباب، وإن قال ولادة الشأن إنهم مزودون بكل شيء، أو للجأوا إلى

أساليب من العنف لا تخطر بالبال، بعضهم من فرط البؤس، وآخرون لكي يموتوا خلاصًا مما هم فيه، أو على حد «التعبير الفني» لكي يغيروا الحظ. أما أن السجين بعد الظفر بمال من الجهد المضني، أو المكر الشديد، أو في الغالب من السرقة والنصب ينطلق يبدده غير حافل ولا مكترث، أو في أنفه الأشياء، كما يفعل الأطفال الصغار، فليس ذلك دليلًا على أنه لا يقدر المال وإن ظن الناس ذلك لأول وهلة، فإن السجين منهم به إلى حد الجنون، فإذا ألقى به بعيدًا وبدده تبديدًا، لشيء لا قيمة له ولا قدر، فإنما يفعل ذلك اعتقادًا منه أن ما ينفقه فيه أكثر قيمة وأعلى قدرًا. ولكن هل هناك ما هو أعلى من المال عنده... نعم: هناك «الحرية» أو ما يشبه الحلم بها... فإن السجين حالم كبير، ولعلي محدثك عنه من هذه الناحية في موضع آخر، ولكنني حسبي هنا أن أقول، والشيء بالشيء يذكر، هل يمكن أن يدخل عقلك أنني رأيت سجناء محكومًا عليهم بعشرين سنة، يقولون لي في حديثهم معي، وهم في سكون تام، وطمأنينة عجيبة: «انتظر قليلًا حتى يأذن الله وأتم مدتي... وعندئذ...».

إن كلمة «سجين» ليس لها من معنى سوى إنسان لا إرادة له، ولكنه حين ينفق المال، يثبت أن له إرادة، وأنه رغم القيود والسور الكريه الذي يحبسه عن عالم الله، ويأسره كما يؤسر الوحش في القفص، يستطيع أن يشتري الفودكا التي منعت عنه، وقررت أشد العقوبات عليها، وأن يذهب إلى النساء، وأن يرشو أحيانًا - لا دائمًا - الحراس والجاويشية الذين يغمضون الأعين عن كل مخالفة للقانون والنظام، بل يزهى أيضًا عليهم ويتباهى ويتكبر - فوق البيعة - وهو بالمباهاة أبدًا مولع، ليوهم رفقاءه، ويقنع نفسه كذلك - ولو قليلًا - أنه أقوى مما يظنون، وأكثر حرية مما يحسبون، بل إنه ليستطيع أن يسكر ويعربد

ويصخب، ويحطم ويشتم الآخرين؛ ليثبت لهم أنه على كل ذلك قادر، وأنه شيء في يديه وقبضة يمينه، أي إن هذا المسكين يوهم نفسه أن في مكتته ما ليس له في الواقع شيء منه إطلاقاً. دليل هذا هو سر ما يبدو على السجين، حتى وهو مفيق، من أعراض الزهو والادعاء والتفاخر، وتعظيم نفسه تعظيماً مضحكاً هازلاً ساذجاً عجيباً كل العجب. ولا تنس أيضاً أن لكل هذا ونحوه خطراً خاصاً؛ ومتى كان الأمر منطوياً على مغامرة، واستخفاف بالخطر، فهو لا يخلو من صور الحياة وأعراضها الظاهرة، أو هو على الأقل شيء يشبه الحرية من بعيد، وأي شيء يأبى المرء أن يهب من أجلها.. وهل ترى رب الملايين يضمن بكل ملايين لقاء نسمة من الهواء إذا كانت وقته يوماً في الأخيّة، حتى لتكاد تخمد أنفاسه.

وقد يدهش ولاية الأمور في السجن أحياناً كيف ينقل فجأة سجين قضى بضع سنين هادئاً حسن السير والسلوك، حتى رفع إلى مرتبة «المعلم» أو «الأوسطى»- فوق زملائه لحسن أسوته، إلى رجل سوء، ومخلوق شرير، بلا سبب ظاهر، كأنما قد أصابه مس من الشيطان، فإذا هو يشرب الخمر، ويحدث الشغب، ويجرؤ أحياناً على ارتكاب الفواحش كإظهار الاحتقار الصريح لأحد الضباط، أو اقرار جريمة القتل أو السلب... وإنهم لينظرون إليه ويتعجبون من منقلبه؛ وقد لا يكون سر ذلك وباعته، من جانب رجل لم يكن أحد يتوقع منه شيئاً كهذا، إلا اللهفة الحري الجنونية على التعبير عما في نفسه، وإعلان كظيم شعوره، والرغبة في إظهار شخصيته التي حطمت، ونفسه التي خنقت في أعماقه، وهي رغبة تستولي فجأة عليه، وتبلغ بغته حد الغضب والهياج، والحقْد، والجنة، والتشنج، كما لو أن إنساناً دفن حياً واستيقظ في نعشه وراح يضرب غطاءه ويناضل ليكسره، وإن أقنعه العقل

بأن لا جدوى من محاولته؛ ولكن الأمر في هذا ونحوه ليس للعقل ولكن للأعصاب؛ ثم لا ينبغي لنا أن ننسى أيضًا أن كل محاولة يعتمد السجين إليها للتعبير عن نفسه ينظر إليها في الغالب كجريمة، فلا تختلف المسألة إذن في صغرها أو خطرها، فإن هو أراد أن يسكر فليسكر ملء جوفه، وإن هو أقدم على أمر فليقدم، حتى وإن كان قتلاً وإيداءً بالحياة، وكل المجهود الذي هو باذله لا يعدو الشروع أو الابتداء، فإذا ابتداءً مضى وانبعث، ويوم يسكر لا يرده عن السكر شيء، فمن الخير طبعاً أن لا يدفع به إلى هذا الحد، ولو كان هذا هو المتبع لكان خيراً للجميع.

نعم، ولكن كيف السبيل؟!

الفصل السادس

الشهر الأول

كانت معي فضلة من المال عندما دخلت السجن، فأخفيتُها في بدني على ضالتها خشية أن تؤخذ مني، ودسست عدة روبلات كملجأ أخير بين ثنايا غلاف «العهد الجديد» - الإنجيل - وهو الكتاب الأوحى الذي يسمح به في السجن، وكان هو والمال الذي حشرته بين تضاعيف جلده قد تلقته في «طوبولسك» من أناس كانوا منفيين مثلي، ويعدون أعوام منفاهم بالعشرات، وقد ألفوا من عهد طويل أن يعدوا كل «منكوب» أخاً لهم، وما أحسب سيبيريا خلت يوماً من قوم جعلوا همهم في الحياة العطف على المناكيد ورعايتهم والرحمة بهم، بغير جزاء ولا شكور كأنهم بعض أبنائهم وأفلاذ أكبادهم.

وإني لذاكر هنا في إيجاز حادثاً وقع لي...

كانت في البلدة التي يقوم فيها سجننا أرملة تدعى «فاستاسيا إيفانوفنا»، ولم يكن أحدنا يستطيع التعرف بها وهو في السجن، وكانت تكرس حياتها

للترفيه عن السجناء، وكانت أشد ما تكون نشاطاً في معاونتنا، وليس أحد يدري هل كان ذلك منها لأنها جربت هذه المحنة في بعض أهلها، أو أن إنساناً عزيزاً عليها حكم عليه بتهمة مماثلة^(١)، ولكنها كانت على كل حال تجد السعادة في بذل كل ما تستطيع لنا، وإنه بالطبع لمحدود لأنها فقيرة، ولكننا في السجن كنا نشعر بأن هناك من وراء الأسوار قلباً رحيماً، وكبداً حانية، وصديقة وفية. وكانت كثيراً ما تبعث إلينا بالأنباء وهي أحوج ما نكون إلى سماعها، وعندما غادرت السجن وأخذت الطريق إلى بلد آخر ذهبت إليها لأتعرّف بها، وكانت تقيم في أرباض المدينة في دار قريب لها، ولم تكن بالعجوز ولا هي بالشابة، وما هي بالمليحة ولا بالقبيحة، وليس في وسعك أن تعرف هل هي ذكية أم هي متعلمة، وكل ما يأخذ عينك منها عطف بالغ، وحنو لا حد له، ورغبة لا تقاوم في إرضائك وإراحتك والإحسان إليك؛ كل ذلك كان مقروءاً في عينيها الحانيتين. وقد قضيت أنا ورفيق كان معي في السجن مساءً بجملته عندها، فكانت تتلهف على اشتياق رغباتنا، وتضحك لضحكنا، وتتعجل الموافقة والتأمين على ما نقوله، وتود أن تتحفنا بكل ما تستطيع أن تقدمه إلينا، فجاءت تسعى علينا بالشاي والحلوى واللذائذ، ولو أن لديها آلاًفاً لسرها أن تكون لها مالكة، لا لشيء سوى أن يتيسر لها المزيد من المعونة لنا ولرفقائنا في السجن. وحين ودعناها قدمت إلى كل منا «علبة سجائر» لنحتفظ بها، وقد صنعتها لنا من الورق المقوى، وما كان أبرعها في لصقها وجمع أطرافها، وتغليفها بورق ملون كالذي تغلف به كراسات الحساب في المدارس؛

(١) أي بتهمة سياسية.

ومن يدري لعلها ضحت بكراصة منها لهذا الغرض، وكانت كل علبة مزدانة بحاشية من الورق المذهب لعلها اشترته لتجميلها.

قالت وكأنها تعتذر مستحيية متهية من هديتها «أراكما تدخانان فلعل هذه العلبة تنفعكما».

وقد سمعت قومًا يقولون، بل قرأت فعلًا قولهم: إن أتقى حب الإنسان لجاره هو في الوقت ذاته أكبر «الأنانية»، ولكني لا أفهم أي أنانية في هذه الحالة التي رويتها.

وعلى الرغم من أن المال الذي دخلت به السجن كان ضئيلًا، لم يغضبني كثيرًا أولئك السجناء الذين جعلوا في الساعات الأولى من دخولي، وبعد أن خدعوني ونصبوا عليّ مرة يأتون إليّ ثانية وثالثة ورابعة وخامسة ليقترضوا مني؛ ولكنني أحب هنا أن أعترف صراحة بأنني تألمت في نفسي حين أدركت أن أولئك السجناء لا بد من أنهم بهذا المكر الساذج، والخداع الأبله، كانوا يضحكون مني، ويحسبونني مغفلًا؛ لأنني أعطيتهم نقودًا لخامس مرة يطلبونها، بل أكبر الظن أنهم راحوا يعتقدون أنني قد انطلت عليّ خدعهم، وصدقت مكرهم، في حين أنهم كانوا سيحترمونني كثيرًا لو أنني رفضت سؤالهم، وصرفتهم عني، ولكنني لم أكن أستطيع الرفض، على ما في نفسي من استياء وغيط كظيم؛ لأنني كنت أفكر بجذد ولهفة وقلق خلال تلك الأيام الأولى، في المركز الذي يمكن أن أتخذه لنفسي، فاعترمت طبعًا أن أسلك قبل كل شيء الطريق المستقيم الذي ترصاه مشاعري وبقره ضميري، ولكنني كنت أعرف أيضًا أن هذا ليس إلا كلامًا حكيماً يقال، وأن أمامي - فعلاً - صعبًا جملة لا تخطر مني ببال.

وهكذا رغم كل تلك الدقائق التي شرحتها فيما مر بك بسبيل استقراري في السجن وترك أمري كله «لأكيم أكيمتش» يصرفه، وما كان في ذلك من سلوة لي، ومنجاة من انشغال البال، وجدتني رغم هذا كله منهبًا لحزن مفترس، وغرضًا لاكتئاب رهيب، حتى لقد مضيت بيني وبين خاطري أحيانًا وأنا واقف بسلم السجن عند الشفق أنظر إلى المساجين وهم عائدون من الشغل، متلكئون متسكعون في الفناء، رائحون غادون بينه وبين المطهى، أردد وصف الواصفين لهذه الدار التي جمعتنا، وهي «منزل الأموات».

لقد مضيت أنظر مليًا إليهم، وأحاول أن أعرف من وجوههم وحركاتهم أي خلق هم، وأي نوع من البشر، وما هي نفوسهم وأخلاقهم، وهم يخطرون على عيني بجباههم الساخرة وسحنهم المتهللة، وهي تناقض كثيرًا ما يبدو في السجن، بل يكاد يكون أحد المعالم البارزة فيه، أو وهم يتشائمون أو يتحادثون أو يمشون فرادى بخطى هادئة، غارقين في أفكارهم، سابحي الأخيلة، بين مكدودين يلوح الجمود على صفحاتهم، وبين مغرورين تبدو عليهم سمات الترفع حتى في المحبس، ملقين قبعاتهم في ناحية من رؤوسهم وستراتهم فوق أكتافهم، محملقين حملقة مستهترة جريئة متبجحة، أو باسمين بسمة مستخفة؛ فلم ألث أن مضيت أقول لنفسي: «هذا هو أفقي، وعالمي ودنياي الآن، وعليّ أن أعيش فيه أردت أم لم أرد».

وحاولت أن أعرف شيئًا عنهم فجعلت أسأل «أكيم أكيمتش» الذي كنت أحب أن أتناول الشاي معه حتى لا أجدني وحيدًا، وعلى فكرة، كان الشاي هو كل ما كنت أستطيع تناوله في بادية أمري، ولم يكن أكيم يرفض شربه معي، وكان يعد بنفسه إبريقًا صغيرًا من القصدير للشاي أعارنيه، ولم يكن يشرب في العادة غير قرح واحد، وكان لديه أفداح أيضًا وأكواب، وكان

يرشفه في صمت وهدوء، ويرد الكوب إليّ شاكرًا ثم يعكف على العمل في اللحاف الذي طلبته، ولكنه لم ينبئني بما كنت أريد أن أعرفه عن السجناء، بل لقد عجب لي كيف أهتم بمعرفة أخلاقهم، وراح يستمع لي بابتسامة مأكرة لا أزال أذكرها جيدًا، فلم ألبث أن قلت لنفسني: علام تسأله وأنت على الأيام ستعرف بالتجربة ما تريد أن تعرفه اليوم بالأسئلة...

وفي بكرة صبح اليوم الرابع وقف السجناء على أبواب السجن قبالة مبنى الحرس، كما فعلوا عندما كنت أضع القيد في رجلي لأول مرة، بينما وقف الجنود شاكي السلاح والرماح أمامهم ووراءهم وقبلتهم، ولهم حق إطلاق النار على أي سجين يحاول الفرار، وإن كان عليهم أن يدلوا بأقوالهم، ويبينوا لماذا أطلقوها، إلا عند الضرورة القصوى، وهذا هو أيضًا الشأن عند حدوث تمرد أو فتنة بين المساجين، ولكن من ذا الذي يخطر بباله يومًا أن يهرب على رؤوس الأشهاد، ومحضر الضابط التابع لفرقة المهندسين، ورئيس العمال، وضباط الصف، والجنود الذين يشرفون على المساجين عند خروجهم إلى الأشغال...

ونوديت الأسماء فأما الذين يعملون في قسم الخياطين فكانوا أول من انصرفوا، وهؤلاء يشتغلون لحساب السجن وحده، ويصنعون له منسوجاته وأقمشته، ثم تلاهم الآخرون الذين يشتغلون في «الورش»، ومن بعدهم الذين يؤدون أعمالًا غير بارعة، أي «الغشم» الذين لم يتدربوا بعد على حرفة معينة، وهم قرابة عشرين سجينًا وكنت أنا من بينهم.

وعلى النهر المتجمد خلف المعقل وقف «صندلان» حكوميان لم يعودا صالحين للعمل، وكان المطلوب تفكيك أجزائهما؛ حتى لا تضيع الأخشاب التي يحتويانها سدى، وإن كنت أحسب كل موادها القديمة لا

تساوي في الواقع شيئاً، إذا كان خشب الوقود يباع في البلدة بثمان لا يذكر، والغابات من حولها كثيرة والأدغال كثاف، وإنما عهدوا إلينا بهذه «الشغلة» لكي نشتغل فقط ولا نظل فارغين، وكان السجناء يفهمون ذلك وقد ألقوا العمل في هذه «الطرائح» نافرين متبلدين، وإن كان الأمر يختلف حين يعرفون أن العمل في ذاته قيم ويستحق الشغل، وأن الطريقة التي تخصص لهم معقولة وعندئذ تبدو حماسهم للعمل وإقبالهم عليه، وإن لم يصيبوا منه نفعا، وقد رأيتهم يذلون قصارى جهدهم لإتمامه بسرعة وإتقان ما أمكن، ويزهون به زهواً؛ أما في شغلة كالتي حملنا عليها في ذلك اليوم تؤدي تظاهراً وصورياً، ولا حاجة في الواقع إليها، فكان من الصعب تعيين طريقة محددة فيها، فكنا نشتغل حتى ينطلق البوق مؤذناً بالعودة إلى السجن في الحادية عشرة صباحاً.

وكان اليوم دافئاً غائماً والجليد يكاد يذوب، وقد انطلقت جماعتنا إلى الجسر القائم خلف المعقل، وهم يرسفون في الأغلال ذات الرنين الخافت عن كل خطوة، وإن كانت السلاسل مخفأة تحت ثيابنا، وذهب اثنان أو ثلاثة منا إلى الكوخ الذي تحفظ فيه الآلات لكي يعودوا بها إلينا بينما ذهبت أنا مع الباقين، وقد شعرت بشيء من النشاط والتهلل للهفتي على معرفة نوع العمل، وهل هو من الأشغال الشاقة التي يصفونها، وكيف تراني سأشتغل لأول مرة في حياتي...

ولا أزال أذكر ذلك اليوم في أدق تفاصيله، وأصغر جزئياته، فلقد لقينا في طريقنا عاملاً مرخيّاً لحيته، وقف حين رأنا ودس يده في جيبه، وفي الحال تقدم من الجمع سجين فدلف إليه ورفع قبعته وتناول منه الإحسان وهو خمسة كوبيكات، وعاد مسرعاً إلينا، وأما العامل فرسم على صدره

علامة الصليب وانطلق في وجهه، وقد أنفقنا هذه الكويكبات الخمسة في ذلك الصباح على شراء رغفان قسمناها بيننا بالسواء.

وكان بعضنا كما هي العادة متجهمي السحنات قليلي الكلام، والبعض الآخر مستخفًا فاترًا متثاقلاً، وآخرون منا يتحدثون فيما بينهم ويثرثرون، وكان أحدها لسبب ما مسروراً إلى حد غير مألوف، فكان يغني ويكاد يرقص ونحن على الطريق، ويدع أغلاله توسوس مع كل قفزة من قفزاته، وكان هذا هو السجين القصير البدين الذي رأيته في أول «صبيحة» لي في السجن يشتجر مع زميل آخر، وهما يغتسلان لأن زميله اجترأ على وصفه «بالديك»، وكان هذا القزم الممزاح يدعى «سكاراتوف» وانبعث في النهاية يغني أغنية مرحة لا أزال أذكر مطلعها، وهو:

كنت بعيداً لما زوجوني

كنت في الطاحون، لما زوجوني...

ولم يكن ينقصنا غير القيثار...

ولم يلبث هذا المرح، الغريب طبعاً، أن أثار غضب بعضهم فقد عدوه أشبه بإهانة.

وانبرى أحدهم يقول منتقداً، وإن لم يكن له شأن «إنه ينبج...».

وقال آخر من فريق المتجهمين بلهجة الروس البيض: «إن للذئب نعمة واحدة اقتبستها منه، أي هذا الرجل الذي جئت من «تولا»...».

ورد سكاراتوف عليه في الحال قائلاً: «أنا من تولا... ولكنك حشوت بطنك حتى كدت «تزوّر» من كثرة «لقمة القاضي» في بولتافا...».

وقال آخر: «اخساً... ماذا تأكل أنت، لقد كنت تحتسي الحساء مصنوعاً

من الكرب ونقيع «البراطيش»...».

وقال رجل منهم: «وقد يؤكلنا الشيطان الآن قذائف المدافع».

وأجاب سكاراتوف بزفرة خافتة: «وأنا عارف أنني مخلوق مدلل».

وكان زفرته وهو يوجه الكلام إلى زملائه عامة لا إلى أحد بالذات كانت ندمًا على أنه كذلك، وانطلق يقول: «منذ بواكير طفولتي وأنا الناشئ «أي المربي»- كأنما قد تعمد تشويه حكماته تعمدًا- على أكل البرقوق والكمعك والفطير، فإن لإخوتي مخبزًا في موسكو لا يزال قائمًا إلى هذه الساعة، إنهم أغنياء وأصحاب دكاكين».

- وهل فتحت أنت أيضًا دكانًا؟..

- وأنا أيضًا اشتغلت بأشياء كثيرة، ونابني عندئذ المائتان الأولى...

وانبرى عندئذ سجين كان يستمع إليه بانتباه كأنما قد أجفل على ذكر المال يقول: «المائتان... هل تقصد «روبلات»...؟».

فأجابه سكاراتوف: كلا يا روعي... ليست روبلات، ولكن «زخمت» أو عصي... يا عزيزي لوقا... يا سيد لوقا».

ورد عليه سجين حاد الأنف قائلاً وهو مكره: «أنا عند بعضهم (لوقا) فقط، ولكنني عندك أنت أدعى «لوقا كوزميتش»^(١).

قال: «ليكن يا سيد لوقا كوزميتش، جاءتك داهية...».

وعاد هذا يرد عليه قائلاً: «أنا عند البعض أدعى لوقا كوزميتش، ولكن عندك أنت يجب أن تناديني «يا عمي...»...».

(١) أي نادني باسمي ولقبني كاملين؛ لأنك لست صديقي حتى ترفع التكليف.

فصاح سكاراتوف به: «طيب يا عمي... داهية تشيلك... إنك لا تستحق تكلم، ولكن هناك شيء بديع أردت أن أقوله، اسمعوا يا صحابي.. إنني لم آخذ شيئاً كثيراً وأنا في موسكو، خبطوني خمس عشرة عصا كهدية وداع وتركوني أحزم أمتعتي، وعندئذ...».

وفي هذه اللحظة ابتدره سجين كان يتابع بانتباه كلامه: «ولماذا تركوك تحزم متاعك؟...».

قال: «أتسألني لماذا... لأن اللوائح تمنع دخول الحजर الصحي والشرب فيه والقمار، ولهذا يا صحاب لم أستطع الإثراء في موسكو لضيق الوقت، وكنت أريد أن أثري فدخلت الحजर وشربت ولعبت، إن بي شوقاً شديداً إلى الغنى، وحينئذ لا أستطيع وصفه».

وضحك كثيرون من المستمعين إليه، وكان سكاراتوف في الواقع من الذين يتطوعون لإضحاك الناس، أو ماجئاً «مهذاراً»، كدأب الذين أخذوا على أنفسهم التسرية عن زملائهم المكتئبين، فلا يصيبون غير الزراية بهم والاستهزاء، فهو واحد من فئة خاصة من الناس لعلّي متحدث عنهم فيما بعد.

وقال لوقا: «إنك اليوم لتصاد كالنمور لنفاسة فروه، إن ثيابك وحدها تساوي مائة روبل...».

ولم يكن على بدن سكاراتوف غير فروة غنم عتيقة مرقعة من كل ناحية، فراح ينظر إليها من فوق، ومن تحت، غير عابئ ولا حافل.

وانثنى يجيب قائلاً: «دماغي هو الذي لا يقدر بثمن... أي والله يا إخواني، المسألة مسألة رأس، ودماغ وعقل... وكانت سلوتي الوحيدة

عندما غادرت موسكو أنني أخذت رأسي معي، وداعًا يا موسكو وشكرًا لك على الطعام الشهوي الذي أكلته من يدك، شكرًا على العلقة السخنة التي أصبتها من كفك، لقد أعطيتني أضمدة طبية... وأما فروتي يا روبي فلا تستحق النظر إليها...».

- وأظن رأسك كذلك...

وانبري لوقا مرة أخرى يقول: «بل إن رأسه أيضًا ليست له... وإنما جاءت صدفة وإحسانًا، لقد أعطيت إليه في «تيمن» من أجل المسيح وهو منطلق مع الجماعة...».

وسأله آخر: «قل لي يا سكاراتوف، هل كانت لك صنعة؟...».

وهنا قال أحد المتجهمين: «أتسأله عن الصنعة... لقد كان يسرق الكلاب «البوبي» الصغيرة ويسرق أطواقها وسلاسلها... هذه كل صنعة». ولكن سكاراتوف أجاب غير متنبه إلى هذه النكتة اللاذعة: «أي نعم.. لقد حاولت خصف النعال... ولكنني لم أتجاوز ترقيع نعل واحد...».

وقال السائل: «وهل بيع؟..».

قال: نعم، لقد ظهر له مشترٍ. وأحسبه لم يتق الله ولا بر بأبيه وأمه فعاقبه الله بشرائه.

فضيح سامعوه ضاحكين.

واسترسل هو في حماسه يقول: «وأصلحت هنا زوجًا من النعال أيضًا، فقد صنعت «طلمية» جديدة لحذاء الضابط بدمورترزيف».

فعاد زميله يسأل: «وهل أرضته الطلمية؟».

قال: كلا أيها الرفقاء، لقد شتمني شتائم تكفيني طيلة العمر، ونغصني في ظهري بركبته، وكان في أشد حالات الغيظ، لقد أضلّنتي الحياة، أضلّنتي الفاجرة...

وعاد فجأة يغني، وبدأ يدب بقدميه شروغاً في رقصة أخرى وهو ينشد:
(وما هي إلا لحظات حتى جاء زوج أكو ليتا...).

وقال الروسي الأبيض الذي يمشي بجانبني وهو ينظر إلى سكاراتوف بطرف عينه نظرة احتقار: «يا له من مخلوق قبيح...».

وقال آخر بلهجة جد حاسمة: «إنه مخلوق لا نفع منه...».

ولم أستطع أن أفهم سر غضبهم عليه، وسبب احتقارهم لكل المرحين الماجنين منهم، كما بدا لي خلال أيامي الأولى، ورحت أعلل غضب الروسي الأبيض والآخرين بأسباب شخصية، ولكن المسألة لم تكن مسألة شخصية ولا كراهية خاصة، بل لقد كانوا عليه غضاباً لقلّة تحفظه، وخلوه من الاتزان والرزانة، وافتقاره إلى الوقار الذي تقتضيه الكرامة، وهي ما كان السجّناء جميعاً حريصين بخاصة عليه، أو يدعون حفاظه، أو في الواقع كما قال صاحبنا الروسي الأبيض: «لأنه مخلوق لا نفع منه»، ولكني رأيتهم مع هذا لا يغضبون فعلاً على المرحين الآخرين، ولا يعاملونهم كما يعاملون سكاراتوف وأمثاله، والأمر في ذلك كله رهن بما يكون من سلوك السجين ومقدار احتماله ومبلغ طاقته، فمن كان منهم طيب القلب بعيداً من الدعوى، خلياً من الزهو والطنطنة، استهدف في الحال للزراية والامتهان، وقد راعتني هذه الحقيقة فعلاً وأدهشتني، فقد كان بين المرحين إخوان المجانة وخفة الروح أناس عرفوا كيف يساهمون في المرح بنصيب، ويحبون الاشتراك

فيه، ومع ذلك يتقاضون الاحترام من الآخرين، أذكر منهم سجينًا طويلًا مليح الوجه من أهل النكتة الواخزة، له ثؤلول كبير على خده، وملامح تبعث الضحك على ملاحظته وذكائه، وكان في الواقع خفيف الروح فاتنًا، وإن لم أدرك هذه الناحية منه إلا فيما بعد، وقد اعتاد القوم أن يسموه «الرائد» لأنه كان يومًا في فرقة «الرواد» وانتقل إلى «القسم المخصوص» وسأتحدث عنه كثيرًا فيما سيمر بك.

ولم يكن كل الذين أوتوا الجدل والرزانة صرحاء كصاحبنا الروسي الأبيض الغاضب، فقد كان منهم فريق يريدون الظهور بمظهر الرفعة والتفوق، والعلم بكل شيء، والتراخي بسعة الحيلة والشخصية والذكاء، والواقع أن خلقًا كثيرًا منهم كانوا أقوياء الشكيمة أذكاء، وأنهم وصلوا فعلاً إلى ما كانوا يريدونه، وهو مركز الزعامة والنفوذ الأدبي البالغ على رفقائهم، ولكنهم كانوا فيما بينهم غالبًا على خلاف، وكان لكل منهم عدة خصوم وأعداء، وهم ينظرون إلى السجناء الآخرين نظرة ترفع وعلواء، فلا يدخلون في شجار بغير ضرورة ولهم حظوة عند ولالة الشأن، ويتولون الزعامة عند الخروج للأشغال، فلا يلوم أحد منهم سجينًا على أنه يغني مثلاً لأنهم لا ينزلون إلى هذه الأمور التافهة، وكانوا مؤدبين معي طيلة مقامي في السجن، ولكنهم لم يكونوا مكثري الكلام، ولعل ذلك أيضًا من الشعور بالكرامة، وسأتحدث عن هؤلاء كذلك في موضع آخر من هذا الكتاب.

ووصلنا إلى ضفة النهر.

وكان الصندل القديم الذي كلفنا أن نفكك أجزائه متجمدًا في وسط ركام الجليد الذي غمر صفحة النهر، وكانت الفيافي والسهول على الضفة الأخرى تتراعى على نهاية حدود البصر فكان المشهد قائمًا كأنه مشهد

الصحراء.

و كنت أتوقع أن يبادر الجميع إلى العمل، ولكن لم تبد عليهم أية فكرة كهذه، فقد ذهب بعضهم إلى الجلوس فوق كتل من الخشب متناثرة على الضفاف، وأخرج الجميع من أحذيتهم أكياسًا مملأى بالتبغ، كان الرطل منه يباع في السوق بثلاثة مليمات؛ وقصبات صغيرة من خشب السرو مصنوعة في البيت، وراحوا يشعلونها بينما أحاط الجنود بهم وهم يحرسونهم في تبرم وملالة.

وقال أحدهم، كأنما يناجي نفسه ولا يقصد أحدًا بكلامه: «من الذي ترجع إليه فكرة تكسير هذا الصندوق.. هل بهم حاجة إلى خشب؟».

وقال آخر: «لم يكن صاحب الفكرة، كائنًا من كان، يخاف من غضبنا».. فعاد الأول يقول: ولم يكن بالطبع قد انتبه إلى الرد على سؤاله الأول، وإنما كان يشير إلى جمع من الفلاحين كانوا يسرون في صف مستطيل كالهناد فوق جليد لم تطأه قدم: «إلى أين هؤلاء الفلاحون سائرون»..

والتفت الآخرون لفئة الكسالى صوب هذا المشهد، وأخذوا يسخرون من الفلاحين للتسلية وقضاء الوقت، وكان الفلاح الأخير في الصف يمشي مشية مضحكة، باسطاً ذراعيه وهارًا رأسه يمنة ويسرة، وقد وضع قلنسوة فوق رأسه، وكان قوامه واضحًا ظاهرًا حيال بياض الجليد ونصاعته.

وقال أحد المساجين مقلدًا لهجة الفلاحين: «انظروا كيف فرد أخونا بطرس قلوبه...».

ومن الغريب أن السجناء ينظرون إلى الفلاح بعين الاستخفاف والإزراء، مع أن نصفهم من طبقة الفلاحين.

وقال آخر: «إن الأخير منهم يمشي يا صحاب كما لو أنه يبذر بذور الفجل...».

وقال ثالث: «غبي ولكن عنده فلوس كثيرة...».

فضحكوا جميعاً، ولكن ضحكهم كان كذلك بليداً، أو تكرهاً وافتعالاً. وجاءت في تلك اللحظة امرأة تبيع خبزاً، وهي صبوح مليحة، فاشتروا منها أرغفة بكل الكوبيكات الخمسة التي تلقيناها صدقة وإحساناً، وقسموا الخبز علينا بالسواء في الحال. وأخذ منها الفتى الذي اعتاد بيع الخبز في السجن أربعة وعشرين رغيفاً، وبدأ في مهاترة معها محاولاً أن يأخذ ثلاثة أرغفة لنفسه بدلاً من «عمولته» المألوفة وهي رغيفان، ولكنها أبت الرغيف الثالث عليه.

قال: «ليكن، ولكن ألا تعطيني شيئاً آخر؟...».

قالت: «وما هو؟...».

قال: شيء لا تأكل الفيران منه...

فصاحت به المرأة ضاحكة: داهية تأخذك...

وجاء الجاويش المشرف على الشغل أخيراً، وهو يحمل عصا في يده، وراح يهيب بالمساجين قائلاً: هيه يا جماعة... علام أنتم جلوس هكذا؟.

فانبرى له أحد «الزعماء» وهو ينهض متباطئاً من جلسته: «عين لنا طريحة يا إيفان ماتفيتش...».

قال: لماذا لم تطلب ذلك من أول الأمر، اكسروا هذا الصندل.. هذه هي الطريحة..

وبعد لأي نهضوا مثاقلين لينزلوا إلى النهر، وبادر بعضهم إلى اتخاذ دور «الأسطوات»، ولكن كلاً منا على كل حال تبين أن الغرض لم يكن تكسير وإنما المراد هو حفظ الأخشاب سليمة إذا أمكن، وبخاصة العروق والألواح المتقاطعة الواصلة إلى القاع بمتاريس من الخشب على طول مداه.

وهنا انبرى سجين لم يكن قد تكلم من قبل إطلاقاً، وهو رجل هادئ لا زهو فيه ولا ادعاء، وما هو من معاشر المتزعمين والمسيطرين، يقول: «لنزع أولاً هذا العرق يا أولاد...» وانحنى فأمسك بعرق سميك، وانتظر حتى يتقدم الآخرون لمعاونته، ولكن أحداً لم يتقدم.

وانثنى أحدهم يقول مغمغماً بين فكيه: «اخلعه ولا تخف، وما أنت على خلعه بقادر، ولو جاء جدك الدب لما استطاع».

وعاد الفتى الحائر الذي كان البادئ بالتقدم يقول: «كيف إذن نبداً يا إخوان.. لست أدري؟...».

وترك العرق يهوي واستوى على قدميه.

وقال الآخر: «اشتغل حتى تقطع من الشغل قلبك، ثم انظر ماذا أنت كاسب.. لماذا تتقدم قبل غيرك؟...».

وقال زميل له: «إنه لا يقدر على تغذية ثلاث دجاجات دون أن يخطئ ثم يريد أن يكون الأول... مغفل...».

وحاول الفتى المضطرب أن يدافع عن نفسه فقال: «إنني لم أقصد شيئاً يا إخواني...».

وعاد الجاويش يصيح بهم قائلاً وهو ينظر حائراً إلى هؤلاء السجناء العشرين الذين وقفوا لا يدرون كيف يكبون على العمل: «هل تريدون أن

ألا حظكم جميعاً، أم تريدون أن أحفظكم كالمخلل طيلة الشتاء... هلموا
ابتدئوا... هيا... أسرعو...».

وقال زعيمهم: «لا يقدر على السرعة إلا القادر...».

وأجابه الجاويش: «ولكنكم لا تفعلون شيئاً... هيه يا سافيليف كان
أولى بك أن تدعى بتروفتش الثرثار، إني أسألك لماذا أنت هكذا واقف تدير
عينيك فيما حولك... هلمم اشتغل...».

قال سافيليف: «وماذا أستطيع أن أفعل وحدي؟...».

وعاد المتزعم يقول: «عين لنا طريحة يا إيفان ماتفيتش...».

وراح الجندي يجيب بقوله: «لقد قلت لك ليس هناك طريحة معينة؛
اكسروا الصندل واذهبوا إلى بيوتكم... هلموا... اشتغلوا...».

وانتهى الأمر بالشروع في العمل، ولكن في تباطؤ وتكره وعجز.

ومما يستفز الشعور حقاً أن ترى جمعاً من السجناء الأشداء وقوفاً
حائرين لا يعرفون كيف يشرعون في العمل، وما كادوا يبدؤون في انتزاع
أول العروق وأصغرها حتى بدا ينكسر أو كما ذهبوا يقولون للملاحظ: «إنه
انكسر من تلقاء ذاته» على سبيل الاعتذار، أو كأنما قد عجزوا عن الشروع
على هذا النحو ولا بد لهم من تجربة شيء سواه، وعندئذ قامت مناقشة
طويلة بينهم حول هذه التجربة، وكيف تكون، وما الذي ينبغي أن يفعل،
وانتهى النقاش شيئاً فشيئاً إلى التشاتم طبعاً والتهديد بما هو أشد وأنكى،
وعاد الجاويش يصرخ ويهز عصاه، ولكن العرق انكسر مرة أخرى، وتبين
أخيراً أن الفؤوس ليست كافية، وأن الأمر يحتاج إلى أدوات أخرى، فأرسل
سجينان مع بعثة إلى السجن لإحضارها بينما جلس الباقون هادئين متبطلين

فوق الصندل وأخرجوا قضبانهم وأخذوا يدخنون.

وأحس الجاويش في النهاية أن الأمر قد زاد فجعل يتمم بغضب، ويلوح بيده قائلاً: لا يمكن أن نترككم هكذا بلداء لا تريدون عملاً، آه منكم، يا لكم من جبلة، يا لكم من جبلة.

وانطلق إلى الحصن ملوحاً بعصاه في الفضاء..

وبعد ساعة جاء «المقدم» - الأوسط - فاستمع بهدوء إلى السجناء، ثم أعلن أن المهمة التي عينها لهم هي انتزاع أربعة عروق أخرى دون كسرها، ومضى يعين لهم جزءاً كبيراً يراد تكسيره، وينبئهم بأنهم إذا انتهوا منه عادوا. وكان العمل المطلوب ضخماً، ولكن لي الله، لشد ما كان إقبالهم على العمل ونشاطهم.. فلم يعد عليهم أثر من بلادة أو عجز، وإذا الفؤوس تهوي وإذا القوم مكبون على المسامير والمفصلات الخشبية ينتزعونها انتزاعاً، وذهب منهم نفر يضعون أعمدة كثافاً من تحتها ويضغطون بعشرين كفاً عليها، ويخلعون العروق من مواضعها، وما كان أشد دهشتي حين رأيتهما عندئذ تخرج سليمة ليس عليها من سوء.

وكذلك مضى العمل كأنه نار متسعة، وبدا كل منهم فجأة ذكياً بصيراً متوقداً، فلا حكمة تقال سدى، ولا شتيمة يرتفع بها صوت، وكأن كلا منهم قد عرف ماذا ينبغي له أن يقول، وماذا ينبغي له أن يفعل، وأين يجب أن يقف، وأي نصيحة يسدي.

وإذا بالعمل قد تم قبل موعد الإياب بنصف ساعة، فعادوا متعبين، ولكن راضين مغتبطين، وإن لم يوفروا أكثر من نصف ساعة من مدة شغلهم، أما أنا فقد لاحظت شيئاً كلما درت بعيني لأعينهم على العمل، وهو أنني في نظرهم

لا أصلح لعمل، وأنني أعوقهم عنه، وأقف في وجوههم دونه، وراحوا في كل ناحية يدفعونني جانباً، ويكادون يشتمونني، وأننى أحقر صعلوك فيهم، وأقلهم عملاً، ولا يجرؤ على رفع صوته بين السجناء الآخرين الذين هم أذكى منه وأبرع، يظن أن له الحق في رفع صوته عليّ، بدعوى أنني أعطله بوقوفي بجانبه...

وانبرى أخيراً سجيناً من الأقوياء يقول لي بصراحة وغلظة: «لماذا أنت واقف هكذا... انصرف.. ما الذي حشرك بالزور وأنت لا تحتاج أحد إليك...».

وقال لي آخر على أثره: «أنت لعبتك انتهت...».

وعاد الأول يقول: «لخير لك أن تأخذ جرة فتطوف بها سائلاً الناس نصف درهم، فتبني لك بيتاً وتعيش على «النشوق» أما هنا فليس لك عمل...». فلم أجد بداً من التنحي، ولكن الوقوف بمعزل والجميع يعملون أمر يستحي الإنسان منه، وما كدت أنتبذ منهم مكاناً قصياً حتى تصايحوا جميعاً قائلين: «ما أحلى هؤلاء العاملين الذين يجلبونهم إلينا، ماذا نصنع بهم، إنهم لا يصلحون لشيء...».

وكان كل ذلك منهم عمداً وقصدًا؛ ليضحكوا مني ويتلهوا بي، إذ لا بد لهم من مهاجمة رجل كان من قبل «سيداً مهذباً» وقد سرهم بالطبع سnoch الفرصة للاستهزاء به.

ولعل القارئ قد فطن الآن للسبب الذي جعلني كما سبق أن قلت أسائل خاطري عند دخولي السجن أي سلوك أسلك، وأي موقف أتخذ حيال أولئك القوم، فقد كنت متوجساً من وقوع اشتباك كهذا بيني وبينهم، ولكنني انتويت

رغم كل المتاعب والمشاق أن لا أحيد عن الخطة التي رسمتها لنفسي في تلك الأيام لأنني عرفت أنها الخطة الحكيمة، وكانت خطتي أن أنصرف عنهم وأستقل بنفسي ما استطعت، فلا أحاول الاختلاط بهم أو مصاحبة أحد منهم، ولكن لا يصح أن أنحيهم عني إذا هم أرادوا مودتي، أو أصددهم إذا هم أنفسهم طلبوا صداقتي، وأن لا أخاف وعيدهم، أو أخشى كراهيتهم، وأن أنظاھر بقدر الإمكان بأنني غير ملق بالأإلهم، وأن لا أفاتحهم في أمر من الأمور، وأن لا أشجع بعض عاداتهم، وجملة القول أن لا أدعهم يعدونني «رفيقاً» لهم لا بأس من رفع الكلفة معه.

وهجس في خاطري من أول نظرة أنهم سيكونون أول من يحقرونني إذا أنا فعلت، ولكنني أدركت بل تأكدت فيما بعد أنه أخرى بي إزاء ما عرفته من أفكارهم أن أحرص على رفعة طبقتي حيالهم، فأتوخى راحتي الخاصة، وأتخذ سيماء الكبرياء أمامهم، وأسخر منهم، وأشمخ بأنني لكل شيء، وبالجملة أن أمثل دور «الجتلمان»..

وكنت أعرف أنهم بالطبع سيحقرونني إذا أنا سلكت هذا المسلك، ولكنهم سوف يحترموني في أعماق نفوسهم.

ولم يكن تمثيل هذا الدور من شيمي؛ لأنني لم أكن يوماً من الأيام «سيداً» بالمعنى الذي يعرفونه، والشكل الذي يتصورونه، ولكنني عاهدت نفسي مع ذلك أن لا أتساهل تساهلاً يغض من قدر تربيتي وتعليمي وتفكيرى، ولو أنى مضيت من البداية أحاول كسب مودتهم بمداراتهم ومرافقتهم ومؤالفتهم والذهاب مذاهبهم؛ لظنوا في الحال أنني إنما فعلت ذلك خيفة وجبناً ولعاملوني باحتقار ومهانة.

ولم يكن أ.... مثلاً حسناً، فقد اعتاد أن يزور «الميجور» فكانوا يخافونه، ولكنني لم أرد مع ذلك أن أحبس نفسي عنهم بالبرود والجفوة كما يفعل السجناء البولنديون، وقد رأيت اليوم كيف احتقروني حين أردت العمل معهم، غير ملتمسٍ راحتي الشخصية ولا مترفعٍ عنهم، ولئن كنت على يقين أنهم سوف يغيرون رأيهم فيّ، فقد ظل تصوري أن لهم الحق في احتقاري؛ لأنهم ظنوا أنني أريد التلطف إليهم في ساعات العمل، مؤلماً لنفسي كل الألم.

وحين عدت إلى السجن في المساء بعد شغل النهار مكدوداً مجهّداً، عاودتني وساوسي الأليمة، وانتابني التفكير والغم، فجعلت أحدث نفسي قائلاً: «كم من آلاف من أمثال هذا اليوم تنتظرنني، كلها متشابهة، وكلها متماثل تماماً...».

وعند الغسق رحت أذرع الأرض القائمة خلف السجن بجوار الأسوار صامتاً منفرداً، وإذا بي أشهد فجأة الكلب «شريك» يعدو نحوي، وهو كلب السجن، كما تكون للشركات والكتائب والسرايا كلاب، وقد أقام في السجن من عهد بعيد لا يملكه أحد خاصة، وليس له صاحب معين، بل يعد كل إنسان صاحبه، ويعيش على فضلات المطهى، وهو كلب كبير الحجم، أسود البشرة، وإن خالطت سوادها بقع بيضاء، ولم يكن عجوزاً، وله عنان ذكيتان وذيل كثيف، وما رأى أحداً يوماً يرتب ظهره متلطفاً، ولا شهد أحداً يلقي إليه باله، ولكنني من اليوم الأول جعلت أربت ظهره، وأطعمه من يدي خبزاً، فكان يقف هادئاً ينظر إليّ متودداً، ويهز ذنبه لطيفاً، علامة فرح، وسمة سرور، ولم يكن رأي من أيام كثيرة، وأنا الأوحد الذي خطر له في كل تلك السنين الماضيات أن يتلطف إليه، فكان يعدو في كل ناحية باحثاً عني بين

القوم فلم يكدراني خلف مبنى السجن حتى عدا إلى لقائي وهو يهمهم
همهمة الابتهاج.

ولست أدري ما الذي عراني، فقد رأيتني أهوي عليه تقبيلًا وأطوق رأسه
بذراعي، وقد تواب فوضع قدميه فوق كتفي وانبعث يلحق وجهي.
قلت لنفسي: «هذا هو إذن الصديق الذي أرسله القدر إليّ».

ومن ذلك الحين جعلت كلما عدت من الشغل خلال تلك الفترة الأولى
الشاقة القاتمة، أسارع قبل كل شيء، وقبل الذهاب إلى أي مكان إلى ذلك
الموضع لأرى «شريكًا» واثبًا أمامي يهر هرير الفرح، فأتناول رأسه بين
ذراعي وأقبله مرارًا، وأحس ألمًا حادًا يعتصر قلبي، وإن خالط الألم لذة،
وامتزجت بعذاب النفس منه عذوبة.

ولا أزال أذكر كيف كنت أسر وأغبط كلما خطر لي أن هناك مخلوقًا
واحدًا في هذا العالم يحبني ويخلص لي، وهو صديقي الأوحده الكلب
«شريك» الأمين كأني في هذا التصور المزهو المعتمز بحرقتي وآلامي.

الفصل السابع

معارف جدد - بتروف

ولكن الزمان جرى، وأخذت رويدًا أعتاد مجراه، وأخذت الحوادث اليومية في حياتي تقل شيئًا فشيئًا أثرًا في نفسي وذهلة وحيرة في خاطري، كأن ناظري قد ألف الأحداث، والأشياء والناس، وكان الرضا بهذا العيش مستحيلًا ولكن كان قد حان لي قبوله كأمر واقع، ومضيت أخفي أية حيرات باقية في خاطري بين أطواء صدري قدر ما استطعت، ولم أعد أهتم على وجهي في جنبات السجن فعل الذاهل الشارد البال، أو أبدي ما بي من ألم وشقاء، ولم تكن أعين السجناء الموحشة المتطفلة الفضولية تستقر أحيانًا كثيرة على وجهي، ولم يعد أحد منهم يرقب حركاتي وسكناتي بجرأة وقحة، فقد ألفوا هم أيضًا مقامي بينهم فسرني هذا الإيلاف وأرضاني، وجعلت أطوف السجن وأتنقل حيث شئت كأنني في بيتي، وأعرف موضعي من الفراش العام، وخيل لي أنني قد بدأت أعتاد ما كنت أظنني غير معتاده آخر الدهر.

وكنـت أذهب بانتظام مرة في كل أسبوع لحلاقة نصف رأسي، وكان كل منا في أيام السبت نطلب بالدور من العنبر إلى مبنى الحراسة في ساعات الفراغ من الشغل ليتلقانا الحلاقون، وهم من جنود الكتيبة، فيغمرون رؤوسنا بالرغوة الباردة، ويكشطون بغير رحمة شعرها بموسى مثلمة، وإنـي لأرجف الساعة حين أذكر ذلك التعذيب، وإذا لم نذهب إلى ذلك الموضع حين ننادى إليه، حلقنا رؤوسنا على نفقتنا، فلم ألبث أن وجدت منجاة لي منه، فقد دلني «أكيم أكيمتش» على سجين في القسم العسكري اعتاد أن يحلق بموساه لمن يشاء لقاء «كوبيك» واحد، وكانت الحلاقة مهنته، حتى اعتاد خلق كثير الذهاب إليه تخلصًا من حلاقي السجن و«مزينيه»، وإن لم يكونوا أهل إحساس أو مرهفي الشعور. وكان حلاق سجننا يدعى «الميجور»، ولست أعرف السر، ولا أعلم في أي شيء تراه بالمأمور أشبه حتى تطلق عليه صفته، وأنـي لأتمثل ذلك الحلاق الساعة قائمًا حيالي بقده الفارع، وبدنه الناحل، وهو الصموت الغبي المنهمك أبدًا في شغلته، لا يفارقه «المجلخ» الذي يرهف عليه ليل نهار موساه الذي بلغ منها القدم حدًا لا يكاد يصدق، والظاهر أنه لم يكن يفكر إلا فيها، كأنها شغله الشاغل في الحياة، حتى ليسر كل السرور إذا كانت الموسى صالحة وجاء أحد الناس ليحلق وكانت رغبة الصابون الذي يمسح الرؤوس بها دافئة، وهو خفيف اليد وحلاقتـه ناعمة كالحرير، وقد تبين لي أنه كان يجد اللذة في فنه، وهو به الفخور، حتى ليتناول الدرهم أجر حلاقتـه باستخفاف، كأنـي به يشتغل للفن لا للمكسب.

وحدث يومًا أن كان أ... يقص على «الميجور» روايات عن السجناء، فقال له في غير حذر ولا احتياط أن حلاقنا يدعى «الميجور» أيضًا، فإذا بالميجور الحقيقي يستشيط غيظًا، ويعدها إهانة بالغة له، ويصيح به قائلاً

وهو يرغبي ويزيد: «وهل تعرف أيها الشقي ما معنى «الميجور»؟.. هل تفهم المراد منه؟.. حتى تجرؤ على أن تسمي به سجينًا مجرمًا أمامي وفي حضرتي...».

ولو كان في موضع أ.... رجل آخر لكان له غير هذا الجزاء.

ومنذ أول يوم من أيام حياتي في السجن بدأت أحلم بالحرية، وأصبح الشاغل الذي أسكن إليه هو عد حساب الأيام الباقية لي حتى أستعيد حريتي، فقد ظلت ماثلة لخاطري، وأنا واثق أن هذه هي بالذات حال كل من يسلب من حريته إلى موعد مؤجل وتاريخ محدود... ولست أدري هل فكر السجناء الآخرون هذا التفكير، وحسبوا هذا الحساب، وإن كانت جرأة أمانهم المدهشة لبثت موضع إعجابي من البداية، فإن أحلام السجن السليب من الحرية تختلف كل الاختلاف عن أحلام الذين يعيشون عيشة طبيعية؛ إن الإنسان الحر يتمنى مثلاً أن يتاح له حظ جديد، أو يلاقي نجاحًا في عمل ما، ولكنه يحيا ويعمل، وتشغله شواغل الدنيا، أما حال السجن فليست كذلك؛ نعم، له حياة.. ولكنها حياة السجن، ولكن مهما يكن شأنه، ومهما تكن المدة المحكوم بها عليه، فلن يستطيع بغريزته أن يرتضي قسمته كأمر حاسم لا حول له فيه ولا قوة، وكجزء من حياته الحقيقية، بل كل سجين يشعر بأنه «ليس في بيته»، بل في زيارة، وينظر إلى عشرين عامًا كأنها اثنان، وهو مقتنع كل الاقتناع بأنه حين يغادر السجن في الخامسة والخمسين سيكون مليئًا بنشاط وحياة وقوة كما هو اليوم في الخامسة والثلاثين، فلا يني يقول لنفسه: «لا تزال الحياة أمامي فسيحة المدى»، ويروح ينزع بعزم وأمل كل ما في نفسه من شكوك أو منغصات أو أفكار متعبة، بل إن المقيمين منهم في القسم المخصوص لعقوبة السجن «المؤبد» يعتمدون أحيانًا على تعليل النفس بأن

أمرًا قد يأتي فجأة من بطرسبرج يقضي بإرسالهم إلى المناجم في تيرشينسك وتحديد مدة عقوبتهم، وعندئذ تنصلح الحال، وتحسن الأمور، فإن الرحلة إلى تيرشينسك أولاً تستغرق قرابة ستة أشهر، وما أجمل السفر وأحلى من السجن، ثم تنتهي المدة في تيرشينسك وعندها..

وهكذا كان السجناء رغم المشيب المشتعل في رؤوسهم يعللون النفوس بهذا الأمل أو مثله.

وفي طوبلسك رأيت سجناء مربوطين بالسلاسل إلى الجدران، فيقيد السجين منهم في سلسلة ذرعها سبع أقدام، وقد وضع له سرير بقربه، وقد يلبث مقيدًا على تلك الصورة جزاء جريمة رهيبة خارقة ارتكبها في سيبيريا، وقد يمكثون على هذه الحال خمس سنين أو عشرًا، وهم في الجملة سراق وأفراد عصابات، وإن كنت قد رأيت بينهم سجينًا يلوح عليه أنه من الطبقة الراقية، فقد كان موظفًا في بلد ما، وكان يتكلم بخنوع، ويلثغ في قوله، وله ابتسامة حلوة صارخة تعافها النفس، وقد أرانا سلسلته، وكيف يستطيع في يسر الرقاد على فراشه، وأكبر الظن أنه نموذج مختار لهذا النوع من المساجين... فهم عادة هادئون راضون، وإن كانوا جميعًا في لهفة حرى على بلوغ نهاية مددهم. وقد تعجب لهذه الלהفة المستحوذة عليهم، ولكني أقول لك عن سرها؛ فإن السجين منهم لا يؤذن له بأكثر من الخروج من الغرفة المظلمة الخائقة المقبوة الخفيضة السقف، والمشي في فناء السجن... ولكن لا يسمح له أبدًا بالخروج منه، وهو يعلم أن الذين يقيدون بالأغلال على هذه الصورة يبقون في الحبس حتى تحين منيتهم، ولكنه مع علمه هذا يتحرق من الלהفة على انتهاء مدة قيده، ولكني لا أدري رغم تلك الלהفة كيف يطبقون البقاء في القيد خمس سنوات أو ستًا ولا يموتون أو يجن جنونهم..

إن بعضهم لن يحتملوه مطلقاً.

وكنت أشعر أن العمل قد يكون فيه منجاتي، وقد يكسب هيكلي وبيتي وصحتي قوة وعافية، فإن الإلحاح على القلق ومداومة التلهف، والهياج العصبي، والهواء الفاسد في السجن قد تنتهي بدماري، ولكن خروجي إلى الهواء الطلق، والعمل كل يوم حتى أعيا وأجهد، وتعلم حمل الأثقال ستقويني وستقويني فأغادر السجن قوياً، موفور الصحة، منتعش القلب، لم تدركني الشيخوخة.

هذا ما كنت أعلل به نفسي.

ولم أخطئ التعلل، فقد رد العمل والرياضة عليّ أحسن مرد، حتى لقد جعلت أنظر إلى رفيق لي من طبقتي مستنكراً مبهوراً لما كان يبدو عليه من الضنى والذبول، فقد كان أشبه بشمعة تحترق، وكان قد دخل السجن معي شاباً فتياً مليحاً، وغادره محطوفاً أشيب لاهث الأنفاس، عاجزاً عن المشي والحركة.

وذهبت أقول لنفسي من خيفة مشهده: كلا، أريد أن أحيأ وسأحيأ، ولكنني في البداية وقعت في حرج وكرب مع زملائي لرغبتني الصادقة في العمل، فظلوا طويلاً يهاجمونني بلذعات ألسنتهم واحتقارهم، غير أنني لم ألق بالاً إلى أحد منهم، وانطلقت في العمل فرحاً منشرحاً، واشتغلت مثلاً بالخبز ودق الزلط، وهما أول شيء تعلمته، وكان ذلك عملاً سهلاً، وكان الموظفون المشرفون على الأشغال يميلون قدر الإمكان إلى الرفق في تعيين الأعمال للسجناء الذين ينتمون إلى الطبقة الراقية، ولم يكن هذا منهم محاباة ظالمة، أو رحمة بغير موجب، ولكنه كان مجرد إنصاف لا أكثر، إذ لا ينتظر من رجل لم يؤت قوة العامل العادي، ولم تسبق له في العمل اليدوي

سابقة أن يؤدي الشغل ذاته الذي تقضي اللوائح بأن يؤديه، ولكن هذا الرفق لم يكن يبدى في كل حين، بل كان خلسة، فقد كانت الرقابة عليه من الخارج شديدة، وكثيراً ما كنا نحمل على عمل شاق، فيكون عندئذ أشق علينا بالطبع مما هو على الآخرين.

وجرت العادة أن يرسل ثلاثة أو أربعة لدق الحصى «والزلط» من كبار السن، أو الضعفاء تفضيلاً لهم على البقية، وكنا نحن بالطبع من هذا الفريق، وإن كان المتبع أن يكون مع هؤلاء سجين يعرف الشغل وهو به الخير، وقد لبث هذا السجين على هذه الحال بضع سنين، وهو رجل أسمر ناحل مكتهل يدعى «المازوف» يلوح جهماً نفوراً سريع الغضب، وكان يشعر نحونا باحتقار شديد، ولكنه كان صموتاً إلى حد الكسل حتى في التبرم بنا والتأفف منا.

وكانت السقيفة التي نحرق فيها الحصى وندقه مقامة على ضفة النهر المهجورة العالية، وكان النهر في الشتاء، والجو المكفهر خاصة، والصفة الأخرى النائية، مشهداً موحشاً يملأ الروح اكتئاباً، ولكن النفس تزداد ألماً ووجيعاً حين تشرق الشمس على ذلك الفضاء الفسيح الذي يغمره الجليد، فيود المرء لو أنه طار في ذلك الفضاء الممتد وراء العدو المقابلة والسهل المترامي من خلفها مئات الأميال إلى الجنوب.

وألف «المازوف» أن يكب على العمل في صمت رهيب، وكنا نستحي من عجزنا عن بذل أية معونة صادقة له، ولكنه كان منكمشاً فيه وحده، لا يسأل معونة من أحد، عن قصد في الظاهر؛ ليشعرنا بعيوبنا، ويثير فينا الندامة على تفاهتنا وقلة نفعنا، وإن كان كل ما عليه أن يفعل لا يتجاوز تسخين «الفرن» الذي يسوى فيه الحصى، ونحن الذين نتولى حمله إليه، فإذا حل

اليوم التالي استوى الحصى ونضح تمامًا، وبدأت عملية نقله من المرحل، وكان العمل بهيجًا فإن الحصى البراق لا يلبث أن يستحيل إلى مسحوق ناصع لامع، وهو فضلًا عن ذلك سهل الدق، عاجل السحق، وكنا نلوح بمطارقنا الثقال، ونروح نعبئ الحصى بهمة تدخل السرور على نفوسنا، ونجد فيها متعة بالغة، وإذا تعبنا في النهاية كانت حالنا أفضل وأحسن، إذ تحمر وجوهنا وتنشط دورتنا الدموية، حتى ليروح «ألمازوف» نفسه ينظر إلينا برفق كما ينظر الناس إلى الأطفال الصغار ويدخن قصبته مترفعًا، وإن لم يتمالك من الشكوى والتبرم بنا إذا اضطر إلى الكلام، وإن كان ذلك ديدنه مع كل إنسان، ولكنني أعتقد مع ذلك أنه في أعماق نفسه كان رجلًا طيبًا.

وكان ثمة عمل آخر أرسلت لتأديته، وهو إدارة «المخرطة» في «الورشة» وكانت العجلة ثقيلة ضخمة تحتاج إدارتها إلى جهد شديد، ولا سيما حين يريد الخراط، وهو من العمال الصناع في الكتبية، خرط قطعة أثاث لأحد الموظفين أو رجل مائدة كبيرة مما يقتضي خرط كتلة خشب ضخمة، وعندئذ لا يقدر رجل واحد على إدارة العجلة بمفرده، فكان يتعاون معي سجين آخر من «المتعلمين» سأطلق عليه من الآن «ب....» وكذلك ظللنا عدة سنين نتولى أنا وهو تحريك العجلة كلما أريد خرط شيء، وكان ب.... هذا فتى هشًا ضعيفًا يشكو من رثتيه، وكان قد دخل السجن قبلي بعامين هو وزميلان له، أحدهما شيخ جعل يقضي كل نهاره وليله يصلي لله، وكان المساجين يحترمونه كثيرًا لعكوفه على العبادة، وقضى نحبه قبل خروجي، وأما الآخر فكان غلامًا فتياً صبيحًا متورداً قوياً مفعم الروح خفة، حمل ب... أكثر من خمسمائة ميل في سفرهما حين عجز الشيخ من فرط الإعياء عن المسير، وكان مشهد مودتهما وتعاطفهما رائعًا يستحق المشاهدة فقد كان

ب... رجلاً على جانب كبير من العلم والتربية وكرم النفس، ورفع الخلق، وإن كان المريض قد هاج خاطره، وجعل حياته مريرة، وكدر زجاجة نفسه، فكنا أنا وهو ندير العجلة معاً، و يروقنا العمل لأنه كان أحسن رياضة لي.

و كنت أيضاً مولعاً بجرف الجليد، وهو عمل يؤدي عادة عقب هبوب عواصف ثلجية، وكانت كثيراً ما تهب في الشتاء وقد تستمر أربعاً وعشرين ساعة، حتى لقد يصل الجليد في بعض البيوت إلى منتصف الشرفات والنوافذ، ويكاد في البعض الآخر يطمرها طمراً، وما إن تسكن العاصفة وتطلع الشمس حتى نساق جماعات كبيرة، أو نساق جميعاً في بعض الأحيان لنزيع بالمجاريف الثلوج عن المباني الحكومية، فكان كل منا يعطى مجرافاً، وتعين للجميع طريقة، وقد تكون أحياناً شغلة مضية يعجب المرء كيف يقدر على إنجازها، ولكنهم يقبلون عليها بعزمات صادقة، فلا يجدون مشقة في رفع الجليد الناعم المتجمد من طبقته السطحية وجرفه ونثره بعيداً وتذريته في الفضاء حتى ليبدو كالدقيق البراق، ويأتي «الجاروف» فيقطع بسهولة في الجليد الصلد المتراكم الملتصق من أشعة الشمس وضياؤها. وكان السجناء بهذه الشغلة أبداً فرحين متلبين، فإن هواء الشتاء النقي والرياضة يدفئانهم، ويرسلان الحمية في أجسامهم ونفوسهم، فيزداد كل سجين منهم تهلاً، ويشد مرحاً، ويتجاوب الأفق بأصوات ضحكاتهم وأمازيحهم، ويروحون يتقاذفون بكرات الثلج، وإن اقترن ذلك طبعاً بصيحات الاحتجاج والتبرم من جانب الرزينين منهم والغضاب من مرح المرحين ولهو اللاهين، وينتهي الأمر عادة بالسباب والتشاتم واللعنات.

وبدأت شيئاً فشيئاً في توسيع دائرة معارفي، وإن لم أفكر فعلاً في توسيعها من جانبي فقد كنت إلى الساعة قلقاً مكتئباً مستريباً، ولكن هذه

المعرفة نشأت من تلقاء ذاتها، فكان أول من «زارني» سجين يدعى «بتروف»، وأكرر هنا لفظة «زارني» على سبيل التوكيد، فقد كان بتروف هذا من سجناء القسم الخاص ويقيم في أقصى أرجاء السجن الذي ننزل به، وكان المفروض أن لا تقوم صلة بيننا، والواقع أننا لم نكن نشاركهم في شيء، ولكن بتروف في تلك الأيام الأولى شعر بأن من واجبه أن يأتي إلى عبرنا ليراني كل يوم تقريباً، أو يوقفني عن المسير كلما ذهبت أتمشى في أوقات فراغنا خلف مبنى السجن بعيداً عن أعين الرقباء ما أمكن، فكنت في أول الأمر أكره ذلك منه ولا أستسيغه، ولكنه نجح مع ذلك في جعل زياراته تسلية حقيقية لي وترويحاً، وإن لم يكن في ذاته بالأنيس ولا بالمتحدث، وكان قصير القامة شديد الأسر قلقاً خفيف الحركة شاحب اللون ناتئ عظام الخدين، رهيب النظرات من عينيه الجريئتين، ذا وجه مقبول وأسنان بيض جميلة، ومضغة من التبغ لا تفارق فمه وشفته الدنيا، وكانت عادة تغيب التبغ في الأفواه عامة بين المساجين.

وكان يلوح أصغر من سنه الحقيقية، فقد كان في الأربعين، ولكنه يبدو وكأنه لم يتجاوز الثلاثين، وكان يحدثني بلا أدنى تكلف، ويعاملني معاملة الند للند، في أدب جم ورقة متناهية، فإذا لاحظت مثلاً أنني أريد الانفراد بنفسي لم يمكث أكثر من دقيقتين أو ثلاث دقائق مكتفياً ببضع كلمات يقولها، ولا يكف عن شكري على الإصغاء إليه، وهو أدب لم يكن يبديه يوماً لأحد آخر من السجناء. ومن الغريب أن هذه العلاقة لبثت قائمة بيننا عدة سنين، دون أن تزداد توثقاً، أو ترتفع إلى حدود الصداقة والألفة، وإن ظلت علاقته بي صداقة، ولا أستطيع إلى اليوم أن أجزم بما كان يريد مني، ولماذا كان يجيئني كل يوم، وإن حدث فيما بعد أن راح يسرق مني، ولكن سرقة كانت «اتفاقاً»

أو «قضاء وقدرًا» ولم يسألني يومًا مالا حتى أقول إنه كان يزورني من أجله أو لسبب خاص؛ وكنت دائمًا أشعر، ولا أدري لماذا، بأنه ليس مقيمًا في السجن معي، ولكن في موضع بعيد بدار أخرى في المدينة، وأنه إنما كان يزور السجن في طريقه كلما مر به لسمع الأنباء، ويراني، ويرى كيف حالنا جميعًا، وكان أبدًا في عجلة كأنه قد ترك أحدًا في انتظاره أو عملاً لم يتمه، ولكنه مع ذلك كله لم يكن يبدو الهائج أو القلق المضطرب، وكانت نظرات عينيه أيضًا غريبة ممعنة عليها ظل من جراءة، وخطفة من سخرية، وإن ألقى بنظراته بعيدة مترامية من وراء الأشياء التي التقت بها عيناه، محاولاً الإلمام بشيء آخر في موضع بعيد، ومكان سحيق، حتى ليلوح منها كأنه شارد البال غائب الخاطر. وكنت أتعمد أحيانًا مراقبته وهو منصرف لأعرف هل ثمة أحد في انتظاره، ولكنه كان ينطلق عني مسرعًا إلى عنبر ما أو إلى مطهى، حيث يجلس إلى بعض السجناء ويصغي بانتباه إلى أحاديثهم ويشترك أحيانًا فيها، بل قد يتحمس في كلامه ثم يسكت فجأة ويعاود الصمت؛ ولكنه سواء في حديثه أو صمته، يلوح أبدًا كأنما قد تكلم أو صمت لحظة عابرة، وأن أمامه عملاً آخر يؤديه، أو أمرًا ينتظره في مكان آخر. وأعجب شيء أنه لم يكن لديه عمل ما، بل كان يعيش في فراغ مطلق خلا الشغل الذي يساق إليه طبعًا، ولم يكن له بأية حرفة خبر، وقلما رئي مال في يده، وإن لم يأسف يومًا على خلائه منه. وماذا كان يحدثني به، لقد كان حديثه غريبًا مثله، فقد يلم بي مثلاً وأنا أسير وحيدًا خلف السجن فيتجه فجأة صوبي، وكان سريعًا في مشيته كثير التلفت فجأة.

وتقدم نحوي، وكأنما كان يعدو..

قال: طاب صباحك...

قلت: طاب صباحك..

- هل أنا معطلك؟

- كلا..

- لقد أردت أن أسألك عن نابليون... أهو قريب الذي كان هنا في عام

.. ١٨١٢

وكان بتروف يقرأ ويكتب.

قلت: «نعم».

قال: يقولون إنه رئيس أو شيء من هذا القبيل، أهو كذلك حقًا؟..
وكانت عادته أن يلقي أسئلة سريعة فجائية، كأنه في عجلة يريد علمًا، ويبغي
معرفة، أو كأني به يحقق أمرًا ذا بال لا يقبل الإبطاء..

وشرحت له كيف أصبح نابليون الثالث رئيسًا وزدت على الشرح أنه
ربما يصبح وشيكا «إمبراطورًا».

قال: وكيف ذلك؟

فشرحت ذلك له أيضًا بقدر الإمكان، وكان مصغيًا لقولي فاهمًا كل
لفظة فيه متأملًا له في عجلة، مديرًا أذنيه نحوي.

قال: لقد أردت أن أسألك يا أليكسندر بتروفتش، هل صحيح ما يقولون
من أن هناك قردة لها ذراعان طويلتان متدليتان إلى الكعبين، ومن كبر الحجم
حتى لتشبه الإنسان الطويل القائمة.

قلت: نعم.

قال: وما شكلها؟..

فشرحت ذلك له أيضًا قدر جهدي.

قال: وأين تعيش؟

قلت: في المناطق الحارة، وبعضها في جزيرة سومطرة.

قال: أهذه الجزيرة في أمريكا؟ ألا يقولون إن الناس في تلك الأصقاع
يمشون على رؤوسهم؟

قلت: كلا ليس على رؤوسهم، أنت تقصد «الأنثيود»^(١).

ووصفت له أمريكا وشرحت معنى الأنثيود، وأصغى لشرحي بانتباه
شديد كأنما قد جاء لسمع عن الأنثيود.

وعاد يقول: «آه... في العام الماضي قرأت عن الكونتس لافليير وكان
«أرييف» قد أخذ الكتاب من «المعاون» فهل القصة حقيقية أم مخترعة؟
إنها بقلم ديماس.

قلت: «مخترعة بالطبع»...

قال: «إلى الملتقى... شكرًا...».

وتوارى بتروف بالحجاب...

وقلما كنا نتبادل حديثًا بغير هذا الأسلوب.

وبدأت أسأل عنه وأتحرى، فحذرني منه م... حين سمع أنني عرفته،
وقال لي: إن خلقًا كثيرًا من السجناء ملأوا نفسه رعبًا، وبخاصة في بداية
عهده بالسجن، ولكن لم يحدث أحد منهم حتى «جازان» نفسه من الأثر في
روعه مثل ما أحدثه بتروف هذا.

(١) هو الجهة المقابلة لنا من الكرة الأرضية.

ومضى يقول: «إنه أشدهم استيئاسًا، وأخلاهم من الخوف قلبًا، وهو لا يتورع عن إتيان شيء، إذا بدا له أن يأتيه، حتى ليفتك بك إن تراءى قتلك له، أي والله إنه ليذبحك في دقيقة واحدة بلا إحجام ولا تفكير في جريمته بعد اقترافها، وأعتقد أن عقله ليس سليماً...».

وأهمني هذا الرأي كثيرًا وشغل بالي، ولكن م... لم يستطع أن يبدي لي سببًا يعلل به هذا الرأي فيه، والغريب أنني عرفت بتروف عدة سنين بعد ذلك، وكنت أتحدث إليه في كل يوم غالبًا، وكان متعلقًا بي طيلة الوقت وإن لم أستطع فهم السر، فكان سلوكه في كل تلك السنين حسنًا، لم يأت فيها نكرًا، ومع ذلك كنت كلما نظرت إليه شعرت بأن م... على حق، وأن بتروف في الحقيقة أشد الناس استيئاسًا، وأخلاهم من الخوف، ولا يعرف تورعًا عن شيء، أو يحس من أمر رهبة ولا تقاة.

ولست أدري أيضًا ما الذي جعلني أحس هذا الإحساس من ناحيته، ولكن يصح لي أن أذكر هنا أن بتروف هو السجين الذي كان معتزمًا قتل «الميجور» عند السياقة إلى الجلد، ولم ينجه من شره غير ظهور «معجزة» كما قال السجناء، إذ انصرف قبيل الجلد ولم يحضره، وكان قد حدث مرة قبل مجيئه إلى السجن أن الكولونيل ضربه، ولكنه في تلك المرة لم يطق احتمالًا، فطعن الكولونيل في رائعة النهار أمام جنود فرقته، ولكني لا أعرف قصته تفصيلًا؛ لأنه لم يروها يومًا لي، وليس من شك في أن ذلك السلوك كان مجرد «انفجارات» أو «ثورات نفسية» لا تبرز وتظهر إلا حين يخرج عن طوره، ويبدو على حقيقة خليقته، ولكنها انفجارات نادرة الحدوث، فقد كان في الواقع عاقلًا بل مسالمًا هادئًا، رضي النزوات ساكن الشهوات، بل إنها لشهوات حادة بالفعل عنيفة، وإن احتجبت وراء رماد وجذوات خابية،

فلم يكن به شيء منها، وقلما كان يشتجر، وإن لم يكن ودودًا، ولا بالمتلطف لأحد، إلا سيرونكين على ما أظن، ولكنه لا يتودد إليه ولا يتلطف إلا حين يفيد منه أو ينتفع به.

ولكنني رأيته مرة في ثورة غضب حقًا؛ لأن شيئًا ما لم يعط إليه، شيئًا كان من حقه أن يصيبه، وكان المشتجر معه سجينًا في القسم المدني يدعى فاسيلي أنطونوف، وهو رجل طوال، ورياضي قوي البنيان، حقوق كثير الشجار خبيث لا يعرف الجبانة مطلقًا، وقد لبثا يتصايحان طويلًا، فظننت أن الأمر سينتهي في الغالب بضربة أو ضربتين؛ لأن بتروف في بعض الأحيان أو في الندرة يشتم ويسب ويناجز كما يفعل أحقر السجناء وأشدّهم نكرًا، ولكن الأمر لم يكن كذلك في هذه المرة، فقد شحب وجهه فجأة ورجفت شفتاه بغتة وازرقتا، وبدأ يتنفس بمشقة، ونهض من مجلسه، وراح يمشي بخطوات بطء حافيًا، وكان مولعًا في الصيف بالحفاء، ثم اقترب من أنطونوف، وإذا بالجمع الصاخب المتصايح يغمره الصمت فجأة حتى يكاد المرء يسمع طنين الذبابة، فقد أراد كل منهم أن يشهد ما عسى أن يحدث، ولم يكذ أنطونوف يراه مقتربًا منه حتى قفز من مجلسه شاحبًا مكفهرًا.. ولكنني لم أطق رؤية هذا المشهد فغادرت الغرفة، وأنا أتوقع أن أسمع صيحة قتيل قبل أن أتمكن من نزول السلم، ولكن الأمر في هذه المرة أيضًا لم ينته إلى شيء؛ لأن أنطونوف راح يقذفه في صمت - قبل أن يصل إليه - بذلك الشيء الذي كانا مختلفين عليه، ولم يكن غير خرقة قديمة اعتاد السجناء لفها حول سوقهم، ولكن أنطونوف بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق انطلق بالطبع يسبه قليلًا لإرضاء ذمته، والتظاهر أمام الآخرين بأنه لم يجبن أمامه ولم يتهيبه، غير أن بتروف لم يأبه به، ولم يبال شتمه، ولم يعن بالرد عليه؛ لأن

المسألة لم تكن مسألة شتم وسب، ولكنها مسألة حق كان هو فيه منتصراً، واسترد الخرقة مغتبطاً محبوباً، ولم يمض ربع ساعة حتى راح يخطو في أرجاء السجن كدأبه في هدوء تام، ويتلفت حوله لعله واجد قوماً يتحدثون في أمر مهم فيدخل بأنفه في حديثهم، ويستمع إليهم، كأن كل شيء يهمه، وكل أمر يعنيه، وإن تراءى غير مكترث بأكثر الأشياء، هائماً على غير هدى، منعطفاً في هذا الاتجاه أو ذاك، حتى ليصح أن نشبهه بعامل جبار قادر على أن ينجز العمل في سرعة بالغة، ولكنه كان عاطلاً إلى حين، فمضى يجالس الأطفال ويلاعبهم.

ولم أستطع أن أفهم لماذا بقي في السجن، ولماذا لم يهرب، وما كان ليرتد في الهرب لو أنه أحس ميلاً شديداً إليه؛ فإن أمثال بتروف لا يسوسهم سوى العقل حتى تقوم في نفوسهم رغبة طاغية، أو توسوس لهم شهوة مستحوزة، وعندئذ لن تستطيع قوة في الأرض أن تحول دونهم، وإنني لوافق أنه كان سيهرب ببراعة وحذق، فلا يستطيع أحد أن يفوقه ذكاء ولا تغلب فطنته فطنة، وفي إمكانه أن يعيش بلا خبز أسبوعاً، في الغاب أو الأدغال القائمة على ضفاف النهر، ولكن الظاهر أنه لم يبلغ ذلك الحد بعد، ولم يشته الفرار «كل» الاشتها، ولم أدرك يوماً عليه شيئاً من قوة التفكير أو الرجاحة البادئة، فقد جبل هؤلاء الناس على فكرة ثابتة تحركهم بغير وعيها هنا وهناك، فتراهم متنقلين من حال إلى حال طيلة أعمارهم، حتى يجدوا العمل الذي يوافق هواهم، ويصادف موضعاً من نفوسهم، وعندئذ لا يترددون في المغامرة بأي شيء، وكنت أعجب أحياناً لرجل قتل ضابطه لقاء لكمة واحدة وهو مع ذلك يستلقي أو يرقد ليتلقى عشرات السياط أو العصي في خضوع واستسلام، فقد كان بتروف أحياناً يجلد إذا ضبط متلبساً بتهمته الفودكا،

فقد كان غيره من السجناء الذين لا حرفة لهم ولا صنعة يتعهد بإدخالها إلى السجن، ولكن لا تنس أنه إنما يرقد ليتلقى العصي فوق ظهره برضاه، أو اعترافاً ضمئياً منه بأنه مستحق العقاب، وإنما عدا هذا لن يستطيع شيء في العالم أن يرغمه على الرقاد للجلد، وفيه نفس يتردد، وعجبت له أيضاً حين سرقني رغم إخلاصه المبين؛ والظاهر أن مرد ذلك إلى نوبات تعتربه، فهو الذي سرق كتابي المقدس حين طلبت إليه أن يحمله من مكان إلى آخر، ولم تكن المسافة بين الموضعين أكثر من بضع خطوات، ولكنه وفق إلى مشترٍ في طريقه فباعه وأنفق الثمن في الشراب، وكانت الحرقه إليه عندئذ بالغة، فكل ما يتحرق عليه يفعله «مكرهاً». ومثله لا يتورع عن قتل إنسان من أجل ستة دراهم يشتري بها زجاجة فودكا، وإن ترك في مرة أخرى إنساناً يمر به حاملاً عشرة آلاف من الجنيهات فلا يمسه بسوء. وقد جاء في مساء اليوم الذي سرق فيه «إنجيلي» فنبأني بسرقة بلا أدنى ارتباك أو أسف، بل بكل استخفاف كأنه عمل عادي لا شائبة عليه، فحاولت أن أوذبه تأنيباً رقيقاً، وكنت أسفاً أيضاً على ضياع الكتاب، فأصغى في هدوء وحلم، بل في الواقع وافقني على أنه كتاب قيم نافع، وقال إنه يأسف صادقاً على أنني لم أعد أملكه، وإن لم يبد الأسف على أنه سرقة، بل مضى ينظر في وجهي بانسباط ورضا، فلم يسعني إلا أن أكف في الحال عن تأنيبه، وأكبر ظني أنه ارتضى التأنيب مني مدرّكاً أنه كان حقاً أن يشتم ويلعن ويهان لفعله كهذه، وأنه من الخير أن يتركني أنفسي عن صدري قليلاً وأعزي النفس بالشتم والسباب، ولكن ذلك كله كان في الواقع كلاماً فارغاً، يستحي العاقل أن يتكلم عنه، وخيل لي أنه كان يعدني طفلاً، بل رضيعاً لا يفهم أبسط الأمور في هذا العالم، فإن بدأت مثلاً أتحدث في مسألة لا دخل فيها للعلم أو الكتب، أجبني عما أقول أدباً

منه على ما يبدو لي، وإن قصر رده على أشد الإيجاز، وكم عجبت له ما باله إذن لا يكف عن الأسئلة فيما يتصل بالكتب التي قرأها، والمعرفة التي وقعت له.. وكان يحدث أحياناً أن أنظر إليه من طرف خفي ونحن نتحدث لأرى هل كان يضحك مني ساخراً ولكني لم أدرك ذلك عليه، فقد كان عادة يقبل عليّ بسمعه ويصغي إلى قولي بانتباه، وإن كان غالباً لا يعيرني اهتماماً فكنت أغضب وأتألم، وكان يسألني أسئلة دقيقة معينة ولكنه لا يبدي دهشة كثيرة لأجوبتي، بل يتلقاها شارد البال ساهياً، وخيل لي كذلك أنه قد عاهد نفسه أن لا يتعب نفسه بالكلام معي كما يكلم الآخرين، إذ لا فائدة منه ولا محصل له لأنني فيما عدا الحديث عن الكتب لا أفهم شيئاً، ولا أفدر على فهم شيء، فلا حاجة به إلى إتعابي.

وكنت واثقاً أنه لا يطوي جوانحه على مودة صادقة لي، وكنت أعجب لهذا أشد العجب، ولست أدري هل كان يعدني متخلفاً عن شأو الرجال، أو لا يعدني رجلاً كامل التكوين، أم كان يشعر نحوي بتلك الشفقة التي يشعر بها كل مخلوق قوي بالغريزة لمن هو أضعف منه، ودونه قوة؛ لأنه يعدني كذلك، وإن كان هذا كله لم يمنعه من سرقتي، ولكنني كنت واثقاً أنه كان يأسف لي حين سرقتي، ولعله كان يناجي نفسه عندئذ قائلاً: «عجباً لرجل كهذا لا يقدر على شيء حتى ولا الدفاع عما يملكه»... ويخيل لي أن هذا هو الذي جعله يميل إليّ ويرتضيّني، فقد قال لي يوماً - كأنما كان عرضاً - إنني رجل ذو قلب أكثر مما ينبغي، «رجل من السداجة بحيث يستشعر المرء الأسف لك»، ولكنه راح بعد لحظة يضيف قائلاً: «لا تألم لما قلت يا إليكسندر بتروفتش، لقد كنت أتكلم بغير تدبر من قلبي...».

وقد يحدث أحياناً أن يبرز أشخاص من هذا الطراز في الطبيعة

ويتصدروا الصفوف عند قيام حركة عنيفة، أو نشوب ثورة، فيبدوا على هذا النحو كل ما أوتوا من قوة، ويحققوا في الحال كل أمر مستطاع، فهم ليسوا رجال كلام، وهم أيضًا ليسوا رجال تفكير، حتى يكونوا المحرضين أو كبار الزعماء في أية حركة من الحركات، ولكنهم أقوى صنائعها بأسًا وأجرأهم على العمل في سبيلها، وأسبقهم إلى الكفاح، وهم يبدأون بفتور أو بغير حماسة خاصة ولكنهم أول من يقتحمون القحم، ويتخطون أشد الصعاب، ويواجهون المخاطر بغير تردد ولا تفكير، ولا تهيب، فلا يلبث الآخرون أن يتبعوهم بغير تبصر، وينبعثوا من خلفهم إلى آخر الطريق، أو آخر رفق فيهم. ولست أعتقد أن بتروف قد وصل إلى نهاية طيبة، وأن ديدنه أن يختصر كل شيء، ويأخذ من كل شيء في وقت واحد، وأنه إذا لم يهلك إلى الآن فما ذلك إلا لأن هلكته لم تحن بعد، ولكن من يدري فلعله سينسأ به الأجل حتى يشيب ويموت ميتة طبيعية في شيخوخته، هائمًا على وجهه في مناكب الحياة بغير هدى ولا هدف..

ولكني أعتقد أن م... قد أصاب بقوله أن بتروف أشد السجناء استيئاسًا واستهتارًا بكل شيء...

الفصل الثامن

المستينسون - لوتشكا

ليس من السهل التحدث عن معاشر «المستينسين» لأنهم قلائل في السجن أو خارجه، فقد يبدو رجل ما مرعبًا، إذا تدبر المرء ما يقال عنه تحامى الوقوف في وجهه، وتحاشى اعتراض سبيله، وقد حملني إحساس غريزي على تجنب هؤلاء المستينسين في أول الأمر، ولكنني عدلت فيما بعد عن رأيي لعدة وجوه، حتى فيمن كانوا أرهب القتلة وأشنع السفاكين، فقد رأيت أناسًا لم يقتلوا أحدًا في حياتهم، ولكنهم أشنع وأشد نكرًا ممن قتلوا ست مرات، فإن في بعض الجرائم عنصرًا غريبًا يعجز المرء معه عن تكوين فكرة ولو مبدئية عنها.

أقول هذا لأن بين جرائم القتل في أوساط الفلاحين أحيانًا ما يرتكب لأغرب الأسباب، وإليك مثالًا لقتلة وسفاكين كثيرًا ما يلتقي المرء بهم، وهو نوع يعيش الرجل منهم في هدوء وسكينة محتملاً شظف العيش وقسوة الحياة، وقد يكون فلاحًا أو خادماً أو جنديًا أو عاملاً، وإذا بشيء فيه ينفجر

فجأة فينفد صبره، ويروح يغيب سكيناً في صدر عدوه أو ظالمه، وعندئذ تبدأ الغرابة في أمره ويظهر العجب، فيتجاوز الرجل حيناً سائر الحدود، ويذهب في الإجرام كل مذهب... لقد كان أول قتيل قتله هو الظالم الذي أَرهقه أو بغي عليه، أو عدوه، وهذا النوع من الإجرام مفهوم وله باعث، ولكنه في المرات التالية تراه لا يقتل أعداء، ولا يفتك بطغاة ظالمين، بل يقتل أي إنسان يقع عليه، أي يقتل للتسلية، أو من أجل كلمة مهينة أو نظرة، أو «ليجعل الرقم مستديراً» أو لمجرد «شكل للبيع» كأنما يقول: «اغرب عن طريقي، لا تعترض سبيلي... إنني قادم»، وهو في هذه الحالة سكران أو به هذيان أو في غيبوبة، أو كأنه وقد تخطى مرة الحد المقدس لا يني في الاستخفاف والعبث، والاعتقاد بأن لا شيء لديه يسمى مقدساً، أو كأن به لهفة على تحدي كل قانون، والاستهزاء بكل سلطان، والاستمتاع بحرية مطلقة لا يحدها شيء، ولا سرج لها ولا لجام، والتلذذ بالبشاعة التي لا يملك منع نفسه من الشعور بها نحو ذاته، وهو يعلم أيضاً أن عقاباً رهيباً يرتقبه، ولعل ذلك كله أقرب إلى الإحساس الذي يحسه المرء حين يطل من قمة برج شاهق على المعالم المنبسطة من تحته، حتى ليشعر أخيراً بأن الراحة في الإلقاء بنفسه من عل، أو في أي شيء آخر يخرججه عاجلاً من هذا الشعور المستحوذ عليه، وهذا هو ما يحدث حتى لأهدأ الناس والذين يظنون إلى ما قبل الجريمة مسالمين خاملين لا يعرف عنهم شيء، وأن بعضهم ليمثل دوراً أمام نفسه في هذه الغيبوبة التي تغشاه، والحمى الهاذية التي تنتابه، وكلما كان الرجل منهم مستذلاً أو مديساً بالأقدام كانت لهفته أشد، وحرقة أطغى لانتهاك الحرمات، وإلقاء الرعب في قلوب الناس، وإنه ليستمتع برعبهم، ويحب أيضاً الاشتمزاز الذي يثيره في نفوسهم، ويتخذ الاستيئاس خطته،

و«الاستياع» وسيلته وأداته، فتراه أحياناً يتطلع إلى عقاب عاجل حتى «يستقر» لأنه يجد من المشقة في النهاية الاحتفاظ باستخفافه، والمضي على استيئاسه وجسارته. والعجيب أن هذه النفسية، في أكثر الحالات، تستمر إلى اللحظة التي يصلب فيها على النطع ليجلد أو يساط، وعندئذ تنقطع بتأتاً، وتنتهي جملة، كأن مداها كان معيناً محدوداً مقدماً، وإذا هو أخيراً مستسلم منزو خانع ممزق كالخرقة البالية، وإنه ليتلوى تحت الجلد ويسأل النظارة المغفرة، ثم يأتي إلى السجن فينقلب فيه ثثاراً مهذاراً، سائل الثؤلول، حتى ليعجب المرء له ويتساءل: أيمن أن يكون هذا المخلوق هو بذاته الذي قتل خمسة أو ستة من قبل؟

ولكن فريقاً منهم لا يخضعهم السجن وشيكا، ولا يزالون محتفظين ببعض الجرأة الماضية، والمباهاة، كأنما يقولون: «لسنا كما تحسبون، وإنما نحن هنا لأننا جندلنا ستة قتلى..» ولكنهم في النهاية أيضاً منقلبون إلى الخنوع، وإنما يتسلى الرجل منهم أحياناً بذكريات فعالة الماضية، وعيشه القديم، والزمان السعيد الرغيد الذي نعم به حين كان جباراً «مستبيحاً»، وليس أحب إليه حين يظفر بمستمتع طيب القلب، سليم السريرة، من التظاهر والمفاخرة والاعتزاز بماضيه، ووصف أعماله، وإن حرص على كتمان الغبطة التي يشعر بها من حديثه هذا عن نفسه، كأنما لسان حاله يقول لمستمعه: «انظر أي رجل كنت فيما مضى..».

ويا الله! ما أنكر هذا الموقف الذي يتخذه أولئك المجرمون في الحديث عن أنفسهم، وما أدهاهم في اختيار طرقة، حتى ليبدو أحياناً عرضياً غير مقصود، وحتى ينطلقوا فيه فاترين كسالى كأنهم غير متعمديه، ويا الله! أي بروذ هذا الذي يتراءون به في لهجتهم، وكل كلمة تخرج من أفواههم..

لست أدري والله من أين التقطوا ذلك كله وتلقفوه؟..

وقد قضيت في أحد أيامي الأولى المساء كله راقداً في كسل واكتئاب فوق سريري الخشبي أستمع إلى قصة من هذه القصص، حتى لقد تصورت، من غفلتي وقلة تجربتي، أن الراوي مجرم رهيب مستنكر أوتي قوة إرادة لا يتصورها العقل، وإن كنت قد عدت بتروف «هايفاً» وتناولت قصته من قبل باستخفاف.

وكان موضوع القصة كيف قتل الراوي، وهو يدعى لوقا كوزميتش، ضابطاً برتبة «الميجور» لا شيء سوى التسلية واللهو، وكان لوقا هذا هو الروسي الصغير النحيل الحاد الأنف الذي ينزل معنا في العنبر، كما حدثتك من قبل، ولكن الواقع من حيث مولده أنه من أهل روسيا الكبرى - لا روسيا الصغرى - أوكرانيا - وكان مولده في الجنوب، وأعتقد أنه كان من «الموالي» أو العبيد الذين يخدمون البيوت والقصور، وكانت به نزعة غلبة إلى القحة والجرأة والعدوان، وفي مثله يقول المثل: «لئن كان العصفور صغيراً فلا يزال ظفره حاداً» ولكن السجناء قد أوتوا بالغريزة ملكة البصيرة النفاذة في الخفايا والأعماق، فلا عجب إذا هم كانوا قليلي الاحترام له، وكان غروره مرعباً، وقد جلس في ذلك المساء فوق السرير الخشبي يحيك قميصاً إذ كانت صنعتته حياكة الثياب الداخلية، وكان يجلس بجانبه سجين يدعى «كوبلن» - وهو شاب عملاق شديد الأسر مقفل بليد الذهن، وإن كان طيب القلب ودوداً وينام في السرير المجاور له، فكان دأب «لوتشكا» الاشتجار كثيراً معه واتخاذة ضحكة، والتحكم فيه، والبغي عليه، وإن ظل كوبلن من بلاهته لا يشعر من ذلك كله بشيء، وكان في تلك اللحظة يغزل جورباً من الصوف ويستمع إلى لوتشكا بغير اهتمام، وكان هذا يروي قصته بصوت

مرتفع وعبارات واضحة، فقد أراد أن يسمعها الجميع، وإن تظاهر بأنه إنما يرويهما لكوبلن دون أحد سواه.

وقد أنشأ يقول وهو يدخل الإبرة في سم الخياط: «لقد أرسلوني يا أخي من بلدنا إلى تش... ف بتهمة التشرد».

فسأله كوبلن: ومتى كان ذلك.. هل من عهد بعيد؟

قال: حين يحل موسم الفول.. ما علينا.. ولما وصلنا إلى ك... وضعوني في السجن فترة قصيرة من الوقت، وكان معي فيه بضعة عشر، كلهم من روسيا الصغرى، شباب عمالقة أصحاب أقوىاء كالعجول، ولكنهم مع ذلك مثال السكينة والهدوء، وكان الطعام رديئًا، والمأمور يفعل بهم ما يشاء، ولم ينقض عليّ يومان في السجن حتى تبين لي أنهم جميعًا جنباء رعايد، فقلت: ما بالكم تستكينون لمغفل كهذا؟ قالوا وهم مني ضاحكون: «أذهب بنفسك وقل له هذا...» فلم أحر جوابًا، وكان من بينهم رجل غريب يا أولاد.. (وهنا انصرف عن كوبلن فجأة وراح يوجه الكلام إلى السجناء جميعًا مستطردًا): «وقد اعتاد أن يقص علينا كيف حوكم، وماذا قال في المحكمة، ولا يكف عن البكاء وهو مسترسل في روايته؛ لأنه ترك من خلفه زوجًا وأولادًا، وكان شيخًا ضخمًا أشيب، فجعلت أقول له: امض في قصتك، ودع البكاء.. ولكن ابن الشيطان ظل يكتب ويكتب، قلت: الله يخنقك يا شيخ، فإني لأسعد برؤيتك مخنوقًا، ولكنه لبث يكتب حتى كتب أخيرًا شيئًا كان فيه دماري...».

وهنا صاح لوقا بزميل له يدعى «فاسيا» قائلاً: «أعطني خيطًا فإن هذا الخيط الذي في يدي رديء...».

وقال «فاسيا» وهو يمد إليه يده بالخيط: «إنه خيط من السوق...».

قال: إن الخيط الذي لدينا هنا في ورشة الخياطين أفضل، ومنذ أيام أرسلنا حارسنا ليشتري لنا شيئاً منه، ولكنني لا أدري من أي نساء منكودات اشترى هذا الخيط؟

ومضى يضع الخيط في عين الإبرة على ضياء المصباح، وقال الآخر:
«من صاحبة له...».

قال: بلا شك.

وعندئذ التفت كوبلن إليه وكان لوقا قد انشغل عنه فقال: «وماذا كان من أمر الميجور؟...».

وكان هذا هو كل ما كان لوقا يريد به وبيتيه، ولكنه لم يعد إلى قصته في الحال، وتراءى كأنه المترفع عن كوبلن، وراح يجذب الخيط من سن الإبرة بكل هدوء، ويضع ساقه ببلادة تحته، وبعد لأي عاود الحديث.

قال: «وما زلت بأولئك الروس الصغار حتى طلبوا في النهاية رؤية المأمور، واشترت مدينة من جار لي في صباح ذلك اليوم فأخفيها استعداداً لأي شيء، وثار الميجور واستشاط غيظاً ثم انطلق منصرفاً، قلت: تعالوا ولا تخشوا شيئاً يا أولاد، ولكنهم تخاذلوا ورجفت منهم الأوصال، وإذا بالميجور يقبل وهو سكران فيصبح: من هنا.. ماذا هنا.. أنا القيصر، بل أنا الله، وما كاد يقول ذلك حتى تقدمت والمدينة في كم ثوبي، قلت: كلا.. يا افندم، ودنوت شيئاً فشيئاً منه، وعدت أقول: كلا.. يا حضرة.. كيف يمكن أن تكون أنت القيصر وأنت الله أيضاً؟.. وصرخ الميجور: «أهو أنت.. أهو أنت.. أنت.. أيها الثائر المتمرد...».

قلت، وأنا أدلف نحوه رويداً: «كلا يا سعادة المأمور، أنت تعرف أن

الله القدير الحي القيوم واحد لا شريك له، وأن هناك قيصرًا واحدًا أقامه الله علينا، وهو يا جناب المأمور ملك، وأنت جنابك لست إلا «ميجور»، وأنت قائدنا بأمر جلالته وفضل جدارتك، قال وهو «يقاقي» كالدجاج: «ماذا.. ماذا.. ماذا..» واختنق فلم يعد يقوى على الكلام، وقد بهت وأحيط به، قلت: خذ ووثب عليه، فغيب النصل كله في بطنه، وانتهت الشغلة، فتدحرج ولكنه لم يتحرك، وإنما بقيت ساقاه «ترفسان» ورميت بالمدية، وقلت للزملاء: «هلموا احملوه الآن يا أولاد..».

وهنا أقف قليلًا عن السياق، فأقول إن هذه العبارات الثقيلة من نحو «أنا القيصر وأنا ربكم الأعلى» وأمثالها كانت في تلك الأيام تجري كثيرًا على شفاه القواد، ولكن الحق يقال إن هذا النوع من الضباط قد قل؛ أو لعله قد انقرض اليوم. ومما يجدر بالذكر أيضًا أن الذين يحبون التفوه بهذه العبارات ويفخرون بها، هم في الغالب ممن ارتفعوا «من تحت السلاح» فإن ارتقاءهم يجعل عاليهم سافلهم، حتى العقول التي في رؤوسهم، ولا عجب فهم بعد أن سيموا العذاب والخسف تحت النير عدة سنين، واجتازوا كل رتبة صغيرة وتنقلوا في الصفوف، وجدوا أنفسهم فجأة ضباطًا وقوادًا، وفي نشوة المنصب لا تلبث قلة تجربتهم أن تؤدي بهم إلى الغلو في تصور سلطانهم وخطر شأنهم بالنسبة إلى الأصاغر طبعًا والمرؤوسين، وأما إزاء كبارهم فيظلون على مهانتهم، وإن لم تبق لهم حاجة إليها، وكانت المهانة من أمثالهم، أمام الرؤساء مثيرة لنفوس خلق كثير من الناس، بل إن فريقًا من هؤلاء الأذلاء يبادرون في حماسة غريبة إلى مصارحة رؤسائهم بأنهم ارتفعوا من تحت السلاح، وإن أصبحوا في سلك الضباط، وأنهم لن ينسوا موضعهم القديم، ولكنهم حيال الجنود طغاة حاكمون بأمرهم، ولكن هذا

القبيل منهم نادر في هذه الأيام، وأشك في وجود واحد من أمثالهم يقول مقال هذا الضابط «أنا قيصركم، أنا ربكم الأعلى»، ولكنني أعرف مع ذلك أن لا شيء يهيج حفاظ السجناء خاصة، وأهل الفاقة عامة، قدر ما يهيجها تفوه الضابط بهذه العبارات، فإن هذا الغلو القبيح في تمجيد الذات، والإسراف الذميم في تصوير القدرة على إتيان كل شيء، يبعثان الكراهية في نفوس الناس حتى أشدهم خنوعًا، وأكثرهم مسالمة، ويخرجهم عن طورهم، ويستنفد كل ما أوتوا من جلد وصبر، ولحسن الحظ أن هذا السلوك الذي عفا الدهر عليه كان أبدًا يجد من ولادة الشأن، حتى في تلك الأيام الغابرة، قمعًا شديدًا وعقابًا صارمًا، وأعرف شواهد كثيرة وأمثلة عدة.

والواقع أن أهل الضعة من الناس عامة يهيجهم أي إهمال لشأنهم، أو عارض احتقار لهم، وبعض الناس يظنون أنه ما دام السجناء يجدون الغذاء الطيب والرعاية الحسنة، وتكفل لهم المطالب التي ينص عليها القانون، فلا ضائر يضيرهم، ولا بأس عليهم من شيء، وهو خطأ أيضًا لأن كل امرئ مهما يكن شأنه، ومهما تكن مهنته، يطلب بحكم غريزته، أو ربما بغير وعيه، احترامًا لبشريته. والسجين يعرف أنه سجين طريد المجتمع، ويعرف موضعه من القائد، ولكنك لن تجعله بالقيد والإسار ووصمة العار ودامغة الجريمة ينسى أنه إنسان، وأنه كبشر ينبغي أن يعامل كذلك، أي والله. إن المعاملة الإنسانية قد ترد البشرية إلى من مسخت الدنيا بشريته، وإن هؤلاء المناكيد لأحوج إلى هذه المعاملة من سواهم لأن فيها خلاص أرواحهم، ومتعة نفوسهم، وقد لقيت ضباطًا طبيي القلوب، رفيعي الأذهان، ورأيت مدى الأثر الذي يحدثونه في مشاعر أولئك المحطمين الممتهنين، فإن بضع كلمات رحيمة منهم هي بمثابة بعث جديد لهم، حتى ليلبغ سرورهم بها مبلغ

سرور الأطفال، وحتى لقد بدأوا يحبون الرحماء بهم، وإنني لمضطر هنا أن أذكر شيئاً آخر غريباً، وهو أن أولئك السجناء أنفسهم لا يحبون أن يعاملهم الضباط معاملة مسرفة في الألفة، أو مغالية في الطراوة والرفق؛ لأنهم يريدون أن يحترموا ذوي السلطة عليهم، والغلو في الرفق بهم يزيل هذا الاحترام، وهم أيضاً يحبون أن يروا الضباط المهيمين عليهم متجملين بأوسمتهم أيضاً حسني البزة، محظوين عند من فوقهم في مراتب النفوذ والسلطان، مدققين بادي الخطر، منصفين حريصين على الكرامة، وهم يؤثرون من كان هذا شأنه، شاعرين بأن مثله يحترم نفسه فلا يهينهم ولا يسبهم، ويظل كل شيء في موضعه، وكما ينبغي أن يكون..

وانثنى كوبلن يقول بهدوء: «لا بد من أنك أخذتها «سخنة» جزاء ما صنعت؟..».

قال: سخنة يا ابني... أي نعم.. سخنة من غير كلام.. يا علي، امدد يدك بالمقص، لماذا لم تلعبوا الورق اليوم يا أولاد؟..».

فأجاب فاسيا: «لأنهم شربوا بكل فلوسهم، ولولا ذلك للعبوا..».

وعاد كوبلن يسأله قائلاً: «وكم جملة ما أخذت أنت؟..».

قال: «أعطوني مائة وخمسة يا عزيزي».

وانصرف عني كوبلن إلى توجيه القول للزملاء الآخرين، وكادوا يقتلونني يا أولاد كما لا يخفى عنكم، فقد استاقوني وأنا في كامل بزتي لكي أجلد، ولم أكن إلى تلك الساعة قد ذقت الطعام، وكانت الحشود كبيرة، وقد خرجت المدينة كلها للفرجة، إن هناك لصاً سياسط، كلا، بل قاتل، ولست بحاجة إلى القول بأن الناس حمقى مغفلون. وجاء الجلاذ فخلع عني ثيابي،

وبطحنني على الأرض، وصاح بي: «خذ بالك إنني سألدعك...»، ورحت أعجب وأسائل نفسي: ماذا سيصينني؟ وخذلتني حنجرتي، ولما هوت الثانية، قد لا تصدقوني إذا قلت لكم إنني لم أسمعهم وهم يعدّون «اثنان»، ولما أفقت سمعتهم يعدون (١٧) ونزعوني من العروسة^(١) أربع مرات يا ابني وأعطوني نصف ساعة استراحة، وصبوا فوقي ماء، وجعلت أنظر إليهم جميعاً وعيناي في وسط رأسي، وظننت أنني سأموت في موضعي.

قال كوبلن بسداجة: «وهل مت؟...».

فحدجه لوتشكا بنظرة مليئة باحتقار..

وضج الآخرون ضاحكين.

وقال قائلهم: «أما مخ خشب صحيح...».

وتبعهم لوتشكا قائلاً، كأنه أسف على تنازله إلى الكلام مع هذا المخلوق: «الدور العلوي منه مختل...».

واختصر فاسيا الموضوع بقوله: «هذه طبيعته».

ولئن كان لوتشكا قد قتل ستة رجال، فلم يكن أحد في السجن يخشاه، ولعله مع ذلك كان يود من صميم قلبه أن يعده السجناء مرهوب البأس مخيفاً...

(١) هي الآلة الخشبية التي يجلد عليها السجين وتسمى في الإنجليزية والروسية «الحمار» - أو «الحصان».

الفصل التاسع

إيساي فومتش - الحمام - قصة باكلوشين

وأخذ عيد الميلاد يقترب...

وبدأ السجناء يتطلعون إلى حلوله بشيء من الرهبة، وأخذت أنا أيضًا بعد أن بدا لي ذلك منهم أترقب شيئًا غير مألوف. وقبل يوم العيد أخذونا إلى «الحمام» لنغتسل، وكان السجناء في عهدي أو في السنين الخوالي، قلما يؤخذون إليه، وسرى الفرح فيهم جميعًا وبدأوا يستعدون، وتم الاتفاق على الذهاب بعد الغداء، ولم يكن لدينا شغل بعد الظهر، وكان «إيساي فومتش بومشتاين» وهو سجين يهودي تحدثت إليك عنه في الفصل الرابع أكثر المساجين في عنبرنا سرورًا، وأشدّهم حماسة وهياجًا، فقد كان يحب أن يدع البخار يغمره إلى حد الاختناق، أو الغيبوبة والإغماء، وكلما عدت بخاطري إلى الذكريات القديمة تمثلت لي تلك الحمامات؛ لأنها حقًا جديرة بالذكر، وبدا في مقدمة معالمها وجه هذا الزميل وسحته المشرقة، التي لن تزول من خاطري آخر الحياة.

يا الله!.. لكم كان مضحكًا حقًا، مضحكًا إلى حد «يفطس» من الضحك.. وقد سبق لي وحدثتك قليلًا عن شكله، فقد كان هزيلًا واهيًا ناقص النمو في الخمسين، أبيض البشرة كثير المكاسر والغضون أشبه «بالكتكوت» لا تزال على خديه وجبينه ندوب تركها «دمغه» بميسم الإجرام، ولا تفارق وجهه سمات القناعة والرضا والسكينة بل الهناء، والظاهر أنه لم يكن يحس أسفًا على أنه في السجن، وكان جوهريًا، ولم يكن في البلدة أحد من أهل صنعته، فلم يكن يشتغل بشيء غيرها للسادات فيه والموظفين نظير أجر يتقاضاه منهم، فلم يكن بحاجة إلى شيء، بل لقد كان غنيًا يدخر المال ليقرض منه السجناء بفائدة، وكان له مغلاة شاي وحده «السامودار»، ومرتبة طيبة ينام عليها، وأقداح وأكواب وأدوات مائدة خاصة، ولم يكن اليهود في المدينة يضمنون عليه بمودتهم وعطفهم، واعتاد الذهاب في أيام السبت مع حارس إلى «الكنيس» في المدينة للصلاة، وهو أمر مسموح به، أي إنه كان في الواقع ينعم بعيش ناضر، ولكنه كان ينتظر بفارغ الصبر انتهاء مدته وهي اثنتا عشرة سنة لكي يتزوج. وكان خليطًا عجيبًا من السذاجة والغفلة، والذكاء، والقحة، ولين العريكة، والاستحياء، والتباهي، والتبجح، وقد أدهشني أن السجناء لا يسخرون أبدًا منه ولا يتهافون به، وإن أرسلوا أحيانًا «نكتة» أو أطلقوا «قفشة» على حسابه.

أما إيساي فومتش فقد كان ضحكة الجميع وهزؤتهم، لا يفترون عن اللهو به، ولا يكفون عن مداعبته، حتى لقد ألفوا أن يقولوا: «ليس لدينا إلا هو فلا تؤذوه»، وكان يعرف موضعه ولكنه الفخور أبدًا به، المتباهي بهذا الحظ الذي بلغه، فكان هذا ما يسر السجناء ويفرحهم كثيرًا، وكان وصوله إلى السجن غريبًا كل الغرابة، وقد وقع ذلك قبل مقامي ولكنني نبئت به،

ففي ذات يوم قبيل المساء والسجناء في فراغ أشيع فجأة أنهم قد جاؤوا إلى السجن بيهودي، وأنهم أخذوه إلى مبنى الحرس لحلق شعره، وأنه لا يلبث أن يأتي، ولم يكن في السجن من اليهود أحد في ذلك الحين، فاصطبر السجناء لظهوره متلهفين، وما إن بدا لأعينهم حتى أحاطوا به عند الباب، واقتاده الجاويش إلى العنبر وأراه موضعه منه وسريره، وكان إيساي يحمل تحت إبطه غرارة تحوي أمتعته الخاصة و«النمرة» التي صرفوها له - أمتعة السجن - فوضع الغرارة واعتلّى الفراش وجلس متربّعاً، وهو لا يجرؤ على رفع عينيه، وتعالّت الضحكات والقفشات على «يهوديته» وإذا بسجين شاب يشق طريقه فجأة إليه وهو يحمل في يده «بنطلون» الصيف القديم البالي القذر، وغطاء الساق الذي تصرفه إدارة السجن، وراح يجلس بجانب إيساي فومتش ويلقي كفه على كتفه.

وأنشأ يخاطبه قائلاً: «اسمع، لقد كنت أبحث عنك يا صاحبي العزيز كل هذه السنوات الأخيرة... قل لي... كم تدفع... في هذا الرهن...». ونشر الخرق البالية بين يديه.

ولم يجسر إيساي فومتش على التفوه بكلمة، فقد استولت الهيبة عليه من لحظة دخوله حتى لم يستطع أن يرفع بصره إلى من حوله من الساخرين، ولم يقو على النظر إلى تلك الوجوه الدميمة النكراء التي تحاصره من كل مكان، ولكنه ما لبث على مشهد الخرق المبسوطة أمامه، والرهن المعروف عليه، أن اطمأن وزال تهيبه، وأخذ يقلب تلك الخرق بين كفيه ويديرها إلى النور، بينما لبث الجميع صامتين يرتقبون ماذا هو قائل.

وعندئذ عاد الفتى المستعرض وهو يغمز لإيساي بطرف عينه فقال: «لا أحسبك ستعطيني «روبلاً» من الفضة على هذا البنطلون؟؟».

قال: روبل فضة.. قل يا شيخ سبعة كوبيكات..

وكانت هذه هي الكلمات الأولى التي فاه إيساي فومتش بها في عنبر السجن، فلم يبق أحد من الجمع إلا ضحك من قوله.

وعاد الفتى السجين يقول: سبعة! هذا كلام طيب. هاتها يا عم.. ومبارك عليه، ولكن احرص على الرهينة إنها بعمرك إذا أنت ضيعتها.

ومضى اليهودي يقول بصوت راعش، وهو يدس يده في جيبه ليخرج النقود وينظر بتهيب إلى السجناء، وفي الوقت ذاته يريد أن يشتغل بصنعه - سبعة وثلاثة فائدة يكون المجموع عشرة كوبيكات.

وقال الفتى، ثلاثة كوبيكات سعر الفائدة في السنة، أليس كذلك؟

وأجاب اليهودي: كلا بل في الشهر.

- أنت زبون شديد يا يهودي... ما اسمك؟

- إيساي فومتش.

- طيب يا إيساي فومتش، إنك لواجد هنا إقبالاً كثيراً... إلى الملتقى.

وعاد إيساي فومتش يتفحص البنطلون «المرهون» ويطويه بحرص ويدسه في الغرارة وسط ضحكات المساجين.

وكان إيساي محبوباً منهم جميعاً، لا يقسو أحد عليه، وإن كانوا بجملتهم مدينين له لأنه كان خلياً من الخبث والأذى، كالدجاجة، ولكنه حين رأى سلامة النية نحوه تحيط به، بدأ يتكبر ويزدهي قليلاً ولكن زهوه بدا ساذجاً مضحكاً، فعفا القوم عنه، ولم يجد أحد فيه بأساً، وكثيراً ما كان لوتشكا يعاكسه، فقد عرف في أيامه خلقاً كثيراً من اليهود، ولكن معاكسته

لم تكن عن حقد أو كراهية، ولكن لمجرد الضحك والعبث والتسلية، كما يعاكس المرء منا الكلاب والبيغاوات وغيرها من الحيوانات المستأنسة، ولم يفت هذا صاحبنا إيساي فومتش فلم يكن يتبرم أو يستاء بل كان يرد على العبث بمثله في لباقة ولطف.

فإذا قيل له: «يا يهودي» سأجرحك! أجاب بجرأة قائلاً: «إن تعطني لكمة أعطك عشر لكمات!».

وإذا قيل له: «أيها الأجرب اللعين!».

قال: «لا يهم إذا كنت كذلك».

وإذا عاد الشاتم يشتمه قائلاً: «أيها اليهودي الأبرص!».

يقول: «لا يهم.. قد أكون أبرص... ولكنني غير مفلس... عندي فلوس... ولست بالمتعوس...».

- لقد بعث المسيح.

- لا يهم، إذا كنت قد فعلت.

وعندئذ يصرخ المساجين ضاحكين قائلين: «بديع يا إيساي... برافو! لا تمسه، إنه الوحيد الذي لدينا...».

فيقول المعتدي: إيه أيها اليهودي... ستأخذ السوط وترسل إلى سبييريا! ويجيب هو قائلاً: أنا الآن فيها.

- ولكن سترسل إلى أبعد منها.

- أليس الله هناك أيضًا!..

- بلى. إنه هناك طبعًا.

- ماذا يهم إذن... ما دام الله هناك، فالمال هناك أيضًا، سأكون بخير في كل مكان.

وعندئذ يحيط المساجين به مصفقين معجبين وهم يقولون: مرحى... مرحى... يا إيساي فومتش، إنك لطيف من غير كلام...!

ولئن بدا له أنهم يضحكون منه ساخرين، فلا يزال راضيًا لا يغضب ولا يتبرم، بل كان رضاهم يبعث في نفسه سرورًا ولذة، فيذهب ينغم بنعمة مخافتة، مضحكة لا كلام فيها ولا ألفاظ، وهي النعمة الوحيدة، لا.... لا... لا.... التي اعتاد الترنم بها طيلة أعوامه في السجن، ولكنه بعد ذلك حين ازدادت معرفته بي راح يقسم بأن هذه هي النعمة ذاتها التي كان يترنم بها الستة الآلاف من اليهود الذين عبروا البحر الأحمر، ويتغنونها كبارًا وصغارًا، وإن هناك أمرًا يقتضي من كل يهودي أن يترنم بها في لحظة انتصاره وغلبته على أعدائه.

وفي مساء كل «جمعة» اعتاد السجناء المقيمون في العنابر الأخرى المجيء إلى عنبرنا لمشاهدة إيساي وهو يحتفل «بالسبت». وكان الرجل من السذاجة وسلامة النية والغرور بحيث كان يجد في هذا الاهتمام العام به مسرة واغترابًا. وكان في وقار متكلف يذهب يغطي مائدته الصغيرة القائمة في الركن، ويفتح كتابه، ويقيد شمعتين، ثم يشرع وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة في ارتداء «حلتة» الدينية، وهي «شال» ملون من الصوف حرص على وضعه في صندوقه، فإذا انتهى منها لف تعاويز وتمايم حول يديه، وربط «سفطًا» من خشب فوق جبينه بعصابة حول رأسه، حتى ليبدو أشبه شيء «بقرن» غريب ناتئ في جبهته، ثم يأخذ في الصلاة يرددها تراتيل، وصرخات، وتضرعات، ويبصق على الأرض، ويلف حول نفسه، ويأتي

بحركات موحشة غريبة، وكان ذلك كله بالطبع شطراً من حفلة «التسيت» التي يحييها. وليس فيه ما يستغرب، ولكن الغريب حقاً أن إيساي فومتش كان يعتمد القيام بدوره أمامنا، ويمثل طقوسه الدينية على أعيننا، ثم لا يلبث فجأة أن يدفن وجهه في راحتيه، ويتلو آيات من الكتاب وهو مجهش بالعبرات، ولا تني هذه العبرات أن تتعالى حتى إذا أدركه الإعياء وفرغ من العواء، ترك رأسه المتوج بسفط موسى يسقط فوق الكتاب، ولكنه بغتة وفي وسط أشد النحيب، وأعنف النشيج، ينثني يضحك ويغني بصوت متهدج من الحمية وفرط الإحساس، ونعمة خافتة مفعمة باللذة والهناة الروحية؛ فكان السجناء يعقبون على هذا المشهد قائلين: «ألا ترون أنه متصنع...» ولقد سأله مرة ما معنى ذلك النحيب الشديد ثم الانتقال الفجائي إلى الضحك والسرور، وكان يُجِبُّ هذه الأسئلة مني خاصةً، فراح يشرح لي في الحال المراد منهما، قائلاً: إن النحيب هو لذكرى ضياع «أورشليم»، وإن الطقوس تستوجب الاسترسال في أشد النحيب وضرب الصدر بالكف، وأنه حين يستغرق في البكاء ويشتد في الانتحاب، لا يلبث فجأة أن يتذكر عرضاً كما تنص الطقوس، نبوءة بعودة اليهود إلى بيت المقدس، وأنه عند هذه الذكرى مطالب في الطقوس بإظهار الفرح، ورفع الصوت بالغناء والضحك، وترديد دعواته بأنغام تعبر عن تناهي غبطته، وتظهر على وجهه أبلغ الروعة، وأرهب الجلال ما أمكن، وإن هذا الانتقال الفجائي، وضرورة التحول إليه مصدر غبطة متناهية له. واتفق في ذات مرة وهو في أشد الحمية في الصلاة أن دخل المأمور إلى العنبر مصطحباً الضابط المنوب والحراس، فاستوى السجناء في مضاجعهم، بينما مضى إيساي فومتش يشتد في الصياح والتضرع ويزداد حمية وتحمساً، وكان يعلم أن الصلاة غير ممنوعة وأنه من المستحيل

مقاطعة المصلي في صلواته، فلا باس طبعاً عليه من الصباح أمام المأمور، ولكنه أراد عمداً أن يتم هذا المشهد في حضرته، وعلى أعين زملائه ورفقته. وتقدم «الميجور» حتى لم تبق إلا خطوة بينهما، فلم يكن من إيساي فومتش إلا أن ولى ظهره إلى المائدة، وانطلق يلوح بذراعيه ويتغنى بالنبوءة لصق وجهه، وتبعاً لما ورد في الطقوس من وجوب إظهار الغبطة المتناهية والجلال الرائع على قسّمات وجهه، انثنى يفعل ذلك، ويغمض عينيه بشكل غريب، ويضحك ويهز رأسه للمأمور، وأثار هذا المنظر دهشة الضابط، ولكنه انصرف مقهقهاً، وهو يقول له في وجهه إنه مجنون، فلم يكذب إيساي فومتش يراه مولياً حتى ازداد ضحكاً وحماسة.

وسأله بعد ساعة وهو على العشاء: «ماذا كان صانعاً لو أن الميجور استشاط غيظاً...».

قال: أي ميجور؟

قلت: أي ميجور!.. كيف... ألم تره؟

قال: كلا..

قلت: كيف هذا؟... لقد كان واقفاً عن كذب منك، وجهاً لوجه.

ولكنه بدأ يؤكد لي بجد أنه لم يره، وأنه في أثناء الصلاة تأخذه عادة الجلالة فلا يبصر ولا يسمع شيئاً مما يجري حوله.

وإنني لأتمثله الساعة وهو يطوف بأرجاء السجن أيام السبت وهو في فراغ من كل عمل، مجتهد قدر الإمكان أن يتبطل فلا يؤدي عملاً ما، كما شرع له الدين في «السبت».

وما كان أغرب الحكايات والأقاصيص التي اعتاد أن يرويها لي كلما عاد من «الكنيس»، وما كان أعجب الأنباء والأقاويل التي كان يأتي بها عما

يحدث في بترسبرج يومئذ مؤكداً لي أنه تلقاها من إخوانه اليهود، وأنهم أتوا بها «من ندي أمها».

ولكنني أطلت الحديث عن إيساي فومتش... فلأدعه...

ولم يكن في المدينة سوى حمامين عموميين، أحدهما يديره يهودي ويتألف من غرف منفصلة للاستحمام، يتقاضى عن كل منها رسماً قدره خمسون «كويكا»، وهو خاص بأهل الطبقة الراقية، وأما الآخر فلطبقة العمال، وهو متداعٍ قدر صغير.

وإلى هذا الحمام الثاني سيق بنا معاشر المساجين.

وكان اليوم صقيعاً، ولكن مشمساً، فاغبط السجناء بمجرد الخروج من السجن ومشاهدة المدينة، فلم تنقطع ضحكاتهم وأمازيحهم طيلة الطريق.

ورافقنا إلى الحمام صف كبير من الجنود بالبنادق محشوة على الأبهة، ومضينا نشق المدينة في وسط إعجاب الناس واغبتابهم بمشهدنا، وفي الحمام قسمنا جماعتين، جماعة تستحم والأخرى تنتظر حتى تنتهي صاحبته، وكان هذا التقسيم أمراً لا معدى عنه، لصغر حجم الحمام وضيقه، ولكن المدى كان محدوداً بحيث يشق على المرء أن يتصور كيف يتيسر حتى لنصفنا أن يجد متسعاً فيه للاستحمام.

ولم يفارقني بتروف، بل تقدم من تلقاء نفسه لمعاونتي، وعرض عليّ أيضاً أن يتولى غسلي وتنظيف جسدي، وجاء سجين آخر يدعى «باكوشين» فاقترح عليّ أن يقوم هو «بتحميتي».

وكان باكوشين نزلياً في «القسم الخاص» ويلقب «بالرائد» وقد

وصفته لكم من قبل، وقلت إنه من أفتن السجناء، وأخفهم روحًا، وكنت قد بدأت أعرفه قليلًا.

وأعاني بتروف على خلع ثيابي؛ لأنني لقلّة اعتيادي كنت بطيئًا في خلعها، وكان الجو في غرفة الانتظار باردًا يكاد في برودته يشبه مثله في العراء.

وأقول هنا، والشيء يذكر بالشيء، إنه من المشقة البالغة على السجين أن يخلع ثيابه، حتى يتدرب عليه ويحذقه؛ إذ ينبغي له أولاً أن يتعلم كيف يفك بسرعة الأربطة الملفوفة تحت حديد القيد عند الكعبين، وهي أربطة من الجلد يبلغ طولها ثماني بوصات وتلبس تحت الثياب الداخلية فيما يلي الحلقة المحيطة بالكعب، ويبلغ ثمن الزوج منها ستين كوبيكًا على الأقل، ولا غناء لكل سجين عن شرائها على حسابه طبعًا، لاستحالة المسير عليه بغيرها، والمعروف أن هذه الحلقة لا تزم على الساق، بل في وسع المرء أن يدخل أصبعه من خلالها، فإذا لم يضع السجين الرباط التصق الحديد بلحم ساقه وحكه، ولكن الجلد يمنع هذا الالتصاق المستمر، ولولاه لأصاب السجين من الاحتكاك قرح من يوم واحد. وليست المشقة في نزع الأربطة، ولكن في نزع السروال التيل من تحت السلاسل، فإن ذلك في الواقع فن خاص؛ لأن سحبه من الساق اليسرى مثلاً يستوجب أولاً انتزاعه من بين الحلقة والساق إلى أدنى، ويقتضي تخليص القدم رفعه ثانية إلى أعلى بين الساق والحلقة، وتميرير الساق اليسرى كلها من حلقة الكعب اليمنى، وتكرر هذه الشغلة بالذات حين يلبس السجين سروالاً آخر نظيفًا، ومن الصعب على السجين الجديد «الغشيم» أن يؤدي ذلك اعتباطًا، بل لا غناء له عن التدريب عليه، وكنت قد تدربت وأنا في طوبلسك على يد سجين يدعى «كورينيف» كان

يرأس عصابة من اللصوص وحكم عليه بقضاء خمس سنوات مقيداً مربوطاً إلى الجدار، ولكن السجناء تعودوا نزع سراويلهم ولبسها دون أدنى مشقة.

وأعطيت بتروف بضعة دراهم ليشتري لي صابوناً وحفنة من الليف، وكان السجن يصرف لكل واحد قطعة من صابون في حجم القرش، وسمك قطعة الجبن التي تقدم في بداية العشاء عند أهل الطبعة الوسطى من الناس؛ ولكن الصابون يباع في ردهة الحمام لطلابه، كما يباع العسل الخمير المتبّل والخبز والماء الساخن. ولم يكن يسمح للسجين طبقاً للاتفاق المعقود مع صاحب الحمام بأكثر من جردل واحد منه، فإذا أراد أحدهم مزيداً من الماء ليغتسل ويحسن الاستحمام استطاع بنصف درهم أن يأخذ جردلاً آخر ينقل إليه من غرفة الانتظار إلى الحمام من خلال كوة صغيرة أعدت لهذا الغرض.

ولما انتهى بتروف من نزع ملابسي أخذني من ذراعي لدخل الحمام، حين أدرك أنه من المشقة على أن أمشي والقيد في رجلي، ومضى يكرر القول لي وكأنه «مربية»: ارفعه إلى أعلى حتى السمانة... وهنا خذ بالك... من السلم...».

واستحييت في الواقع، وأردت أن أؤكد له أنني أستطيع المشي وحدي، ولكنه لم يكن ليصدق، فقد راح يعاملني كأنني حقاً طفل لا يقدر على شيء بمفرده، ومن واجب كل إنسان أن يعينه ويساعده. ولم يكن بتروف خادماً، بل لقد كان أبعد من أن يعد نفسه كذلك، ولو أنني امتهنته أو نلته بمساءة لعرف كيف يعاملني، ولم أكن قد وعدته أن أدفع له أجراً على خدماته، ولم يسألني هو كذلك، فما الذي حمله إذن على رعايتي بهذه الصورة والتلبب في خدمتي على هذا النحو...

ولما اجتزنا الباب إلى الحمام ذاته ظننت أننا داخلون إلى الجحيم..

تصور غرفة طولها اثنتا عشرة خطوة ومثلها عرضاً قد احتشد فيها مائة، أو على التحقيق ثمانون، مرة واحدة لأن الجمع موزع على دفعتين، وكنا قرابة مائتين، فلا عجب إذا مضت الأبخرة تعمي منا الأبصار، والأقذار والعرق تزكم الأنوف، مع اجتماع كل هذا العدد، حتى لم يبق في الحمام موضع لقدم.

وروعني هذا المشهد وحاولت التراجع ولكن بتروف بادر إلى تشجيعي، فاستطعنا بعد جهد جهيد أن نشق طريقنا إلى «الدك» المصفوفة حول الجدار، متخطين رؤوس الجالسين على الأرض نسألهم أن يتطامأوا بها قليلاً لكي نمر، ولكن ما كدنا نصل إلى تلك المقاعد حتى وجدناها قد شغلت فلا موضع لنا عليها. وهنا قال لي بتروف إننا مضطران إلى شرائه، وانطلق في الحال يفاوض سجيناً جالساً بقرب النافذة، فرضي هذا أن يتنازل عن مكانه لقاء «كوبيك» واحد تلقاه في الحال من بتروف، وكان قد أعده في كفه، وجاء به معه قبل دخول الحمام، وأما السجين الذي يتناول الأجر على مكانه فغطس تحته، حيث اشتدت الظلمة وتراكت الأقذار، واجتمع الوسخ وتكاثف، وكان الفراغ كله تحت المقاعد قد احتل بأكمله، فبدا الموضع مختنقاً بمخلوقات بشرية، حتى لم تبق على الأرض رقعة كال كف لم تمتلئ بسجين قد أقعى وراح يرش الماء من الجردل على بدنه، بينما وقف آخرون فوق رؤوسهم حاملين بأيديهم الجرادل ليستحموا وهم وقوف والماء القذر يقطر من أبدانهم على تلك الرؤوس الحليقة من تحتهم، وعلى الرف الأعلى ومدارج السلم المؤدية إليه آخرون قد تلافقوا وتلاحموا ليغتسلوا، وإن كان اغتسالهم مجرد رشاش؛ لأن الفلاحين لا يستحمون كثيراً بالصابون والماء الساخن، بل يتركون البخار على أشده يغمرهم، ثم يدعون الماء البارد

يتساقط عليهم، وهذا هو كل ما يعرفونه عن الاستحمام. وكانت الأكياس المعدة لذلك والدعك تملو وتهبط في نغمات رتيبة، إذ مضى السجناء يكيسون أجسادهم بها في صورة مذهلة، فكان البخار يشتد بين لحظة وأخرى ويزداد تكاثفًا، فلم تكن ثمة حرارة بل كان الجحيم بعينه، وهم جميعًا في صياح وصراخ وصخب، بينما ارتفعت أصوات مئات السلاسل على الأرض، كلما أراد قوم منهم المرور اشتبكت أغلالهم بأغلال الآخرين، ودفعت معها، وهم منطلقون، رؤوس الذين من تحتهم، فإذا بهم يسقطون وهم يسبون ويلعنون، ويسحبون معهم أولئك الذين اشتبكوا بهم. وجرت الأقدار السائلة في كل ناحية، وكان الكل كالسكارى من فرط الهياج، وهم يرسلون أشد الصرخات والصياح؛ وعند الكوة التي كان الماء يأتي منها إلى الحمام في الجرادل ليتسلمها السجناء انبعث السباب، واشتد الزحام، وتفاقم الهرج والمرج، وكان الماء الساخن المنقول إلى الحمام ينسكب قطرات فوق الجالسين على الأرض قبل دخوله إلى الموضع المقصود، ومن لحظة إلى أخرى كان يطل جندي بوجهه وشاربه والبندقية في يده من الكوة أو الباب ليستوثق من النظام؛ وبدت الرؤوس الحليقة والأجسام المحمرة من شدة البخار أقبح صورًا مما هي وأبشع منظرًا، وكانت تلوح على ظهور المساجين آثار العصي والسياط وندوبها القديمة، كأنما قد أصيبت بجروح جديدة؛ ولله ما كان أبشع تلك الندوب للعين وما أنكرها، حتى لقد سرت في أنحاء بدني رعدة لمشهدها، وكانوا يلقون مزيدًا من الماء الغالي والطوب المحترق فلا تلبث الأبخرة الساخنة أن تملأ المكان سحبًا كثائفًا، والقوم بين ذلك كله ضاحكون متصايحون، فلا يكاد المرء يبصر من خلال تلك السحب الثقيل غير ظهور مقروحة، ورؤوس محلوقة، وأذرع وسيقان

ملتوية. ولاستكمال الصورة راح إيساي فومتش فوق الرف الأعلى يصرخ ويضحك، وهو ملح على البخار يدعه يغمر جسده غمرًا إلى حد الشعور منه بالإغماء، أو فقدان الوعي، كأنما لا تشبعه درجة الحرارة مهما ترتفع، ولا يرضيه البخار مهما يشتد، وقد استأجر رجلًا بدرهم واحد لتكيس جسده، ولكن هذا أحس أخيرًا الإعياء فألقى الكيس جانبًا وعدا بعيدًا ليلقي الماء البارد على بدنه، ولكن انصرافه لم يثن إيساي فومتش عن رغبته فاستأجر ثانيًا ثم ثالثًا، معتمزًا بهذه المناسبة غض النظر عن التكاليف والنفقات، حتى لقد استأجر خامسًا، ورأى السجناء هذا المشهد فصاحوا به من تحته قائلين: «مرحى يا إيساي.. إنك لتعرف كيف تنتفع بالبخار و«التكيس»..» وراح هو يشعر من جانبه بأنه في هذه اللحظات فوقهم جميعًا وأعلى منهم شأنًا، وأرفع قدرًا، وأنه المنتصر الغلاب، فلا يني يعاود ترنيمته ويرفع صوته بنغمته المعهودة «لا لا لا لا» فيغطي بها على الأصوات جميعًا. وقد خطر لي عندئذ أننا لو اجتمعنا كلنا يومًا في جهنم لكان حالنا أشبه كثيرًا بما نحن فيه، ولم أتمالك نفسي من مكاشفة بتروف بهذا التصور الذي جرى في مخيلتي، ولكنه لم يزد على التلفت حوله ولم يقل شيئًا.

وأردت أن أستأجر له أيضًا مكانًا بجانبني، ولكنه أبى إلا أن يجلس عند قدمي ويؤكد لي أنه مستريح حيث جلس، بينما ذهب «باكوشين» يشتري لنا ماء وينقله إلينا كلما احتجنا إليه، وأصر بتروف على تنظيف بدني من فرعي إلى قدمي، وأنشأ يقول لي وهو يحثني على احتمال البخار الشديد «لكي تكون نظيفًا وضًا متعشًا» ولكنني لم أطق، فراح يغمرني بالصابون غمرًا وانتهى بقوله: «والآن دعني أغسل لك قدميك الصغيرتين» «.....»، فهممت بأن أجيبه قائلاً إنني أستطيع غسلهما بنفسني، ولكنني لم أشأ أن أعارضه،

وأسلمت نفسي بكلّيتي إليه، ولم يكن يلوح على وصفه قدمي «بالصغيرتين» شيء من المهانة للكرامة أو الملق منه، وإنما السر هو أنه لم يكن يستطيع أن يسمي قدمي مجرد «قدمين»، وأكبر الظن أنه ما دام لغيري من الناس الخشنيين الأقوياء أقدام، فليس لمثل قدمي غير وصفهما «بالصغيرتين».

ولما انتهى من غسلتي عاد بي إلى الردهة الأخرى بالاحتفال ذاته، فجعل يأخذ بيدي ويحذرني من السلم، كأني صنعت من الخزف، وأخذ يعاونني على ارتداء سراويلي؛ ولم يتركني ليعود إلى الحمام فيغتسل إلا بعد أن انتهى مني واطمأن كل الاطمئنان.

ولما عدنا إلى العنبر عرضت عليه قدحًا من الشاي، فلم يرفض، وأفرغ القدح في جوفه وشكرني، فخطر لي أن أزيده إكرامًا باقتراح كأس من «الفودكا» وكانت قد ظهرت في عنبرنا، فسر غاية السرور، واشتف الكأس وتنحّح، وأدرك أنني قد أنعشته بهذا التكريم، فأسرع إلى المطهى كأن هناك أمرًا لا سبيل إلى تدبيره، أو مشكلة لا حل لها إلا بوجوده، وجاء في أثره باكلوشين يزورني، تلبية لدعوتي له إلى قدح من الشاي، وكنت قد وجهتها إليه قبل الانصراف من الحمام.

ولست أعرف شخصية أفتن ولا أكثر جاذبية من شخصية باكلوشين، ولست أنكر أنه الأبّي لا يرتضي لأحد من الناس خنوعًا، ولا يذل لمخلوق، وكثيرًا ما كان يشجر لأنه لا يحب أن يتدخل الناس في شئونه، وجملته القول فيه أنه كان يعرف كيف يحرص على كرامته، ويعلم أين موضعه الخلق به، ولكن الواقع أنه لم يكن يطيل الشجار. واعتقد أننا أحببناه جميعًا وأنسنا إليه، فكان أينما ذهب لقي ارتياحًا ممن يلقونه ووجد ترحابًا، وكان معروفًا عنه في المدينة أنه ألطف إنسان في العالم روحًا، وأخفهم دعابة، لا يفتر

عن الضحك، ولا يفارقه المرح والسرور، وكان مرهف القد، يناهز الثلاثين، صبيح الوجه طيب السريرة مليح الصفحة، وإن تراءت «وحمة» على عذاره. وكان أقدر الناس على «تكشيش» وجهه بشكل يقتل من الضحك، مقلداً كل من يلتقي به، فلا يسع من كان قريباً منه إلا الضحك، فقد كان هو أيضاً من طبقة «المضحكين» ولكنه لا يرضى أن يسخر منه أحد من الذين يكرهون الضحك، ويتبرمون بالمجون، فلم يجرؤ فرد منهم على سبه أو تسميته «بالأحمق أو التافه أو الذي لا رجاء فيه».. لقد كان مليئاً بالنار والحياة، وكان شعلة ذكاء وخفة روح، وكان قد تعرف بي في أيامي الأولى ونبأني بأنه كان يخدم في فرقة «الرواد»، وكان موضع حظوة ودالة على بعض الكبراء، وهي حقيقة لا يزال يذكرها بفخار كثير، ولم يلبث عقب تعارفنا أن مضى يسألني عن بطرس برج وكان يقرأ ويطلع أحياناً، وعندما جاء ليشرب الشاي عندي بعد الاستحمام لم يلبث أن أضحك العنبر كله واصفاً لهم كيف عرف الضابط س... في هذا الصباح «توضيب» الميجور أو «تطميره» كما تظمر الخيل.. وجاء فجلس بجانبني وأبلغني وهو فرح مسرور أن «التمثيلات» ستنجح تماماً، وكانت المعدات قد هيئت لإقامة مسرح وتمثيل رواية في السجن احتفالاً بعيد الميلاد، بعد أن تبين أن بين المساجين فريقاً أوتوا المواهب المطلوبة، وأن المناظر ستدبر شيئاً فشيئاً، وتعهد قوم في المدينة بإعارتنا ملابس للممثلين، بل للممثلات كذلك، والمأمول أن يظفروا بمعونة تابع في خدمة الضباط ببذلة عسكرية وأنجم وشرائط «اسبلايط». وكان كل شيء جاهزاً أو يوشك أن يجهز، وبقي أمر «الميجور» هل تراها «ستطلع» في رأسه فيمنع التمثيل كما منعه في العام الماضي... ولكنه كان في العيد الفائت كدر المزاج «معكناً» لأنه خسر في القمار، وكانت المعاكسات كثيرة في السجن

يومئذ فمِنع التمثيل حقًا منه وتشفياً، ولكنه الآن لا نحسبه سيمنعه.

وكان باكلوشين متحمساً، يبدو عليه أنه من أشد المجتهدين في تحقيق الفكرة، فصَحَّت في احلال نيتي على حضور الحفلة، فقد سرنى منه تهلهله وفرحه الشديد بتدبير المعدات، وكذلك بدأنا نتحدث، فكان مما رواه لي أنه لم يخدم دائماً في بطرسبرج، وأنه اتهم فيها ببعض الجنايات أو المخالفات فنقل إلى ر.... وإن كان نقله برتبة جاويش في قوة الحامية.

ومضى يقول: ومن ذلك الموضع أرسلت إلى هنا..

قلت: وما السبب؟..

قال: أتسألني عن السبب! ماذا تظن أنت يا أليكسندر بتروفتش «لأنني وقعت في شرك الغرام...».

قلت ضاحكاً: «لم يحدث إلى الآن أن أرسلوا أحداً إلى هنا لهذا السبب».

قال: هذا صحيح، ولكني من أجل الحب قتلت ألمانياً برصاص مسدسي، ولكن خبرني أيستاهل الألماني أن يساق بي إلى هنا من أجله؟..

قلت: وكيف كان ذلك، نبئني، إنني لسماع قصتك لمشوق.

قال: إنها قصة مضحكة جداً يا أليكسندر بتروفتش.

قلت: أحسن.. وهذا هو ما نبغي، هلم نبئني..

قال: أحقاً تريد أن تسمعها؟ إذن فأصغ لي..».

وكانت قصة جريمته غريبة، وإن لم تكن مسلية فعلاً..

وأنشأ باكلوشين يقول: «إليك ما جرى... حين أرسلت إلى ر.... وجدها

مدينة لطيفة واسعة، ولكنها تحوي خلقًا كثيرًا من الألمان، وكنت يومئذ شابًا في ريعان العمر، ولي مركز عند الضباط، فكنت أقضي الوقت في التجوال «والسرمة» واضعًا قبعتي على جانب من رأسي «على سبيل القنزحة»، والعجب بنفسي، ورحت أغمز بعيني للفتيات الألمانيات، فأعجبني منهن يومًا فتاة صغيرة تدعى «لويز»، وكانت هي وخالتها «غسالتين» تغسلان لكبار الناس وأغنيائهم، وكانت الخالة لا تفارق الفتاة، وهما في بلهنية ورغد من العيش، واعتدت في بداية الأمر أن أمشي ذهابًا وجيئة تحت نافذتهما، ثم رحت أتودد فعلاً إليهما، وكانت لويز تجيد الكلام بالروسية أيضًا، وإن كانت تلغ بها قليلًا؛ وكانت مليحة ما رأيت في الملاح يومًا مثلها، وكنت أريد أن لا أرتبط في حبي لها بموثق، بل أترك نفسي حرًا من كل قيد، ولكنها جعلت تقول لي: «كلا، يا ساشا واحتشم؛ لأنني معتزمة الحرص على طهري ونقائي لأكون لك زوجًا صالحة» ثم تهوي على صدري معانقة وتضحك كأن جرسها الناقوس رنينًا... لله ما كان أنظفها وأطهرها.. تلك الصغيرة.. ما رأيت في النساء فتاة على شاكلتها، فهي التي اقترحت التعجيل بزواجنا.. ولكن هل كان في إمكاني أن أتزوج بها.. قل لي أنت رأيك بالله عليك، فانتويت أن أذهب إلى حضرة اللفتنان كولونيل فاستأذنه في الزواج.. وفي ذات يوم لاحظت أن «لويز» لم توافني إلى الموعد الذي تواعدنا على اللقاء فيه، ثم تخلفت مرة أخرى، فثالثة، فبعثت إليها بكتاب، ولكنها لم تجب فتساءلت: ترى ما الذي جرى؟ لو أنها كانت تخدعني لعرفت كيف تحتال على إخفاء خدعتها، أو لردت على الكتاب وجاءت للقاءني، ولكنها لم تكن تعرف كيف تكذب، فاقترصت على القطيعة، فظننت أن خالتها هي السبب، ولكنني لم أجسر على الذهاب إليها، وكانت تعلم ذلك عني، وكنا نلتقي في

غفلة منها فكدت أجن ويذهب لبي، وكتبت إليها رسالة أخرى قلت لها فيها إذا لم تأت فسأحضر إليك، عند خالتك، فخافت وجاءت وأنشأت تقول وهي باكية أن ألمانيًا يدعى «شولتر» وهو قريب لها من بعيد، وصانع ساعات حسن الحال، مكتهل، أبدى رغبته في الزواج بها ليسعدها، وحتى لا تدركه الشيخوخة ولما يتخذ زوجًا، وقال إنه يحبها، وإن الفكرة كانت مخمرة لديه من عهد بعيد ولكنه ظل يرجئها ولا يبوح بها، واسترسلت قائلة: ومن هذا ترى يا ساشا أنه غني، وإن ذلك من حسن حظي، وأنت بلا ريب لا تريد أن تحرمني من هذا الحظ السعيد، فنظرت إليها وكانت تبكي وتعانقني... فقلت لنفسني: إن كلامها معقول، فما فائدة الزواج بجندي... حتى وإن كان جاويشًا... وأنشيت أقول لها: «ليكن يا لويز... وداعًا إذن والله معك لأنني لا أريد أن أقف في طريق سعادتك، خبريني هل هو جميل... قالت: كلا إنه شيخ كبير، وضحكت وراحت تقول: «وله منخار ضخمة...» وتركتها، وقلت لنفسني مستسلمًا «ليكن ما دامت لم تقسم لي...»، وفي غداة اليوم التالي مررت على دكانه وكانت قد نباتني باسم الشارع الذي يقع الحانوت فيه، ووقفت أطل من «الواجهة» فإذا بي أبصر بألماني يصلح ساعة وهو يلوح في الخامسة والأربعين، له أنف كالخطاف، وعينان محملقتان، يرتدي سترة ذات ذيل وياقة طويلة، وهو في ذلك كله يبدو رهيبًا، فكدت ألعن وأسب، بل وددت لو أنني حطمت «الفاترينة» في الحال... ولكنني فكرت في الأمر، وقلت لنفسني: لا خير من المساس به، ولا فائدة من البكاء على ما فات، وذهبت إلى الثكنات مع الغسق فاستلقيت على فراشي، فهل تصدق يا أليكسندر بترفوش، لقد مضيت أجهش بالعبرات.

ومر ذلك اليوم بسلام ثم انقضى ثان وثالث، ولم أشهد فيها لويز،

ولكني سمعت من صديقة عجوز كانت تشتغل غسالة هي كذلك، وكانت لويز تذهب أحياناً للقائها، أن الألماني عرف أمر حبنا، ولهذا عجل بخطبتها، ولولا ذلك لأرجأ الفكرة عامين أو ثلاثة أعوام أخرى، والظاهر أنه حمل لويز على التعهد له بأن لا تلقاني بعد الآن، وأنه غاضب عليهما معاً، على الفتاة وخالتها، كأنما يريد أن يعدل عن نيته، أو لا يزال متردداً لم يستقر على شيء.

ونبأتني الغسالة العجوز أيضاً أنه قد دعاهما إلى تناول القهوة معه صباح بعد غد، وسيكون معه عندئذ قريب له، وهو شيخ كان من قبل تاجرًا ثم افتقر فهو الآن يشتغل فراشاً في «بدروم»، ولم يكد يخطر لي أن أمر الزواج قد يتم في ذلك اليوم، وكان يوم أحد، حتى هاج خاطري واستولى عليّ الحنق ولم أدري ماذا أنا صانع، وقضيت ذلك اليوم وسحابة الغد متبطلاً متبلاً لا أفكر إلا في هذه المسألة ونتائجها، وبودي لو أفترس ذلك الألماني افتراساً.

وفي صباح الأحد لم أكن أدري ماذا أفعل، ولكن ما كادت الصلاة تنتهي في الشكنة حتى وثبت إلى ثيابي فارتديتها وانطلقت إلى مسكن الألماني وأنا أعتقد أنني سأجدهم جميعاً فيه، ولم أكن أعرف لماذا ذهبت إليه، وماذا أريد أن أقول له، ولكنني دسست مسدساً في جيبي على سبيل الاستعداد لأي شيء، وكان عندي مسدس صغير «كحيان» ذو زناد قديم الطراز اعتدت أن أطلقه وأنا صبي صغير، فهو لا يصلح للاستعمال، ولكنني وضعت رصاصة فيه، وقلت لنفسني إذا حاولوا طردي أو أغلظوا لي القول فسوف أخرج المسدس وألقي الرعب في نفوسهم جميعاً.

ولما وصلت إلى الحانوت فلم أجد أحداً، فقد كانوا يجلسون في الغرفة الخلفية وحدهم، لا أحد معهم حتى ولا الخادم، ولم يكن لديه غير طاهية ألمانية، فاخترقت الحانوت، ولكنني وجدت باب الغرفة مقفلاً، ولكنه

كان بابًا قديمًا يوحد بخطاف، وشعرت بقلبي يخفق وأنا واقف قبالة أرهف السمع، فإذا بأصواتهم تطرق أذني، وكانوا يتكلمون بالألمانية، فركلت الباب بقدمي ركلة أودعتها كل ما أوتيت من قوة، فانفتح ورأيت الخوان مصفوفًا، ومن فوقه إبريق كبير للقهوة وهي تجهز على «السبرتاية» وبجانبتها صحنة ملأى بالبسكويت وصينية فوقها دورق من الفودكا، وشيء من «الرنجة» واللحم البارد، وزجاجة أخرى من النبيذ أو ما إليه. وكانت لويز وخالتها جالستين فوق الأريكة وهما في أحسن ثيابهما، بينما جلس قبالتها الألماني ممشوط الشعر مرتديًا ثوبًا طويل الذيل وياقة عريضة، وعلى مقعد آخر من ناحيته جلس ألماني آخر، وهو شيخ بدين أشيب صموت لا ينس بقول، ولم أكد أدخل عليهم حتى ارتد وجه لويز شاحبًا، وفزعت خالتها، ولكنها عادت إلى مجلسها، وعبس الألماني واكفهر ونهض للقائي.

قال: ماذا تريد؟..

فتولاني شيء من الخجل ولكنني كنت في أشد حالات الغضب، فقلت: ماذا أريد... ألا تحيي زائرا يقدم عليك وتقدم إليه شرابًا... لقد جئت لأراك.

ففكر لحظة ثم أجاب: «اجلس...».

فجلست، وقلت: «هات قليلاً من الفودكا...».

قال: «هذه هي الفودكا.. فاشرب...».

قلت: «أعطني فودكا جيدة...».

وكنت في حنق شديد كما لا يخفى..

قال: هذه فودكا جيدة..

وشعرت بأنني أهنت لمعاملته لي كأني مخلوق لا يقام له وزن وبخاصة

ولويس جالسة تشهد، فاشتفت الكأس وقلت: لماذا تريد أن تكون فظاً هكذا أيها الألماني.. يجب أن تكون لطيفاً معي.. لأنني جئت كصديق.

قال: لا يمكنني أن أكون صديقاً لك، إن أنت إلا جندي..

وعندئذ طار من الغضب صوابي..

قلت: «يا خيال المقاتة..» يا أكال «السوسيس» - اللحم البارد - ولكنك تعرف من هذه اللحظة أن في وسعي أن أفعل بك ما أشاء.. هل تريد أن أطلق الرصاص عليك من مسدسي..

وأخرجت المسدس ووقفت حياله وسددت الفوهة إلى رأسه بينما جلست المرأتان أدنى إلى الموت منهما إلى الحياة، خائفتين لا تستطيعان حراكاً، ولبث الشيخ الألماني يرعش كورقة في مهاب الريح، وارتد لونه شاحباً ولم ينبس...

وبهت الألماني ولكنه تماسك..

قال: لست أخافك... وأرجوك كرجل شريف أن تخلي عنك هذه المداعبة في الحال... لأنني لست خائفاً منك..

قلت: كاذب، إنك خائف.

وقد رأيته قبالي لا يجروء على تحريك رأسه، وهو جالس لا يتحرك.

قال: كلا.. إنك لن تجروء..

قلت: لماذا لا أجروء؟..

قال: لأن هذا ممنوع بتأاً وعليه عقاب صارم..

ولا يدري إلا الشيطان ماذا كان هذا الألماني المغفل يريد بذلك القول،

ولولا أنه تحداني على هذه الصورة ل بقي حيًّا إلى اليوم، ولكن المناقشة هي التي كانت السبب..

قلت: إذن أنت تظن أنني لن أجرؤ..

قال: نعم..

فعدت أقول: لن أجرؤ..

قال: لن تجرؤ فعلاً عن معاملتي هكذا..

قلت: ليكن إذن..

وأطلقت الرصاص، فخر من فوق مقعده مجندلاً، وصرخت المراتان.

ووضعت المسدس في جيبي وانصرفت..

وقبل أن أدخل الثكنات ألقيت بالمسدس وسط الحشائش القريبة من

الباب.

ودخلت العنبر واستلقيت في فراشي، ومضيت أقول لنفسـي «سيأتون بعد قليل ويأخذونني، ومضت ساعة فساعتان، ولم يأت أحد ليستأقني، ولما حل الظلام انتابني هم مقيم فخرجت.. لقد كنت أريد أن أرى لـويز مهما يكن من الأمر، وخرجت على دكان الساعاتي فإذا زحام به وشرطة، فذهبت إلى صديقتي العجوز فقلت لها أحضري لـويز لأراها، وانتظرت قليلاً، وإذا بي أشهدها دانية، وارتمت على عنقي باكية، وهي تقول: الذنب ذنبي لست أدفعه، ليتني لم أستمع لخالتي. وعلمت منها أن خالتها انطلقت عقب الحادث مباشرة إلى البيت وهي مروعة فأوت إلى فراشها مريضة مضطربة، ولكنها لم تقل لأحد شيئاً ومنعت لـويز من الكلام، قائلة: «لندعهم يفعلوا ما يشاؤون»، ولم يشهدهما أحد في هذا الصباح، وكان الألمانـي القـتيل قد

صرف خادمته في ذلك النهار أيضًا لخوفه منها؛ لأنها لو علمت بأنه كان ينوي الزواج لسملت عينيه وفقأتهمما، ولم يكن في الموضع أحد من العمال كذلك؛ لأنه صرفهم جميعًا وتولى هو بيده صنع القهوة وأعد الفطور بنفسه وأما قريبه الشيخ فقد ظل طيلة حياته صموتًا لم يتعود الكلام، وكل ما كان منه عقب الحادث أنه تناول قبعته، وكان أول من انصرف ولا ريب في أنه سيلزم الصمت...

وهذا ما حدث..

وانقضى أسبوعان ولم يأت أحد ليستاقي، ولم تخالج أحد ريبة بي، وقد لا تصدق يا أليكسندر بترفش إذا قلت لك إنني كنت في تلك الفترة أنعم بأسعد الأوقات في حياتي، إذ جعلت ألقى لويز في كل يوم، وما كان أرقها يومئذ وأرفقها وأكثرها حنانًا ولطفًا، لقد كانت تبكي وتقول لي: سأتبعك إلى أي مكان ترسل إليه، وسأترك كل شيء لأجلك، وكان هذا أكثر مما أطيق، لقد اعتصرت به قلبي اعتصارًا..

ولكن بعد الأسبوعين أتوا ليأخذوني، فقد تفاهم الشيخ والخالة واتفقا على التبليغ ضدي.

وهنا قاطعته قائلاً: ولكن انظر، لم يكن متوقعًا أن يعطوك جزاء ذلك الحادث أكثر من عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة في «القسم المدني» ولكنك سجين كما أرى في القسم الخاص، فكيف كان ذلك؟..

قال: هذه مسألة أخرى، فقد حدث عند تقديمي إلى المحكمة أن الضابط الذي كنت تحت إمرته راح يسبني بأقذع الكلمات أمام القاضي، فلم أملك أعصابي وانتهرته قائلاً: «لماذا تفعل هكذا وتشتم، ألا ترى أيها

الشقي أنك أمام محكمة ومجلس قضاء..» وكان ذلك نقطة تحول في القضية، فقد حاكموني مرة أخرى، وحكموا في التهمتين بضربي أربعة آلاف عصا وإرسالي إلى القسم الخاص، وعندما قدموني إلى تنفيذ العقوبة قدموا معي الضابط أيضًا، أما أنا فقد سبق بي إلى «الشارع الأخضر»، وأما هو فقد حكموا بتجريدته من رتبته ونقله إلى الخدمة في القوقاز «كنفر» - والآن... طاب يومك يا أليكسندر بتروفتش.. ابق تعال اشهد التمثيل..».

الفصل العاشر

عيد الميلاد

وحل العيد...

ولم يؤد السجناء عملاً في ليلة الميلاد، فقد ذهب فريق منهم إلى قسم الخياطين والورش، وأرسل الآخرون إلى طرائحهم المختلفة، ولكن أغلبهم عادوا فرادى أو جماعات إلى السجن بعد قليل فلبثوا جميعاً داخل العنابر بعد الغداء، والواقع أن جمهرتهم غادروا السجن في الصباح لقضاء أشغالهم الخاصة، أكثر من أشغالهم المقررة في السجن عليهم، ومضى بعضهم لاتخاذ التدابير لإعداد «الفودكا»، وذهب آخرون لرؤية أصحابهم وحبائهم، أو لصرف نقود مستحقة لهم نظير أعمال أدوها من قبل، بينما انطلق باكلوشين، ونفر معه للبحث عن معارف لهم، وهم غالباً من بين أتباع الضباط، لجمع الملابس المطلوبة للتمثيل، كما انطلق فريق منهم يجولون في رحاب السجن متخذين سيماء الجد والتفكير والتبعة، لا لشيء سوى أنهم رأوا غيرهم يبدون بها، وآخرون لم يكونوا يتوقعون نقوداً من أحد،

وليس ثمة سبب لهذا التوقع، بدوا كأنهم مرتقبوها فعلاً أو معتمدون على وصولها، وجملة القول أن كل سجين في الليمان كان يتطلع إلى الغد، مرتقباً شيئاً جديداً، متوقفاً أمراً غير مألوف.

وفي المساء عاد الحراس القدامى الذين ذهبوا ليشتروا للسجناء ما طلبوا إليهم شراءه: من مأكّل وأغذية مختلفة، بين لحم بقر وخنزير «لباني» - رضيع - وإوز أيضاً، واضطر خلق كثير حتى أشد الفقراء منهم والحريصين على الدرهم يجمعونه فوق الدرهم، من بداية العام إلى نهايته، لإظهار «البحيحة» بهذه المناسبة، والاحتفال اللائق بانتهاء الصيام.

وكان اليوم التالي عطلة رسمية، وإجازة حقيقية كفلها القانون لهم فلا يشتغل فيها السجن، وليس في العام كله إلا ثلاثة أيام من هذا النوع، ومن ذا يدري أية ذكريات تراها قد هاجت في قلوب هؤلاء الذين لفظهم المجتمع لميعاد هذا اليوم وترداده... إن الحفلات الكبرى التي تقام في الكنيسة تترك أثراً بالغاً في ذاكرات الفلاحين منذ الطفولة؛ لأنها أيام الراحة من الكد، ولقاء الأهل والصحب، وأكبر الظن أن هؤلاء قد ذكروا أو وردوا على الخاطر في السجن، فاثارت أخیلتهم أشجان السجناء وأحزانهم، فقد أصبح احترام قدسية هذا اليوم في السجن عادة مرعية كل المراعاة، فلا قصف فيه ولا عريدة، اللهم إلا عند فريق محدود منهم، بل شمل الجد الجميع وبدوا مشغولي الأذهان ساهمين مفكرين، وإن لم يكن ثمة عمل، ولا مدعاة لتفكير، ولكنهم سواء عاقروا الخمر أو تبطلوا، ظلوا حريصين على شيء من الوقار أو الكرامة، كأنما أصبح الضحك محظوراً، بل لقد نازعتهم نفوسهم فعلاً إلى التدقيق في اتخاذ هذا السمّ الرزين، والاحتفاظ بهذا التشدد البالغ، فإن انحرف أحدهم عن هذا الاتزان العام، ولو مصادفة، أو عفو الخاطر، انقض

القوم عليه، وصرخوا في وجهه، وأمطروه سبًا، وغضبوا عليه، كأنما قد نال من احترام العيد نفسه وكرامته. وكان هذا المشهد في سلوكهم رائعًا مؤثرًا، فقد شعروا بغض النظر عن هذا الاحترام الصادق لهذا اليوم العظيم بأنهم في احتفالهم بعيد الميلاد، كأنهم على صلة بالعالم كله، وأنهم ليسوا طريديه مطلقًا ولا هم «بالأموات» الذين نستهم الدنيا، ولا هم بالمنقطعين عن الحياة البشرية، وأن السجن لا يختلف في هذا اليوم عن المجتمع، وأحسوا هذا كله، وفطنوا بالبداهة إليه، كما كان واضحًا، جليًا، سهلًا على الأنفهام.

وظفك أكيم أكيمتش أيضًا يهيئ معدات كبيرة لهذا اليوم، وإن لم تكن له ذكريات تعود بخاطره إلى عشيرة، أو تذكره بأحد من الأهل، فقد نشأ يتيماً غريباً بين غرباء، وواجه متاعب الخدمة العسكرية قبل أن يبلغ السادسة عشرة، وليس في ذاكرته ما يطرب لذكراه من مسرات الحياة، فقد قضاه رتيبة جارية على وتيرة واحدة، منتظمة في مسيرها، يخشى أن ينحرف قيد أنملة عن طريقها المرسوم، ولم يكن بالمتدين المتشدد، كأنما ابتلعت «اللياقة» كل الصفات الإنسانية الأخرى فيه، والتهمت سائر السجايا والخلال والشهوات والرغبات، الصالح منها والطالح على سواء، فلا عجب إذا هو مضى يعد العدة للعيد بغير لهفة ولا قلق ولا حماسة، لا تزعجه ذكريات أليمة لا نفع منها ولا جدوى، بل عكف على الاستعداد بتلك «اللياقة» المستمكنة منه، الهادئة المنظمة الكفيلة له بتأدية واجباته، والقيام بما رسمه مرة واحدة لسلوكه ونهج حياته، وكانت عادته أن لا يعنى كثيراً بالتخيل والتفكير والتأمل، فلا يهمه أبداً أن يتعرف معاني الأشياء الخفية في جواهرها، المستسرة في لبابها، وإنما كان يتبع القواعد والآداب التي وضعت من قبل له بدقة لا تختلف عن تدقيق المتدين في دينه، ولا تتباين

مع حرصه وتمسكه؛ فلو أن القاعدة كانت تقضي بالعكس لفعله غداً بتلك الدقة ذاتها وذلك الاستمساك بعينه، وقد جرب مرة واحدة في حياته العمل برأيه الخاص، فكانت تلك المرة هي السبب في دخوله «الليمان»، ومن ذلك الحين اعتبر بالدرس الذي تلقاه. ولئن كان القدر قد حجب عنه إلى الأبد فهم السر في أن المجتمع ألقى اللائمة عليه، فقد استخلص من تلك النكبة مبدءاً واحداً، وهو أن لا يعتمد على رأيه وحكمه في شيء ما، مهما تكن ظروفه؛ لأن «العقل» - كما اعتاد السجناء أن يقولوا - لم يكن نقطة قوة لديه، وكان في حرصه الأعمى على قواعده ومناهج سلوكه ينظر باحترام وتقدير بالغ لخنزير العيد، ويتولى بنفسه حشوه بالخضر وتحميره، وكان يعرف الطهو، كأنما لا يعده خنزيراً عادياً يشتري ويشوى في كل يوم، ولكنه خنزير خاص، خنزير العيد. ولعله ألف من الطفولة رؤيته فوق الخوان في عيد الميلاد، فاستنتج من ذلك أن هذا الخنزير الرضيع لا غناء في العيد عنه، وإني لعلّى يقين أنه لو فاته مرة مذاقه في هذا اليوم لظل طول عمره يحس تبيكياً على إهماله واجبه.

وقد لبث إلى يوم العيد مرتدياً سترته القديمة وسراويله التي خلقت، وإن ظلت نظيفة على كثرة الرقاع فيها؛ وتبين أنه كان يحرص في صندوقه على «بذلة» جديدة أعطيت له منذ أربعة أشهر، وامتنع عن لمسها على نية ارتدائها للمرة الأولى في عيد الميلاد، وكذلك فعل، فقد أخرجها من الصندوق في الليلة السابقة فنشرها وفحصها وفرشها وبخ الماء عليها وقاسها عليه بدقة لتجربتها، فإذا هي لاثقة به مهندمة عليه حسنة من كل وجه، محبوكة عليه عند الياقة، بينما وقفت «البنيقة» المنشأة كالورق المقوى تحت ذقنه، كما كانت محكمة عند خاصرته، كأنها بذلة عسكرية مكيفة على شكله وقده، وما

لبث أن ابتسم مسرورًا، وراح في شيء من الزهو يقف قبالة المرأة الصغيرة التي كان في لحظة فراغه قد أحاطها بإطار من الورق المذهب، فبدا له أن في الياقة «مشبكًا» ليس في موضعه تمامًا، ففكر في تغييره، ولم يكد يفعل حتى عاد يجرب السترة عليه فوجدها مضبوطة «على الآخر»، فطوى البذلة كما كانت ووضعتها في الصندوق مستريح البال. وقد حلق رأسه أيضًا حلقة مرضية لمزاجه، ولكنه حين وقف أمام المرأة يتأمل نفسه طويلًا لاحظ أن شعره لا يبدو حليقًا كما يجب، وأن شعرات منه لا تزال ظاهرة نامية، فأسرع إلى «الميجور» وطلب أن يحلق رأسه حلقة المصلحة تمامًا، أو طبقًا للوائح - ولم يكن مفروضًا أنه سيقف في الغداة لنوبة «تفتيش» ولكنه فعل ذلك إرضاء لضميره حتى لا يهمل شيئًا يقتضيه عيد الميلاد منه، فقد انغرس في نفسه من الطفولة احترام الشرائط «والاسبلايت» والأزرار النحاسية وسائر دقائق الزي العسكري، فظل هذا الاحترام ماثلاً في خاطره لا يمحوه شيء، كواجب لا خلاف فيه، ولا نزاع عليه، وكأسمى صور الجمال التي يستطيع الرجل الكيس الوصول إليها.

ولما انتهى من ذلك كله، أمر بوصفه أقدم سجين في العنبر بإحضار قش ووقف بنفسه يشرف بدقة على فرشته ونثره فوق أرضية العنبر، وكان هذا هو ما حدث في العنابر الأخرى، ولست أدري ما السر، ولكن جرت العادة على نشر القش هكذا في يوم عيد الميلاد، وما إن فرغ من تأدية واجباته، حتى أخذ إلى الصلاة، ثم استلقى على فراشه، ولم يلبث أن عاجله الكرى، فهبط في سبات هادئ كالأطفال لكي يستيقظ باكراً في الصباح ما استطاع، وهذا ما فعله السجناء جميعاً، فقد آووا إلى المضاجع في تلك الليلة باكرين في العنابر كلها، مرجئين ما ألفوا من لهو، تاركين جانباً ما اعتادوا من تسلية أو

شغل، لم يخطر لهم القمار ببال، وإنما كل ما في خاطرهم ترقب الغد.

وجاء الغد، فإذا العنابر تفتح باكراً قبل مطلع النهار على صوت طبول نوبة الصبح، وجاء الجاويش السهران «للتتميم» على المساجين فحياهم بتحية العيد، وحيوه بمثل تحيته في حرارة ومودة، وبعد تأدية الصلاة في عجلة انطلق أكيم أكيتمش وكثير آخرون ممن لهم إوز وخنازير في المطبخ ليروا ماذا جرى لها، وكيف سير شوائها، وأين وضعت وما أنباؤها، واستطعنا من طاقات العنبر الصغيرة التي حجبها الجليد، وتراكت عليها الثلوج، أن نرى من خلال الظلام في كلا المطبخين نيراناً أشعلت قبل مطالع الضياء، وهي تتوهج في الأفران الستة جميعاً، وبعض المساجين وهم يمرقون من الفناء وعليهم فراؤهم، أو لافعيها فوق أكتافهم، وهم عادون نحو المطبخ، وآخرون وهم قلة، قد ذهبوا إلى «باعة الفودكا» وسماسترته، من شدة القلق، ونفاد الصبر. وكان سلوك السجناء في الجملة حسناً، يجمع إلى مظاهر الاحتفال جلال السكينة والسلام، وتشيع عليه لمحة غير مألوفة من الرواء والرونق، فلم يكن المرء يسمع سباً ولا لعناً، أو يشهد عراقاً أو شجاراً، فقد أدرك كل منهم أن لهذا اليوم عظمتته، وأن لهذا العيد قداسته، وذهب قوم منهم إلى العنابر الأخرى لتحية أصحابهم الحميمين وأولياء مودتهم، وكان بادياً للعين أن الصداقة متجلية في ذلك اليوم، غامرة الأفق، شاملة المحيط، وهنا يصح لي أن أفتح قوساً لأقول: «إنه قلما يلمح المرء بين القوم عادة أثراً من التواد، ولست أعني روح المودة العامة، فإن شيئاً منها بالطبع لا وجود له وإنما أعني المودة الشخصية بين السجين وزميله، وفي الحق لم يكن لهذه المودة أثر بيننا، وهي حقيقة ظاهرة تختلف عما يشاهد في العالم عامة. فقد كنا جميعاً، إلا أفضاء معدودين، خشنين باردين جافين في سلوكنا

حيال بعضنا لبعض، وكانت هذه الجفوة أو الغلظة المتبعة لا رحول عنها ولا
تبديل لها.

وخرجت أنا أيضاً من العنبر، وقد بدأ الضياء يغمر الكون، والكواكب
تتوارى، وأنفاس الجليد تهب فتثير ضباباً في الأفق، وذوائب الدخان تنبعث
من مداخن المطهى فتجتمع سحباً في الجو متكاثفة، ولقيني الذين مررت
عليهم في فناء السجن بتحيات العيد وتسليماته، فشكرتهم وحييتهم، وكان
من بينهم أفراد لم يوجهوا إليّ كلمة واحدة من قبل ذلك اليوم.

وعند باب المطهى لحق بي سجين من القسم العسكري متلفعاً بفروته،
وكان قد لمحني في وسط «الحوش» وصاح في أثري منادياً «أليكسندر
بتروفتش، أليكسندر بتروفتش»، وكان يعدو نحو المطبخ في عجلة، فوقفت
وانتظرت وإذا به شاب مستدير الوجه لطيف الملامح، اعتاد ملازمة الصمت
بين الزملاء، فلم يكلمني أو يحفل بي منذ دخلت السجن، ولم أكن أعرف
اسمه، وتقدم نحوي لاهث الأنفاس ووقف قبالي يتسم ابتسامة فارغة وإن
مازجها سرور، واختلطت بها غبطة.

قلت متعجباً، وقد رأيته واقفاً ينظر إليّ بعينين متفتحتين ويتسم ولا
يقول شيئاً: «إيه... ما الحكاية؟؟».

فتمتم قائلاً: «إنه عيد الميلاد!».

وأدرك أنه لا يستطيع أن يزيد على قوله هذا شيئاً فتركني وانطلق يعدو
إلى المطبخ.

وبصح هنا أن أذكر أنني لم أتصل يوماً به، ولا اتصل هو يوماً بي، ولم
نتخاطب بعد ذلك حتى غادرت السجن.

وفي المطبخ حول الأفران المتوهجة اشتد الزحام والتدافع والاصطدام، وكل يبحث عن حاجته، وقد بدأ الطهاة يعدون غداء السجن، وكان مبكرًا في هذا اليوم، ولم يكن أحد قد بدأ الطعام، وإن أراد بعضهم أن يتناولوه، ولكنهم أمسكوا، حرصًا على الذوق العام أمام الآخرين، وكان السجناء ينتظرون حضور القسيس ليفطروا بعد الصيام، وقبل أن يطلع النهار ويملاً الدنيا نورًا سمعنا صوت «الأونباشي» عند البوابة الكبرى ينادي الطهاة وهو يصيح في كل لحظة قرابة ساعتين، وكان الطهاة مطلوبين ليتسلموا الهدايا والصدقات التي وصلت إلى السجن من جميع أرجاء المدينة، فإذا بهم يحملون قدرًا كبيرًا من الأغذية بين رغفان مستديرة، وأقراص جبن، وفطائر حلوة، و«مشلتت» وفطائر بيض وأشباهاها من الأطياب. وأعتقد أنه ما من ربة بيت في المدينة من متوسطي الحال والطبقة الفقيرة إلا أرسلت شيئًا من فطيرها وخبزها إلى هؤلاء «المنكوبين» والأسرى في السجن تحية عيد الميلاد، وكان بين الهدايا طرائف ولذائذ كأرغفة وفطائر مزوقة مصنوعة من الدقيق الفاخر، وأخرى متواضعات كخبز بسيط بسعر القرش، وقرص من شعير فوقها قشدة من لبن خض، وهي هدايا الفقراء إلى الفقراء، وكل ما وسعهم أن يرسلوه، فكان قبولها جميعًا بشكر سواء، لا فارق بين الهدايا ولا تمييز بين المهدين، وكان السجناء يرفعون قبعاتهم كلما تلقوها، وينحنون بتحية العيد، ثم يأخذون الهدايا إلى المطبخ، حتى إذا اجتمعت أكوام منها دعي أقدم السجناء فوزعوها على العنابر بالسواء، فلا شجار ولا نزاع ولا استباق، ولا ظلم اليوم، بل قسمت الهدايا قسمة عادلة، وتولى أكيمة أكيمة توزيع القدر الذي حمل إلى عنبرنا، بمعاونة أحد الزملاء، فعكفوا على تقسيمها بأنفسهم، وتفريقها على المساجين دون أن يرتفع صوت بأدنى احتجاج،

ولا خالَج نفسًا من النفوس أقل غيرَة، بل تلقى الجميع أنصبتهم راضين، لا يرتاب أحد في ظفر زميل له بقسمة ظالمة أو إخفاء شيء.

ولما اطمأن أكيم أكيمتش إلى طعامه، ووثق بأنه قد أعد له، وتم نضجه، أخذ في ارتداء حلة العيد، بكل روعة، واحتفال، وجلال، غير تارك مشبكًا لم يشبك، ولا زرارًا غير مزرر، وما أن فرغ من رداًته، حتى بدأ الصلاة، والدعاء، وتمكث عليها وأطال، وكان خلق كثير من المساجين، وخاصة الكبار منهم، قيامًا إلى الصلاة، أما الشباب منهم فلم يكثرُوا منها، وكل ما يفعلونه في أمثال هذه المناسبات لا يزيد على رسم علامة الصليب حين ينهضون.

وجاءني أكيم أكيمتش بعد تأدية الصلاة، فحياني تحية العيد بشيء من الوقار فدعوته في الحال إلى شرب الشاي، ودعاني إلى مشاركته في خنزيره «اللباني» وما لبث أن عدا بتروف أيضًا نحوي لتحيتي، والظاهر أنه كان قد بدأ يعاقر الفودكا من الصباح، ولكنه على الرغم من عدوه ولهته لم يقل لي شيئًا كثيرًا، وإنما وقف حيالي لحظة قصيرة كأنما كان يرتقب شيئًا، ثم انطلق إلى المطبخ مرة أخرى.

وكان الاستعداد يجري عندئذ في القسم العسكري لحضور القسيس، وكان هذا العنبر يختلف عن العنابر الأخرى، فإن السرر الخشبية فيه كانت مصفوفة لصق الجدران، لا في وسط القاعة، ولعلها نسقت على هذا الوجه حتى يتسنى حشد السجناء معًا إذا اقتضى الأمر.

وفي وسط العنبر وضعت مائدة مغطاة بغطاة نظيفة، وأقيم عليها رسم العذراء، وأضيء القنديل.

وجاء القسيس أخيرًا يحمل الصليب والماء المقدس.

وبعد أن ردد الدعوات ورتل أمام «الأيقونة»، وقف قبالة السجناء، فتقدموا واحداً بعد واحد في احترام صادق ليلثموا الصليب.

وذهب القسيس بعدئذ فطاف بالعنابر كلها يرش الماء المقدس، وعطف على المطبخ فامتدح خبز السجن، وكان مشتهراً في جميع أرجاء المدينة، فرغب المساجين في إرسال رغيفين طازجين إليه، فكُلّف جندي بحملهما في الحال إليه، ومشوا وراء الصليب المحمول باحترام وخشوع، وعندئذ وصل الحاكم والميجور، وكان الأول محبوباً محترماً، فطاف بكل العنابر في رفقة المأمور فحيا الجميع تحية العيد، وذهب إلى المطبخ وذاق حساء السجن، وكان حساءً بديعاً، خلاصة رطل من اللحم البقري لكل سجين، تكريماً ليوم العيد، وإلى جانب الحساء قدم السجن ذرة مطبوخة، وزبدًا بكثرة، ولم يكد الميجور يودع الحاكم إلى الباب حتى أصدر الأمر بتوزيع الغداء، وكان السجناء يحاولون أن يتحاموا عينه، إذ لم يكن يروقنا منه ذلك الحقد البادي في عينيه وهو يتلفت يمنة ويسرة من خلف منظاره، محاولاً حتى في هذا اليوم «المفترج» أن يتلمس خطأ، أو يقع على أحد فينحي عليه بلائمة.

وبدأنا نتناول الغداء، وكان خنزير أكيم أكيتمتش بديعاً أتقن شواؤه كل الإلتقان، ولم يكد الميجور ينصرف أو بعد انصرافه بخمس دقائق، حتى رأيت عددًا غير مألوف من السجناء قد سكرُوا ولعبت الخمر برؤوسهم، ولست أدري كيف جرى ذلك وشيكًا على هذا النحو، ولا أعرف كيف أعلله، فقد كانوا قبل ذلك بدقائق مفيقين غير ثملين، وإذا بالمرء يشهد بغته وجوهًا محمرة، وسحنات ملتمة، وإذا بالقيثارات تخرج من صناديقها، وإذا بالبولندي القزم يعدو بالقيثار في أعقاب سجين «مهياص» استأجره طيلة

اليوم، وكان يرسل على القيثارة أنغامًا مرحة مرقصة، يصطخب، وراحت الأصوات تتعالى، والسكر يشدد، ولكنهم انتهوا من الغداء، بغير شغب، وقد تناول كل منهم كفايته، وآوى كثير من الكبار فيهم والرزنين إلى المراقدين ليناموا، وفعل أكيم أكيمتش مثلهم، والظاهر أنهم شعروا بأن لا بد للمرء من القيلولة بعد الغداء في يوم العيد، وأما السجين المتدين القادم من شرادبوف فقد مضى بعد إغفاءة قصيرة يعتلي الموقدة، ويفتح كتابه، ويتلو دعواته، ويقيم صلواته، بغير انقطاع، إلى الغسق، وكان يقول إنه من المؤلم له أن يرى هذه المساخر المخجلة من السجناء في السكر والقصف، واللهو، بينما جلس القوقازيون فوق مدارج السلم، وهم ينظرون إلى جموع السكارى بهوتين مشمزين، ومررت على «نورا» فإذا به يردد وهو غضبان مستنكف: شيء قبيح! شيء قبيح! أف لهم.. إن الله عليهم غاضب! وأشعل إيساي فومتش قنديله وعكف في عناد وشمخة على عمله؛ ليظهر أنه لا شأن له بهذا العيد ولا صلة، وانتظمت هنا وهناك حلقات للميسر، ولم يكن المساجين في خوف من الحراس، وإن أقاموا منهم عيونًا وأرصادًا على الجاويش، وكان هذا من جانبه يعتمد أن لا يرى شيئًا، وجاء الضابط الموكل بالخدمة فأطل على السجن ثلاث مرات في اليوم، ولكن السجناء راحوا يخفون السكارى منهم، وبادر المقامرون إلى التسلل حين تراءى لهم، والظاهر أنه هو أيضًا يعتمد أن يغض البصر عن المخالفات الصغيرة، وكان السر في هذا اليوم معدودًا منها، وإذا بالسجن يصطخب شيئًا فشيئًا، وترفع في جنباته الضوضاء، وبدأت المشاجرات وإن ظل أكثرهم مفيقين، ولبت الصاحون، وهم كثر، يراقبون السكارى ويرعونهم، وكان هؤلاء قد أكثروا من الشراب وأسرفوا، وكان «جازان» منتصرًا فرحان، حتى لقد جعل يمشي متباهيًا،

رائحًا غاديًا، بقرب موضعه من السرير العام، وكان قد أخفى تحته بجرأة
مقادير من الفودكا، استعدادًا لهذا اليوم، بعد أن كانت مخبأة تحت ركام
الجليد خلف الثكنات، وجعل يتسم بخبث كلما رأى «الزبائن» قادمين إليه،
وكان هو صاحبًا لم يشرب شيئًا، وكان في نيته أن يقصف ويعبث عقب انتهاء
العيد وإفراغ ما في جيوب السجناء، وكان الغناء يسمع من جميع العنابر،
وبدأ السكر يدخل في حدود الغيوبة، والغناء يوشك أن يكون بكاء، وانطلق
كثير منهم يغدون ويروحون بقيثاراتهم، متلفعين بفرواتهم، عازفين ألحانًا
مرقصة صاخبة. وفي القسم الخاص أنشأ ثمانية من السجناء ينشدون معًا
في نفس واحد، وكان غناؤهم بديعًا، مصحوبًا بنغمات القيثارة، وكانت من
بين أغانيهم بضعة أغان مما يتغنى به الفلاحون، ولا أزال أذكر منها أغنية كان
مغنوها متحمسين فيها، وكان مطلعها:

أنا المرأة الفتية

ذهبت إلى العيد في العشية...

وسمعت تعديلات فيها زيادات لم أكن سمعتها من قبل، كما أضيفت
إليها كلمات جديدة في المقطع، وهي:

أنا المرأة الفتية

نظفت بيتي في العشية

ودعكت الملاعق والطبلية

وأعددت الحساء في الآنية

وسخنت على النار حلة «الفاصوليا»

وكانت أغلب أغانيهم من النوع الذي يسمى في روسيا «أغاني السجون»

وهي كلها معروفة شائعة، ومنها أغنية مطلعها «في الأيام الماضية» وهي أغنية مضحكة، تصف كيف كان السجين ينعم بالعيش في السنين الخالية، ويستمتع وهو السيد الحر بنعمة الحرية، ولكنه اليوم محبوس مقيد أسير، وكيف كان يشرب الشبانيا في الأيام السالفة ولكنه الآن:

«يعطى الكرب طعامًا فيزدرده كأنه سائغ تصورًا وإيهامًا...»

ومن الأغاني الشعبية المحبوبة قولهم:

«... كنت في طفولتي أنعم بالحرية، ولي مال وحياة هنية، ولكني فقدت المال والحرية... إلخ.»

وكانت هناك أيضًا أغان محزنة، ومن بينها أغنية للمساجين أعتقد أنها معروفة مألوفة:

النور في الفجر ينبثق

وفي الأذن الطبل يدق

والسجان جاء ليفتح الأبواب

والكاتب يعد الحاضرين والغياب

ونحن وراء الجدران محصورون

لا يسمع أحد بنا ولا نحن منظورون

ولكن الله في السماء معنا يسمع ويرى

فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون...

وكثيرًا ما كانت هذه الأغنية تغنى منفردًا، لا جمعًا، وبعض الأحيان يخرج أحد المساجين من العنبر فيقعد فوق السلم، ويظل ساهمًا مفكرًا وهو

مسند خده إلى راحة كفه. ثم يبدأ يغني بصوت مرتفع فلا يكاد المرء يسمع ترجيعه حتى ينفطر قلبه ألمًا ووجيعًا.

ولم يكن السجناء يخلون من أفراد أصحاب أصوات شجية.

وبدأ الظلام يغمر الكون، وكان مشهد الحزن واليأس والذهول أليماً من خلال السكر الظاهر والمرح الغامر، فإذا الذي كان منذ ساعة يضحك ويطرب قد ارتد ينتحب وهو سكران لا يعي، وآخرون اشتبكوا في شجارين اثنين خلالها، وقوم تهالكوا من فرط السكر وهم صفر الوجوه لا يكادون يملكون الوقوف على سوقهم من شدته، وراحوا يترنحون بين العنابر، «ليجروا شكل» كل من عبر بهم، والذين لم تكن الخمر يومًا لتردهم شكسين محبين للشجار مضوا يبحثون عبثًا عن أصحاب لهم أو خلان ليفتحوا لهم صدورهم، ويثوهم أشجانهم التي أثارها الشراب.

لقد أراد هؤلاء البائسون تسليّة أنفسهم، وقضاء العيد في مرح ولكن لهم الله، لكم بدا اليوم موحشًا تعسًا موجعًا لنا جميعًا، أو لمعظمنا، فقد راح كل منا يبدو محزونًا خائب الأمل، وجاء بتروف مرتين للقاتي، وكان قد شرب قليلًا طيلة النهار، فلم يكن السكر ظاهرًا عليه، ولكنه لبث آخر لحظة يرتقب حدوث شيء غير مألوف، شيء بهيج مفرح تفتتح النفس له، ولم يحدث أحدًا عنه، ولكن المرء كان يراه في عينيه، ويلمحه في نظراته، ولبث يتنقل متسللاً من عنبر إلى آخر وهو لا يكل ولا يتعب، ولكن شيئًا خاصًا لم يقع ولا أخذ العين في أية ناحية إلا مشاهد السكر والتشائم والتلاحي، وغير مناظر السكارى والغائبين عن الشعور، ومضى سير وتكين أيضًا يطوف بأرجاء العنابر نظيفًا مليحًا في قميص أحمر جديد، وهو كذلك يبدو في هدوء وسذاجة وسلامة طوية يترقب شيئًا، وأمسى المشهد في العنبر شيئًا

فشيئاً يرتد بشعاً لا يطاق، بل يبعث على الضجر والاشمئزاز، ولست أنكر أنه كان هناك من المضحكات شيء كثير، ولكنني وجدته حزينا عليهم جميعاً، وأحسست بوحشية وكآبة واختناق وأنا في وسطهم.

رأيت سجينين يتنازعا ن أهما أولى بأن يصالح الآخر ويضيفه، وكانا قد تشاجرا منذ عهد طويل، ولم تكن هذه أول مرة يشتجران، وبدا كأن أحدهما يحمل في صدره ضغناً لخصمه، فقد لبث يشكو ويغلظ القول ويحاول جاهداً أن يثبت له أنه كان الحق عليه، وأنه الظالم له، وتبين لي من كلامهما أن فروة قد سرقت وشيئاً من المال اختلس منذ عام مضى في مهرجان المساخر - الكرنفال - وكان هناك شيء آخر كذلك.. وكان المتعجب رجلاً فارع القوام متين العضل، مسالماً، وما هو بالأبله ولا بالأحمق، ولكنه إذا سكر راح يصالح الآخرين ويكشف عن ذات صدره، بل لقد يعمد إلى شتم خصمه، واختلاق مظلمة أو مساءة سابقة نالته منه فيما مضى لكي يصطلح ويتودد بعدئذ وتصفو مشاربه، وكان الآخر قصيراً صدغاً مستدير الوجه حاد الطبع أخا دهاء، وكان قد شرب أكثر من رفيقه ولكنه كان أقل سكرًا، وهو صاحب شخصية ويقال إنه على شيء من المال، ولعله رأى لسبب ما أنه من مصلحته في هذه اللحظة أن لا يهيج صاحبه الضخم، فأخذه إلى بائع الفودكا، بينما أصر الآخر على أنه هو الذي يريد أن يدعوه وهو يقول: «آه لو أنك كنت فقط رجلاً أميناً!..».

أما البائع، فراح بين ظل من الاحترام للقصير، وظل من الاحتقار للضخم؛ لأنه هو المدعو الذي لا يشرب على حسابه، وسوف لا يدفع ثمن شرابه، يصب الفودكا في القدح.

وانثنى الرجل الضخم الطوال، وقد رأى أنه كسب القضية: «كلا يا

ستيوبكا أنت المدين لي». فأجابه هذا قائلاً: «لا أريد أن أقطع أنفاسي في محاولة إقناعك». واحتج الآخر وهو يتناول الكأس من البائع قائلاً: «كلا يا ستيوبكا هذا كذب؛ لأن عليك مآلاً لي، وليس لك ضمير، إن عينيك ذاتهما ليستا ملكك بل مستعارتان، أنت مجرم يا ستيوبكا.. أنت والله كذلك، هذه هي الكلمة الوحيدة التي تليق بك...».

فصاح الخمار بالرجل الضخم قائلاً: «ما الذي يجعلك «تزن» هكذا، لقد صبيت «فودكاك»، واحد يعزمك على الشرب فخير لك أن تشرب، هل تريد أن توقفنا هنا إلى الغد؟؟».

والنفث السجين العملاق بأدب والكأس في يده وانحنى قليلاً لستيوبكا الذي وصفه منذ لحظة بالإجرام وقال: ولكني سأشرب، فعلام هذا الصراخ، عيد سعيد يا إستيفن دوروفتش... واتجه إلى زميله الذي كان يحاجه فقال: في صحتك مائة سنة، من غير أن نحسب التي عشتها.. وأفرغ كأسه في حلقة وسلك زوره ومسح فمه، واسترسل يقول موجهاً الكلام إلى الجميع لا إلى شخص بالذات: «لقد كنت في زماني يا أولاد أتحمل قدرًا كبيرًا من الفودكا ولكن يظهر أن الكبر بدأ يحل بي، شكرًا لك يا إستيفن دوروفتش...». وأجاب هذا بقوله: «العفو».

وعاد يجادل زميله ستيوبكا فقال: ولكني سأظل أقولها لك يا ستيوبكا؛ لأنك بجانب سلوكك معي كمجرم معتاد الإجرام، أقول لك..

فقاطعه هذا وقد نفذ منه الصبر قائلاً: «وأنا عندي ما أقوله لك أيها السكير فاسمع وخذ بالك مما سأقوله، اسمع هنا.. لنقتسم العالم كله بيننا، أنت تأخذ النصف منه وأنا آخذ النصف الآخر، ولتمض أنت في سبيلك ولا

تدعني أرى سحتك، لقد مللت منك وزهقت روحي...».

وقال الآخر: «ألا تريد إذن أن تدفع لي النقود؟؟».

- أي نقود أيها السكران المغفل؟؟

سوف تريد في الآخرة أن تدفع، ولكني يومئذ لن آخذها، إننا نشتغل للمال ونكافح، ويتصبب العرق من جباهنا، وتقرح أيدينا وأكفنا، ستشقى في العالم الآخر من أجل الكوبيكات الخمسة التي أكلتها عليّ.

- لتذهب في داهية!

- لا تستعجلني لأنني لم أستعد بعد.

- هلم استعد... هيا.

- يا مجرم.

- يا «رَدّ سجون»...!

وتوالت الشتائم مرة أخرى أعنف مما كانت.

وهنا كذلك صديقان جالسان متباعدين فوق الفراش، أحدهما طويل القامة عريض الصدغ لحيم محمر الوجه، يبدو كأنه قصاب محترف، وكان يكاد يبكي من شدة انفعاله وتأثره، والآخر هش ضعيف ناحل كجلد على عظم مستطيل الأنف مبلله، متخازر العينين وهو مطرق إلى الأرض، وكان رجلاً مهذباً متعلماً يشتغل قبل المجيء إلى الليمان كاتباً، ويعامل صاحبه بشيء من الأنفة والتشامخ، وكان هذا يستنكر منه شمخته في أعماق نفسه. وقد تشاربا طيلة النهار حتى سكرا.

وجعل السجين اللحيم يصيح وقد أخذ برأس الكاتب يهزه بعنف

بذراعه اليسرى «لقد أخذ علي!»، والمراد بهذه الكلمة أنه لم يعد يأبه به وقد تهجم عليه وضربه.

وكان يحقد على صديقه سرًا، فمضى كل منهما يحاول التفوق على الآخر في اختيار الألفاظ واصطناع السباب.

وبدأ الكاتب بلغة المحاجة والمنطق يقول: وهو مصر على أن يشيح بوجهه عن صاحبه، ولا يفارق النظر إلى الأرض، متخذًا سيماء الجد والوقار: «وأنا أقول لك إنك مخطئ أيضًا...».

وعاد الأول وهو يهز صاحبه أعنف من قبل «لقد أخذ علي...» هل تسمع ما أقوله، إنك الصديق الأوحـد لي في هذا العالم، هل تسمع... ولهذا السبب أقول لك لا لأحد سواك، لقد أخذت علي!».

وقال الآخر بصوت مرتفع: «وأنا أقول لك يا صاحبي إن هذا العذر الواهي لا ينفـعك، فخير لك أن تعترف يا صاح بأن كل هذا السكر...».

وعندئذ تراجع السجين الشحيم قليلًا، ونظر نظرة فارغة بعينه السكرانـتين إلى الكاتب المعتز بنفسه، وفجأة وعلى غير انتظار دفع قبضة يده الضخمة بكل قوته في وجه صديقه، فكان ذلك ختام صداقة اليوم ومودته، وإذا بصديقه العزيز يسقط مغشيًا عليه فوق الفراش...

وجاء إلى عبرنا صديق لي من القسم الخاص، وهو رجل ممراح ذكي سليم الطوية إلى أبعد حد، بسيط المظهر على غير المؤلف، يحب النكتة، ولكنه يرسلها خلية من كل شر أو قصد سيئ، وهو الذي كان في المطبخ أول يوم لي في السجن يسأل أين الفلاح الغني، ويعلن أن به عزة وكرامة، وجلس يشرب الشاي يومئذ معي، وكان في الأربعين كثيف الشفة العليا إلى

حد خارق للعادة، وله أنف ضخمة تكاثرت البثور عليه.

وكان عند مجيئه إلى عنبرنا ممسكاً بقيثار وهو يضرب على أوتاره بغير
اكتراث، مشى في أثره سجين قصير كبير الرأس كأنه مربوط بخيط إليه،
وكنت أراه نادراً، ولم يكن أحد في الواقع يعيره التفاتاً، فقد كان مخلوقاً
غريب الأطوار، مسترياً بالناس صموتاً جاداً يشتغل في عنبر الخياطين،
ويحاول أن يعيش في معزل عن بقية المساجين، أما اليوم وقد سكر فقد جاء
يتبع «فارلوموف» كظله، وهو هائج يلوح بذراعيه في الهواء، ضارباً الجدار
بقبضته، ملاكماً المراقد والوسائد بجمع كفه، ويكاد يذرف العبرات، ولم
يكن فارلوموف يعيره اهتماماً كأنه لا يشعر به، ومما يجدر بي ذكره أنه لم
يكن به له صلة سابقة ولا يتشابهان في شيء من عمل أو خلق، وكل منهما
يقيم في عنبر غير عنبر زميله، وكان السجين القصير يدعى «بولكين».

وابتسم فارلوموف لي عندما وقع بصره عليّ، وكنت مستوياً في فراشي
بقرب المدفأة، وقد وقف هو على قيد خطوات قبالي، ففكر لحظة ثم اندفع
نحوي بخطوات مترنحة، واندفع يغني في كبرياء ومباهاة، وهو يلمس
الأوتار لمساً خفيفاً بأنامله، ويقرن الغناء بدقة رقيقة من رجليه.

وكانت الأغنية:

«يا مستدير المحيا ومليح الوجه

كالعصفور الغرد في المرعى النضير

اسمع صوت الحبيب الغرير!

وحين تلبس ثوباً من الحرير

ذا حاشية أجمل ما تكون عليها

تبدو فاتنة حلوة.....»

وكانت هذه الأغنية هي القشة الأخيرة عند «بولكين» فانطلق يأتي بحركات ويصبح موجهاً القول إلى الجمع عامة، أنه لا يكف عن الكذب... لا يكف عن الكذب... ولا كلمة صدق واحدة في كل ما يقوله، كذب كله!.. وأقبل عليّ فارلوموف يقول: «احتراماتي لأليكسندر بتروفتش الشيخ!». وانبعث ينظر في وجهي بضحكة خبث، وكان على وشك أن يقبلني وهو سكران منزوف، وكانت كلمة «الشيخ» فلان... شائعة بين أهل سيبيريا كلها، يخاطب بها كل امرئ، حتى الصبي والفتى؛ لأنها توحى بالاحترام والإجلال، ولا تخلو في الواقع من الملق.

قلت: وكيف حالك يا فارلوموف؟؟

قال: «أهي ماشية!» وإن كنا في مرح، فمن أجل العيد وفيه يسكر المرء بسرعة... فاعذرني!

وصاح بولكين وهو يضرب الفراش بيده كمن في يأس «هذا كله كذب.. لقد عاد إلى الكذب...».

ولكن بدا فارلوموف كأنه مصر على أن لا يلقي بالأإليه، فكان في هذا الإصرار شيء من الفكاهة والغرابة، لأن بولكين كان قد تعلق بأذيله من بكرة الصبح، لا لسبب سوى أن فارلوموف لا ينقطع عن الكذب كما توهم، وجعل يتبعه كالظل أينما سار، ويخطئه في كل كلمة يقولها، ويقلب كفيه أو يضرب بهما الجدار والفراش حتى يكاد يدميهما، وهو من الاقتناع بكذب فارلوموف في هياج ظاهر وحزن شديد، وأعتقد أنه لو كان في رأسه شعر لانتزع انتزاعاً من فرط الانفعال والهيّاج، كأنما كأنه مسؤول عن سلوك

فارلوموف وتصرفه، أو كأن عيوبه ونقائصه أمر يؤلم ضميره، وكان انصراف
فارلوموف عنه وإعراضه المتناهي قد جعل المنظر مضحكاً.

ووفق بولكين يصرخ «إنه لا يكف عن الكذب، كله كذب في كذب،
ليس في كلامه كله كلمة واحدة معقولة...».

وضحك السجناء قائلين له: «وما شأنك أنت؟؟».

وأنشأ فارلوموف فجأة يقول: «أريد أن أنبئك يا أليكسندر بترفش أنني
كنت جميلاً فيما مضى من زماني وكانت النساء بي مفتونات...».

وقاطعه بولكين صارخاً: «إنه يكذب إنه يكذب!».

وضحك المساجين.

ولكن فارلوموف استطرد قائلاً: وكنت معهن ناجحاً، وكنت أرتدي
قميصاً أرجوانياً وسراويل من القطيفة، وأعيش في راحة ورخاء وبلادة،
سكران أبداً كالسويدي، وهي عيشة تروقني في الواقع وتعجبني.

وصاح بولكين محتجاً: هذا كذب!

واسترسل فارلوموف: وكان لي في تلك الأيام بيت من حجر ذو طبقتين
وهو منزل أبي، وفي عامين تخلصت من الدورين، ولم يبق لي غير البوابة..
إن المال ليأتي ويذهب في سرعة «كالحمامة»!

وعاد بولكين يصرخ كدأبه: «كذب!»...

وانطلق فارلوموف: ومنذ أيام أرسلت إلى أبي كتاباً بمداد من دموعي،
كتاباً مليئاً بكاء ونحيب، وظننت أنهما سيرسلان إليّ شيئاً، فقد قيل لي أنني
كنت عاصياً لأبوي، متهمجماً عليهما، لا أوليهما احتراماً، وكان الكتاب الذي

بعثت به إليهما من سبع سنين.

قلت ضاحكًا: «ألم تتلق ردًّا؟؟...».

قال وهو يضحك أيضًا، ويقرب أنفه شيئًا فشيئًا من وجهي: «كلا لم أتلقه، ولي هنا حبيبة يا أليكسندر بترفتش...».

قلت: هل لك حبيبة حقًا؟

قال: «لقد سمعت أوتوفريف منذ أيام يقول، قد تكون فتاتي دميمة الوجه يكثر فيه الجدرى، ولكن انظر كيف تملك الثياب الجميلة والمطارف، وقد تكون فتاتك حسناء ولكنها شحاذة تسرح بغرارة فوق ظهرها...».

قلت: وهل هذا صحيح؟

قال وهو مسترسل في ضحكة مخافتة: «نعم صحيح، فهي متسولة».

وضحك السجناء الآخرون أيضًا.

وكان كل منهم يعرف أنه على صلة بشحاذة ولم تصب منه غير عشرة كوبيكات في ستة أشهر.

قلت أخيرًا وأنا أريد التخلص منه: «والآن ماذا لديك من الأنباء تريد أن تقول له لي؟».

فتمهل ونظر إليَّ بشعور وتأثر وقال في رفق: «الآن وقد عرفت خافية الأمر هلا تكرمت بقدرح يا أليكسندر بترفتش فقد شربت شايًا طيلة النهار».

قال وهو يتناول النقود التي أعطيتها إليه: «لقد ظللت أشرب شايًا حتى انقطعت أنفاسي، وهو الساعة يترجرج في بطني كالماء في الزجاج».

وكان هياج بولكين عندئذ قد بلغ أقصى حدوده فراح يأتي بحركات

أشبه بحركات اليأس، ويكاد يبكي، وانطلق يوجه الكلام إلى العنبر كله من فرط حنقه: «أيها الكرام! انظروا إليه! لا يزال ماضيًا في أكاذيبه، كل ما يقوله كذب في كذب!..»

وصاح السجناء به وهم في عجب من غيظه المحتدم: «ما لك أنت وما له، أيها الشخص المضحك؟!..»

قال وعيناه تبرقان وهو يضرب الفراش بجمع يده: «لن أدعه يقول كذبًا، لا أريد منه أن يكذب!..»

فعادوا يضحكون، بينما تناول فارلوموف النقود وانحنى لي شاكرًا، وانطلق من العنبر مسرعًا إلى الخمار بالطبع، وعندئذ فطن لأول مرة إلى وجود كوبلن، فناداه قائلاً: هيا بنا، ووقف عند الباب ينتظره كأنه يجد فائدة له في اصطحابه، وأردف يقول: «هلم يا عكازي!» وتنحى له حتى يخرج من الباب وعاولد العزف على قيثاره..

ولكن علام الاستطراد في وصف هذا البيمارستان؟
وأخيرًا بلغ ذلك اليوم المرهق ختامه.

وتهاوى السجناء على فراشهم، وأخذهم سبات عميق، وجعلوا يتكلمون ويتمتمون في نومهم في تلك الليلة أكثر مما اعتادوا في غيرها من الليالي، بينما لبثت حلقات القمار ساهرة في بعض أرجاء العنبر ونواحيه.

لقد انتهى العيد الذي كانوا يتطلعون طويلاً إلى مقدمه.
وغدًا يعودون إلى الجولة اليومية.. ويعاودون العمل..

الفصل العاوي عشر التمثيلات

وفي اليوم الثالث من أسبوع عيد الميلاد أقيمت الحفلة الأولى من تمثيلياتنا، وقد بذل السجناء جهدًا بالغًا بلا ريب في إعداد معداتها، ولكن الممثلين هم الذين تولوها بأنفسهم فلم نعرف شيئًا عن سير الاستعداد لها، ولا كيف تمت، بل لم نكن ندري على اليقين ما هي التمثيلية التي ستعرض على المسرح، واجتهد الممثلون خلال تلك الأيام الثلاثة في جمع الثياب المطلوبة للتمثيل عند خروجهم للشغل، وعندما لقيني «باكلوشين» لم يفعل شيئًا غير طقطقة عُقْل أصابعه في فرح وسرور، وكان الميجور نفسه رائق المزاج، وإن لم نكن نعرف يقينًا هل تراه عرف نبأ التمثيل، وهل سيوافق إذا هو كان على علم به، أم تراه «سيصهين» ويتراءى كأنه لا يعرف شيئًا، مغمضًا العين عن المشروع، وإن أصر على أن يجري كل شيء في أتم نظام ممكن.

ويخيل لي أنه كان عارفاً، ولا يمكن أن يكون خالي الذهن، ولكنه لا يريد أن يتدخل، مدرّكاً أنه بمنع التمثيل قد يجعل الأمر أسوأ عقبي؛ لأن السجّاء سيعمدون عندئذ إلى السكر والعردة والهرج والمرج، فمن الخير كثيراً لهم أن يجدوا شيئاً ينشغلون به.

هذا هو ما أظنه قد جال بخاطره، لا لشيء سوى أنه المعقول والطبيعي والإجراء السليم.

بل يصح لي أيضاً أن أقول إنه لو لم يفكر السجّاء أنفسهم في هذه التمثيلات أو في إعداد شيء من ضروب التسلية في أيام الراحة والعطلات، لكان أخرى وأولى بالسلطات أن تفكر فيها وتعمل على إقامتها، ولكن عقل «الميجور» لم يكن يجري على نحو ما تجري عليه عقول الناس. وإنما يتجه أبداً إلى العكس، ويتخذ الطريق المضاد، فلا يبعد أن أكون مخطئاً في افتراضي علمه بالأمر والسماح به، وكل رجل على شاكلته لا بد له من مخلوق لا ينفك عن إرهاقه أو انتزاع حق له، أو حرمانه منه، أو إحداث متاعب على أية حال، وهو شيء معروف عنه في المدينة كلها، فماذا يهمه إذا كانت القيود التي يأبى إلا فرضها ستؤدي إلى قيام قلاقل في السجن، فإن لهذه القلاقل عقوبات، وكل ما يحتاج السجّاء إليه لا يتجاوز استخدام الشدة وتطبيق «حرفية» القانون.

هذا هو منطق كل من يشبه الميجور في تدبر الأمور وتصريفها، وذلك هو طريق تفكيره.

وقد عجز هؤلاء القائمون على تطبيق القانون كل العجز عن الفطنة إلى أن التمسك الشديد بحرفيته، دون استخدام عقولهم وفهم روحه، يؤدي رأساً إلى الاضطراب، وما نحسبه يوماً أدى إلى شيء سواه.

ولكنهم قائلون: «هذا القانون، فليس لأحد كلام آخر» وأنهم ليدهشون حقاً ويعجبون لمن يقول لهم: إنه من المفروض فيهم أن يظهروا شيئاً من مراعاة البديهة، وحسن التصرف، ورجاحة التفكير؛ لأن هذا عند خلق كثير منهم لا ضرورة له، ولا حاجة بهم إليه، بل وهو في الواقع «سطحية» لا تطاق، وتحفظ لا يوصف، وتعصب سقيم.

ولكن مهما يكن من الأمر فلا يزال كبير الجاويشبة «مهاوداً»، لا يعارض مشيئة السجناء، وهذا هو كل ما كان يهمهم، وفي وسعي أن أقول يقيناً إن هذه الحفلات التمثيلية والعرافان الذي شعر السجناء به للسماح بإقامتها كانت سبباً في انقضاء أيام العطلة بغير حادث اضطراب في السجن، فلم يقع شجار عنيف ولا حادث سرقة، بل لقد رأيت بعيني السجناء أنفسهم يحاولون قمع المشاغبين، وكبح جماح الراغبين في الشجار، لا شيء سوى المخافة من منع الحفلات، وقد استخلص الجاويش من المساجين عهداً بوجوب مراعاة النظام وحسن السلوك، فتعاهدوا فرحين مهللين، وحرصوا على العهد، مغتبطين بأن كلامهم قد وضع موضع الثقة، وعهدهم وجد القبول. ولا تنس أيضاً أن السماح بالتمثيل لم يكلف ولاية الشأن شيئاً؛ لأنهم لم يكتبوا له، ولا اقتضى منهم تخصيص فراغ ليقام عليه، إذ يتيسر اصطناع مسرح خشبي ثم فك أجزائه بعد انتهاء الحفلات في ربع ساعة، ولم يكن التمثيل ليستغرق سوى ساعة ونصف ساعة، فإذا جاء أمر فجأة من الرئاسة بوجوب فضه، ففي الإمكان الانتهاء منه بعد لحظة يسيرة، وكانت الملابس مخبأة في صناديق أمتعة السجناء، وقبل أن أصف كيف تم الحفل وماذا كانت الملابس أرى لزائماً عليّ أن أتحدث عن «البرنامج»، أو ما كان في النية عرضه على المسرح.

لم يكن ثمة برنامج مرسوم أو مكتوب، ولكن لم يلبث في الحفليتين الثانية والثالثة أن ظهر برنامج مكتوب بخط «باكوشين» لتوزيعه على الضباط وكبار الزائرين الذين شرفوا السجناء بحضور الحفلة الأولى، وقد حضر ضابط الحرس في كل حفلة، بينما جاء قائده بنفسه في إحدى المرات، وحضر أيضًا ضابط قسم المهندسين في ذات مساء، ولأمثال هؤلاء وضع ذلك البرنامج، وكان المفروض أن شهرة التمثيليات في السجن ستنتشر بين القاصي والداني في الحصن، وتسري في المدينة، إذ ليس فيها مسرح للتمثيل، وكان يشاع أن جماعة من الهواة قاموا بعرض إحدى المسرحيات فيها، ولم يكن الأمر يتجاوز هذا القدر، وكان السجناء فرحين كالأطفال، يثلج صدورهم أي نجاح أو توفيق ولو يسير، واشتد بهم الزهو حقًا، فكانوا يقولون فيما بينهم: «من يدري لعل السلطات العليا ستسمع بالنبا فيأتي رجالها ليلقوا نظرة، وعندئذ سيعرفون من نحن، وما شأننا؛ لأنها لن تكون مسرحية كمسرحيات الجنود، مجرد دمي وشخص، وزوارق عائمة ودببة وجديان راقصة، إن لدينا ممثلين، نعم ممثلين حقيقيين، يمثلون أرفع الروايات الفكهة «الكوميديات»، وليس في المدينة مثل مسرحنا، وهم يقولون إن الجنرال «إبروسيتوف» أقام حفلة تمثيلية وأنه ينوي إقامة أخرى، ولكنه لن يتفوق علينا في شيء غير مسألة «الملابس»، أما «الحوار» فمن يدري هل سيكون متقنًا كحوارنا... وسيصل النبا إلى سمع الحاكم، ومن ذا يدري لعله سيفكر في المجيء بنفسه لمشاهدة الحفل.. ليس في المدينة مسرح...».

والواقع أن أخيلة السجناء ظلت تحلق طيلة أيام الأعياد، وبخاصة بعد النجاح الأول، حتى لقد خيل إليهم أنهم سوف يتلقون مكافآت أو يعفون من

بعض مدد عقوباتهم، وإن كانوا في الوقت ذاته لا يرون بأسًا من الضحك بسذاجة وسلامة طوية على حسابهم، فهم في الحق أطفال، بل أطفال بكل ما في الكلمة من معانٍ، وإن كان بعضهم في الأربعين من العمر أو يزيد.

وكنت قد عرفت مقدّمًا ماذا سيعرض في الحفلة، وإن لم يكن ثمة برنامج مقرر، فإن القطعة الأولى تدعى «فيلانكا وميروشكا أو المزاحمان» وكان باكلوشين قد راح منذ أسبوع يفخر مقدّمًا بأنه سيمثل دور «فيلانكا» بطريقة لم تشاهد في يوم من الأيام، حتى ولا على مسارح العاصمة الروسية ذاتها، وكان يطوف بالعنابر خاطرًا متفاخرًا بلا حياء ولا تورع، وإن كان بسلامة نية وسذاجة صادقة، ويروح بين حين وآخر يمثل «فقرات» من دوره على أعين الزملاء فيضحكون جميعًا، غير عابئين بالتمثيل في ذاته، أهو فكه حقًا أم غير فكه وإن عرفوا، والحق يقال، كيف يضبطون مشاعرهم ويحافظون على كرامتهم، فلم يهيج منهم فرحًا ومسرة لمبالغات باكلوشين ورواياته عما سيحدث إلا الشباب منهم أو «الخام» الذين تنقصهم الرزانة، أو الذين أوتوا الهيبة في السجن، وخطر الشأن من السجناء، فلم يعد ثمة سبب يدعوهم إلى الخوف من إعلان شعورهم والإفصاح عن رأيهم، مهما يكن من البساطة أو «القبح» في تقدير السجناء ولغتهم، أما الآخرون فقد ظلوا يسمعون هذه «الدردشة» والشائعات في صمت ولست أنكر أنهم لم يعارضوا أو يستهجنوا شيئًا، ولكنهم في الواقع كانوا يحاولون جهدهم الظهور بمظهر المستخفين بالأمر المترفعين عنه، وما أن بقيت بضعة أيام أخرى على موعد التمثيل حتى بدأ الفضول يهيج في كل نفس، وكثر التساؤل «ماذا سيحدث؟» وماذا سيفعل... الأولاد... وماذا يقول الميجور.. وهل ستلاقي الحفلة النجاح الذي لقيته في العام الماضي... وما إلى هذه الأسئلة ونحوها.

وأكد لي باكلوشين أن اختيار الممثلين كان بديعاً؛ لكي يعطى كل دور لمن يليق به ويحسنه، وأن القوم قد أعدوا «ستاراً» للمسرح، وأن «سيروتكين» هو الذي سيقوم بدور خطيب «فيلانكا»، وسوف ترى بنفسك كيف سيبدو في ثياب امرأة، وراح يدير عينيه في محجريهما، ويقرقع بلسانه، ويقول إن المرأة سترتدي معطفاً وفستاناً بحاشية وتحمل مظلة في يدها، وسيأتي الخطيب في ثوب ضابط وشرائطه حاملاً خيزرانة، وأن هناك قطعة تمثيلية أخرى تدعى «كوريل الدباغ»... وهي مسرحية ذات خاتمة «درامية»، وقد أثار العنوان فضولي، ولكنني رغم كثرة أسئلتني لم أستطع أن أعرف شيئاً عنها مقدماً، وكل ما عرفته أنهم لم يقتبسوها من كتاب، وإنما أخذوها من نخسة خطية من جاويش متقاعد يقيم في المدينة، ومن الجائز أن يكون قد أخذ من قبل دوراً في تمثيلها للترفيه عن الجنود، وفي مدننا وأقاليمنا النائية روايات من هذا القبيل لا يعرف أحد شيئاً عنها، ولعلها لم تطبع مطلقاً، وإنما ظهرت في الوجود من تلقاء ذاتها فأصبحت جزءاً لا يستغنى عنه من كل مسرح شعبي، ومن الخير لو أن محققاً عمد إلى دراسة هذه الروايات الشعبية من جديد وعني بالبحث فيها؛ لأنها في الواقع موفورة، ولا تخلو في الجملة من قيمة ووزن، ولا أحب أن أعتقد أن كل ما شاهدته فوق مسرح سجننا كان من اختراع السجناء أنفسهم، بل لا بد من أن هناك تقليداً مستمراً، وعادات مقررة، وأفكاراً ثابتة تناقلتها الأجيال تباعاً، وجاء الزمن فطبعها بطابعه الخالد، فليبحث عنها بين أوساط الجنود، ولتلمس مظانها بين عمال المصانع، وفي المدن الصغيرة والبلدان الفقيرة الخاملة، وهي كذلك محفوظة في القرى والريف بين خدم القصور وموالي السادات، وأتباع الوجهاء والأعيان، ويخيل لي أن هناك طائفة من الروايات التمثيلية

القديمة كانت توزع منها نسخ خطية، ويتولى نشرها في جميع أرجاء روسيا وأقاليمها العبيد والخدم والموالي... كما كان لكثير من أصحاب الأراضي والملاك وسادات موسكو وغطارييفها فرقهم التمثيلية يؤلفونها من عبدانهم وأتباعهم، وهذه المسارح هي نواة الفن الدراماتيكي القومي الذي لا تزال آثاره ظاهرة لا يخطئ أحد في إدراكها وفهمها.

أما عن مسرحية «كوريل النهم» فقد استطعت أن أعرف شيئاً واحداً عنها مقدماً، وهو أن أرواحاً شريرة تظهر على المسرح فتحمل كوريل إلى الجحيم ولكن ما معنى هذا الاسم بالذات، وهل هو كوريل، أم كيريل، وهل هي قصة روسية أم ترجع إلى أصل أجنبي... هذه أسئلة لم أستطع معرفة أجوبتها، وقد أعلن أنه في ختام الحفلة سيقام تمثيل صامت «بانتوميم» بصحبة الموسيقى، وهذا كله بالطبع مشوق للغاية، وعلمت أيضاً أن الممثلين سيكونون خمسة عشر، وكلهم بارعون رائعون مبدعون، وكان النشاط بالغاً، والبروفات مستمرة، وأحياناً خلف السجن، ولكنهم جميعاً أجمعوا ألسنتهم وجعلوا كل شيء في طي الكتمان، فقد أرادوا في الواقع مفاجأتنا بشيء غير عادي ولا هو في الحسبان.

وكان السجن في أيام العمل يوحد عادة في وقت مبكر، بمجرد دخول الليل، ولكنه في أسبوع عيد الميلاد لم يكن يوحد حتى تضرب نوبة المساء، وكان هذا الترخص مقصوداً لأجل التمثيل والاستعداد المطلوب له، فكانوا في كل أصيل تقريباً يعيشون من السجن برسالة إلى الضابط الموكل بالحراسة ليلاً يرجون فيها من فضله أن يأذن في استمرار الاستعدادات ويترك العنابر مفتوحة وقتاً يسيراً بعد الميعاد، قائلين إن هذا الإذن سبق أن أعطي في اليوم السابق وأنه لم يقع فيه أي إخلال بالنظام، فكان الضابط يقول لنفسه: «حقاً لم

يقع أمس ما يخل بالنظام، فإذا تعهد السجناء بأن يحافظوا عليه اليوم أيضًا، فهم بلا ريب سيحرصون عليه كذلك، وهذا أدعى إلى الاطمئنان، أما إذا منعت التمثيليات فمن الجائز أن يحدثوا سوءًا من شدة الكمد، وهم قوم مجرمون لا يدري أحد ماذا هم فاعلون، وهو أمر قد يحدث متاعب للحراس والمراقبين، وهناك حجة أخرى وهي أن الخدمة في الحرس مملة، وها هي ذي رواية تمثيلية لا يقوم بها الجنود بل السجناء وهذا أدعى إلى التشويق، ومن الخير أن نشهدها، وكان لضباط الحراسة امتياز مشاهدتها.

وإذا جاء قائده الأعلى وسأل عنه! كان الجواب المباشر المقنع هو «لقد ذهب إلى العنابر ليعد المساجين ويوصد الأبواب».

وهكذا جعل ضباط الحراسة في كل مساء خلال عطلة عيد الميلاد يسمح بالتمثيل ولا يوصد العنابر إلا في نوبة المساء، وكان السجناء يعرفون مقدمًا أن ضباط الحراسة سوف لا يتمانعون، فلم يخالجهم قلق من هذه الناحية.

وجاءني بتروف حوالي السابعة من المساء ليأخذني فذهبنا معًا، وقصد معظم رفقاءنا في العنبر أو كلهم تقريبًا إلى المسرح لمشاهدة التمثيل، عدا الشيخ المتدين وجماعة البولنديين، وإن كان هؤلاء قد عادوا في اليوم الرابع من شهر يناير فقرروا حضور الليلة الختامية، بعد أن تلقوا عدة تأكيدات أن الحفلة بديعة لطيفة مشوقة وأن لا مجازفة في الذهاب لمشاهدتها ولا خطر، ولم يثر هذا الترفع من جانبهم خواطر السجناء مطلقًا، بل لقد رحبوا بهم واحتفوا واختيرت لهم أحسن الأماكن، وأما القوقازيون وإيساي فومتش أيضًا فقد كانت الحفلة سارة لهم وموضع فرح واعتباط، وكان إيساي فومتش يدفع ثلاثة كوبيكات في كل مرة، وانبعث في الليلة الأخيرة إلى

إلقاء عشرة في «الطبق» حين قدم إليه وهو ظاهر الفرع بادي الغبطة، وكان الممثلون قد قرروا أن يجمعوا من النظارة ما يجودون به لنفقات المسرح، وعلى سبيل «تشجيعهم»، وأكد لي بتروف وجوب اختيار أحسن مقعد لي مهما يكن الملهى مزدحمًا؛ لأنني أغنى من معظم القوم وأكثر منهم مالًا؛ ولأنني على الأرجح سأكتب بسماحة لا يقدرّون على مثلها، وأيضًا لأنني لأعرف منهم بالتمثيل وأشدّ خبرًا.

وهذا ما حدث...

ولكن لأبدأ أولاً بوصف القاعة وترتيب المسرح...

كان طول العنبر الحربي الذي أعد فيه مسرحنا خمس عشرة خطوة، ويصل المرء إليه من الفناء صاعدًا بضع مدارج حتى يبلغ الدهليز، وكان هذا العنبر كما قلت آنفًا يختلف عن العنابر الأخرى، فقد كان السرير العام قائمًا لصق الجدران، تاركًا فراغًا في الوسط، وقد خصص نصف القاعة القريب من السلم لجلوس النظارة والنصف الآخر المتصل بعنبر آخر للمسرح، وكان أشد ما لفت نظري أولاً الستار فقد امتد على عرض القاعة مسافة عشر أقدام، فإن ظفر السجناء بستار كان «ترفًا» يبعث بلا ريب أشد العجب، بل أكثر من ذلك كان الستار مجملًا باللوان زيتية، وصور أشجار وعيون وكواكب، وقد صنع من قطع قديمة وجديدة من «التيل» بقدر ما استطاع الممثلون جمعه من المساجين، كالقلاشين وأربطة السيقان والأقمصة خيطة معًا بشكل بارع، حتى بدت قطعة واحدة، وكلما أعوزهم التيل أو القماش، سدوا الثغرات في الستار بالورق الذي استعاروه فرحًا بعد فرخ من مختلف المكاتب والمصالح، وتولى النقاشون منا، ومن بينهم أ.... الفنان تزيينه ونقشه، فكان التأثير مدهشًا، فقد أدخل هذا التنسيق البديع السرور حتى على نفوس أشد

السجناء ملالة وضجرًا، ولم يكد هؤلاء يشهدون التمثيل ذاته حتى استحالوا جميعًا بغير استثناء كالصبيان في إعجابهم وحماسهم وقلقهم، وقد عم السرور الجميع، واشتد بهم الزهو والتفاخر.

وكان المسرح مضاء ببضع شموع قطعت تقطيعًا، وأمام الستار وضعت «دكتان» نقلتا من المطبخ، وأمام الدكك صفت ثلاثة كراسي أو أربعة أحضرت من غرفة الجاويش، وأعدت لمن قد يحضر من الضباط، وخصصت الدكك للجاويشية والكتبة والأسطوات وغيرهم من المستخدمين الذين قد يأتون لمشاهدة التمثيل، والواقع أن متفرجين من خارج السجن حضروا، ولم تكن تخلو ليلة منهم، وكانوا في بعض الليالي أكثر عددًا منهم في الليالي الأخرى حتى لم يبق مقعد خاليًا في الليلة الختامية، وفي أقصى القاعة كان السجناء أنفسهم وقوفًا مرتدين ستراتهم أو فرواتهم رغم الحر الشديد الخانق في القاعة، وممسكين بقبعاتهم في أيديهم احترامًا للزائرين، وكان الموضوع المخصص للسجناء بطبيعة الحال ضيقًا لا يتسع لهم، فلم يقتصر الأمر على جلوس بعضهم فوق بعض من الزحمة، ولا سيما في الصفوف الخلفية، بل امتلأت بهم الأسرة الملاصقة للجدران أيضًا، والفراغ الممتد عن يمين الستار وشماله، وكان من بين المشاهدين من اشتدت بهم الحماسة فراحوا يلفون خلف المسرح ليشاهدوا التمثيل من العنبر الآخر المجاور، وبلغ الزحام في الجزء الأول من العنبر حدًا لا يوصف، حتى ليصح أن يشبه ما رأيته أخيرًا في الحمام حيث ذهبنا نغتسل قبيل العيد، وكان الباب المؤدي إلى الدهليز مفتوحًا، كما كان هذا مزدحمًا بالناس، وإن هبطت الحرارة فيه إلى عشرين درجة تحت الصفر، ولم نلبث أنا وبتروف أن وجدنا سبيلنا إلى الصفوف الأمامية، حتى كدنا ندنو من المقاعد المستطيلة حيث نستطيع أن

نبصر التمثيل أوضح وأجلى، وعدني القوم إلى حد ما خبيراً بالمسرح، ومن المختلفين إليه، ورأوني وباكلوشين يستشيرني طيلة الوقت ويبدى الاحترام لي، فلا غرو إذا خصوني بشرف الجلوس في المقدمة، وليس من شك في أن السجناء قوم تناهى بهم الغرور واشتد النزق، ولكن هذا هو الظاهر على السطح ليس أكثر، فقد يضحكون مني ساخرين لأنني «غشيم» في العمل، وقد ينظر «ألمازوف» باحتقار إلينا نحن معشر السادات، ويغتر ويفخر بعلمه الواسع فيما يتصل بإحراق الحصى دون الرخام، ولكن هناك عنصراً آخر في هذا الاضطهاد الذي يضطهدوننا به، وهذا العبت الذي نتلقاه منهم، وهو علمهم أننا كنا فيما مضى سادات ننتمي إلى الطبقة التي كان أفرادها أولياءهم السالفين وهي ذكريات غير سارة لأمثالهم، ولكنهم اليوم في الحفلة التمثيلية أراهم يفسحون الطريق لي، ويقرون أنني بها أخبر منهم وأدرى، وأنني رأيت وعرفت أكثر مما رأوا هم وعرفوا، بل إن الذين كانوا من بينهم أقل ميلاً نحوي أصبحوا اليوم في الواقع متلهفين على الظفر باستحساني لتمثيلهم، وراحوا بلا أقل أو أدنى امتهان يقدمون لي أحسن مكان ويخصونني بأفضل موضع.

هذا هو ما أتمثله الآن، حين أستعيد ذكرياتي الماضية، وأذكر أنه كان يبدو لي يومئذ أنهم لم يكونوا يستشعرون ضعة أو مهانة، في تقديرهم الصحيح لأنفسهم، ولكنهم كانوا يحسون بعزتهم وكرامتهم، فإن أعلى خواص شعبنا وأروع سجايه روح النصفة في نفوسهم، ورغبتهم الشديدة في إقرارها، فليس في هذا الشعب أثر للرغبة في مشية الديك في كل مناسبة، وبأي ثمن، وسواء عن جدارة أو خلافها، وما على المرء إلا أن ينزع القشرة السميكة ويرى اللب من قرب، ويدقق البصر فيه، بغير تحيز ولا محابة؛ لكي

يكشف في هذا الشعب أشياء لم يكن يتوقعها، ولا جرت أبداً في حسابه، وليس عند عقلائنا وحكمائنا شيء كثير يصح أن يلقنوه له، أو يعلموه إياه، بل بالعكس أحسب أولئك الحكماء هم أولى بأن يأخذوا عن هذا الشعب ويتعلموا منه.

وكان بتروف قبل ذهابنا إلى المسرح قد أنبأني بصراحة صادقة خالصة أنه ينبغي لي أن أحتل مكاناً في الصدر، أولاً لأنني مطالب بأن أساهم أكثر من سواي، وثانياً لأن أسعار الدخول غير محددة، فكل امرئ وأريحته، يدفع ما يشاء ويبدل ما يريد. وحين طيف «بالطبق» على النظارة لم يتردد أحد في إلقاء شيء فيه، حتى ولو كان درهماً أو نصف درهم، ولكن إذا كنت قد أعطيت مقعداً في المقدمة؛ لأجل النقود التي أدفعها أكثر من سواي، والمساهمة المرتقبة مني أوفر من أحد غيري، فأني إحساس منهم بالكرامة في هذا أيضاً وأي شعور بالاعتزاز.. فقد ذهب بتروف يقول في هذا المعرض: «إنك أغني مني وتستطيع أن تقف في الطليعة، ولئن كنا جميعاً متساوين، فستدفع أنت أكثر مما ندفع، فيكون متفرج مثلك أكثر إرضاء للممثلين وإدخالاً للسرور على نفوسهم، يجب أن تأخذ المكان الأول؛ لأننا هنا جميعاً لا نفكر في المال ولا نقيم له وزناً، ولكننا نريد إظهار احترامنا للفكرة وتقديرنا للخير في ذاته، وما علينا أن نضع أنفسنا حيث ينبغي في رأينا أن نوضع..» فيالله أي كرامة بديعة صادقة في هذا التفكير ونحوه.. إنه الاحترام الذاتي، وما هو احترام المال وحسابه، والواقع أن المال في السجن لا يجد احتراماً كثيراً، ولا يصيب اهتماماً بالغاً، ولا سيما إذا نحن نظرنا إلى السجناء بلا تفریق، واعتبرناهم جماعة وأخذناهم في التقدير جملة، ولا أذكر أنني رأيت منهم أحداً يمتنن نفسه فعلاً من أجل المال، وينزلها أسوأ المنازل، ولا أنكر أن

هناك أفراداً منهم لا يكفون عن الاستجداء، بل منهم من كانوا يستجدون مني أيضاً، ولكن ذلك أدنى إلى الدناءة منه إلى الباعث الحقيقي، فإن في هذا التصرف حقاً شيئاً كثيراً من المجانة والسذاجة وحب «الهزر» والاستخفاف، ولا أدري هل أنا بهذا القول أحسن التعبير عن مرادي حتى يفهم على حقيقته، أم أنا به العاجز.. ولكني كدت أنسى المسرح والتمثيل، فلنعد إليهما...

ولبث القاعة قبل ان يرتفع الستار صورة حية عجيبة ومشهداً غريباً، فقد ازدحمت حشود المشاهدين واشتد ضغطها، وتجمعت في كل ناحية منتظرة تبدو اللفهة منها على الوجوه، ويرتسم القلق البالغ منها على الصفحات، والناس في الصفوف الخلفية متدافعون راكبو بعضهم بعضاً، وأحضر كثير منهم كتلاً خشبية من المطبخ، فأسندوها إلى الجدران، وجعل الرجل منهم يتسلق فوقها؛ معتمداً بذراعيه على كتفي الواقف أمامه، أما في الأجناب والأركان فقد وقف الناس أيضاً فوق السرر جموعاً جامعة، وهم يطلون على الموسيقيين والعازفين، وكان مكانهم هذا طيباً يتيح لهم أحسن المشاهدة، ووثب خمسة أشخاص فوق المدفأة ذاتها، وانطلقوا من مكانهم يسترقون على ما يجري من تحتهم، وهم سعداء فرحون، وازدحمت كذلك بسطات النوافذ على الجدار المقابل بالذين وصلوا متأخرين أو لم يجدوا مكاناً حسناً، وكان سلوك القوم يسوده الهدوء والوثام، وقد أراد كل منهم أن يظهر في أحسن صورة أمام السادات والضباط، وكانت الوجوه تعبر عما يخالج النفوس من لهفة ساذجة، وكلها محمرة تتصبب عرقاً من شدة الحر والزحام، ويشع وميض غريب من الفرح الصبباني واللذة البريئة الحلوة على تلك الجباه المدموغة، والصفحات المغضنة التي اعتادت أن تبدو قاتمة مكفهرة مكتئبة، وعلى تلك الأعين التي كانت أحياناً تنقد ناراً، وترسل

نظرات حداداً رهيبة، وكان الجميع حاسرين ورؤوسهم حليقة عن الجانب الأيمن منها.

وإذا بأصوات حركة وهرولة تنبعث فجأة من المسرح إيذاناً بأن الستار سيرتفع بعد لحظة واحدة، وبدأت الموسيقى العزف، وتستحق الفرقة الموسيقية هنا التنويه بها، فقد رأيت ثمانية موسيقيين فوق ناحية من السرير المستطيل، اثنان منهم يحملان «كمانين» كبيرين، أحدهما من السجن والآخر مستعار من بعض الأفراد في الحصن، وإن كان العازفان من السجناء، وثلاثة من العزاف على القيثارة الروسي «البلايكا»، وكلها من مصنوعات السجن، واثنان يمسكان بقيثارين عاديين، والثامن يدق الرق- الطار- بدلاً من «الدوبل باص» أو آلة «البم» المعروفة، وكان «الكمانان» لا يرسلان غير أصوات صافرة صاهلة كالخيل، والقيثاران لا يحسنان شيئاً، ولكن «البلايكا» كانت مدهشة حقاً، فقد كانت الخفة التي تلمس أنامل العازفين الأوتار بها واضحة بادهة، وقد مضوا يرسلون نغمات مرقصة، وحين تبلغ الأنغام أوجها يسرع الممسكون «بالبلايكا» في نقر صناديق آلاتهم بعقد أناملهم، فكان النغم والذوق وبراعة التناول وحسن التأدية جميعاً شيئاً مبتكراً منفرداً يبرز شخصية المساجين، وانبعث أحد حملة القيثارة يعزف على آله ببراعة فائقة، وكان هذا السجين هو الذي قتل أباه كما قدمنا، وإذا بنا نسمع طرقات خاطفة ودقات رتيبة مدوية، ولم يلبث هذا الصوت المرتفع الواضح أن استحال إلى نغمات «مخشخشة» هامسة مخافتة، وظهر أيضاً موسيقيان يحملان أرغناً يدويّاً «أكورديون» ولم أكن، علم الله، أدري إلى ذلك الحين مدى علم الفلاحين السذج بالموسيقى وآلاتها المنوعة، حتى بدا لي كل ذلك التوفيق بين النغمات وتوافر الانسجام بين الأصوات والروح المبتوثة

في العزف، وتأدية الأنغام، وطابع الفكرة، وبروز الشخصية، مدهشة إلى أبعد الحدود. ولأول مرة أدركت كل الإدراك تلك الجرأة المستخفة، والتفريح البالغ، والمرح القاصف، الذي يغمر الأغاني الروسية الراقصة. وأخيرًا ارتفع الستار...

وبدا التحفز عامًا، إذ راح كل متفرج ينتقل من ساق إلى ساق، ووقف النظارة في الصفوف الخلفية على أطراف الأقدام، وسقط أحد المشاهدين من فوق «الآرمة» الخشبية التي جيء بها من المطبخ، وانطلق الجميع بغير استثناء يحملقون بأبصارهم، وهم فاغرو الأفواه، وساد الصمت وبدأ التمثيل...

وكان «عليّ» واقفًا بجانبني في جمع يشمل إخوته، وسائر القوقازيين من «بلدياته»، وبدأ عليهم الفرح المتناهي بالتمثيل فجعلوا يأتون في كل ليلة بعد ذلك، وقد تبين لي أكثر من مرة أن المسلمين والتتر ومن إليهم مولعون بالمناظر المختلفة والمشاهد المتنوعة، وقد حشر إيساي فومتش نفسه معهم، وظل منذ ارتفع الستار مفتوح العينين مرهف الأذنين، منتبهًا إلى كل شيء بكل إحساسه ومفهوم خياله، ولهفته على كل عجيبة وغريبة، ولو خاب ظنه فيما جاء يتوقع أن يراه لكان ذلك أدعى لأشد الأسف، وأولى لمثله بأصدق الرثاء. وكان وجه «عليّ» الفاتن يشع فرحًا بريئًا كفرح الأطفال، حتى لا يسعني إلا الاعتراف بأنني شعرت بهناء من التطلع إليه، وأذكر أنني عند كل دعابة أو حركة بارعة، أو نكتة مستملحة من جانب الممثلين، وعند كل ضحك مدوٍ من النظارة، لم أكن أتمالك من الاستدارة بعيني إلى «عليّ»، والنظر إلى وجهه، دون أن يراني؛ لأنه كان في شغل شاغل عني، وكان بقربي من الشمال سجين متقدم في السن، لم يكن ينفك عن الزمجرة والسخط

والتبرم، وفطن هو كذلك إلى «عليّ»، ورأيته أكثر من مرة يدور بعينه نحوه وهو يبتسم نصف ابتسامة، وانبعث يناديه، وكان منظر الفتى فاتناً «يا عليّ سيمونتش...» ولست أدري لماذا كان يدعوه.

وبدأوا بتمثيل مسرحية «فيلانكا وبيروشكا» وكان «باكوشين» في تأدية دور المرأة في الحق بديعاً، فقد مثله بدقة مذهشة وإتقان يثير العجب، حتى ليتبين المرء أنه قد فكر ملياً في كل عبارة، وتدبر طويلاً كل حركة، وعرف كيف يضع في أقل كلمة أو إشارة دلالة بالغة تنسجم كل الانسجام والشخصية التي يمثلها، ويجمع إلى هذا المجهود الصادق والدراسة الوافية مرحاً مبتكراً لا تقليد فيه، وبساطة خالصة، وسليقة لا زيف فيها، ولو رأيته لأقررت يقيناً بأنه ممثل موهوب حقاً، وكنت قد شاهدت من قبل هذه القطعة التمثيلية أكثر من مرة على مسارح موسكو وبطرسبرج، وأقول جازماً، إن الممثلات اللاتي أدبن دور فيلانكا في تلك المسارح كن أقل براعة من باكوشين ودونه إجادة وإتقاناً، فهن بالقياس إليه مسرفات في تمثيل «الريفيات» وتقليدهن لا فلاحات روسيات حقيقيات، فقد تعلمن التقليد عملاً وإن كان باكوشين أيضاً قد استعان على الإجادة بحافز المباراة، ودافع المنافسة، فقد كان المعروف أن دور «كوريل» في القطعة الثانية سيقوم بتأديته سجين يدعى «بوتسكين» كان القوم جميعاً، لسبب ما، يعدونه أبرع وأنبع من «باكوشين»، فكان هذا محزناً له كما يحزن الطفل حين يشهد بالتفوق لصبي سواه. ولكم جاءني في الأيام الأخيرة قبل التمثيل يكاشفني بما في نفسه، ويبوح لي بما كان يعمل في جوانحه، حتى لقد بدا قبل موعد التمثيل بساعتين محمومًا، ولكنه حين ظهر على المسرح، وجعل النظارة يضحكون ويهتفون به «مرحي باكوشين... عال...» بدا وجهه يشع سرورًا، وفي عينيه وميض الإلهام

الصادق وسناؤه، وكان المشهد الذي فيه فيلانكا وبيروشكا تتبادلان القبلات فتصيح به قائلة مقدماً «امسحي أنفك أولاً»، فيمسحه، مضحكاً، أو «يفطس» من الضحك، حتى لقد كاد كل مشاهد يستلقي من فرطه، ويهتز اهتزازاً. ولكن كان أهم ما استرعى نظري هو جمهرة المشاهدين، فقد فتنوا بالتمثيل فتوناً، واستسلموا للسرور استسلاماً، بغير تقاة ولا تحفظ، فكانت صيحات الإعجاب بين لحظة وأخرى تدوي دويّاً، وكان كل منهم يلكر جاره بمرفقه، ويهمس له في عجلة برأيه ومبلغ تأثره، غير عابئ من يكون هذا الجار ولا ملقٍ بالألإليه، ثم يرسل البصر خاطفاً يلم بكل أحد، ويلوح بيده كأنما يدعو الناس إلى الضحك، ولا يلبث أن يتجه رويداً إلى المسرح كرة أخرى بينما يكتفي الآخر بالنقر بأنامله، والطقطقة بلسانه، ولا يملك الوقوف هادئاً في مكانه، ولكنه لتعذر الحركة لا يني فيركز على إحدى ساقيه، ثم ينقل إلى الساق الأخرى. وما أن انتهى التمثيل حتى كان المرح العام قد بلغ ذروته، ولست مبالغاً في شيء، فإن لم تصدقني، فتمثل السجن، والقيد والإسار، وتخيل السنين الكثيرة الباقية، والحياة اليومية الرتيبة كذاذ الماء يتساقط في يوم خريف بليد، ثم إذا بهؤلاء المرهقين الطريدين يؤذن لهم فجأة بساعة واحدة يسترفون فيها ويتهيجون، وينسون الحلم المكدود، وينشئون مسرحاً كاملاً تعتز المدينة كلها به، وتعجب له، ولكي نريكم «أي خلق نحن معاشر المساجين...».

وكان كل شيء بطبيعة الحال مرضياً لأحلامهم، مثيراً لدهشتهم واهتمامهم: الملابس مثلاً والأردية المختلفة، فقد هاجهم الفضول إلى رؤية زميل «كفانكا» أو «بيتي» أو تنسقيتايف أو باكלוشرين في ثوب غير الذي ألفوا أن يروه عليه في كل يوم خلال عدة سنين، وها هو ذا سجين آخر العهد به

يرسف في الأغلال قد بدا في ثوب من «الفراك» وقبعة مستديرة، ومعطف سابغ، كأنه إنسان عادي لم تطأ قدمه السجن قبل الآن، بالله.. إنه يبدو بشارب وشعر مستعارين.. وها هو ذا يخرج مندبلاً أحمر من جيبه ليروح به عن نفسه، ويتراءى أمام العالم كأنه «سيد حقاً»، فلا بدع إذا كان القوم جميعاً في نشوة لذة لا توصف، وما عثم «السيد المحسن من الريف» أن جاء يخطو فوق المسرح في زي عسكري قديم، وشرائط فوق الكتفين في زي ضابط برتبة «المعاون»- الأدجوتانت، وعلى رأسه قلنسوة ذات شارة، فأثار حماسة غير مألوفة، وضجة متناهية، وكان لهذا الدور منافسان، فهل تصدق أنهما تشاجرا كما يفعل الصبيان، واختلفا على أيهما يلعبه، وكل منهما في لهفة حرى على الظهور في زي الأدجوتانت وشرائطه، فلم يسع الممثلين الآخرين غير التفريق بينهما حتى لا يتضاربا، وأخذت الأصوات للاقتراع على من يأخذ الدور ففاز بالأغلبية نتسفيتايف، لا لأنه أحسن منظراً وسمناً من زميله، وأقرب إلى مظهر السيد وأشبه به، ولكن لأن نتسفيتايف أكد لهم أنه في وسعه أن يظهر على المسرح ممسكاً بخيزرانة يلوح بها تلويحاً، ويرسم بها على الأرض أشكالا وصوراً كفعل السيد الحقيقي، والوجه الذي لا يعلو أحد عليه، وهو ما لا يستطيعه «فانكا أو بيتي» لأنه لم ير في حياته سيّداً أصيلاً، والواقع أن نتسفيتايف حين ظهر على المسرح مع السيدة راح بسرعة يرسم على الأرض رسوماً وأشكالا بخيزرانتة الرفيعة التي لا يدري أحد من أين التقطها، ظناً منه بلا ريب أن ذلك كله من أمارات التربة العالية، والنشأة الرفيعة، والغندرة و«الموضة»، ومن يدري لعله في طفولته، كخدام صغير حافي القدمين رأى يوماً سيّداً حسن الهندام يحمل خيزرانة ففتنته براعة حركاته بها، وحذقه لحملها وهزها، فعلمت هذه الصورة بذاكرته،

ولم تمنح من خاطره، وهو اليوم وقد بلغ الثلاثين يذكرها كما رآها تمامًا، ويشير بها لذة السجناء كلهم ويفتن بها ألبابهم، فقد مضى يندمج في دوره فلا يلتفت إلى أحد، ويتكلم دون أن يرفع بصره، ولا يكف عن النظر إلى طرف خيزرانتة، أما السيدة الريفية المحسنة فقد كانت هي كذلك صورة رائعة في ذاتها، فقد ظهرت في ثوب حريري قديم ناصل اللون لا يبدو خيرًا من خرق بالية وأسمال، عارية الجسد والذراعين، صابغة وجهها بالأحمر و«البودرة» إلى حد شنيع، واضعة على رأسها غطاء من قطن له رباط يلف إلى ما تحت ذقنها، ممسكة بمظلة بإحدى يديها، وبالأخرى مروحة من الورق الملون تروح بها بغير انقطاع، فلم يكد النظارة يرونها طالعة على أعينهم حتى ضجوا ضاحكين، ولم تستطع هي أن تمنع نفسها من الضحك عدة مرات، وكان السجين الذي أخذ الدور يدعى إيفانوف، بينما بدا «سيروتكين» في زي فتاة، فائنًا مشير الإعجاب كما مرت الأبيات وقصائد الشعر حسنة ممتعة، والواقع أن الرواية ظفرت من الجميع بارتياح تام، فلم يوجه أحد إلى التمثيل انتقادًا، وفي الحق لم يكن للنقد فيه موضع.

وعزفت فرقة الأوركسترا دور «سقيفتي، سقيفتي الجديدة» على سبيل الافتتاح، وارتفع الستار مرة أخرى على بداية الرواية الثانية «كوريل»، وهي قطعة من غرار «دون جوان» أي أن السيد فيها والخادم على الأقل يحملهما الشياطين في النهاية إلى الجحيم. وقد أدى الممثلون كل ما كان عندهم، ولكن الظاهر أنه لم يكن أكثر من جزء أو نبذات ضاعت فيها البداية، ولم يعرف لها ختام، فبدت بغير معنى، ولا توافق فيها ولا ارتباط، وتقع حوادثها في أحد الفنادق الروسية، فيدخل صاحب الفندق متقدمًا سيدًا مشتملاً بمعطف سابغ وقبعة بالية إلى الغرفة التي اختارها لمنزله، يتبعه الخادم كوريل حاملاً حقيبة

سفر ودجاجة ملففة في قطعة من الورق الأزرق وهو يرتدي فروة من أوبار النعام وقلنسوة خادم، وهو النهم «الدباغ» المقصود في المسرحية، وقد قام بالدور «بوتسكين» منافس «باكوشين» بينما مثل إيفانوف دور مولاه، وان إيفانوف هو الذي قام بدور السيدة المحسنة في المسرحية الأولى، ووقف رب الفندق يحذرهما من الأبالسة الذين يغشون الحجرة ثم ينصرف عنهما، فيتمتم السيد وهو يبدو قاتم الوجه، مشغول البال، بأنه يعرف ذلك من قبل، ويأمر خادمه كوريل بتفريغ ما في الحقيبة وإعداد العشاء، ولكن كوريل جبان شره، فلا يكاد يسمع ما قيل عن الشياطين والأرواح الشريرة حتى يصفر وجهه، ويرعش كريحة في مهاب الريح، ويود لو يلوذ بأذيال الفرار، ولكنه يخشى مولاه، وأدهى من ذلك أنه يشعر بالجوع، فهو نهم ماكر خبيث مغفل رعديد، فهو يخدع مولاه في كل خطوة وإن كان في الوقت ذاته يخافه ويخشاه، وهو نوع عجيب من المخلوقات، وطراز فريد يوحي إلينا من بعيد صورة لوبريللو وشخصيته، ولكن السجين الذي لبس الدور أجاده في الواقع وأحسن إبرازه، فقد أوتي بوتسكين بلا شك براعة ونبوغًا، وفي رأي أنه أفضل وأحذق من «باكوشين» نفسه، ولكنني حين التقيت بهذا في اليوم التالي لم أكتشفه طبعًا بهذا الرأي صراحة، ولو فعلت لأحس جرحًا بليغًا. أما السجين الذي اضطلع بدور السيد فقد أجاده هو كذلك، فكان يتكلم كلامًا فارغًا لا معنى له إطلاقًا، ولكنه كان يجيد الإلقاء ويظهر المجون، ويبدى خفة روح، وكانت حركاته وإشاراته مناسبة متوائمة ودوره، وجعل في اللحظات التي كان فيها كوريل منشغلًا بالحقيبة يذرع خشبة المسرح ذهابًا وجيئة ساهمًا مفكرًا، ويعلن بصوت مسموع أنه قد بلغ في ذلك المساء ختام مطافه ونهاية أسفاره؛ ولبت «كوريل» يصغي بانتباه إليه، ويستمتع بفضول إلى مناجاته،

ويبيدي حركات بوجهه وتقاسيم سحته، ويتحدث إلى نفسه في ناحية، ويشير ضحك النظارة بكل كلمة يقولها، وهو لا يشعر بإشفاق على مولاه، ولكنه قد سمع بنبا الشياطين ويريد أن يعرف معناها، ولهذا بدأ يتكلم، ويلقي أسئلة فلا يسع مولاه أخيراً إلا أن ينبئه بأنه كان في بعض الخطوب الماضية قد فزع إلى الجحيم يسألها المعونة، ويرجو إليها الغياث، فوافته الشياطين، فأنقذته من الحرج الذي كان محيطاً به، ولكن الساعة قد حانت اليوم، ولعل الشياطين قادمة إليه الليلة لتنتزع روحه تنفيذاً للعهد الذي تعاهد معها عليه، وعندئذ يبدأ الخوف يتتاب كوريل، ويستولي الفزع عليه، ولكن السيد يروح عنه ويأمره بإعداد العشاء، فيتهلل كوريل ويحضر الدجاجة، وشيئاً من النيذ، ثم ينتزع قطعة من لحم الدجاجة فيذوقها، ويضحك النظارة لهذا المشهد، ولا يلبث الباب أن يحدث صريراً، وتزجر الرياح فتهمز النوافذ، فيرهب كوريل، وفي عجلة، وبغير وعي، يحشو فمه بقطعة من اللحم أكبر من أن يتسع لها حلقه، ويطبق بلعومه ازدراها، فيضحك المشاهدون مرة أخرى، وعندئذ يسأل السيد خادمه وهو يتخطر في الغرفة: «خلاص؟» فيقول: حالاً يا مولاي.. هأنذا أعد الطعام.. ويجلس إلى المائدة، ويبدأ في هدوء يلتهم عشاء مولاه، ويبدو على النظارة أنهم معجبون برشاقة الخادم ومكره وضحك من السيد واستغفاله. ولا يسعني هنا إلا أن أشهد لبوتشكين فعلاً باستحقاقه وجدارته بالتصفيق الذي ظفر من الناس به، فقد كان نطقه بديعاً وهو يرد على مولاه قائلاً: «حالاً يا مولاي، هأنذا أعد الطعام...» ولم يكذب يجلس إلى المائدة حتى شرع يأكل بنهم، مجفلاً من كل خطوة يخطوها السيد، خشية أن يفطن إلى ما هو مسترسل فيه، وما كاد هذا يلتفت حتى بادر الخادم إلى الاختباء تحت المائدة ساحباً الدجاجة معه، حتى إذا كسر

أخيرًا حدة شهوته إلى الطعام بدأ يفكر في سيده، وعندئذ يصيح هذا به قائلاً: «كوريل، إلى متى سأنتظر؟..» فيسرع في الرد بقوله «جاهز...» ولكنه يدرك فجأة أنه لم يترك شيئاً لمولاه، إلا دبوساً في الصحيفة، وحين يجلس السيد إلى المائدة بادي الكآبة شارد اللب، لا يجد فيها شيئاً، ينفلت كوريل فيقف خلف مقعده ممسكاً «بمنشفة» في يده، وكانت كل حركة منه وإشارة وكلمة، وهو يلتفت صوب النظارة غامراً بطرف عينه إلى هذا المولى المغفل تقابل بدوي عاصف من الضحكات، ولكن لا يكاد سيده يبدأ الطعام حتى تظهر الشياطين، وعند هذا الحد من الرواية، ينقلب المشهد مستغلماً مستبهماً مسرفاً في الغرابة والافتعال، إذ يفتح باب في أحد الجوانب فيظهر شيء في ثياب بيض بمصباح فيه قنديل في موضع الرأس، ولا رأس له، ويدو شبح آخر بقنديل أيضاً فوق رأسه، حاملاً منجلاً في يده، أما سر القنديل والمنجل والشيطان المؤتزر بالثوب الأبيض فلا يدري أحد له تعليلاً، وإن لم يخطر ببال «متفرج» طبعاً أن يبحث في هذا المنظر أو يتدبر الحكمة منه. والظاهر أنه أعد على هذه الصورة لأنها الصورة المطلوبة، وعندئذ يدور السيد بعينه في شجاعة إلى الشياطين فيصيح بهم قائلاً إنه على استعداد لياخذه، ولكن كوريل يلوح كالأرنب رعباً وفرعاً، فيتسلل تحت المائدة، ولكنه على فرط فزعه لا ينسى أن يأخذ زجاجة النبيذ معه، وتتوارى الشياطين لحظة، فيخرج كوريل متسللاً من مخبئه، ولكن لا يكاد السيد يقبل على ما بقي من الدجاجة حتى يظهر فجأة ثلاثة شياطين فيمسكون به من الخلف ويحملونه إلى العالم السفلي، فيصيح قائلاً: «انقذني يا كوريل...» ولكن هذا لا يعبأ به، ويريد النجاة بنفسه، وقد حمل معه في هذه المرة الزجاجة، وحتى الرغيف، إلى مخبئه تحت المائدة، وإذ يجد نفسه في تلك اللحظة وحيداً، لا شياطين معه،

ولا مولى له، يخرج من المكنن ويتلفت حوله ويخطف وميض ابتسامة على وجهه، ويغمز بعينه غمزة خبث ويجلس في موضع مولاه، ويطرق برأسه للنظارة قائلاً في نصف همسة: «هذا جميل، الآن أنا وحدي.. بغير مولى..» فيضج المشاهدون ضاحكين لقوله: «بلا مولى»، وعندئذ يردف مخافتاً غامزاً مرحاً طروباً: «لقد أخذت الشياطين مولاي..».

وفي هذه اللحظة تتناهى نشوة النظارة ويتجاوز سرورهم كل حد، فقد جاء قول كوريل بسبيل أخذ الشياطين لسيده بطريقة بديعة، ومكر بالغ، وحركة انتصار ساخر، لم يتمالك المشاهدون إزاءها من التصفيق والهتاف، ولكن الحظ السعيد لم يطل لكوريل أمده، فلا يكاد يتناول الزجاجاة فيملاً القدح، ويرفعه إلى شفتيه، حتى تعود الشياطين فجأة متسللين على أطراف أقدامهم خلفه، فيمسكون به من تحت ذراعيه، فيصرخ من قرنيه، ويستولي عليه الفزع فلا يجروء على التلفت وراءه، أو الدفاع عن نفسه، ولا تزال الزجاجاة في إحدى يديه، والكأس في الأخرى، ولا يطاوعه خاطره على فراقهما أو التخلي عنهما، فيجلس لحظة فاغراً فاه من الروع، محملاً ببصره في النظارة برعب وجبانة لا توصفان، وأخيراً ترفعه الشياطين من مكانه، وتحمله منصرفة به، وهو لا يزال ممسكاً بالزجاجاة، راكلاً بقدميه صارخاً متصايحاً بأعلى صوته، حتى لتظل صرخاته مترددة الأصداء من خلف المناظر، بينما ينزل الستار وسط دوي الضحك، وهتاف السرور، وعزف الأوركسترا لحن كامارينسكي.

وتبدأ الأنغام رقيقة مخافتة ثم ترتفع شيئاً فشيئاً ثم تسرع، ثم تستحيل نقرأ على ظاهر المعازف، وهنا يتجلى لحن كامارينسكي بكل روعته وجلاله، وكان بديعاً لو أن «جلنكا» نفسه سمعه يتردد في السجن كما تردد،

ويبدأ عندئذ التمثيل الصامت «البتوميم» مع الموسيقى فيقتربان إلى النهاية، ويمثل المشهد كوخًا، ويبدو طحان وامرأته، وهو في ركن يصلح بعض السروج، وهي في ركن آخر تغزل كتانًا، وقد قام بدورها سيروتكين بينما مثل تنسفايف دور الطحان.

وهنا يصح أن ألاحظ أن المناظر كانت رديئة، ولكننا في هذه القطعة والقطعتين الآخرين اعتمدنا في إعدادها على خيالنا، ولم نعتمد على رؤيتنا لشيء منها، ففي قصي المسرح يرى المشاهد بساطًا أو سجادة من شعر الخيل أو نحوه، وعن اليمين شيء قبيح كالحاجز أو الساتر، وعن الشمال لا يبصر شيئًا إطلاقًا، حتى تبدو أسرة العنبر للأبصار، ولكن النظارة لم يكونوا نقدة، ولا بأس عندهم من تلافي النقص بأخيلتهم، والواقع أن السجناء قوم خصيبو الخيال متراموه، وهم في ذلك قائلون: «إذا قيل لك إن هنا حديقة، فعليك أن تنظر إليها كأنها كذلك، وإن كانت حجرة فلتكن حجرة، وإذا كان كوخًا فتمثله كوخًا، هذا أمر لا يهم، فلا ضرورة لكثرة الكلام فيه، ولا حاجة إلى «التدقيق» بسبيله، كل شيء كان والسلام...».

وكان سيروتكين فاتنًا كل الفتون في ثوب امرأة شابة، وتهامس المشاهدون بعدة تحيات له ومدائح، ولا يلبث الطحان أن يفرغ من عمله ويتناول قبعته وسوطه ويتقدم إلى زوجه ويقول لها بالإشارات إنه قد حان له أن يخرج، ولكن إذا هي سمحت لأحد بالدخول في غيابه فليس عنده إلا.. ويشير إلى السوط. وحين تخلو المرأة إلى نفسها تنثني تلهو، إذ لا يكاد يتوارى عن عينها حتى تهز قبضتها في أثره، ثم يسمع دق الباب فينفتح، ويظهر طحان آخر من الجيران، وهو ملتج يرتدي سترة كاملة، وقد جاء بهدية لها وهي منديل أحمر، فتضحك ولا يكاد يحاول معانقتها حتى يدق

الباب مرة أخرى، فأين يختفي، وإذا بها تسارع إلى إخفائه تحت المائدة، وتجلس هي إلى مغزلها كما كانت، ويظهر عاشق آخر، وهو كاتب في الجيش يرتدي زيًا عسكريًا، وإلى هذا الحد جرى التمثيل الصامت بديعًا حقيقًا بالإعجاب، وكانت الإشارات مناسبة للمقام تمامًا حتى ليعجب المرء وهو ينظر إلى هؤلاء الممثلين «الارتجاليين» كيف يتبدد كثير من المقدرة والنباعة في روسيا أحيانًا من طحنة الفاقة وألم العبودية والإذلال. وأكبر ظني أن هذا السجين الذي كان يمثل دور الكاتب سبق له في وقت ما الظهور على مسرح خاص، أو على المسارح العامة في الأقاليم، فقد خيل إليه أن جميع الممثلين الآخرين بالسواء لا يعرفون عن التمثيل شيئًا، وأن حركاتهم على المسرح لا تتفق والفن الصحيح، فجعل يخطو كما كان الأبطال القدامى في العصور الماضية يفعلون - أو كما قيل - فهو بخطوة خطوة منفرجة، وقبل أن يحرك الساق الأخرى، يقف، ويروح يطوح برأسه، وكل جسمه إلى الخلف، ويلتفت حوله مزهوًا مختلًا ثم يخطو خطوة أخرى، فإن كان هذا النوع من الخطو مضحكًا في الروايات القديمة، فهو من كاتب جيش في رواية هزلية أشد إضحًا. ولكن نظارتنا حسبوا أن هذا الخطو هو الصحيح، فسلموا اعتباطًا بخطوات الكاتب الفسيحة بغير نقد ولا اعتراض، ولم يكد الكاتب يتوسط المسرح حتى دق الباب مرة أخرى، فعاد الفزع يتتاب المرأة، وهي حيرى لا تدري أين تخبئ الكاتب، وإذا بها تنظر إلى صندوق قائم في الحجرة مفتوح الغطاء، فيتسلل إليه وتغلق هي الغطاء عليه، وإذا الزائر في هذه المرة نوع آخر يختلف عن سابقه، أو هو عاشق ولكن من طراز خاص؛ لأنه من البراهمة، وفي زيهم كذلك، فلا يكاد يترأى أمام النظارة حتى تدوي ضحكاتهم دويًا، وكان ممثل الدور سجينًا يدعى

كوشكن، وقد أجاده وأحسن أدائه، فقد بدأ «براهميًا» صميمًا، وعبر عن قوة إحساسه بالتمثيل الصامت أحسن التعبير، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها فوق قلبه، ولا يكاد يبدأ «العواطف» حتى يسمع طرق شديد بالباب فتكاد المرأة تجن من الفزع، ويهرول البراهمي ويدور حول المسرح، كذي جنة، ويتوسل إليها أن تخفيه، فتسرع إلى تخبئته خلف الدولاب، وتنسى أن تفتح الباب، فتعود مسرعة إلى مغزلها فتعكف عليه غير ملقية بالأل إلى طرقات زوجها ودقاته، ومن فرط فزعها تبرم بأناملها خيطًا وهميًا وتدير مغزلًا مثله، بينما المغزل الحقيقي ملقى على الأرض. وقد مثل سير وتكوين المرأة في فزعها بمقدرة ونجاح، وكان فيه موفقًا، ولكن الزوج يكسر الباب بدفعة من حذائه، ويتقدم إلى الزوجة والسوط في يده، فقد كان لها بمرصد، وقد رأى كل شيء، ومضى يعد على أصابعه العشاق الثلاثة الذين خبأتهم، ثم ينطلق للبحث عنهم، فكان جاره أول من اكتشفه، فيصفعه ويسوقه حتى يخرج من الحجرة، وأما الكاتب المروع فيريد الفرار ويخرج رأسه من تحت غطاء الصندوق فيكشف نفسه، فيعلوه الزوج بالسوط وفي هذه المرة ينسى صاحبنا الكاتب مشيته الأولى التي تشبه خطوات الممثلين القدامى، فيعدو لا يلوي على شيء، وبقي «البراهمي» فيظل الزوج يبحث عنه طويلاً حتى يجده في الركن خلف الدولاب، فينحني له بأدب ويجره من لحيته إلى بهوة المسرح ويحاول البراهمي الدفاع عن نفسه فيصرخ قائلاً: «يا ملعون... يا ملعون...» وهما الكلمتان الوحيدتان اللتان ينطق بهما في كل مشاهد هذا التمثيل الصامت ومواقفه. ولكن الزوج لا يأبه بصراخه ويفعل به ما يشاء، وتفتن المرأة إلى قرب حلول دورها، فترمي بالخيوط جانبًا، وتطرح المغزل عنها، وتعدو خارجة من الغرفة، وينقلب المغزل على الأرض، ويضحك

النظارة، ويهز «عليّ» ذراعي دون أن ينظر إليّ، ويصيح بي قائلاً: «انظر... إلى البراهمي...»، وينطلق في ضحك شديد حتى لا يكاد يستقيم على ساقيه، ويهبط الستار ويبدأ منظر جديد.

ولكن لا حاجة بي إلى وصف المشاهد كلها، فقد كان هناك مشاهدان أو ثلاثة مشاهد أخرى، وكلها مضحك وهزلي مليء بالمجون، وإذا لم يكن السجّاء قد ابتكروها ابتكاراً، فقد أدخلوا عليها شيئاً من عند أنفسهم، وما من ممثل فيهم إلا ارتجل بعض الأشياء، وجاء في تأديته لدوره بجديد، حتى جاء تمثيلهم للأدوار ذاتها في الليالي التالية مختلفاً من بعض النواحي عما بدا منهم في الحفلات السابقة. وانتهى المشهد الأخير من التمثيل الصامت، وكان غريباً حقاً. «بياليه» في منظر جنازة، وراح البراهمي مع كثير من المشيعين يردد تعازيم ورقى مختلفة فوق النعش، ولكنها جميعاً لا تجدي، وأخيراً تتعالى أنغام «الشمس الغاربة» فتعود الجثة إلى الحياة، ويبدأ في رقصة فرح وتهليل، فيراقص البراهمي الميت المنشور على الطريقة البراهمية، ثم تنتهي الحفلة على أن يعاد التمثيل في مساء اليوم التالي، وينصرف السجّاء فرحين راضين وهم ينوهون بالمثلين ويشكرون الجاويش، فلا يسمع المرء أصوات شجار بينهم، فقد كان كل منهم على غير المألوف مغتبطاً راضياً بل قل سعيداً هائناً، وقد أخذ الكرى بمعاقده جفنيه في تلك الليلة وهو هادئ السرب، ساكن النفس على غير ما كان نومه في الليالي الأخرى، حتى ليتساءل المرء من العجب «وما السر في ذلك والباعث...» وليس هذا خيالاً من عند نفسي ولا تصوراً تصورته، ولكنه الحقيقة، فإن أولئك المساكين قد تركوا يفعلون مرة ما شاءوا على ضآلته، وهو أن يمرحوا كما يمرح البشر، ويقضوا ساعة قصيرة وكأنهم ليسوا في السجن، فلا عجب إذا عراهم هذا

التحول النفسي الذي بدا عليهم ولو لبضع لحظات...

وها هو ذا الليل قد انتصف، وأنا مستيقظ ساهر، ولا يزال الشيخ قائماً فوق المدفأة يصلي، وسيظل عاكفاً على الصلوات إلى الفجر، وقد نام هادئاً بجانبني، وأذكر أنه كان لا يزال يضحك ويتحدث إلى إخوته عن التمثيل حتى هبط وادي الكرى، وإذا بي أراني بغير إرادة أنظر إلى عينيهِ البريئتين الساجيتين، وأنشني أستعيد رويداً كل شيء، اليوم السابق والأعياد والشهر الأول بجملته.. ثم أرفع رأسي فزغاً ورعباً، وأدير عيني في رفقائي النوام على الضوء الخافت المنبعث من القنديل، وأنظر إلى وجوههم المسكينة، ومضاجعهم الحقيرة، وفاقهم المؤسسة، وضنكهم الشديد... وأتمثل ذلك كله وأطيل البصر فيه، كأنما أريد أن أقنع نفسي أنني في يقظة حقاً لا في مطال حلم أليم.

ولكنها الحقيقة... فهأنذا أسمع أنيناً، وأشهد النائم الزافر يلقي ذراعاً متثاقلة، فيطرق أذني صوت قيوده وأغلاله، وأبصر آخر يجفل في نومه ويبدأ الكلام، بينما أشهد الشيخ فوق المدفأة يصلي لعيد الميلاد، وأسمع دعاءه المخافت الرقيق وهو يسأل الله الرحمة، وعندئذ أنشني أقول لنفسني: «على كل حال لن أمكث هنا إلى الأبد، إن هي إلا بضعة سنين...».

وأعيد رأسي إلى الوسادة مرة أخرى...

القسم الثاني

الفصل الأول

المستشفى

ومرضت بعد العيد بقليل فنقلت إلى المستشفى العسكري الخاص بالسجناء، وهو بناء قائم بذاته على مبعدة نصف ميل من الحصن، ولا يتجاوز طبقة واحدة مستطيلة ذات طلاء أصفر اللون، اقتضى قدرًا كبيرًا من «المُغرة» لدهنه في الصيف حين رمت المباني وأصلحت، وكانت المكاتب ومنازل الأطباء والأبنية الأخرى مجمعة حول حاشية الفناء الفسيح الذي يحويه المستشفى. ويقتصر البناء الرئيسي فيه على «عنابر» المرضى وهي كثيرة، ولكن للسجناء منها عنبران فقط، وهما أبدًا مزدحمان وبخاصة في الصيف، حتى ليقضي الأمر في كثير من الأحيان تقريب الأسرّة بعضها من بعض. وكان عنبرانا مليئين بكل من هب ودب من السجناء «المناكيد»، والجنود من مختلف الرتب الذين ينتظرون المحاكمة، ومن صدرت عليهم أحكام، ومن لا يزالون يرتقبون صدورها، والذين «سير حلون» إلى سجون أخرى.. كل أولئك كانوا يجيئون إلى المستشفى للعلاج، كما كان من بينهم

فريق من «كتيبة التأديب»، وهي هيئة غريبة يرسل إليها الجنود الذين أدينوا في بعض الجنايات، أو ثبت لولاء الأمر أنهم ممن لا يوثق بهم، ولا يؤمن جانبهم، على سبيل إصلاح نفوسهم، وتقويم اعوجاجهم، فيخرجون عادة بعد عامين أو ثلاثة أعوام وهم شر مما كانوا قبل مدخلهم، مجرمون قلما يشهد الناس أحدًا مثلهم سوءًا وإجرامًا ونكرًا، والعادة في سجننا أن الذين يشعرون بمرض يبلغون الجاويش عن علتهم في الصباح فتكتب أسماؤهم في الدفتر، ويرسلون معه إلى «العيادة» محروسين فيفحصهم الطبيب مع المساجين الموفدين من مختلف الأقسام العسكرية في الحصن، ومن يجد الطبيب بعد الفحص الابتدائي أنهم مرضى حقًا يرسلون إلى المستشفى. وقد دون اسمي في الدفتر، وبين الساعة الأولى والثانية عقب خروج المساجين للشغل بعد الغداء سيق بي إلى المستشفى، والعادة أن يأخذ السجين المريض معه كل النقود التي يملكها وقدرًا من الخبز إذ لا ينتظر أن تصرف له جناية فيه طيلة اليوم الأول الذي يحل فيه نزيلاً عليه، وله أن يأخذ أيضًا قسبة تبغ صغيرة وكيس دخانه وصوفانًا لإشعال «غليون»، وإن كان عليه أن يخفي هذه الأشياء الأخيرة بحرص وحذر في حذائه.

وقد دخلت حرم المستشفى وأنا أشعر بشيء من الفضول إزاء هذا الوجه الجديد في حياتي في «الليمان»، وقد كان اليوم دافئًا فاترًا مرهقًا للنفس، من تلك الأيام التي يتخذ فيها مبنى كالمستشفى أو ما يماثله مظهرًا كثيبًا منفردًا يبعث الفتور والسامة، ودخلت مع حارسي إلى غرفة الانتظار حيث يقوم حمامان نحاسيان، فوجدت فيها مريضين بحارسيهما قد سبقاني، ولم يكونا من السجناء، بل ممن ينتظرون المحاكمة، وجاء طبيب مساعد ففحصنا بكسل وبلادة يختلط بهما مس من نفوذ وسلطان، وتلك البلادة ذاتها مضى

ليبلغ الطبيب الموكل بالعمل في ذلك اليوم، فجاء هذا مسرعًا، ففحصنا فحصة آس رحيم مترفق بنا كل الترفق ووصف لنا الدواء في «أورنيك» طبي مدونًا فيه أسماءنا، أما تشخيص العلة والأدوية والغذاء المقرر فقد تركها جميعًا للطبيب الذي يتولى أمر السجناء المرضى في عنبرهم. وكنت قد سمعت من قبل أن المساجين لا يكفون عن امتداح الأطباء، وكانوا يقولون لي كلما سألتهم عنهم قبل ذهابي إلى المستشفى، إنهم بنا رحماء كأبائنا..

واستبدلنا من ثيابنا ثيابًا غيرها، وأخذت ملابسنا لحفظها، وارتردينا ملابس المستشفى الداخلية وجواربه المستطيلة و«طاقيات» النوم والنعل والجلباب السميك الأسمر المبطن بشيء قد يكون تيلًا خشنًا أو لعله من «الجبس» اللاصق «اللزقة»، والواقع أن الجلباب كان قذرًا إلى أقصى حد، ولكنني لم أفطن إلى مقاديره إلا فيما بعد. ثم سيق بنا إلى العنبر القائم في طرف دهليز مستطيل نظيف مرتفع، وكان منظر النظافة في كل ناحية مرضيًا كل الإرضاء، فكل ما يأخذ العين يلتمع ويبرق، وإن كان ذلك هو ما تراءى لي أو لعله بدا كذلك في ناظري بالقياس إلى ما رأيته في السجن وخبرته، وذهب المحبوسان قيد المحاكمة إلى العنبر الأيسر، وذهبت أنا إلى العنبر القائم عن اليمين، وقد وقف ببابه المغلق بترباس حديدي ديدبان بينديته، وإلى جانبه جندي آخر ليتناول «النوبة» من بعده، وأصدر الجاويش الحدث الذي يشرف على حرس المستشفى الأمر بالسماح لي بالدخول، فلم ألبث أن وجدتني في غرفة طويلة ضيقة، على جانبيها سرر موضوعة يبلغ عددها اثنين وعشرين سريرًا، كانت منها ثلاثة سرر أو أربعة خاوية، وهي جميعًا خشبية خضراء الطلاء، من النوع المعروف لنا في روسيا، بأنه لا يخلو أبدًا وبحكم القدر من «البق»، فكان السرير الذي أعطيته قائمًا في ركن من

الجانب الملاصق للنوافذ، وكان في العنبر كما قلت من قبل بعض السجناء المنقولين من سجننا، وكان بعضهم يعرفني أو على الأقل سبق أن رأي، ولكن أغلبهم من «المحايس» قيد المحاكمة أو من «كتيبة التأديب»، وكان قليل من المرضى في هذا العنبر مدنفين حط عليهم السقام فلا يستطيعون من سرهم نهوضاً، وأما الآخرون فيشكون عللاً بسيطة أو ناقهون يستجمون، بين مستوين على سرهم أو ذارعين العنبر ذهاباً وجيئة بين السماطين، والجو مفعم بريح خانقة وأبخرة كريهة، وقد اختلطت بها رائحة العقاقير والأدوية، وإن ظلت النار في الموقدة القائمة في الركن مشتعلة طيلة اليوم أو جُله، وكان على سريري غطاء مخطط فنزعت، فإذا من تحته «بطانية» من قماش مبطنة بتيل وملاءات خشنة وأكياس وسائد مشكوك في نظافتها، وبجانب السرير مائدة صغيرة من فوقها جرة «وكوز» من صفيح، وكان ذلك كله مغطى بمنشفة صغيرة أعدت لي، ومن تحت المائدة رف يضع المرضى عليه جرة من شراب أو نحوه، وللذين يشربون الشاي إبريق، وإن كان عددهم ضئيلاً محدوداً، أما قصبات التبغ وأكياسه، ويكاد الكل يدخنونه، حتى المصدورين منهم، فقد أخفيت تحت «المراتب»، وقلما كان الطبيب ومعاونوه يفحصون السرر، وإذا وجدوا مريضاً يدخلن تظاهروا بأنهم لا يرونه، ولكن السجناء كانوا أبداً يقظي لمجيئهم، حريصين الحرص كله على إخفاء التبغ، ومن يشأ منهم تدخيناً يذهب إلى الموقدة ليدخن، فلا يدخنون أحياناً في مراقدهم إلا ليلاً، حين لا يأتي أحد إلى العنابر للتفتيش والطواف، اللهم إلا الضابط المشرف على حرس المستشفى.

ولم أكن دخلت المستشفى مريضاً قبل اليوم، فلا عجب إذا بدا كل شيء حولي غريباً في عيني الغرابة كلها، وشعرت بأنني أثرت في العنبر بعض

الفضول، وكان المرضى قد سمعوا من قبل عني، فلبثوا يحملقون أبصارهم في وجهي بغير كلفة ولا احتفال، بل بشيء من الأنفة والتشامخ، كما ينظر التلاميذ في المدرسة إلى ولد جديد، أو كما ينظر الموظفون في مكاتب الحكومة إلى صاحب عريضة أو التماس، وكان عن يمين يرقد كاتب رهن المحاكمة، وهو ابن غير شرعي كان أبوه ضابطاً برتبة «الكابتن»، وكانت مهمته تزيف العملة، وقد انفرط عام عليه وهو في المستشفى، والظاهر أنه لم يكن مريضاً مطلقاً، وإن أكد للأطباء أنه مصاب بورم شرياني في القلب، وعلى هذا النحو حقق غرضه، إذ تخلص من عقوبة الأشغال الشاقة والجلد، ثم أرسل بعد عام إلى مدينة ت...ك للمقام في مستشفاه. وكان عريض المنكبين شديد البأس في الثامنة والعشرين من العمر، مثال المجرم الكبير الواسع العلم بالقانون، يتوقد ذكاء، ويعتد بنفسه أشد الاعتداد، وهو الطليق السهل في سلوكه، المريض بالغرور، الموهم نفسه حقاً بأنه أصدق الناس وأحرصهم على الشرف، وأنه لم يأت فاحشة ولم يرتكب خطأ. بل أدهى من ذلك وأنكى أنه تشنت بهذا الوهم فلم يكن ينفك عنه، وكان هو البادئ بالحديث معي، فقد راح أولاً يسألني في لهفة وفضول، ويصف لي تفصيلاً الروتين الخارجي في المستشفى، فنبأني قبل كل شيء طبعاً أنه ابن «كابتن»، مجتهداً كل الاجتهاد في إقناعي بنبالة أصله، أو على الأقل بأنه من «أسرة كريمة».

وكان المريض الآخر الذي تقدم إليّ قادماً من كتبية التأديب، فأخذ يؤكد لي أنه عرف كثيرين من السادات المحكوم عليهم بالنفي، ومضى يسميهم لي بأسمائهم؛ وكان جندياً وخطه المشيب، ويبدو من وجهه أنه من إخوان «الخيال»، وهو يدعى «شيكونوف»، والظاهر أنه كان يحاول التغيرير

بي والاحتيايل عليّ، والغالب أنه كان يظن أن معي شيئاً من المال، ولم يكد يلحظ أن لدي رزمة تحوي مقداراً من السكر والشاي حتى بادر إلى عرض خدماته ليوافيني بإبريق ويصنع لي شايًا، وكان م... قد وعدني أن يرسل إليّ إبريقاً من السجن في غداة اليوم التالي مع سجين كان يأتي إلى المستشفى للعمل فيه، ولكن «شيكونوف» دبر الأمر أحسن التدبير، فظفر بإبريق من حديد وقده وعلّى الماء وصنع الشاي، وقام على خدمتي بحماسة غير مألوفة ما كاد يراها مريض على سرير مقابل حتى أطلق في الحال ضحكات خبيثة ساخرة، ونكات عليه مؤذية، وكان صاحب هذه «القفشات» يدعى «أوستيانتسيف»، وهو جندي ينتظر صدور الحكم عليه، ومن فرط رعبه من الجلد أو العقوبة البدنية شرب يومًا جرّة من الفودكا بعد أن ألقى فيها قدرًا من «النشوق» فأصيب منها بذات الرئة، وقد أسلفت عليكم ذكره، وكان إلى تلك اللحظة مستلقياً على سرير صامتاً منقطع الأنفاس يدقق في وجهي البصر ويرقب حركات شيكونوف بغيط، وقد أكسبت شدة مرارته هذا الغيط لوناً مضحكاً وطعمًا فكّهًا ومذاقًا هزليًا، وأخيرًا لم يستطع صبرًا فأنشأ يقول لاهثًا: «أف لهذا المداهن المتدلل.. لقد وجد سيدًا...».

وكان صوته يتهدج من الانفعال، ولم يبق على منيته إلا أيام معدودة.

واستدار شيكونوف إليه غاضبًا.

قال وهو ينظر إليه باحتقار: «من هو المداهن المتدلل؟...».

وأجاب الفتى المصدور في لهجة الواثق من نفسه، كأن له كل الحق في زجر شيكونوف وسبه، أو عيّن فعلاً لهذا الواجب: «هو أنت...».

وقال الآخر: «أنا.. مداهن متدلل».

قال: «هو أنت، أسمعون يا مباركين إنه لا يصدق أنه كذلك ويندهش أيضًا...».

ومضى شيكونوف يقول: «وما دخلك.. ألا ترى السيد حائرًا لا يجد معيّنًا لأنه لم يعتد الاستغناء عن خادم، فلم لا أقوم على خدمته أيها المغفل الأشعث الأغبر».

- من الأشعث الأغبر؟

- هو أنت.

- أنا أشعث أغبر؟

- أي نعم، أنت..

- وهل أنت جميل أغيد.. إن وجهك لأشبه بيضة الغراب، إن كنت أنا أشعث أغبر..

- إنك لكذلك، إن الله قد أصابه بذنوبه، ولعله سيظل طريح فراشه حتى يموت في هدوء، يعني لازم يتدخل فيما لا يعنيه.. لماذا تتدخل يا هذا وتحشر نفسك؟

- أتسألني لماذا.. اسمع إذن، إنني لأوثر أن أنحني لنعل على أن أنحني لكلب، إن أبي الذي ولدني لم ينحن يومًا لمخلوق، وعلمني أن لا.. أن لا..

ولم يسترسل، إذ بادرت نوبة سعال رهيبه لبثت بضع دقائق وهو ينفث دمًا، ولم يلبث العرق البارد من الإعياء أن غمر جبينه الضيق، وأخذ السعال يقطع عليه الكلام ولولاه لاستطرد، حتى ليبدو من عينيه اللهف على مواصلة الزجر والتأنيب، ولكنه اكتفى بالتلويح من يأسه وضعفه، وفي النهاية نسي شيكونوف أمره، كأن لم يزجره زاجر ولم يعترضه معترض.

وشعرت بأن غضب هذا المصدور كان موجهاً لي أكثر منه موجهاً إلى شيكونوف؛ لأن أحداً لا يغضب من مثله، أو يختصه باحتقار لمجرد لهفته على خدمتي وكسب بضع دريهمات، فقد أدرك الكل أنه كان يفعل ذلك للكسب دون شيء سواه؛ لأن معاشر الفلاحين لا يتشددون في هذا الأمر، ولا يتكروهون منه، ويفهمون الفارق كل الفهم، وكنت أنا موضع الغضب، وسبب الغيظ، فقد كرهني الفتى المصدور، وكره الشاي الذي يعد لي، لأنني حتى وأنا مقيد بالأغلال كنت أبدو «سيداً» وألوح كأنني لا أستطيع الاستغناء عن خادم، وإن كنت لم أطلب خادماً ولا رغبت فيه، بل كنت أبداً أوتر أن أفعل كل شيء بنفسي، ولم أشأ خاصة أن أبدو مخلوقاً بليداً مدلاً، أو أترأى بمظاهر السيد وسماته. وهنا يجب أن أعترف، ما دمنا نتكلم في الموضوع، بأن غروري كان إلى حد ما داخلاً في هذا الأمر متصلاً به، ولكني في الحق لست أدري كيف أنني لم أستطع يوماً التخلص من الأعوان والخدم الذين كانوا يتهالكون عليّ، ويتشبثون بي ويستحذون في النهاية عليّ حتى ينقلبوا في الواقع سادتي، وأنا لهم الخادم، وإن بدا فعلاً عليّ أنني «سيد» كأني كنت أترأى كذلك وأتظاهر، ولا أستطيع الاستغناء عن الخدم. وقد غاظني هذا كثيراً بالطبع وكدر خاطري، ولكن «أوستيانتسف» كان مريضاً بالصدر وسريع البادرة، فله العذر، أما الآخرون فقد حرصوا على الظهور بمظهر الاستخفاف، وهو مظهر لم يكن يخلو من ظل احتقار وازدراء، وأذكر أنهم كانوا في شغل شاغل بأمر معين، وأدركت من حديثهم أنهم يرتقبون في المساء سجيناً كان قد سيق به إلى «النتع» ليضرب بالعصا، وكانوا يبدون اهتماماً بمقدمه، وإن قالوا إن العقوبة المقررة عليه خفيفة لا تتجاوز خمسمائة عصا..

وأخذت شيئاً فشيئاً أسكن إلى المحيط الذي نزلت فيه، فتبين لي قدر إمكاني أن الذين كانوا منهم مرضى حقاً يشكون من «الأسقربوط» وأمراض العين وهي فاشية في تلك الربوع، ومن بين نزلاء عنبري فريق منهم، وبين الآخرين من كانوا مصابين بالحمى أو الأمراض الجلدية أو ذات الرئة، ولم يكن الحال في العنبر شبيهاً بما يشاهد في العنابر المألوفة في المستشفيات، بل وضع المرضى بمختلف العلل في صعيد واحد، حتى الذين يشكون الزهري وأشباهه، وأنا أتحدث هنا عن المرضى حقاً؛ لأن هناك أشخاصاً جاءوا بغير علة سوى «طلب الراحة»، وكان الأطباء لا يترددون في قبول «المتمارضين» رثاء منهم وعطفًا، ولا سيما حين يعلمون أن في العنبر سرراً كثيرة خاوية، وكان الحجز في ثكنات الحرس أو السجون مستكرهاً إذا قيس بالمقام في المستشفى، فلا عجب إذا فرح كثير منهم بالمجيء إليه على فرط روائحه الكريهة وأبوابه المؤصدة، بل كان هناك في الواقع خلق منهم، وبخاصة من كتيبة التأديب، يحبون الاستلقاء على سررهم، والاعتكاف في الفراش، والحياة في المستشفى عامة.

وجعلت أنقل عيني في جيرانني باهتمام بالغ، ولكنني أذكر أن واحداً منهم هو الذي أثار فضولي خاصة، وكان قد جاء من سجننا وهو يومئذ محضور من ذات الرئة أيضاً ولم تبق فيه غير أرماق تتردد، وكان يرقد في السرير التالي لسرير «أوستيانسيف»، ويكاد يكون قبالتي، وهو يدعى «مهيلوف» وكنت قد رأيته في السجن منذ أسبوعين، وكان مريضاً مدنفًا من عهد بعيد، وكان أولى به أن يكون تحت إشراف الطبيب من ذلك الحين، ولكنه بعناد وصبر لا موجب لهما مطلقاً تمالك واحتمل، ولم يأت إلى المستشفى إلا في عيد الميلاد ليموت بعد ثلاثة أسابيع من وطأة سل سريع يجري كالحصان جري

«الخبب»، ويأكل بدنه أكلة النار للهشيم، وقد روعني في هذه المرة ما عرا وجهه من تحول مخيف، وكان من الوجوه الأولى التي لاحظتها عند مقامي إلى السجن، وكان قد أخذ عيني يومئذ بشكل ما، وكان يرقد قريباً منه جندي من كتيبة التأديب، وهو شيخ استحوذت عليه عادات قدرة تشير الاشمزاز... وليس في وسعي الآن إلا لأنه ترك في نفسي أثراً من ذلك الحين، وأعطاني في دقيقة واحدة فكرة تامة عن بعض الخواص الغريبة التي تشاهد في عنبر المرضى من السجناء، إذ لا أزال أذكر أن ذلك الشيخ كان مصاباً يومئذ ببرد فلا يكف عن العطس حتى لقد لبث كذلك جملة الأسبوع التالي، حتى في نومه، وإن عطسه ليأتي نوبات كل منها خمس عطسات أو ست متتابعة، وهو في كل لحظة يردد أبداً قوله «يارب، ما هذه المصيبة..» وكان في تلك اللحظة جالساً فوق فراشه يبت بنهم نشوقاً في أنفه من لفافة صغيرة وضعه فيها لكي تأتي عطسته أعنف وأتم، وجعل يعطس في منديل له من القطن غسل مائة مرة حتى نصل لونه أشد النصول، وهو في عطسه يغضن أنفه بشكل غريب غضوناً صغيرة لا عداد لها ويكشف عن بقايا أسنان مسودة قديمة بين فكيه القاطرين الأحمرين، وعندئذ ينشر المنديل ويفحص النخام الذي تلقاه فيه، ويسرع في تلطيخ جلاباب المستشفى به، حتى يبقى المنديل إلى حد ما نظيفاً، وما برح هذا حاله بقية الأسبوع. ولم تثر هذه العناية الملحة الباخلة بمنديله، بتضحية جلاباب المستشفى، احتجاج أحد من المرضى الآخرين، وإن كان من المحتمل أن يرتديه بعده، ولكن معاشر فلاحينا لا تغنى نفوسهم من هذه المناظر ولا يعافونها، ويعوزهم التكره والاستنكاف، ولكنني تأففت عندئذ واشمأززت، ولم يسعني إلا فحص الجلاباب الذي كنت أرتيه في تكره ومخافة، وعندئذ تبين لي أنه كان قد أثار اهتمامي طويلاً من

قبل برائحته القوية، ولكنه الآن وقد دفاً على جسدي لم تلبث رائحة الأدوية واللزقات أن اشتدت شدى، وتفاقت كراهة، حتى بدالي كأنه شيء متعفن متحلل، ولا عجب أن يكون كذلك وقد كان على أجساد المرضى أعواماً لا تحصيلها الذاكرة، وربما غسلت البطانة أحياناً، ولكنني لست من هذا واثقاً، ولكنه في اللحظة الراهنة كان مشبعاً بكل أنواع الإفرازات الكريهة، والغسول والسوائل والمواد المتخلقة من «الحراقات» وما إليها. وأدهى من ذلك أن السجناء الذين تلقوا عقوبات بدنية لم يكن ينقطع فيضهم، وهم قادمون بظهور جريحة فتوضع عليها الرفادات واللفائف، ثم يأتي الجلباب فوق القميص الندي مباشرة فلا ينجو من الالتصاق به، ويعلق به كل ما يقطر من صديد أو دم ينبع أو نحوه.

وقد اعتدت طيلة مقامي في السجن عدة السنين أن لا أردي الجلباب إلا بتخوف وارتياح كلما دخلت المستشفى، وكثيراً ما دخلته. وكان شر ما كرهته منه ونكرته ذلك القمل الكبير السمين الذي كنت أعرّ عليه في تلك الجلايب، وكان السجناء يجدون متعة في قتله، حتى ليستطيع المرء أن يشهد سمات الرضا والغبطة على وجه الصائد وهو يضغطة كلما قنصه تحت سميك ظفره، وكنا نكره البق خاصة كذلك، ونشترك كلنا خلال الليالي الطويلة الموحشة شتاء في إبادة، وكان كل شيء في عنبر المستشفى يبدو نظيفاً في الظاهر بغض النظر عن الروائح الكريهة التي تغمر أفقه، ولكن النظافة من الداخل لم يكن القوم يدققون في توخيها، فقد ألف السجناء ذلك بل قبلوه كشيء طبيعي، والواقع أن التدابير ذاتها المرعية في المستشفى لم تكن تساعد على توافر أسباب النظافة فيه، ولكنني تارك الحديث عنها إلى موضع آخر.

ولم يكد شيكونوف يصنع الشاي - وهنا أفتح قوسًا لأقول: «بالماء الذي كان يجلب إلى العنبر مرة في كل أربع وعشرين ساعة فلا يلبث أن يتأثر بجوه الفاسد» حتى فتح الباب بجلبة، وسبق بالجندي المجلود منذ لحظة إلى الحجرة وعليه حرس مضاعف، وكانت تلك أول مرة شهدت فيها رجلًا عقب الجلد، فقد لبثوا بعدئذ يجيئون إلينا أحيانًا كثيرة بعضهم مصابون بأذى بالغ حتى ليحملوا إلى العنبر حملًا، وكان ذلك دائمًا مثار اهتمام بالغ عند المرضى، فقد اعتاد هؤلاء أن يستقبلوهم بانقباض مبالغ فيه، وتجهم مصطنع، وجد يكاد يكون مفتعلًا، وإن كان استقبالهم رهناً إلى حد ما بمدى جسامه جرائمهم، ومن ثم بعدد العصي التي تلقوها، فالذين ضربوا ضربًا مبرحًا واشتهروا بأنهم من كبار المجرمين يجدون عندهم احترامًا، ويستمتعون لديهم باعتبار وتقدير لا يلقي مثله جندي هارب مثلًا كالذي أدخل علينا في تلك اللحظة، وإن كان المرضى في الحالتين لا يبدون أية ملاحظات تعبر عن رثاء، أو تنم عن انفعال أو هياج خاطر، وإنما يساعدون السجين المجلود في صمت، ويقومون على خدمته، ولا سيما إذا كان بحاجة إلى العون. وكان الممرضون يعرفون أنهم تاركوه في أيدي خبيرة ماهرة، وكان التمريض المطلوب عادة يقتضي المداومة على تغيير الشاش أو القميص بتشريبه الماء البارد، ووضعه على اللحم الممزق من الظهر، وبخاصة إذا كان المريض من الضعف بحيث لا يستطيع عمل شيء لنفسه، وهناك عملية أخرى لا معدى عنها، وهي إخراج ما قد تتركه غالبًا العصي المكسورة من شظايا الخشب ودقائقه، وهو عمل يحتاج إلى خبرة وبراعة، ويحدث في العادة ألمًا شديدًا له، ولشد ما راغني ذلك التجلد العجيب الخارق للمألوف الذي يبديه المجلودون من احتمال آلامهم؛ وقد رأيت خلقًا كثيرًا منهم

وبينهم أفراد مضروبون ضربًا مرعبًا، فلم أشهد أحدًا منهم يئن، ولا رأيت فيهم شاكياً أو متوجعًا، وكل ما هنالك أن تتقلص وجوههم وترتد شاحبة، وتتقد أعينهم، ويلوح عليهم الذهول والقلق، وترجف منهم الشفاه حتى ليعضوها أحيانًا من شدة المضض فتكاد تدمى.

وان الجندي الذي دخل العنبر فتى في الثالثة والعشرين، قوي البناء، مفتول العضل، مليح الوجه طويل العود، حسن الصورة أسمر البشرة، وقد برح به الضرب، وعري الجزء الأعلى من ظهره إلى ما دون الخاصرة؛ وقد وضعت على كتفيه شاشة ندية جعلته يرعش ويرجف كله كالمحموم؛ وظل ساعة ونصف ساعة يذرع العنبر ذهابًا وجيئة، فنظرت إلى وجهه، فخیل لي أنه لم يكن يفكر في شيء، بل كان يرسل من عينيه الذاهلتين نظرات شاردات غريبة فيما حوله، والظاهر أنه كان يحاول بها أن يستقر على شيء، وبدأ لي أنه راح يطيل النظر إلى الشاي الذي أمامي، وكان حارًا يبعث بخارًا، وكان المسكين مقرورًا ينتفض انتفاضًا، ويصرف بأسنانه، فعرضت عليه شيئًا منه، فدار بعينه نحوي صامتًا، فتناول القدح فاشتفه اشتفافًا وهو واقف، ودون أن يضع فيه سكرًا، وفي عجلة بالغة، كأنما يتعمد أن يتجنب النظر في وجهي، ثم وضع القدح في مكانه بغير كلام ولا إطراقة من رأسه لي، بل مضى يذرع العنبر سيرته الأولى، فقد كان في حال تجاوزت حدود الكلام والإطراق.. وأما السجناء فقد تحاموا لسبب ما الكلام معه، بل بالعكس لقد راحوا يعتمدون الإعراض عنه بعد أن أقبلوا أولاً عليه يعاونونه ويرعونونه، ولعلمهم أدركوا أنه من الخير أن يتركوه وحده قدر الإمكان، ولا يزعجوه بالأسئلة وإظهار «العطف» وخیل لي أنه كان راضيًا كل الرضا أن يترك وشأنه.

وبدأت العتمة تدخل وأضيء المصباح، وكان نفر من السجناء قد أوتوا

شموغًا، فلم يكد يمر الطبيب في زورة المساء، ويأتي جاويز الحرس فيعد السجناء، حتى أوصدوا علينا الباب بعد أن أحضروا لنا جردلاً، وقد دهشت حين علمت أنه سيظل قائماً في العنبر الليل كله، وكان المرحاض على قيد خطوتين منا، ولكن اللوائح كانت تمنع السجناء من الخروج ليلاً لأي عذر كان، وإن كان مسموحاً في النهار لمجرد لحظات، فقد كانت عنابر المساجين شيئاً آخر غير العنابر الأخرى، فليتحمل السجين العقوبة حتى في المرض، ولست أعرف من هو الذي كان أول من وضع هذا الأمر في اللائحة، ولكنني أعرف أن ليس ثمة سبب يدعو إليه، ولا حكمة تقتضيه، وحسبي هذه الحالة التي نحن في سبيلها دليلاً على عقم هذه الإجراءات الشكلية وانتفاء جدواها، وليس الأطباء بلا شك مسئولين عن هذا الأمر، فإني أكرر هنا أن ألسنة السجناء لا تكف عن مديحهم لأنهم يعدونهم آباء لهم ويحترمونهم، فقد كان كل منهم يجد من الطبيب رفقا، ويسمع كلمة حانية، ويتلقى معاملة كريمة، فكان المساجين الذين نبذهم الناس عامة، ولفظتهم الجماعة لفظاً، يقدرون ذلك كله؛ لأنهم يشعرون بصدق تلك الكلمات الودية وإخلاصها، ويدركون معنى هذا الفرق ومراده. وكان ممكناً أن يكون الأمر غير ذلك، فلو أن الأطباء سلكوا غير هذا المسلك، وكانوا على المساجين غلاظاً أشداء، لما حاسب الطبيب حسيب، ولا قيل له ما هذا الذي تفعل، ولكن الواقع أن رفقهم إنما يرجع إلى إنسانية صادقة، وهم بالطبع يعرفون أن المريض حتى وإن كان مجرمًا سجينًا، بحاجة إلى هواء نقي كحاجة أي مريض آخر إليه، وإن كان في أعلى المراتب موضعه، وكان المرضى في العنابر الأخرى وأعني بهم الناقهين - كانوا طلقاء أحرارًا يتنقلون في الردهة كما يشاءون، ويسمح لهم بكثير من الرياضة، وينشقون هواء نقيًا غير الهواء الحبيس في العنبر

المشيع حتمًا بالأبخرة الخائفة. وإني لأشعر الساعة بالارتياح والاشمئزاز إذ أتمثل كيف كان جو عنبرنا في الليل ملوثًا كريهاً بعد جلب الجرذل إليه، وفيه مرضى بالدوستاريا وأشباهها. وحين قلت هنا الآن «فليتحمل السجين عقوبته حتى ولو كان مريضاً»، لم أفترض ولا أفترض طبعاً أن هذا الامر إنما وضع لمجرد أن يكون صورة من صور العقاب، فإن هذا الافتراض بالطبع مطعن في واضعيه، ومثلبة في حقهم؛ لأن معاقبة المريض لا جدوى منها ولا فائدة، وإذن يغلب عليّ الظن أن ولادة الأمور وجدوا أنفسهم أمام ضرورة محتومة مكرهين على اتخاذ تدبير كهذا سيئ الأثر، خبيث العقبي. ولكن لعمرى أية ضرورة اقتضته. إنه لمن المؤلم حقاً، والمثير للغضب أن لا يجد الإنسان أي تعليل له، أو يهتدي إلى علة تبرره، أو تعلل وتبرر غيره من الأوامر التي يتعذر على المرء فهم مرادها، أو تعليل الغرض منها، أو حتى التكهن بباعثها، وتخيل دافعها، وكيف تعلل مثل هذه القسوة التي لا فائدة منها؟ قد يقال إن السجين قد يدعي المرض عامداً ليدخل المستشفى، ويخدع الأطباء، فإذا سمح له بمغادرة العنبر ليلاً فقد يلجأ إلى الفرار تحت جناح الظلام، ولكن من المستحيل أن تأخذ هذه الفكرة مأخذ الجد، إذ أين المفر، وكيف الهرب، وفي أي زي أو ثوب، إن المساجين لا يسمح لهم نهائياً بالخروج من المنامة إلا فرادى، فلماذا لا يكون الحال هكذا ليلاً؟.. إن على الباب ديدباناً شاكي السلاح محشوه، ولا يبعد المغسل أكثر من خطوتين منه، ولا يفارق السجين لحظة حارسه، والنافذة المزروجة فيه مغطاة بشباك، والفرار منها يقتضي كسره وتحطيم إطاره، فمن ذا يستبيح ذلك.. ولو فرضنا جواز شيء غير معقول كقتله الديدبان أو لا في سكون، وبلا ضجة ولا صيحة تنبعث منه؛ فلا يزال أمامه كسر النافذة وتحطيم الشباك معاً، ثم لا تنس أن

الممرضين القائمين على خدمة العنبر ينامون عن كذب من الديدبان، وأنه على قيد عشر خطوات منه يقف ديدبان آخر بباب العنبر الثاني المخصص للمساجين، وعلى مقربة منه ينام ممرضوه، وإلى أين لرجل المفر في الشتاء وهو بالجورب والنعل «الشبشب» وجلياب المستشفى وطاقيّة النوم؟.. وإذا كان الأمر كذلك، وكان الخطر يسيراً، بل الواقع ليس ثمة أي خطر، فأى حكمة في وضع قاعدة أو تنبيه كهذا يعنت السجّاء أشدّ العنت، وهم مرضى قد يكونون في الأيام الأخيرة من حياتهم، وإخوان سقام هو أحوج إلى الهواء النقي من السليمين والأصحاء، أية حكمة أملت هذا الأمر، وأية شرعة أو جبهة... لست أدري..

أما وقد بدأنا نسأل عن سر هذا الإجراء وباعثه، فلا نستطيع أن نغضي عن مسألة أخرى ظلت عدة سنين تبدو من أشدّ الحقائق غرابة وأبعثها على الحيرة والتساؤل، ولم اهتمد يوماً إلى حل لها، فلأتناولها هنا ببعض الحديث قبل أن أستطرد في وصفي، وهذه المسألة هي القيد الحديدي الذي لا فكاك للسجين منه، مهما يكن المرض الذي يشكو منه، بل لقد رأيت بعيني رأسي مصدورين ماتوا والأغلال في أيديهم وأرجلهم.. وإن كان كل إنسان قد ألف مشهده وعده حقيقة مقررة لا سبيل إلى تبديلها. وإني لفي شك هل خطرت يوماً ببال أحد، لأنني طيلة السنين التي قضيتها في السجن لم أجد طبيياً واحداً يرفع إلى ولاية الشأن التماساً يرجو فيه فك القيد الحديدي عن المريض إذا اشتدت به العلة، وبخاصة المصدورين منهم. وليست القيود في ذاتها ثقيلة الوزن فادحة، فإن زنتها تتراوح بين ثمانية أرطال واثني عشر رطلاً، فلا ينوء بحملها الرجل السليم، وإن كنت قد نبئت أن ساقى السجين بعد عدة سنوات تأخذان في الوهن من رسفه في الأغلال، ولست أدري هل هذا صحيح أم لا،

وإن كان فيه شيء من الرجحان؛ لأن ثقلًا يسيرًا لا يتجاوز عشرة أرتال من شأنه أن يجعل الساق متخاذلة إلى حد غير مألوف، وقد يحدث بعض الأذى لها بعد فترة طويلة من الزمن. وإذا سلمنا بأنها ليست فادحة للرجل السليم، فهل هي كذلك بالنسبة إلى الرجل المريض؟.. وإذا افترضنا أنها ليست أليمة للمريض العادي، أفليست مرهقة للمريض الذي أمسى في خطر، وللعناة من ذات الرئة الذين تضوى أذرعهم وسوقهم وتتخاذل وتتلاشى قواها على أية حال، حتى لتكون القشة عبئًا على أمثالهم؟.. وإذا وفق الأطباء في فك قيود المسلولين كان ذلك في حد ذاته عملاً عظيمًا في الواقع وإجراءً كريمًا، ورب قائل إن السجين رجل سوء ونكر فلا يستحق الشفقة، ولكن ليس من شك في أنه لا ضرورة لمضاعفة آلام إنسان تناولته يد الله من قبلها بالعقاب، وعبثًا يحاول المرء أن يعتقد أن إبقاء الأغلال على السجين المريض إنما هو العقاب، فإن المسلول معفى من العقوبة البدنية حتى في القانون، فلا معدى لنا إذن من النظر إلى إبقاء الأغلال كوسيلة غريبة خطيرة الشأن للاحتياط والحذر، ولكنني أستطيع أن أتصور سببها أو حكمتها، إذ لا خوف حقًا من فرار المسلول، فمن يحلم بشيء كهذا وخاصة في الأدوار المتقدمة من المرض، أما أن يدعي أحد أنه مريض بالسل ويخدع الأطباء ليلوذ بأذيال الفرار فضرب من المستحيل؛ لأنه مرض لا يمكن أن يدعى، وعله لا يخطئ أحد في كشفها، وما دام الشيء يذكر بالشيء، فهل لي أن أسأل هل يقيد السجناء بالأغلال لمجرد منعهم من الهرب أو تصعيب الفرار عليهم، والجواب كلا يقينًا، فإن الأغلال هي مجرد نوع من التحقير والامتهان والدمغ بميسم العار، بل هي عبء جثماني ومعنوي معًا، أو هذا هو على الأقل المراد منها، فلا يمكن مطلقًا أن تمنع أحدًا من العدو والركض؛ ففي

وسع أقل السجناء براعة وخبرة أن يبردها في سرعة ويسر أو يحطم بحجر مسمارها، فليست الأغلال إذن حائلًا مطلقًا، وإذا كان سر قيد السجين بها هو مجرد إنزال عقوبة به، فدعوني أسأل مرة أخرى هل يسوغ أن نعاقب المحضور الذي يجود بأنفاسه الأخيرة، على هذه الصورة...

وإني لأتمثل الساعة وأنا أكتب هذه السطور ميتة مهيلوف المصدور الذي كان فراشه قريبًا من فراشي، وغير بعيد من مرقد أوستياتنسف، فقد قضى نحبه على ما أذكر بعد أربعة أيام من دخولي المستشفى؛ ولعلي ذكرت المسلولين فيما أسلفته عليك لأنني تذكرت بغير قصد الصور والأفكار التي جالت بخاطري على مشهد ميتة ذلك المسكين، وإن كنت لا أعرف شيئًا كثيرًا عنه، فقد كان فتى في ريعان العمر، لم يتجاوز الخامسة والعشرين فارح العود ناحل البدن جذاب الملامح إلى حد بعيد؛ وكان سجينًا في «القسم الخاص» وصموتًا بشكل غريب، كئيبيًا كآبة ملازمة رفيقة هادئة، كأنما كان «يجف» في السجن و«ينضب» على حد تعبير السجناء عنه، وقد ترك فيهم من بعده ذكرى طيبة، ولست أذكر إلا أنه كان ذا عينين جميلتين، ولست أدري في الحق لماذا تعاود صورته خاطري بكل هذا الوضوح والجلاء، فقد مات في الساعة الثالثة بعد ظهر يوم مشرق شديد الصقيع، ولا أزال أذكر أشعة الشمس المتوهجة المائلة إلى المغرب وهي تنفذ من ألواح النوافذ الزجاجية الخضراء في عنبرنا، وقد تدفقت واستقرت على وجه المحضور وصفحته الذابلة، وكان في غيبوبة ولبث في سكرات الموت عدة ساعات، فلم يكن من بكرة النهار يميز وجوه الذين يروحون إليه ويغدون، ولقد ود المرضى الآخرون لو أنهم قدروا على شيء له، وقد رأوا المنية تنشب فيه أظفارها، وشهدوا أنفاسه العميقة الأليمة المتحشجة في صدره، وقد

جعل يعلو ويصعد كأنما لم يعد يستطيع تنفسًا، ومضى يطرح عنه الغطاء والثياب، وبدأ أخيرًا يمزق القميص؛ كأنه أمسى لا يطيقه، فبادر المرضى إليه ينضّوه عنه؛ وكان مشهده مرعبًا؛ ولم يبق منه إلا بدن أعجف مستطيل، وذراعان معروفتان، وساقان كعظم على وضم؛ وهوى بطنه وغار، وتطبق صدره، ونتاجت ضلوعه، فأصبح هيكلاً من عظام، وليس على بدنه غير صليب خشبي، وكيس صغير يحوي بعض المخلفات، وغير أغلاله التي بدت كأنها منفلثة من ساقيه الذابلتين، وقبل مماته بنصف ساعة غمر العنبر سكون رهيب، وبدأنا نتكلم همسًا، ولا نكاد ننس نبسًا، ومضى كل واحد منا يتحرك ويتنقل في خفة ورفق؛ حتى لا يحدث خطوه صوتًا، ولم يكثر المرضى من الحديث، وكل ما كان يدور الكلام بينهم حول أشياء أخرى، وإنما جعلوا بين لحظة وأخرى يلقون بنظرات إلى المريض المحتضر الذي بدأت زفراته تزداد تقطعًا وتشتد رهبة؛ وإذا به أخيرًا يتحسس بيد ضالة هائمة غير مستقرة الصليب الملقى على صدره، ويأخذ في انتزاعه، حتى لكأنه هو أيضًا عبء مرهق لا قبل له بحمله، فتقدم المرضى إليه فانتزعوه أيضًا، ولم تنقض عشر دقائق أخرى حتى فاضت روحه، فدقوا الباب للديدبان وأبلغوه النبأ، وجاء عليه ممرض فنظر إلى الميت نظرة فارغة، ومضى في طلب أحد أعوان الطبيب ومساعديه، وما لبث أن أقبل، وهو يلوح شابًا سليم الطوية مشغولًا إلى حد الإسراف والغلو بسمته ومظهره الأخاذ الرشيق، ودلف إلى المبيت بخطى سراع أحدثت بعض الضوضاء في العنبر الصامت الرهيب، وبحركة مستخفة لا اكتراث فيها، وكأنما اتخذها لهذا الظرف خاصة، تناول معصمه، وجس نبضه، وانصرف ملوحًا في الفضاء بيده، وأبلغ الجاويش النبأ، وكان المجرم إنسان خطير الشأن لا يصح الإقرار بوفاته دون احتفال

خاص. وفيما كنا ننتظر الجاويش اقترح أحدنا بصوت خافت أن نتولى إغماض عينيهِ، وأصغى زميل له باهتمام بالغ إلى مقترحه، ثم تقدم بلا كلام ولا تردد نحو المبيت فأطبق أجنانه، ولمح الصليب مطروحاً فوق الوسادة فتناوله ونظر إليه، ثم طوق عنقي ميهيلوف به كما كان من قبل، ثم رسم علامة الصليب على صدره. وكان الوجه الميت في تلك اللحظة قد بدأ يتصلب وضيء الشمس يخطف عليه، والفم نصف مفتوح، كاشف عن صفين من أسنان بيض براقه تلتمع من خلال شفيتين ناحلتين محترقتين.

وأخيراً أقبل الجاويش في خوذة، ويحمل سيفاً ويتبعه حارسان وتقدم متمهلاً في خطوه كلما اقترب، مرسلًا نظرة حيرة إلى السجناء الصامتين الذين يتطلعون إليه بوحشة ورهب من كل ناحية، حتى إذا أمسى من سرير الموت على قيد خطوة وقف جامدًا لا يريم، كأنما قد فزع من المشهد وأجفل من رؤية الجثمان الضاوي العاري لم يبق عليه إلا أغلاله وأصفاده، وانثنى فجأة يفك حزام سيفه وحمائله، ويرفع الخوذة عن رأسه، وهو عمل ليس مطلوباً منه، وكان الرجل جهم السحنة، أشيب طال بالخدمة العسكرية عهده، ولا أزال أذكر وقفة شيكونوف وهو أشيب كذلك على مقربة من الميت محملاً النظر طويلاً في وجه الجاويش مراقباً بكل انتباه حركاته وسكناته في صمت، ولكن أعينهما تلاقت وإذا بشفة شيكونوف الدنيا ترتجف، ثم إذا به يلويها في ابتسامة صامتة وهو يومئ في سرعة أو على كره إلى الميت، قائلاً للجاويش: - لقد كان له هو أيضاً أم...

وإذا به يتولى عنه وهو يشيح بوجهه.

ولا أزال أذكر كيف نفذت هذه الكلمات في فؤادي وكيف مضيت أتساءل ما الذي دفعه إلى قولها وما الذي أثارها في خاطره..

وبدأ القوم يحملون الرفات، والسرير أيضاً؛ وانبعث من النعش
المحمول حفيف، ورنّت الأغلال وهي تتهاوى إلى الأرض في ذلك العنبر
الصامت الرهيب فالتقطوها وأخرجوا الجثمان، وبدأ المرضى يتكلمون
فجأة بأصوات مرتفعة، وسمعنا صوت الجاويش في الردهة وهو يأمر
بعضهم بالذهاب إلى الحداد ليفك القيد من جثة الميت الخامد.
ولكن يخيّل إليّ أنني «شطحت»...

الفصل الثاني المستشفى

وجاء الأطباء يطوفون في الصباح مطافهم، وجاءوا إلى عنبرنا جميعًا بين العاشرة والحادية عشرة، وعلى رأسهم كبيرهم، وكان الطبيب الموكل بهذا العنبر يأتي قبل هذا الموعد بساعة ونصف ساعة لزيارتنا، وكان طبيينا في ذلك الحين شابًا ودودًا رقيقًا الرفق كله، حتى أحبه السجناء، ولم يجدوا فيه عيبًا إلا أنه «رقيق» أو «لين» أكثر مما ينبغي. والواقع أنه لم يكن طلق اللسان، متكلمًا، بل يبدو قلقًا مضطربًا حيالنا، ويكاد يحمر خجلًا، ويغير غذاء المريض عند أول التماس منه، وأعتقد أنه لم يكن ليتردد في وصف الأدوية التي تروق أخيلتهم إذا هم سألوه تغييرها، ولكنه مع ذلك كان فتى رائعًا خليقًا بالإعجاب.

وقد يقال إن خلقًا كثيرًا من الأطباء في روسيا يستمتعون بحب الفلاحين واحترامهم، وهذا صحيح تمامًا فيما أعلم، وقد مر رأيت وشاهدت، وأعرف أن كلماتي هذه ستبدو من قبيل «المفارقات» إذا راعينا ترتيب الناس عامة

في هذه البلاد بالأدوية والعقاقير الأجنبية، وقد نشهد الفلاح حتى في المرض الشديد لا يكف السنين الطوال عن استشارة امرأة حكيمة أو تناول الوصفات البلدية التي لا يصح مطلقاً أن نحتقرها أو نستهين بها، مفضلاً ذلك كله على الذهاب إلى طبيب، أو دخول مستشفى، ولكن في هذا الشعور عنصراً بالغ الأهمية لا صلة له بالطب ولا علاقة له بالدواء، ونعني به الارتباب العام الذي يحسه الفلاحون بكل شيء يحمل الطابع الحكومي، فضلاً عن خوفهم من المستشفيات، وقيام فكرة سيئة عنها في تصوراتهم بسبب القصص الرهيبة التي تروى عنها، والأحاديث المرعبة عما يجري فيها، وهي أفاصيص وأحاديث في الغالب غير معقولة، وإن لم تخل أحياناً من صحة. ولكن أخوف ما يخافونه هو النظام أو «الروتين» الألماني المرعي في المستشفى، ووجود غرباء وأجانب حولهم طيلة اعتقالهم، والأوامر الشديدة فيما يتصل بغذائهم، والحكايات التي تروى لهم عن قسوة المرضى والأطباء، وفتح بطون الموتى وتشريح جثثهم وما إليها؛ وقد رأينا الناس أيضاً يقولون في محتجتهم إنهم لا يرتضون العلاج إلا على أيدي «السادات» لأن الأطباء هم على كل حال كذلك، ولكن سرعان ما تزول كل هذه المخاوف، وتتلاشى كل هذه المفازع حين يألّفون الأطباء، وتتوثق بهم الصلات. وإن كان الأمر طبعاً لا يخلو من شذوذ - وهو أمر يقطع بفضل أطبائنا وهم في الجملة شبان - فإن جمهرتهم تعرف كيف تكسب احترام أفراد الشعب وتظفر بمحبتهم، وأنا على كل حال أكتب عما شاهدته بنفسي، وخبرته مراراً وفي عدة جهات، وليس هناك من سبب يحملني على القول بأن الأمر يختلف في جهات أخرى. وقد يكون بين معاشر الأطباء أفراد هنا وهناك يتقبلون الرشى، ويغنون كثيراً من مستشفياتهم، ويكادون يهملون مرضاهم كل الإهمال،

حتى ينسوا كل ما تعلموه. والواقع أن هناك فريقاً من هذا القبيل إلى الآن. ولكني إنما أتحدث عن الجمهرة، أو قل عن المنزع العام، والروح التي تسود مهنة الطب في أيامنا هذه. ومهما يمكن أن يقال في الدفاع عن هؤلاء القتلة، أو الذئاب في ثياب الحملان، ومهما ينسب المرء هذه المناقض إلى «البيئة» مثلاً باعتبارهم فريساتها هم كذلك وضحاياها، فلن يخليهم أحد أبداً من اللائمة، ولا يمكن تبرئتهم من الجريمة، وعلى الأخص إذا بدوا أيضاً خلاء من «البشرية». فإن البشرية والرحمة والعطف الأخوي هي أجدى أحياناً وأنفع للمرضى من الأدوية والأشافي. وقد آن لنا أن نكف عن الشكاوى والتذمر من أن مرد فسادنا إلى البيئة؛ ولست أنكر أن البيئة تفسد فعلاً الشيء الكثير فينا، ولكنها لا تفسد كل شيء؛ وكثيراً ما يستطيع الرجل السيئ الطالع بالحدق والمعرفة، ولا سيما إذا كان منطقياً فصيح القول، أو كاتباً مجيداً، أن يخفي ضعفه، وأحياناً كثيرة، حقارته الحقيقية ومهاتته، متشفعاً لها بتأثير «بيئته» أو المحيط الذي يعيش فيه.

ولكني عدت أخرج عن موضوعي، وما أردت بذلك كله إلا أن أقول إن الريبة والنفور اللذين يستشعرهما الفلاحون موجهان إلى الإدارة الطبية ذاتها، لا إلى الأطباء أنفسهم، فلا يكاد الفلاح يتبين حقيقتهم حتى يزول كل ما كان يعتمل في نفسه من شعور نافر، وريبة قديمة، ولا تزال التدابير العامة في مستشفياتنا غير منسجمة من عدة وجوه مع الروح القومية، ولا يزال «الروتين» فيها متعارضاً وعادات الشعب ونواحي إيلافه، ولا يراعى في وضعها وجوب كسب ثقته كاملة واحترامه، أو هكذا يبدو لي من بعض مشاهداتي الخاصة وتجاريبي.

وكان من عادة طبيب العنبر أن يقف أمام كل مريض، فيفحصه ويسأله

باهتمام عن حاله، ويصف له الدواء، ويعين له الغذاء، وقد يفتن أحياناً إلى سلامته من المرض، ولكن ما دام قد جاء ليستريح من العمل ويرقد فوق مرتبة بدلاً من الرقاد فوق ألواح من الخشب، وفي غرفة دافئة بدلاً من محبس رطب، مع حشد حاشد من المحابيس الصفرة الوجوه الذابلي الأبدان الذين يتركون طويلاً في انتظار المحاكمة، والمعروف أن هؤلاء المحابيس المحتجزين هم أبداً، في جميع أنحاء روسيا وربوعها، يلوحون أبداً صفرة الوجوه ذابلين، وهو عارض يوحي قطعاً بأنهم أسوأ أبداناً وأرواحاً من السجناء الذين صدرت الأحكام فعلاً عليهم، أقول ما دام الأمر كذلك فلا يني الطبيب الموكل بعبرنا أن يكتب إزاء أسمائهم في الدفتر، وهو هادئ مطمئن البال، إنهم يشكون من «نزلة مصحوبة بحمى»، وقد يدعهم أحياناً يقيمون أسبوعاً أو نحوه، وكنا جميعاً نضحك من هذه العلة المزعومة، ونعرف حق المعرفة أن هذه العبارة بيننا وبين الطبيب، مقبولة كبديل من عبارة أخرى، ونعني بها «التمارض» أو «الأوجاع الحادة»، وهي ترجمة السجناء لتلك الصيغة التي يلجأ الطبيب إليها. وقد يستغل المريض أحياناً طيبة قلب الطبيب فيطيل البقاء حتى يرغم على الخروج إرغاماً. وكان بودي لو أنك رأيت عندئذ طبيينا، إذن لألفيته خجلان مستحيين وهو يقول له صراحة إنه يجب «أن يشد حيله» ويعجل بطلب الخروج، مع أن له كل الحق في إخراجه، بأن يكتب في صفحة مرضه «غير مريض» بلا كلام ولا مداجاة، ولكنه ألف أن يلمح له أولاً مجرد تلميح، وأن يحاول بعدئذ إقناعه بقوله: «ألم ينته وقتك، إنك تكاد تكون معافى متماثلاً، وأنت عارف أن العنبر مزحوم» وما إلى هذه العبارات وأمثالها، إلى أن يبدأ المريض نفسه يخجل ويطلب الخروج من تلقاء ذاته، ولكن كبير الأطباء، وهو إنساني أيضاً ونزيه،

ومحبوب من المساجين كذلك، كان أكثر جدًّا وأقوى إرادة من طبيب العنبر، ولا يتردد أحيانًا في إظهار شيء من القسوة والشدّة. وكانت شدّته هي التي تثير بنوع خاص احترامنا له. وكان يأتي مصطحبًا جميع أعوانه ومساعديه فيفحص كل مريض أيضًا على حدة، وبطيل الوقوف بمن كانت العلة مشدّدة به، ولا يتركه بغير كلمة كريمة مشجعة منبعثة في الغالب عن إحساس صادق، مما كان يحدث أطيّب الأثر في النفوس عامة. والذين يدخلون المستشفى بدعوى أنهم يشكون من «أوجاع حادة» كما أسلفنا، لا يرفضهم مطلقًا ولا يردهم أبدًا إلى السجن، ولكن إذا تبين له أن المريض «صفيق» أو ملح على البقاء، أمر بإخراجه قائلاً له: «يا أخي، لقد قضيت هنا وقتًا كافيًا واسترحت، وقد حان أن تذهب حتى لا تكون ضيفًا ثقیلاً» وكان هؤلاء الذين يأبون إلا البقاء إما سجناء بلداء مكاسيل يريدون الهرب من الشغل، ولا سيما في الصيف حين يطول النهار، أو مساجين ينتظرون تنفيذ عقوبة بدنية فيهم؛ ولا أزال أذكر حالة خاصة اضطّر فيها الطبيب إلى استخدام الشدّة بل القسوة لحمل السجين على الخروج، فقد جاء يشكو رمدًا، وكانت عيناه حمرًا وبنين، وجعل يقول إنه يشعر بألم حاد فيهما، فعولج بالحراقات، والدود العالق، وقطرات من سائل آكل للرمد، ولكن العلة لازمت، والعينان لم تتحسنا حتى فطن المعالجون شيئًا فشيئًا إلى أن العلة ليست صحيحة بل ادعاء، فقد ظلّ الالتهاب خفيًّا لا يتحسن ولا يزداد سوءًا بل بقي على حالته، فبدأ الأطباء يرتابون، وكان السجناء قد عرفوا من قبل أنه كان مدعيًّا مضللًّا، وإن لم يعترف هو أو يقر بأن الأمر كذلك، وكان هذا السجين شابًّا حسن الملامح حقًّا وإن أحس السجناء جميعًا نفورًا منه، فقد أعرض عنهم متحفظًا متشككًا مرتابًا، ولم يكن يكلم منهم أحدًا، ولبث بمنأى عنهم وفي عينيه نظرات

وعيد، كأنه منهم المتوجس، ولا أزال أذكر أن بعضهم خطر له أن الفتى قد يأتي أمرًا فريًا، أو يحدث في العنبر حدثًا، فقد كان جنديًا وتبين أنه لص كبير فحكم عليه بألف عصا والسجن في القسم العسكري، وقد ذكرت من قبل أن السجناء حين يريدون تأجيل التنفيذ يلجأون أحيانًا إلى وسائل رهيبة كقطع ضابط أو سجين من زملائه بمديّة أو سكين فيساقون إلى محاكمة جديدة، ويؤجل تنفيذ العقوبة شهرين أو نحوها، فيتحقق لهم الغرض الذي يرمون إليه، ولا يهتمهم أن العقاب سيكون بعد الشهرين مضاعفًا أو ثلاثة أضعاف، ما دام كل همهم أن تؤجل اللحظة الرهيبة ولو بضعة أيام بأي ثمن، فانظر إلى أي حد يصل التهالك النفسي عند أولئك المساكين!

وتهامس فريق من السجناء فيما بينهم قائلين: إننا يجب أن نأخذ من هذا الرجل حذرنا، فقد يفتك بأحد منا ليلاً، وإن كان هذا التخوف منه لا يتعدى الكلام؛ لأن أحدًا منا لم يتخذ حيلة حتى الذين كانوا ينامون بقربه، وإن تبين لهم أنه جعل يدعك عينيه ليلاً بالجير الذي ينتزعه من الجدار، أو بشيء سواه حتى تبدو حمراوين ملتهبتين في الصباح التالي، مما جعل الطبيب يهدده أخيرًا باستخدام «الخزام» فقد ألف الأطباء حين تخيب معهم كل حيلة طبية في معالجة الأمراض الرمدية الملحة أن يلجأوا في سبيل المحافظة على البصر إلى علاج عنيف أليم، وهو أن يخزموا المريض كما يخزم الحصان تمامًا.

ولكن هذا المسكين أبى البرء، فقد كان مفرطًا في العناد، أو لعله مفرط في الجبن، فقد يكون «الخزام» أهون من الضرب بالعصا وإن كان مثله أليماً، وطريقته أن يمسك جلد المريض خلف الرقبة على قدر ما يتيسر مطه باليد، ثم وخزه بمديّة لإحداث جرح ناجل في القفا، وإدخال فتيل فيه بعرض

الأصعب، ثم جذبه في ساعة معينة كل يوم حتى ينفث الجرح مرة أخرى لكي يظل غير مندمل، وقد لبث المسكين عدة أيام يحتمل هذا التعذيب بعناد، ويقاسي ما يصحبه من ألم شنيع، وأخيرًا رضي الخروج، ولم تلبث عيناه أن برأتا في يوم واحد، وما كاد جرح القفا يلتئم حتى ذهب إلى الحجز ليتلقى ألف ضربة بالعصا.

وليس من شك في أن اللحظة التي تسبق العقاب رهيبة كل الرهبة، حتى لقد أخطأت في وصف الخوف منها بأنه جبانة أو ضعف نفسي، وكيف لا يكون كذلك، ونحن نراهم يرتضون العذاب ضعفين أو ثلاثة أضعاف لمجرد تجنب مواجهته مرة واحدة والانتفاء منه، وقد قلت من قبل إن هناك أشخاصًا يطلبون الخروج من المستشفى قبل أن تبرأ ظهورهم كل البرء من الجلد الأول ليتلقوا بقية العقوبة ويتخلصوا منها وشيكًا. وأكبر الظن أن الأيام التي تقضى في الحجز ارتقَابًا للعقاب أسوأ وأمر من حياة السجن كلها، ولكن إيلاف الضربات واللكمات والعقوبات على مر السنين بغض النظر عن اختلاف الأمزجة، وتباين النفوس، لا يزال كبير الأثر في مدى احتمال فريق منهم وتجلده واستخفافه. والظاهر أن الذين اعتادوا هذه العقوبة قد قست منهم القلوب والظهور، فأصبحوا في النهاية ينظرون إليها نظرتهم إلى شيء متعب ولكن تافه، فيزول كل خوف منها في نفوسهم، وهذا في الجملة صحيح. وقد روى لي أحد السجناء في القسم الخاص وهو «قلمق» كان يدعى في السجن «أليكسندر» أو «إسكندرة»، وهو رجل غريب أخو مكر لا يخاف شيئًا، وإن كان في الوقت ذاته لين العريكة طيبًا، كيف احتمل أربعة آلاف عصا، وكان وهو يروي القصة لي يضحك ويمزح، وإن أقسم جادًا أنه لولا اعتياده من عهد الطفولة الاستهداف للسطو حتى لم يكن ظهره يبرأ يومًا

من الندوب والقروح طيلة مقامه في القبيلة التي ينتمي إليها، لما استطاع يوماً احتمال هذه العقوبة، كأنما كان يحمد للنشأة الأولى تحت السياط فضلها فيما اكتسب من صبر وتجلد.

ومضى يقول لي في ذات مساء وهو جالس فوق فراشي قبل أن نضاء القناديل: «لقد كنت أضرب لأي سبب يا أليكسندر بتروفتش، بل لغير ما سبب أيضاً، لقد ظللت أضرب خمسة عشر عاماً متوالية، على ما أذكر، عدة مرات في اليوم الواحد، وكان يضربني كل من يشاء ضربي حتى ألفت الضرب كل الإيلاف».

ولست أدري كيف أصبح جندياً، ولعلي سمعت ذلك منه، ولكنني لست أذكر ما قال، وكان كثير الفرار من الجندية، والهيمان على وجهه حتى لكأن الهرب عنده داء «مزمن»؛ وكل ما بقي في ذاكرتي من قصته هو كيف ارتاع أشد الارتياح حين حكم عليه بأربعة آلاف عصا لقتله قائده الأعلى.

فقد ذهب يقول: «لقد كنت أعرف أنهم سيعاقبونني عقاباً شديداً، وأنني قد لا أخرج منه حياً، ولئن كنت قد اعتدت السياط فلم تكن أربعة آلاف عصا «مزاحاً»، فضلاً عن غضب الضباط كلهم مني وشدة حقنهم عليّ، لقد كنت على يقين أنني لن أجتاز هذه المحنة، ولن أقوى على احتمالها، ولن أعيش بعدها، فبدأت أولاً بتعميدي واتخاذ اسم مسيحي أنادى به لعلهم بذلك صافحون عني، ولئن قال لي الزملاء إن ذلك لن يجدي ولن يغفر لي، فقد رأيت أن أحاول، لعل الرحمة تأخذهم بأخ لهم في الدين، وفعلًا عمدوني، ويوم التعميد سموني «أليكسندر»، ولكن بقيت مسألة الضرب بالعصا، فلم ينقصوها ولا عصا واحدة، فساءني ذلك منهم وقلت لنفسي: «انتظروا قليلاً لسوف ترونني ندًا لكم جميعاً» فهل تتصور يا أليكسندر بتروفتش أنني فعلاً

أثبت أنني ند لهم؟ فقد عرفت كيف أترأى كأني مت، لا كأني مت تمامًا، ولكن كأني على وشك الموت، فقد سيق بي إلى التنفيذ من بين الصفوف لأتلقى الألف الأولى، فأوجعني وصرخت، ثم أعدت لأتلقى الألف الثانية، فظننت أنني ميت لا محالة، وما زالوا يضربوني حتى أفقدوني الشعور كله، وتخاذلت ساقي فسقطت فوق الأرض، وانطفأ نور الحياة في عيني، وارتد وجهي مزرقًا، وانقطع تنفسي، وظهر الزبد على فمي، فاحتملوني إلى المستشفى فانتعشت في الحال، ثم سيق بي مرتين آخرين، وكانوا غضابًا مني أيضًا، وفي حنق شديد عليّ، ولكنني عدت فخدعتهم مرتين كذلك، وكنت في المرة الثانية أبدو أشبه بميت بعد الألف، ولكن حين بدأوا الألف الرابعة كانت كل ضربة كسكين في قلبي، وراح ألم كل ضربة كأنه ألم ثلاث ضربات، لقد كانوا وحوشًا عليّ، ألا لعنة الله على تلك الألف الأخيرة، فقد كانت أسوأ من الثلاثة الآلاف مجتمعة، ولولا أنني مت قبيل النهاية إذ لم يبق غير مائتين لمضوا في ضربي حتى المنية، لولا أنني لعبت دوري، فغششتهم مرة أخرى ومثلت الموت أدق تمثيل فأنخدعوا، وهل كانوا يملكون شيئًا آخر، لقد اعتقد الطبيب أنني مت فضربوني المائتين الباقيتين بكل ما استطاعوا من حنق وكمد، ضربوني المائتين بأقصى من ضربهم الألفين، ولكن لا تخف لم يقتلوني، ولماذا لم يفعلوا؟ ذلك لأنني نشأت من الطفولة تحت السوط، وهأنذا حي إلى اليوم! أواه... لقد ضربت وشبعت ضربًا في حياتي، وكانت هذه العبارة الأخيرة في نهاية قصته نوعًا من التأسّي، والحداد على الماضي، والشroud مع ذكرياته، وكأنما راح يعيدها إلى الذاكرة، ويعد المرات التي ضرب فيها، ولكنه استدرك قائلاً بعد صمت قصير: «عبدًا أحاول أن أعد المرات التي ضربت فيها، وكيف يتواتى لي حسابها وإحصاؤها،

إنها تفوق العد والحصر!»، ونظر إليّ واستضحك بكل سلامة نية حتى لم يسعني إلا الابتسام استجابة لضحكه، وعاد يقول: «هل تعرف يا أليكسندر بترفنش أنني كلما حلمت في الليل أراني في المنام مجلودًا أو مضروبًا، هذا هو حلمي الدائم، وليس لي غيره أحلامًا» وكان في أغلب الليالي فعلاً يتصايح ويصرخ فيوقظ السجناء الآخرين من حلاوة نومهم، فيلكزونه لينهوه قائلين: «لماذا تصيح هكذا أيها الشيطان؟» وكان قصير القامة قوي البناء، يبلغ الخامسة والأربعين، وقد أوتي روح الدعابة، وغلب عليه القلق وكثرة الحركة، وكانت صلته بالآخرين طيبة، ولئن كان مولعًا بالسرقة وكثيرًا ما كنا نضربه عليها، فقد كان الكل يسرق، وكان الكل على السرقة مضروبًا.

وأحب أن أضيف هنا نقطة أخرى...

فقد كنت أدهش دائمًا للطيبة الخارقة للمألوف، وسلامة النية العجيبة في غير حقد أو نعمة، تلك السلامة التي كان أولئك الضحايا جميعًا يتحدثون بها ويروون قصة ضربهم بالعصا، ويذكرون الذين ضربوهم، فلم تكن رواياتهم وأحاديثهم تحوي أدنى أثر لضغن أو كراهية، وإن كانت تقبض صدري، وتعتصر قلبي، ويشند لها وجيبي، وأما هم فكانوا يروونها ويضحكون كالأطفال..

فقد مضى م... مثلًا يصف لي كيف جرت عقوبته، فقال إنه تلقى خمسمائة عصا، وأنه لم يكن من الطبقة «المتأزة»، وكنت قد سمعت ذلك من سجناء آخرين، وسألته جلية الخبر، فقال في شيء من الاختصار كأنما أحس ألمًا دفينًا، لما أثرته في نفسه بسؤاله، وخيل لي أنه كان يتحامى النظر إليّ، وأن وجهه احمر، وحين عاد ينظر إليّ بعد لحظة رأيت في عينيه بريق كراهية شديدة، وكانت شفاته ترتعشان من الحنق، فأدركت أنه لن ينسى تلك

الصفحة من ماضيه في يوم من الأيام.

ولكن يكاد جميع السجناء - ولا أقول «كلهم» قطعاً لأنني لست ضامناً خلو الأمر من الاستثناء - ينظرون إلى هذه المسألة نظرات مختلفة، ويرون فيها غير هذا الرأي، وكان يبدو لي أحياناً أنه لا يمكن أن يعدوا أنفسهم مدانين مستحقين للعقاب، وخاصة إذا كانت جرائمهم تتصل بأحد من أهل النفوذ وأرباب السلطان، لا ضد أحد من أفراد طبقتهم، أو إنسان من وأئهم وقبيلهم، ولم تكن جمهرتهم تستشعر لائحة مطلقاً ولا تقر بتبعة؛ وقد سبق لي أن قلت إنني لم أشهد أمارات أسف أو ندامة على أحد منهم، حتى وإن كانت الجريمة ضد فرد من أمثالهم، أما الجرائم التي تتعلق بالعدوان على الضباط المشرفين عليهم فلم يكونوا يعدونها بتاتاً، حتى ليخيل لي أحياناً أن لهم في هذا النوع من الجرائم وجهة نظر خاصة، ورأياً عملياً ثابتاً، وهو أنها من صنع القدر، وأنها محتومة لم يكن ثمة سبيل إلى تجنبها أو تحاميها، وأنها لم ترتكب عن عمد أو سبق الإصرار، بل وقعت بغير وعي أو إرادة. ولئن كان السجين ينزع في الغالب إلى تبرير أية جريمة ضد الضباط أو ولاة الأمر عامة بحيث لا يعود يسائل خاطره متشككاً في موقفه منها، فلا يزال من الوجهة العملية يعترف بأن ولاة الشأن يتخذون فيها رأياً مختلفاً عن رأيه ولذلك تجب عقوبته، وما دام قد عوقب فقد صفيت المسألة بينهم وبينه، لا عليه ولا له، فهو إذن صراع بين الفريقين. أما من ناحية أهل طبقتهم، فهو يعرف ولا يشك في أنهم في حكمهم على جريمته سوف يبرئونه، وأنهم لن يدينوه أبداً، بل أغلب الظن أن البراءة التامة عندهم محققة، ما دامت الجريمة غير متصلة بأمثاله وإخوانه ومعاشر الفلاحين من أهله وبني جلدته، فهو مستريح الضمير، ومتى استراح ضميره فهو القوي المطمئن الهادئ النفس، وهذا هو

أهم شيء؛ لأنه يشعر حينئذ بأن لديه شيئاً يستند إليه، فلا يشعر بحقد وإنما ينظر إلى ما جرى كأنه أمر لم يكن له منه مفر، وأنه لم يكن به البادئ ولا كان فيه المنتهي، بل هو أمر سيستمر على مر الأجيال كمظهر عداء سلبي، وكرهية قديمة مستمرة، فإن الجندي الروسي مثلاً لا يكره الجندي التركي الذي يحاربه، ولكن التركي لا يتردد في طعنه، ولا ينثني لحظة عن مهاجمته أو قتله.

ولكن الروايات التي سمعتها لم تكن كلها مع ذلك تدل على هذا الاستخفاف ذاته، ولا توحى بهذه الاستهانة عينا، فقد سمعتهم يتحدثون مثلاً عن الضابط «زريبانتكوف» بشيء من الحق، وإن لم يكن الشعور في هذه الحالة قوياً، وكنت قد عرفت هذا الضابط وأنا في المستشفى لأول عهدي بدخوله من روايات السجناء عنه، ثم لقيته بعد ذلك حين كان يعمل في السجن، فكان يبدو فارح القدر، في الثلاثين من العمر بديناً لحيماً محمر الوجنتين رجراجهما، وله أسنان ناصعة وضحكته صخابة كتوزديروف^(١)، وإن المرء ليتبين من وجهه أنه رجل لا يفكر في شيء، وكان مولعاً بالجلد خاصة، مغرماً بضرب العصا حين يعين للملاحظة والإشراف، ولا يفوتني أن أقول إنني كنت أنظر إليه نظرتي إلى «غول» أو وحش بشع، وهذا هو أيضاً رأي السجناء أنفسهم فيه، وكان هناك في الماضي القريب الذي لا تزال تقاليد حية في الذاكرات، وإن كان من المشقة على المرء أن يؤمن بها، ضباط صادقو الرغبة في تأدية واجباتهم بنزاهة وحمية، ولكنهم كانوا يؤدونها عادة ببساطة وسلامة قلب، دون إقبال عليها، أو الشعور بلذة منها أو استساغة لمذاقها، ولكن الضابط زريبانتكوف كان يجد لذة متناهية في إنزال العقاب

(١) شخصية معروفة في رواية «الأرواح المبيتة» التي وضعها الروائي الروسي جوجول.

بالناس، وكان مولعًا بفن العقاب كل الولوع، حتى لكانها شهوة محتدمة فيه، وكان يحبه كأنه فن من الفنون، يستمتع به ويخترع مختلف الأساليب بسبيله، كما كان يفعل الأشراف الإباحيون القدامى في الدولة الرومانية، وبيتدع الحيل الشاذة لإثارة نفسه الهامدة وتهيجها.

وكان السجين يساق للعقاب، وهو الضابط المشرف على التنفيذ، فلا يكاد يرى مشهد الصفوف المستطيلة من الجنود الرافعي العصي في أيديهم استعدادًا للضرب، حتى يحس بشيء كالوحي، وهزة كالإلهام، فيمر بالصفوف راضيًا مستريح الخاطر، ويكرر عليهم الأمر بأن يؤدوا الواجب المفروض عليهم بذمة وأمانة، وإلا... ولم يكن الجنود بحاجة إلى تعريفهم معنى «وإلا» هذه؛ وإذا كان السجين المسوق إلى العقاب يجهل من يكون هذا الضابط، أو لم يسمع بنبئه، انطلق زربياتنكوف يستخدم إحدى حيله، ولديه منها مئات، لأنه لا يعيا عن اختراعها، ولا تنفذ منها موارده، فلا يكاد المسكين يعرى من ثيابه، وتربط يده إلى أطراف مؤخر البنادق التي يربط الجاويش بها إلى «الشارع الأخضر» حتى ينثني عادة يتوسل إلى الضابط بصوت ضارع داعم أن ييسر عليه العقوبة ولا يزيدا بشدة لا ضرورة لها، صائحًا به «الرحمة» يا صاحب السعادة رحمة الأب بي لكي أدعو لك الله طول العمر، الرحمة والثناء لحالي!...

وهذا هو كل ما يبغيه الضابط، فلا يلبث أن يتمهل قليلاً وينشئ يتحدث إلى السجين بلهجة عاطفية قائلاً: «وماذا بيدي؟ يا صديقي! لست أنا الذي أعاقبك، ولكنه القانون!».

- الأمر كله في يديك يا سعادة الضابط فارحمني!

- هل تظن أنني لا أرثي لك، وهل تحسب أنني أتلذذ برؤيتك وأنت

تُضرب؟.. أنا إنسان مثلك هل أنا إنسان أم لا.. قل لي!

- بلا شك.. إننا كلنا نعرف إنك والدنا ونحن أولادك فكن لي والدًا.

ويبدأ السجين يشعر ببارقة أمل.

ويعود الضابط فيقول: ولكن احكم أنت بنفسك يا صاحبي، إنك عاقل وتفهم. أنا عارف أنه يجب عليّ كإنسان مثلك أن أكون رحيماً ومشفقاً متسامحاً حتى مع مجرم مثلك.

وهنا يصيح السجين قائلاً: «هذا صحيح يا سعادة الضابط، إنك تقول الحقيقة تماماً»..

- أي نعم، يجب أن أكون رحيماً مهما تكن أنت مجرماً أثيمًا، ولكن هذا ليس من عملي، إنه عمل القانون، فكر في هذا، إن عليّ واجباً نحو الله والوطن، ولو تهاونت قليلاً في تنفيذ القانون لارتكبت وزراً، وأثمت في حق نفسي، تدبر هذا يا صاحبي وفكر فيه..

- ولكن في عرضك يا سعادة الضابط...

- ليكن إذن... لأجل خاطرك... أنا شاعر بأنني ارتكبت وزراً.. وليكن... سأرأف بحالك في هذه المرة، وسأتساهل، ولكن ما العمل إذا أنا بهذه الطريقة سأحدث ضرراً، وإذا أنا رأفت بك في هذه المرة وتساهلت معك، فاعتمدت على هذه الرأفة، واطمأنت إلى هذا التساهل في المرة الثانية وعدت إلى ارتكاب الجرائم، فما العمل عندئذ. سيؤنبني ضميري.

- أقسم لك يا حضرة الضابط أقسم لك أمام عرش الله...

- طيب... طيب.. ولكن هل تحلف أنك ستنتصّلح وتستقيم في المستقبل؟

-إن شاء الله أموت ولا تعرض جثتي في الآخرة على..

- لا تحلف، إن الحلف إثم، وأنا مصدقك، هل تقسم بشرفك؟

- يا سعادة الضابط...

اسمع، إنني سأعفيك لا لشيء غير دموع اليتيم التي تذرفها أنت يتيماً،
أأست يتيماً؟

- بلا يا سعادة الضابط ووحيد في هذا العالم لا أب لي ولا أم.

- ليكن إذن من أجل دموعك اليتيمة، ولكن ليكن في علمك أن هذه
آخر مرة.. خذوه..

وفيه بهذه الكلمة الأخيرة بشكل لين هادئ رقيق فلا يدري السجين
كيف يدعو الله مخلصاً لهذا المحسن الكريم، وبأي لسان يتضرع.

ولكن الموكب يتبدى، فإذا بالمسكين يساق والطبول تدق والعصي
تتهاوى، ويصيح زريباتكوف بأعلى صوته: «استلموه! اسلخوه.. افرموه..
أحرقوه» (ادولوا جامد) هذا اليتيم، اعطوه بشدة هذا المجرم.. انزلوا عليه..

ويضربه الجنود بأقصى ما في وسعهم، ويبدأ المسكين الصياح، ويتطاير
الشرر أمام عينيه، بينما يعدو الضابط في أثره على طول الخط مرسلًا
ضحكات مدوية، ممسكًا جنبه من شدة الضحك وهو لا يكاد يستوي على
ساقيه، حتى ليأسف المرء له في النهاية، فهو في سرور بالغ وفرح لا يقدر،
وإذا به يعود إلى الصياح:

«اسلخوه.. اسلخوه.. احرقوه.. احرقوا المجرم اليتيم».

أو قد يبتكر على سبيل التنويع شيئاً آخر.

ويعود السجين إلى الضراعة والتوسل مرة أخرى، وعندئذ لا يمثل

الضابط أمامه ذلك الدور، بل ينطلق في صراحة يقول له: «اسمع أما أقولك يا بني، إنني سأعاقبك كما ينبغي لأنك تستاهل، ولكني سأقول لك ما أنا صانع بك، سوف لا أربطك بمؤخر البنادق، ولكني سأتركك تمشي من تلقاء نفسك، اجر ما أمكنك على طول الخط، إن كل عصا ستصيبك مثل الأخرى ثم تنتهي الحكاية وشيكاً.. فما رأيك.. هل تجرب؟».

ويصغي السجين وهو مرتبك مستريب متردد، ويتشني يقول لنفسه من يدري لعلها ستكون بهذه الطريقة أسهل وأهون، سأجري قدر جهدي، ولن يستغرق الألم أكثر من ربع ساعة، ولعل العصي كلها غير مصيبي، يلتفت إلى الضابط فيجيب قائلاً:

- «ليكن ذلك يا سعادة الضابط، موافق!».

- «حسن جداً، وأنا أيضاً موافق».

ثم يلتفت إلى الجنود فيصيح بهم: «هيا... انتبهوا كل الانتباه...» وهو يعرف مقدماً أنه لن تخطئ عصا واحدة ظهر الأثيم، كما يعرف كل جندي منهم ماذا هو مخبأ لهم إذا هو أخطأ المرمى...

ويعدو السجين بكل ما فيه من قوة على طول «الشارع الأخضر»، ولكنه بالطبع لا يتجاوز الجندي الخامس عشر، وتهاوى العصي على ظهره كوميض البرق، أو كالدقات على الطبل في نوبات المعسكرات، فيسقط المسكين صارخاً كأنما قد قطع إرباً أو أصابته قذيفة من الرصاص.

وعندئذ يقول وهو ينهض من سقطته متباطئاً شاحباً مروغاً: «كلا، يا حضرة الضابط، إن الطريقة المألوفة أفضل»، فيضحك زريباتنكوف ويقهقه؛ لأنه يعرف سلفاً كيف تبدأ حيلته وكيف تنتهي.

وليس في الإمكان وصف كل ما أوتيه من حيل وخدعات، أو الحديث عن كل ما يقال عنه.

وهناك حكايات من نوع آخر تروى عن ضابط يدعى «سميكالوف» كان قائداً لسجننا قبل تعيين «الميجور»، ولئن كان السجناء قد ألفوا التحدث بغير اهتمام ولا غضب عن زربياتنكوف، فلم تكن تعجبهم أفعاله، ولهذا لم يكونوا يحسنون فيه قولاً، بل كانوا مشمئزئين منه، ويدو لي أنهم كانوا ينظرون إليه باحتقار وازدراء أما «سميكالوف» فقد كانت ذكره مقترنة عندهم بسرور وابتهاج؛ لأنه لم يكن يحب العقاب حباً جمّاً، وقد خلا من ذلك العنصر الذي كان يستبد بالضابط زربياتنكوف، ولكن ليس معنى هذا أنه كان للضرب كارهاً، أو عليه معترضاً، وإنما الواقع أن ضربه كان مذكوراً بين السجناء بحب وارتياح، فقد أصاب الرجل من النجاح حيالهم ما جعلهم فرحين به راضين. وكيف كان ذلك؟ بل كيف ظفر بهذه المحبة من السجناء؟.. والجواب أن هؤلاء السجناء، وربما كان أفراد الشعب الروسي على بكرة أبيهم، لا يترددون في نسيان كل ألم يصيبهم، أو تعذيب ينزل بهم، من أجل كلمة رحيمة تقال لهم؛ وأذكر ذلك كحقيقة مجردة بغير وصف أو تعقيب، مؤكداً أنه ليس من الصعب إرضاء هؤلاء الناس وكسب محبتهم، ولكن الضابط «سميكالوف» كان قد اكتسب محبة خاصة حتى لا تزال لطريقته في توقيع عقوبات الجلد ذكرى حسنة، وحتى تشهد السجناء يقولون «لم نكن نحتاج إلى والد» ثم يتبعون هذا القول بتهنئات الحسرة والأسف، مقارنين بين ذكريات قائدهم القديم وبين الميجور الحالي، مرددين قولهم: «لقد كان حقاً رجلاً طيباً»...

ولعله كان فعلاً طيب القلب لين العريكة، على طريقته الخاصة، ولكن

قد تجد أحياناً رجلاً من أهل النفوذ، لا يتصف بلبين العريكة فحسب، بل يجمع إليه كرم النفس وسماحتها، ثم هو مع ذلك كله البغيض إلى نفوسهم، وأحياناً أخرى تراهم يضحكون منه ساخرين، ولكن سميكالوف عرف كيف يجعل سلوكه حيالهم محبباً، حتى ليعدوه واحداً منهم، وهذا فن عظيم أو على الأصح موهبة كبيرة، قد لا تخطر ببال الذين أوتوها أنها كذلك. والعجيب أن بعض الذين هم هكذا لم يؤتوا الطيبة ولا لين العريكة إطلاقاً، ولكنهم مع ذلك يظفرون بمحبة بالغة وتقدير كبير، ولعل سر هذا أنهم لا يحقرون شأن الذين هم تحت إشرافهم ولا يمتهنونهم، ولا يزدرونهم، وأنهم لا يظهرون أي أمارات الترفع عنهم، وسمو طبقتهم على طبقاتهم إذ لا تزال عليهم مسحة من «الفلح» وإثارة أصلية من أخلاق الريف، وما أبرع السجناء في شم رائحتها، ويا لله ما أذكاهم في الفطنة إليها، وأي ثمن تراهم يضمنون بدفعه في سبيلها، بل إنهم لا يترددون في إثارة أعبس الموظفين وأشدهم تجهماً وقسوة، على أرحمهم قلباً، إذا كان عند الأول شيء من أخلاقهم، ومنزع إلى الريفية الأصلية فيهم، وناهيك بما سيكون شعورهم إذا كان هذا الرجل أيضاً طيباً فعلاً ولين العريكة ولو على طريقته الخاصة، إنه سيتجاوز عندئذ كل تقدير ويرتفع سعره إلى أبعد حد.

وكان الضابط سميكالوف كما قلت يشتد أحياناً في توقيع العقاب، ولكنه كان يعرف كيف ينفذه، وكانت نكاته في هذه المناسبات ودعاباته، حتى في أيام سجنه، بعد انتقاله من موضعه بعهد بعيد، تذكر وتردد على الأفواه مقترنة بالتهلل لها والضحك في غير حقد عليه أو استنكار لمسلكه، ولكن لم تكن له نكات كثيرة من هذا النوع لأنه كان خلواً من الأخيلة الفنية، والواقع أنه كانت له نكتة يظل يرددها على مدار العام كله أو قرابته. ولعل

ملاحظتها كانت في تفردها ووحدانيتها وهي تنطوي على بساطة بالغة، فإذا جيء بالسجين المحكوم عليه بالضرب أقبل سميكالوف ضاحكاً فألقى نكتته هذه، وهي أن يوجه بعض أسئلة إليه لا صلة لها بحياته في السجن، ولا ترمي إلى هدف معين، وإنما لأنه حقيقة يريد أن يعرف، وعندئذ تحضر العصي، ويؤتى بكرسي ليجلس سميكالوف عليه، فيستوي فوقه ويشعل قصبته أيضاً، وكانت له قصبة طويلة مفرطة في الطول «كالشبك» ويبدأ السجين يتوسل إليه، فيقول له: كلا يا أخي... ارقد... لا فائدة! فيتندد السجين ويرقد، وعندئذ يعود يقول: «قل لي يا عزيزي هل تحفظ هذا الدعاء عن ظهر قلب؟..» فيجيب بقوله طبعاً يا سعادة الضابط نحن مسيحيون، وقد حفظناه من الطفولة، فيقول «طيب رده!».

وقد عرف السجين ماذا هو قائل، وعرف مقدماً أيضاً ماذا سيحدث عندما يفرغ من قوله؛ لأن هذه الحيلة ذاتها كررت ثلاث مرات من قبل مع سجناء آخرين، وعرف سميكالوف نفسه أن السجين يعرفها، كما يعرف أن الجنود أنفسهم الذين يقفون شاهري العصي فوق الضحية الراقدة أمامهم قد سمعوا بها من عهد طويل، ولكنه مع ذلك يردد ذلك الدعاء لأنه قد تأثر به، بدافع الغرور الذي يخالجه المؤلف؛ لأن الدعاء من إنشائه وتوليفه.

ويبدأ السجين يردد الدعاء، بينما يقف الجنود بعصيمهم منتظرين، وينحني سميكالوف إلى الأمام ويرفع يده ويترك التدخين وينتظر الكلمة المعهودة، وبعد أن ينتهي السجين من الأسطر الأولى في الدعاء ويصل أخيراً إلى عبارة «يأتي ملكوتك»، يصيح سميكالوف عندئذ وكان منتظراً سماعها كأنها وحيه «قف!» ثم يلتفت إلى أحد الجنود بحركة الطرب المسرور ويهيب به «الآن اعطه قليلاً من جبروتك...!» وبقهقه ضاحكاً،

فيضحك الجنود الواقفون من حوله كذلك، ويتسم الجندي الضارب أيضًا، بل يكاد المضروب نفسه يشاركهم في الابتسام، وإن كان عند سماعه الأمر بإعطائه قليلًا يرى العصا صافرة في الفضاء ثم في لحظة أخرى مهوية عليه، قاطعة كالموسي في لحمه، وعندئذ يطرب سميكالوف ويتهيج لهذه الفكرة السعيدة التي خطرت له أو هذه «السجعة» البديعة التي بدأت «بملكوتك» وانتهت في ختام الأمر «بجبروتك»!.

وينصرف سميكالوف راضيًا كل الرضا عن نفسه، ويذهب المجلود هو أيضًا راضيًا عن نفسه وعن سميكالوف ذاته الرضا التام، ولا ينقضي نصف ساعة حتى يروي القصة لرفقائه في السجن، وكيف أن النكتة التي تكررت من قبل ثلاثين مرة قد كررت للمرة الحادية والثلاثين. ويعقب عليها بقوله: «إنه رجل لطيف يحب النكتة...».

وهناك ذكريات أخرى تروى عن هذا الضابط الطيب القلب اللين العريكة، ذكريات لا تزال عطرة بشيء من العناصر العاطفية، فقد يقول لنا أحد السجناء وهو يتسم للذكرى: «لقد كنت أحيانًا أمر به وهو جالس في النافذة بثوب النوم يشرب الشاي ويدخن التبغ فأرفع قبعتي له بالتحية، فيسألني قائلًا: إلى أين يا أكسيونوف؟ فأقول: إلى الشغل طبعًا يا ميهابيل فاسيلتش لأن أول شيء عليّ هو الذهاب إلى عنبر الشغل» فيضحك لنفسه. لقد كان رجلًا لطيفًا، أي نعم لطيف هي الكلمة الوحيدة التي تليق به..

وعندئذ ينبري أحد السامعين يقول: «لن يتاح لنا أن نرى لمثله أشباهًا آخر الدهر...».

الفصل الثالث

المستشفى^(١)

تحدثت عن العقوبة البدنية والضباط الذين كان موكولاً إليهم تنفيذ هذه «المهمة اللذيذة»؛ لأنني لم أكن قبل ذهابي إلى المستشفى قد عرفتها إلا سماعاً، فلما دخلته عرفتها عن رؤية، وعلم صحيح بها. فقد كان جميع الذين يتلقون عقوبة الضرب «بالعصي» من أفراد الكتائب التأديبية وغيرها التي ترابط في بلدتنا والإقليم المحيط بنا، يساق بهم إلى العنبرين المخصصين لنا معاشر السجناء في المستشفى. وكنت في تلك الأيام لحداثة مقامي في السجن، حين كنت أنظر بلهفة إلى كل شيء من حولي، قد تأثرت بأبلغ التأثير بكل تلك الإجراءات الغريبة، وكل أولئك الضحايا الذين عوقبوا أو يستعدون للعقاب، لقد هيجت هذه المشاهد خاطري وأذهلتني ورّعت لبي، ولا أزال أذكر أيضاً أنني بدأت فجأة وبصبر نافذ أدخل في تفاصيل تلك الأحداث ودقائقها، وأسأل عنها السجناء، وأكون منها النتائج، فقد تولتني

(١) كل ما أورده هنا عن العقوبة البدنية كان يحدث فعلاً في أيامنا، وإن قيل لي اليوم إن كل هذا قد تغير ولا يزال مستمراً في التغيير.

رغبة شديدة في معرفة كل ما يتصل بمختلف مراتب الأحكام والعقوبات ودرجات قسوتها ومبالغ شدتها، على اختلاف صنوفها، وتباين ضروبها، وتصرفات السجناء ومسالكتهم حيالها، وحاولت أن أصور لنفسي نفسية المشوقين إلى تنفيذ العقوبات فيهم، وقد قلت فيما أسلفت عليك أنه ليس بالمألوف أن لا يقلق السجين وأن لا يضطرب منه البال قبل موعد التنفيذ، حتى الذين سبق لهم أن تلقوه بشدة، وفي أكثر من مناسبة، فإن المحكوم عليهم بها يستولي عليهم عادة رعب شديد، لا يستطيعون مغالبتة، وفرع بالغ على كره منهم، يسيطر على نفوسهم ويسري في جملة كيانهم المعنوي، فلم أكن حتى في أيامي الأخيرة في السجن أتمالك من مراقبة السجناء الذين لبثوا في المستشفى حتى التأمّت الجروح التي أصابتهم من النصف الأول من العقاب، وهم ينصرفون ليتلقوا في غداة اليوم التالي النصف الثاني منه. وهذا التقسيم للعقوبة يقضي عادة به الطبيب الذي يحضر التنفيذ، وإذا لم يقو السجين على احتمال عدد العصي المحكوم بها عليه لكثرتها مرة واحدة، نفذت العقوبة على مرتين، وقد تنفذ على ثلاث مرات طبقاً لتقرير الطبيب المباشر للحالة فيما إذا كان في استطاعة السجين، بلا خطر على حياته، أن يجتاز العقوبة كلها مرة واحدة، أم يخشى عليه من تنفيذها على تلك الصورة. والقاعدة أن يحتمل السجناء خمسمائة عصاً أو ألفاً أو ألفاً وخمسمائة مرة واحدة، ولكن إذا كان الحكم يقضي بألفين أو ثلاثة آلاف وجب توزيعها على دفعتين أو على ثلاث دفعات، فكنت ترى الذين يغادرون المستشفى لكي يتلقوا النصف الثاني من العقاب بعد اندمال جراحاتهم، مكتئبي الوجوه عادة، متجهمي المعارف، كارهي الكلام في يوم خروجهم واليوم الذي قبله، كما يبدو عليهم شيء من الشرود والذهول غير المألوف؛ ومن الطبيعي أن

إنساناً في مثل حال السجين لا يجد روحاً إلى الكلام، فهو أغلب الوقت صموت، والعجيب أن السجناء الآخرين لا يحاولون الكلام معه، ولا يتحدثون عما هو مخبأً له، فلا كلام ولا حتى عزاء، بل إنهم ليعرضون عنه إعراضاً، وهو بلا شك مسلك أصلح له وأفضل.

وكان لهذه القاعدة استثناء، فإن السجين «أولوف» الذي رويت لك قصته كان أمره في الحق شذوذاً، إذ كان أول شيء غاظه بعد النصف الأول من العقوبة أن جرح ظهره طال الأمد على الثئامه، فلا يستطيع أن يطلب الخروج من المستشفى وشيئاً، وكان يريد أن يتلقى بقية العقاب في أقرب وقت ممكن ثم يرسل إلى منفاه، على أمل أن يتمكن في الطريق من الفرار، ولكن الهدف الذي كان نصب عينيه هو الذي احتجزه، ولا يعلم إلا الله ماذا كان يجول في خاطره، فقد كان ذا طبيعة حديدية القوة عرمة الشهوة بالغة الحيوية، وكان يبدو متهللاً فرحاً هائجاً، وإن استطاع مع ذلك ضبط مشاعره؛ لأنه بعد توقيع النصف الأول من العقوبة عليه ظن أنهم لن يتركوه حيّاً وأنه سيموت تحت العصا، بل لقد بلغته وهو ينتظر المحاكمة عدة إشاعات بأن وفاة الشأن يريدون موته، فأعد نفسه من ذلك الحين للموت، ولكنه ما كاد يجتاز النصف الأول من العقوبة حتى عاوده الانتعاش، وسري عنه، وجيء به إلى المستشفى وهو نصف ميت، ولم أشهد يوماً في حياتي ما شهدت على ظهره من الجروح، ولكنه جاء مثلج الصدر منشرح القلب، مؤملاً أن ينجو في النهاية بالحياة، معتقداً أن تلك الإشاعات كانت كاذبة. وبدا بعد أن عاد من الضرب بالعصي حيّاً، ومطال المقام في السجن، يحلم بالطريق والفرار والحرية والسهول والغابات، ولكنه بعد خروجه من المستشفى بيومين مات في المستشفى ذاته، وعلى الفراش عينه، عقب توقيع النصف الثاني من

العقوبة عليه... ولكنني سبق أن تحدثت عن ذلك.

ولكن أولئك المساجين أنفسهم الذين ظلوا عدة أيام مكتئبين مقدمًا، قلقين أشد القلق، احتملوا العقاب ذاته بجلد ورجولة، حتى أضعفهم قلوبًا، وأوهنهم أفئدة. وقلما سمعت أنيًّا منبعثًا من صدورهم، حتى في الليلة الأولى من قدومهم، ولا من الذين تلقوا أقسى العذاب، فإن هؤلاء القوم عامة عرفوا كيف يحتملون الألم؛ وقد سألتهم عدة أسئلة عن الألم وكيف هو؛ لأنني أردت أن أعرف على وجه اليقين مبلغه ومداه، وبأي شيء يصح أن يقارن، ولست أدري حقًا ما الذي دفعني إلى تلك الأسئلة، ولكنني أذكر شيئًا واحدًا، وهو أن ذلك لم يأت مني عن مجرد حب الاستطلاع والفضول، وأكرر هنا أنني روعت مما سمعت، وهزتني الأجوبة هزًّا، وإن لم أظفر من أي واحد سألته بالجواب الشافي، وكل ما عرفته أن الألم يحرق ويشوي كالنار، وكان هذا هو جواب الجميع. وفي تلك الأيام حين ازدادت معرفتي بالسجين م... رحت أسأله السؤال ذاته، فقال: «إنه شديد الأذى إلى درجة مروعة، والشعور به يحرق كالنار، كأن ظهرك يشوى على الجمر شيئًا». وهكذا كان الجواب واحدًا، ولكنني لا أزال أذكر أنني فطنت يومئذ إلى ملاحظة غريبة، وإن كنت لا أقطع بصحتها، مع أن إجماع السجناء عليها يؤيدها كل التأييد، وهي أن الضرب بالعصي إذ كثر عددها، هو أسوأ العقوبات كلها في روسيا وشرها جميعًا. وقد يلوح ذلك لأول وهلة غير معقول ولا ممكن، ولكن خمسمائة عصا بل أربعمائة قد تقتل، فإن زادت كاد الموت يكون محققًا، حتى لا أحسب أشد الناس جلدًا يستطيع أن يظل حيًّا إلى الألف، ومع ذلك يمكن أن يحتمل المرء خمسمائة ضربة بالعصا، دون أقل خطر على حياته، بل الذين لم يؤتوا بنية قوية يستطيعون احتمال ألف عصا بلا خطر، وقلما

تقتل الألفان من أوتي قوة متوسطة وبنية سليمة، وقد قال لي السجناء جميعاً إن «المقرعة» شر من العصا؛ لأنها أشد إلهاباً وأكثر تعذيباً. ولا ريب في أن «المقرعة» أشد إيلاماً من العصا، وأكثر تهيجاً، وأحد تأثيراً في الأعصاب وقسوة عليها، وإجهاداً لها إلى حد لا يطاق، ولا أدري ماذا يجري الآن في السجون، ولكن كان في الماضي القريب سادات يجدون في السلطة التي تخولهم ضرب ضحاياهم شيئاً يعيد إلى الذاكرات جبروت أمثال المريكز دي ساد، والمريكز دي بوفيليه^(١). ويخيل لي أن هناك شيئاً في ذلك الشعور الذي يرسل هزة ألم ولذة معاً إلى قلوب أولئك السادات ويسري في جوانحهم، فإن في البشر أناساً كالنمور يتعطشون للدماء، وكل من مارس هذه السلطة يوماً، وباشر هذه السيادة المطلقة على جسد الإنسان خلق من طين مثله وعلى دمه وروحه، بل أخ له في شرعة الله وقاموسه، أقول كل إنسان جرب السلطة المطلقة في إنزال أشد الإذلال والمهانة بمخلوق من صنع الله مثله، لن يلبث أن يفقد وهو لا يدري كل سيطرة على مشاعره ذاتها وأحاسيسه، فإن الطغيان عادة، قد تتطور في النهاية فتستحيل إلى مرض. وفي ملتي واعتقادي أن أفضل الناس وأكثرهم خيراً قد يتحول بالعادة إلى وحش كاسر؛ لأن الدم والسلطان يسكران، والخشونة والسفالة تنموان، والعقل والقلب قابلان لأشد الأشياء شذوذاً، حتى ليستسيغها في النهاية ويستعذبها. وليس في نفس الطاغية أقل أثر لمعنى الإنسان وصفة المواطن، فقد تلاشيا عنده إلى الأبد، حتى ليستحيل الرجوع إلى الكرامة البشرية، أو استشعار الندامة، أو التوبة النصوح. ولا تنس أيضاً أن لتكرار الأمثال وجواز

(١) نيبلان اشتهر ببشاعة القسوة والشعور بلذة في إيلام الناس وتعذيبهم حتى أصبح مرض «الساديزم» أي لذة التعذيب مشهوراً، وهي كلمة مأخوذة من الاسم الأول «دي ساد».

الطغيان الذي من هذا القبيل أثراً سيئاً في المجتمع الإنساني كله؛ لأن هذا السلطان إغراء، وقد أصبح المجتمع الذي ينظر إلى هذه الظاهرة بعين الاستهانة والاستخفاف ملوثاً مدنساً من القواعد، وجملة القول إن تخويل الإنسان حق توقيع العقوبة البدنية على إنسان آخر هو إحدى مساوئ الحياة الاجتماعية ومناكرها، بل من أشد العوامل الهدامة فيها لكل جرثومة طيبة، وكل جهد يبذل في سبيل ترقية الشعور بحقوق المواطنين، وسبب كافٍ لانحلال الجماعة وانقراضها المحتوم.

إن المعذب المحترف محتقر من المجتمع مشمأز منه، ولكن السيد الذي يتلهى بالتعذيب لا يحتقر ولا يزرى به، وإن كان نقيض هذا الرأي لم يظهر إلا في الأيام الأخيرة، ولكن ظهوره لم يتعد الكتب، والكلام المجرد، بل إن الذين أعلنوه لم يستطيعوا أن يطفئوا في أنفسهم شهوة السلطان، ولذة السيطرة، فكل صاحب مصنع أو رأس مال لا بد من أن يشعر بلذة ممتعة حين يتصور أن العامل عنده وجميع أفراد أسرته، هم أحياناً أو كالأعمال عليه؛ وهذه حقيقة لا شك فيها، وليس في إمكان جيل أن يتغلب سريعاً على ما ورثه من الأجيال الماضية، وليس من الهين على الإنسان التخلي عن شيء هو في دمه أو ما رضعه من لبن أمه، فإن هذا التحول السريع لا يقع، واعتراف المرء بخطئه وآثام آبائه يسير، فلا يجدي، ولكن المطلوب هو استئصال هذه العادة واقتلاعها من جذورها كلية، وهذا لا يتأدى وشيكاً.

وقد تحدثت عن المغرمين بالتعذيب، وأعتقد أن خواص المعذب لا تزال جنيئاً في غرائز كل إنسان منا اليوم تقريباً، وإن كانت الصفات الوحشية لا تتطور بالسواء، فإن هي تطورت بحيث تغلب على صفات الإنسان الأخوي أصبح بالطبع مخلوقاً بشعاً رهيباً. والمعذبون في هذا العالم نوعان،

نوع يعذب بمطلق إرادته، وآخرون يعذبون كارهين أو بحكم الضرورة؛ ولا شك في أن المعذب الطائع المختار هو أشد حقارة من كل وجه، وأدناً نفساً من المعذب المكره، وإن كان الناس يحتقرون الأخير أشد الاحتقار لأنه يثير اشمئزازهم، ويوحى إلى نفوسهم برعب غامض مستغلق لا يعرفون له سبباً، فلماذا نرى الناس يستبشعون هذين النوعين استبشاعاً يكاد يكون لديهم خرافة أو وهماً مستمكناً، ولكنهم في الوقت ذاته ينظرون إلى النوع الآخر نظرة مستهينة، بل تكاد تنطوي على شيء من الموافقة والقبول؟...

إن هناك حالات غريبة إلى أبعد الحدود، فقد عرفت أناً طيين، بل نزيهين محترمين في المجتمع، لا يمكن أن يتركوا مخلوقاً يفلت من أيديهم حتى يصرخ من وطأة العصا، ويتوسل ويستغيث ويسأل الرحمة، كأن من واجب الذين يتلقون هذا العقاب أن يصيحوا ويسترحموا ويضرعوا، هذا الرأي الأسدّ عندهم، بل هذا هو المتعين والضروري، والشيء الذي لا بد منه ولا معدى، فإذا لم يصرخ الضحية في مرة من المرات، شعر الضابط بأن امتناعه عن الصراخ إهانة شخصية له. وقد عرفت ضابطاً بهذا الشكل شخصياً، ولعله كان معدوداً من ناحية صلاته الأخرى ونواحيه رجلاً طيباً كريم الخليفة، وكان يقصد أولاً أن يخلي عن السجين في يسر، ولكنه حين لم يسمعه يصيح صيحاته الضارعة المعهودة «في عرضك يا والدنا، الرحمة، سادعو لك الله طول حياتي...» وما إلى هذه الاستغاثة ونحوها استشاط غضباً، واحتدّ احتداداً وأعطى المسكين خمسين عصا زيادة، محاولاً بها حمله على الصراخ، واعتصار الاستغااث منه، فكان له ما أراد، وفي هذا المعرض مضى يقول له: «لم يكن في وسعي أن أفعل غير ما فعلت، لقد كان الرجل فظاً غليظ القلب».

أما الجلاد الذي ليس حرًا في تصرفه، ولكنه يعمل مرغمًا مجبرًا، فهو كما يعرف كل الناس سجين محكوم عليه، أفلت من الحكم بالانقلاب إلى صنعة الجلاد، وهو عادة يبدأ يتعلم هذه الصناعة من جلاد آخر، فإذا حذقها ألحق بالسجن بصفة دائمة، فيقيم وحده في غرفة خاصة، ويدبر أموره بنفسه، وإن أقيمت عليه الحراسة دائمة، وليس الإنسان الحي بالطبع آلة صماء، ولئن كان الجلاد يتولى الضرب كواجب، فقد يتطور الأمر عنده أحيانًا فيصبح غيورًا في عمله، معنيًا بالحدق فيه. وإذا كان الضرب يرضيه والبراعة فيه تسره وتلج صدره، فقلما يحس كراهية شخصية للضحية، ولكن مهارته ومعرفته بفنه، ورغبته في إظهار براعته أمام زملائه السجناء وأفراد الجمهور تثير بلا ريب غروره وتزدهيه، فيجهد نفسه ويظهر آخر حدود براعته لأجل الفن في ذاته. ثم هو يعرف حق المعرفة أنه طريد المجتمع، وأن الناس يفرعون منه فزعًا خرافيًا كلما التقوا به، ويتبعونه برعب بالغ يثيره الوهم المتأصل في نفوسهم، وقد لا يكون لهذا أي أثر في مشاعره، وقد لا يزيده ذلك وحشية أو ينمي فيه منازع القسوة. حتى الأطفال يعرفون أنه «قد برئ من أبيه وأمه» ولكن من العجيب أن جميع الجلادين الذين شهدتهم كانوا على شيء من العلم، وإخوان رجاحة وذكاء، أوتوا حدًا غير مألوف من الغرور والزهو والكبرياء، ولست أدري هل جاء هذا الكبر كرد فعل إزاء الاحتقار العام الذي يجدونه في المجتمع، أو تراه ازداد من شعورهم بالهول الذي يحدثونه في فريساتهم والسيطرة عليهم. ولعل المشهد ذاته والمظاهر المسرحية التي تحيط بهم عند تنفيذ العقوبة على أعين المشاهدين هي التي تساعد على تنمية نزعة الترفع والشموخ بأنوفهم، وأذكر أنني أتيت لي فيما مضى فرص كثيرة رأيت فيها أولئك الجلادين واستطعت عن كثب ملاحظتهم، فقد شهدت

في ذات مرة جلادًا في الأربعين من العمر، ناحلاً مقتول العضل، ربعة ذا وجه لطيف تلوح عليه مخائل الذكاء، وشعر أجعد، وهو أبداً وعلى غير المألوف هادئ الطبع، رزين، يسلك مسالك السيد المهذب، ويجيب على كل سؤال بإيجاز وتعقل وارتياح، وإن كان به منزع إلى الترفع والكبرياء، كأنه كان يشعر بأنه أرفع مني قدرًا، وكثيرًا ما كان الضباط المعينون للخدمة يوجهون الخطاب إليه أمامي فيبدون نحوه شيئًا من الاحترام، وكان يشعر باحترامهم هذا فيزداد تأدبًا واتزانًا وحرصًا على كرامته؛ وكلما زاده الضابط توددًا، ازداد هو تأييبًا على الامتهان، وحفاظًا لعزته، ولئن لم يفارق يومًا أدبه الرفيع في حق الضباط، فلست أشك في أنه كان في تلك اللحظة يشعر بأنه أسمى شأنًا إلى أبعد الحدود من الضابط الذي كان يوجه الكلام إليه، فقد كان ذلك جليًا على وجهه لكل ذي عينين، وكان في أيام الصيف وأشهر القيظ يوفد أحيانًا في رفقة الحارس حاملًا عصا طويلة لقتل الكلاب الضالة في المدينة، وهي كثيرة لا يعرف لها أصحاب، وتتوالد بسرعة وبكثرة غير مألوفة، فإذا ألقى الصيف مراسيه ازداد خطرهما، واستفحل شرهما، وأصدر ولاية الشأن الأمر إلى الجلاد بإبادتهما. ولكن هذه الشغلة المهيئة ذاتها لم تكن لتؤثر مطلقًا في عزة نفسه وكرامتها، وإنه لمشهد بديع أن تراه في أبهته وجلاله وهو يذرع المدينة طولًا وعرضًا يرافقه حارسه الذي بلغ منه الإعياء كل مبلغ، والأطفال والنساء فازعون منه، مرعبون من شكله، وهو ينظر إلى كل من يلقونه بكل هدوء وأنفة وشموخ.

ولا يزال معاشر الجلادين في متع كثيرة، فلديهم مال وفير، وطعامهم جيد، وعندهم الفودكا شرابًا لذيذًا سائغًا، وأما المال فيكسبونه من الرشى؛ لأن السجين المدني الذي يحكم عليه بعقوبة بدنية يقدم إلى الجلاد عادة شيئًا

على سبيل الهدية ابتداء، حتى وإن كان آخر درهم معه، ولكن الجلاد يطلب من بعض السجناء المقتدرين مبلغاً يتناسب ومواردهم، وقد يتقاضى أحياناً ثلاثين روبلاً، وأحياناً أخرى يطالب بأكثر؛ فقد اعتاد الجلادون الإلحاح في مساومة السجناء الأغنياء، ولكن لا يستطيع الجلاد أن يخفف الضرب كثيراً؛ لأنه يحاسب على التخفيف، ويؤخذ الثمن من ظهره، ولكنه إزاء المبلغ المغري يتعهد للضحية بأن لا يقسو عليه ولا يحتد، وقلما يرفض السجين شروط جلاده؛ لأنه إذا رفضها ضربه بوحشية، وهو أمر في يديه وحده، وقد يحدث أحياناً أن يطالب الجلاد السجين الفقير بفدية كبيرة، فيأتي أقاربه فيساومونه ويركعون عند قدميه والويل لهم إذا لم يرضوه؛ وهكذا يخدمه ذلك الرعب الوهمي الذي يوحى إلى النفوس به، ويا لله من غرائب الروايات التي تروى عن معاشر الجلادين! فقد أكد لي السجناء أنفسهم أنه في وسع الجلاد أن يقتل سجيناً بضربة واحدة، ولكن متى جرى شيء كهذا أو وقع؟ ومع ذلك قد يكون الأمر كذلك، وهم يتحدثون عن يقين تام ويؤكدونه توكيداً؛ بل لقد أكد لي الجلاد نفسه أن قتل السجين من أول ضربة ممكن، وقيل لي أيضاً إنه يستطيع أن يسدد إلى ظهره ضربة لا تحدث أدنى رض فيه، ولا يشعر السجين منها بال ألم، وإن بدت العصا مارقة في الهواء مهوية، ولكن حسبي ما قصصته عليك من هذه الألاعيب والخدع البارة.

ولكن إذا ارتشى الجلاد ليسهل على السجين العقوبة جعل الضربة الأولى عنيفة، وجمع في ضربها كل قوته، كما هي العادة الثابتة التي لا يطرأ عليها أي تغيير، ثم يبدأ بلطف الضربات التالية؛ وبخاصة إذا كان قد وصلته «الأمانة»، وإن كانت الأولى هي أبداً القوية القاسية، سواء ارتشى أم لم يرتش. ولست في الواقع أدري لماذا ألفوا ذلك واعتادوه، أهو لتهينة

الضحية للضربات التالية، بحجة أن هذه العصي بعد عصا شديدة في بداية الضرب تبدو أقل ألمًا، أو لمجرد إظهار قوته لضحيته وإلقاء الرعب في فؤاده، وتحطيم كيانه مرة واحدة، حتى يدرك أي جبار هو، ويعرف مبلغ بأسه وقوته، أي مجرد «مناورة» لإبراز القوة والفتوة... ومهما يكن من الأمر فإن الجلال يبدو في حماسة وهياج نفسي قبل الشروع في عمله، لأنه يحس بقوته، وسيطرته، فهو في تلك اللحظة ممثل، والناس ينظرون عندئذ إليه في عجب وفزع، وليس من شك في أنه يجد لذة في مناداة السجين عند أول ضربة بقوله: «استعد الآن! سألهب ظهرك!»، وهي العبارة المحتومة المألوفة في هذا الموقف، وأنه ليصعب المرء منا أن يتصور إلى أي مدى تتشوه الطبيعة البشرية وتستوحش عند بعض الناس!

وكنت خلال أيامي الأولى في المستشفى أصغي بانتباه إلى كل هذه الروايات التي يقصها المساجين، إذ كنا نتبرم كثيرًا بالرقاد في الفراش، وكل يوم لا يختلف عن الآخر، ففي الصباح يشرفنا الطبيب بزيارته، ثم يعقب مزاره الغذاء، وكان الأكل بالطبع ترويحًا بالغًا لنفوسنا عن هذا العيش الجامد الرتيب، وكانت الأطعمة متعددة مختلفة باختلاف المرضى، وبعضهم يوصف له الحساء مع الحبوب، وآخرون لا يقدم إليهم غير الثريد، وفريق لا يتعدى طعامهم الدقيق والزبيب، وهي أكلة الذين يطلبونها ويشتهونها. وقد تلطفت أخلاق السجناء ورقت من طول الرقاد فأمسوا مولعين باللطائف واللذائذ من الطعام؛ وأما الناقهون فكانوا يتناولون قطعة من اللحم المسلوق، أو «العجل» كما يسمونه؛ وكان المرضى «بالأسقربوط» أحسنهم تغذية، فقد كان يصرف لهم اللحم بالبصل والفجل البري ونحوهما، وأحيانًا كأس من الفودكا، وكان الخبز أيضًا يختلف تبعًا لاختلاف الأمراض، فمنه الأسمر،

ومنه ما يقرب من البياض وهو حسن النضج، وكان هذا التدقيق في تعيين الأغذية لا يقابل من السجناء إلا بالهزؤ والضحك والتسلية، فقد كان من بينهم طبعاً فريق لا يهتمهم الأكل مطلقاً، أما أصحاب الشهوة القوية فيأكلون كل ما يحبونه، وبعضهم كان يقايض الآخر على طعامه، فكان الغذاء الذي يناسب مريضاً يأكله مريض بعلّة مختلفة كل الاختلاف، أما الذين توصف لهم أغذية خفيفة محدودة لمراعاة علتهم فيشترى اللحم والغذاء المقرر للمرضى بالأسقربوط ويبتاعون «جعة» المستشفى ممن هي موصوفة لهم، وقد يأكل بعض الأفراد منهم الغذاء المقرر لاثنين، وكذلك تباع صحن الأطعمة ويعاد بيعها لأجل الظفر بالنقود، وكان ثمن القطعة من اللحم غالباً نوعاً ما، إذ تكلف المشتري خمسة درهمات، فإن لم نجد في عنبرنا من يبيع طعامه، أوفدنا الممرض الموكل بنا عادة إلى العنبر الآخر ليشتري لنا منه، فإذا لم يتيسر الشراء من مريض فيه، التجأنا إلى الجنود أو العنبر «الحر» كما كانوا يدعونه، ولا يعدم الطالبون أحداً يبيع لهم، وهؤلاء يكتفون بالخبز القفار، ولكنهم يجمعون مالا، ولا يخفى أن الفاقة في العنابر عامة، ولكن الذين يملكون نقوداً يرسلون إلى السوق من يشتري لهم أرغفة وأنواعاً من الحلوى، وكان الممرضون يؤدون هذه المشاوير أخلياء من الغرض، ولا خير يعود عليهم منها.

وكانت أقل الحصص هي الفترة التي تعقب الغذاء، فقد يضيق بعضنا بالفراغ فيلجأ إلى النوم، والبعض الآخر يقطع الوقت في «الدردشة» والأحاديث، وآخرون يدخلون في مشادات ومشاجرات، وغيرهم يروي نوادر وحكايات، فإذا لم يأت بمرضى جدد، ازددنا ضجراً وتبرماً؛ لأن الطارق الجديد يحدث على كل حال ضجة، ويجدد مشاعرنا، وبخاصة

إذا كان غريبًا لا نعرفه، إذ يقبل المرضى على فحصه وتأمله ومحاولة معرفة شخصيته، والموضع الذي قدم منه، وما الذي جاء به. وكان همهم على الأخص أن يستطلعوا طَّلَع الذين جاءوا توطئة لترحيلهم إلى سجون أخرى، فإن هؤلاء عندهم في الغالب ما يروونه، وإن لم يتعلق عادة بحياتهم الخاصة إلا إذا عرضوا للحديث عنها مختارين؛ لأن أحدًا لا يسألهم عنها، وإنما يسألون عن الموضع الذي انحدروا منه، وفي رفقة من جاءوا، وكيف كان سفرهم، وإلى أين هم ذاهبون، وما إلى ذلك، فلا يلبث بعضهم أن يتذكر أشياء من ماضيهم، فيتحدثون عن مختلف أسفارهم والجماعات التي كانت تتألف منهم والضباط الذين كانوا يتولون الإشراف عليهم.

وكان السجناء الذين ضربوا بالعصا يأتون إلينا أيضًا في هذه الفترة ذاتها، أو قبيل المساء، فيحدث قدومهم ذلك الأثر الذي وصفته آنفًا، ولكن هؤلاء لا يأتون في كل يوم، فكنا في أوقات انقطاع مجيئهم نحس تبرمًا ووحشة، حتى ليشعر كل مريض بالسامة والملالة من الآخرين. وقد يأخذون عندئذ في شجار أو مشادة، بل لقد كنا نسر أحيانًا بمقدم المجانين والمصابين بأمراض عقلية الذين يؤتى بهم ليظلوا تحت الملاحظة. وكثيرًا ما كان السجناء يلجأون إلى حيلة التظاهر بالجنون للتخلص من العقوبة البدنية، ولكن لا يلبث فريق منهم أن ينكشفوا أو يحدثوا تغييرًا في خططهم وأفانينهم، فإذا بالسجين الذي لبث يلعب ألعاب البهلوان يومين أو ثلاثة أيام لا يلبث فجأة، وبلا سابق مقدمات، أن يرتد عاقلًا ويهدأ ويبدأ وهو مكتئب يطلب الخروج من المستشفى وعندئذ لا تجد السجناء ولا الأطباء لائمه أو مثيري الخجل من نفسه بتذكيره بالمهزلة التي كان يمثلها، بل يعتمد الأطباء إلى تخلية سبيله، ثم يمضي يومان أو ثلاثة أيام فيرد إلينا عقب تلقي العقاب،

ولكن هذه الحالات في الجملة نادرة، أما المجانين الحقيقيون الذين يجيئون لوضعهم تحت المراقبة فكانوا نقمة العنبر واللعة المصبوبة عليه، وكان السجناء في بداية الأمر يرحبون في شيء يشبه الحماسة بالمجانين الخفاف الظل المرحين الذين يتصايحون ويرقصون ويغنون، قائلين لا بأس بهذا اللهو ولا ضير منه، ثم يقبلون على مشاهدة ألعاب أولئك المرضى الجدد وتهريجهم، ولكنني كنت أجد ذلك مؤلماً، وأشعر بانقباض حين أرى أولئك المخلوقات التعسة المنكودة، وقد عشت دهري لا أستطيع النظر إلى المجانين إلا والنفس جياشة بالألم والأسى.

ولكن مضى المجنون في هذا التهريج الذي قوبل في البداية بالضحك عند قدومه لا يلبث أن يثير الاشتمزاز في نفوسنا جميعاً، ويستنفد منا الصبر عليه بعد يوم أو يومين، وأدهى من ذلك وأنكى أن يؤتى بمجنون آخر في الوقت ذاته، وكان تأثيره في نفسي بالغاً، وقد حدث ذلك في العام الثالث لدخول السجن، وكنت في العام الأول أو على الأصح الأشهر الأولى قد ذهبت في موسم الربيع إلى مصنع للطوب على مبعدة ميل ونصف ميل لحمل القرميد والآجر إلى جمع من البنائين السجناء كانوا يشتغلون بإصلاح «القمينة» أو الأفران التي يصنع فيها الطوب استعداداً للعمل في الصيف، وذلك اليوم قدمني م... وب... إلى ملاحظ المصنع، وهو جاويز يدعى «أوستروزسكي» وكان «بولندياً» وشيخاً في الستين ناحل البدن، مرهف القد، يبدو عليه الوقار وحسن السميت، وكان قد قضى في الجيش عدة سنين، ولئن كان فلاحاً من المولد، فقد جاء إلى سيبيريا كجندي بسيط في عام ١٨٣٠، وكان م... وب... يحبانه ويحترمانه، وكان لا يكف عن قراءة الإنجيل الكاثوليكي، وقد تحدثت إليه وكان يتكلم بمودة بالغة وتؤدة

ورجاحة عقل، ويصف الأشياء وصفًا مشوقًا ويلوح طيبًا أمينًا نزيهاً، ولم أره عامين بعد ذلك وإنما سمعت أنه وقع في متاعب لبعض الأسباب، ثم إذا به فجأة يساق به إلى عنبرنا في المستشفى كمجنون، ودخل صارخًا ضاحكًا وأخذ يرقص في أرجاء الحجرة ويأتي بأقبح الحركات وأفحشها، وأضحك مشهده على هذه الحال السجناء المرضى جميعًا، ولكنني حزنت له، ولم تنقض ثلاثة أيام حتى احترنا فيما نفعله به، فقد جعل يشتجر ويعارك ويصرخ ويغني حتى في الليل، ولا يكف عن الإتيان بحركات وأعمال تشير الاشمئزاز حتى بدأنا جميعًا نضجر ونتأفف، ولم يكن يخشى أحدًا، وألبسوه سترة صلبة، ولكن ذلك زاد الأمر سوءًا من ناحيتنا، وإن كان قبل وضعه فيها «يجر الشكل» ويخلق أسبابًا للشجار مع كل منا، وفي ذات يوم خلال تلك الأسابيع الثلاثة نهضنا جميعًا نهضة رجل واحد وطالبنا كبير الأطباء بنقل زائرنا «الكريم» إلى العنبر الآخر، ولكن لم يكد ينقضي يوم أو يومان حتى طلبوا إعادته، وكان في العنبرين المخصصين للسجناء مجنونان هائجان كثيرا الشجار، وكل منهما أسوأ من صاحبه، وظل كل عنبر يردهما إلى الآخر، فلم نتنفس الصعداء إلا عندما نقلنا أخيرًا إلى المستشفى.

وأذكر مجنونًا غريبًا آخر، فقد سيق يومًا من أيام الصيف إلينا برجل في الخامسة والأربعين دميم الخلقة سليم النية، شوه الجدري سحته أبعث التشويه، ذي عينيْن دقيقتين محمرتين وسط صفحة وجه سمين مكفهر مريد، فوضعه في الفراش القريب مني، وظهر أنه هادئ لا يكلم أحدًا، ويجلس في سكون كأنه يفكر في شيء، وما كاد الظلام يغمر الأرض حتى التفت فجأة نحوي، وأنشأ ينبثني بغير مقدمات مطلقًا، وكأنما ييوح لي بسر عظيم، أنه كان سيضرب بعد بضعة أيام ألفي عصا، ولكن الأمر سوف لا يقع لأن

ابنة الكولونيل ج... قد تدخلت في أمره، فنظرت إليه بدهشة وحيرة وقلت له إنني لا أعتقد أن لابنة الكولونيل شأنًا في أمثال هذه المسائل، ولم تكن في خاطري عندئذ أية ريبة به، فلم يؤت به إلينا كمجنون، بل جاء كمريض عادي، فسألته ما خطبه فأجاب بأنه لا يعرف، فقد أحضر لسبب ما، وإنه لا يشعر بمرض، ولا هو مصاب بعلقة أو سقام، وإنما كانت ابنة الكولونيل واقعة في هواه، فقد اتفق منذ أسبوعين أن كانت تمر في مركبتها أمام السجن، وكان في تلك اللحظة يطل من النافذة ذات القضبان الحديدية، فأحبته من النظرة الأولى وجعلت منذ ذلك الحين تختلق الأعذار لزيارة السجن ثلاث مرات، جاءت في الأولى منها مع أبيها وكان ضابطاً في السجن، وفي الثانية أتت مع أمها لتوزع صدقات على المساجين، وفيما كانت تمر به همست له: «إنها تحبه وإنها ستنقذه»، ومن العجيب أنه كان يروي لي كل هذا الكلام الفارغ الذي خلقه عقله المريض مدققاً في التفاصيل، حريصاً على أن لا يفوته منها شيء، وكان يعتقد اعتقاداً جازماً أنه سيفلت من العقوبة البدنية، وكان يتكلم بهدوء وثقة عن تلك الفتاة وشدة حبها له، وكانت القصة كلها كلام مجانيين، ولكن كان عجباً أن يسمع المرء مثل هذه القصة الخيالية عن فتاة مولعة بحب رجل يقارب الخمسين من العمر وهو بهذه السحنة القبيحة الدميمة المكفهرة، فانظر كيف فعل الخوف من العقاب بهذه النفس الهيابة الوجلة، ولعله رأى فتاة فعلاً وهو في النافذة، فلم يلبث الجنون الذي أولده الخوف في نفسه وأثار الرعب المتزايد ساعة بعد أخرى أن وجد منفذاً له في النهاية، وأخذ يتشكل في تلك الصورة التي رسمها، وإذا بهذا الجندي المسكين الذي يغلب على الظن، أنه لم يفكر يوماً في الحسان، ولا شغلته الغيد في يوم من الأيام، يتخيل قصة غرام على هذا النحو، كأن غريزته تحاول

بها أن تمسك بقشة وهي في اليم مغرقة، فلم يسعني إلا أن أصغي إليه بغير تعقيب، ومضيت أحدث المرضى الآخرين بما سمعت، ولكنه حين أبدوا دهشتهم سكت واعتصم بالصمت.

وجاء الطبيب في اليوم التالي فجعل يلقي عليه أسئلة كثيرة، ولكنه قال إنه ليس مريضًا مطلقًا، ودل الفحص على أنه كذلك، فقرر خروجه، ولكننا علمنا أنهم كتبوا في «أورنيك» مرضه كلمة «سليم» بعد أن انصرف الأطباء من العنبر فتعذرت معرفة حقيقة الأمر فيه، ونحن أنفسنا لم نتبين فعلاً خافيته، وكان الخطأ خطأ الضباط الذين أرسلوه إلى المستشفى دون إبداء الأسباب التي حملتهم على إرساله، ولا بد من أن يكون ذلك قد حدث سهواً، أو لعل المسؤولين لم يكونوا مطلقاً متأكدين أنه مجنون، فأرسلوه إلى المستشفى للمراقبة لمجرد إشاعات غريبة عنه، ومهما يكن من أمر فقد سيق الرجل بعد يومين لتنفيذ العقوبة البدنية فيه، والظاهر أن هذه المفاجأة القاسية كانت رجة عنيفة له فلم يؤمن بها إلا في اللحظة الأخيرة، وحين سير به بين الصفوف راح يستغيث ويصرخ ويطلب المعونة، ولما أعيد إلى المستشفى بعد الضرب، نقل إلى العنبر الآخر؛ لأن عنبرنا لم يكن يحوي سريراً خالياً، ولكنني استفسرت عنه فعلمت أنه لبث ثمانية أيام سويًا لا يكلم أحداً، وأنه كان يبدو محطماً مقهوراً محزوناً واجماً، وأكبر ظني أنه نقل إلى موضع آخر عندما التأمت جروحته ولم أسمع عنه شيئاً بعد ذلك.

أما عن العلاج العام والعقاقير فقد تبين لي أن المرضى بعلل بسيطة قلما كانوا يتبعون ما يوصف لهم أو يتناولون الأدوية، أما الذين يشكون من أمراض خطيرة، أو المرضى حقاً، فقد كانوا مولعين بوصفات الأطباء، ومثابرين على تناول الأدوية، سوائل كانت أو مساحيق، وإن كان أحب شيء إليهم منها

الأدوية التي تستعمل من الظاهر مثل «كاسات الحِجامة» وتركيب الدود، واللبخات، والكمادات، وما إليها، وهي الأشافي التي يولع بها فلاحونا ويؤمنون بنفعها أشد الإيمان، فقد كان السجناء يقبلونها بارتياح، بل بلذّة، وأدهشني منهم أن أولئك الذين رأيتهم يتجلدون لعذاب الضرب المبرح بالعصي والمقارع كثيرًا ما يتأوهون ويتلوون ويثنون حين تستخدم الكاسات في علاجهم. ولست أدري حقًا هل تراهم رقوا من المرض وداخلتهم منه الطراوة، أم كان ذلك لمجرد التظاهر والتمثيل، وإن كان الواقع أن الحِجامة بالكاسات في عنبرنا كانت من نوع خاص، فإن الممرض، أو مساعد الطبيب، أضع من عهد بعيد أو أفسد، الآلة التي يشك بها جلد المريض، أو لعلها بليت ولم تعد صالحة للعمل، فاضطر إلى الاستعانة بمبضع أو مِفْصَد لوخر البشرة به، وهي نحو اثنتي عشرة شكة في كل مرة يراد فيها فصد المريض، ولكنها لا تؤلم إذا شكت بالأداة الصالحة؛ لأنها تشك جميعًا في وقت واحد، وقلما تترك ألمًا، ولكن إحداثها بالمبضع موجه لأنه يقطع ببطء، فيحس الإنسان ألمًا، فإن كان المريض بحاجة إلى عشر كاسات، كان على المساعد أن يقطع مائة وعشرين مرة بالمفصد، وهي في جملتها عملية ثقيلة، وقد جربتها، فوجدتها مؤلمة فعلاً ومستكرهة، ولكنها على إيلامها لا تقتضي التوجع منها والأنين، وقد يبدو أحيانًا غريبًا أن يشهد المرء رجلًا عملاقًا شديد الأسر، يتلوى ويئن من الألم، ولعل هذا أشبه بحال رجل يبدو رابط الجأش، ثابت الجنان، متمالك الشعور في المواطن العظيمة، والمواقف المهمة، ولكنه يلوح أحيانًا في البيت كدر الخاطر، معكر المزاج، يرفض تناول ما يقدم من الطعام إليه، ويجد الخطأ في كل شيء، ويكثر من التأنيب، ولا يعجبه العجب، ولا يرضيه أحد، ويحسب كل إنسان فظًا خشنًا معه، أو

يبدو في الجملة كما يقال أحياناً عن بعض السادات: «الغنى يورث البطر»، وإن شوهده أمثاله بين معاشر الفلاحين، وقد رأينا منهم خلقاً كثيراً في السجن الذي يقتضينا أن نعيش معاً في عشرة واحدة، وكثيراً ما يكون أمثال هذا الهش اللين موضع سخرية وتنكيت من جانب السجناء الآخرين معه في العنبر، وقد يزورونه أحياناً ويحتقرونه كذلك، وعندئذ «ينكمش» ويسكن، كأنما كان ينتظر أحداً يوبخه وينهره ليسكت ويكف عن التوجع والأنين، وكان أوستيانيسيف خاصة يكره هذا التوجع ولا يدع فرصة إلا انتهزها للسخرية من المتوجع وتحقيره، والواقع أنه كان ينتهز كل سانحة للتهكم بالقوم وتلويهمهم، فقد كان يجد في ذلك لذة، بل ضرورة لا يستطيع الخلاص منها، وقد يكون المرض بعض أسبابها، والغباء سبب آخر، وكان دأبه أن يطيل النظر إلى الرجل نظرات جد وتأمل ثم يأخذ في محاضرتيه بلهجة الاقتناع الهادئ، ولا يكف عن التدخل في كل شيء، كأنه قد عين للإشراف على النظام والروح المعنوية في العنبر، وكان السجناء يقولون عنه «إن له أصبعاً في كل فطيرة»، وينشئون ضاحكين، ولكنهم لم يكونوا قساة عليه، ويتحامون الاشتجار معه، وإن ضحكوا أحياناً منه ساخرين، قائلين: «ما أكثر كلامك.. إن ثلاث مركبات أو أكثر لتضيق عن حملة».

فكان يجيب قائلًا: «ما أكثر كلامي.. إننا لا نرفع قبعاتنا احتراماً للمغفلين، كلنا يعرف ذلك، فلماذا يتوجع المرء من شكة المفصّد.. لا بد من أخذ الخبز بترابه وترويض النفس على قبوله».

وعندئذ يقول أحدهم: «وأنت ما لك يا أخي..».

وينبري أحدهم قائلًا: «كلا، يا أولاد، إن الفصدين وقد جربته، ولكن لا شيء أشد إيلامًا من تمليص أذنك».

فيضحك الجميع.

- وهل ملصت أذنك؟..

- ألا تصدق إذن.. آه؛ أذناي طبعًا.

- أو لهذا السبب نراهما طويلتين هكذا...

وكان هذا السجين يدعى «شابكين» وكان له فعلاً أذنان طويلتان ناتئتان، وكان فيما مضى من دهره «أفأفاً» يضرب في الأرض، ولا يزال في ربيع العمر وهو إنسان هادئ عاقل يتكلم أحياناً بمجانة مخيفة، وكأنه يجد فيما يقول، مما يضيفي على أحاديثه أحياناً روح فكاهة ممتعة.

وهنا حشر أوستيانتي سيف نفسه في الموضوع فقال موجهاً الكلام في غضب لشابكين، وإن لم يكن هذا قد عناه، بل كان يكلم الجمع: «ولماذا تريد مني أن أظن أن أذنك شدتا، وكيف كنت أتصور ذلك أيها الغبي؟».. ولكن شابكين لم يعره التفاتاً.

وسأل أحدهم: «ومن الذي شد أذنك؟»..

فأجاب قائلاً: أتسألني من هو الذي شد أذني.. يا عجباً، ضابط البوليس بلا شك هو الذي شدها، وكان ذلك يا إخواني في أيام تجوابي وتنقلي في البلاد شاردًا، فقد وصلنا إلى ك... وكنا اثنين، أنا وجوابة آخر يدعى «إيفيم» فقط، ولا لقب له، وفي طريقنا التقطنا شيئاً يسيراً من دار فلاح في قرية تدعى «تولميننا»، ولما دخلنا البندر تلفتنا حولنا عسى أن نجد شيئاً نلقطه ثم نهرب، وفي الريف أنت حر تذهب أين شئت، شمالاً أو جنوباً أو غرباً أو شرقاً، أما في البندر فلا يهدأ لك بال، وأنت أبداً قلق، ولكننا ذهبنا أولاً إلى «الحانة» ودرنا بأعيننا، متفحصين، ودلف نحونا إنسان، فإذا به متسول محترف، ذو

ثقوب في مرفقيه، ولكنه لا يرتدي زي الفلاحين، وتجاذبنا أطراف الحديث.

قال: «واسمحا لي أن أسألكما هل معكما أوراق^(١)؟».

قلنا: «كلا، ليس معنا».

قال: «بالله، وأنا أيضًا ليس معي، ولدي هنا صديقان آخران يشتغلان أيضًا في خدمة الجنرال «كاكو»^(٢)، وقد جنينا قليلًا ولم نكسب درهمًا واحدًا ولهذا أجرؤ على سؤالكما ثمن قليل من الشراب...».

قلنا: «بكل سرور».

وشربنا، وعهدوا إلينا بمهمة تتفق وميولنا، وهي السطو على الدور، وكان في طرف المدينة بيت يقيم فيه غني له متاع كثير، فقررنا زيارته ليلاً، ولكننا ضبطنا نحن الخمسة في ذلك البيت وسبق بنا إلى مركز البوليس، وقدمنا رأسًا إلى الضابط فقال إنني سأتولى بنفسي التحقيق معهم، وجاء يدخن في قصبته وأحضر إليه فنجان من الشاي، وكان رجلًا طويل الشاربين، بادي الابتسام، فجلس، وأدخل عليه ثلاثة آخرون من الأفاقين أيضًا، وأنتم تعرفون يا إخواني من هو الأفاق... إنه امرؤ غريب، لا يتذكر شيئًا، ولو كسرت كتلة خشب فوق رأسه، فلن تحمله على تذكر شيء، والتفت الضابط نحوي أول ما التفت، وصاح بي بصوت كأنه منبعث من نعليه «من أنت؟..» فكان جوابي بالطبع جواب كل أفاق سواي، قلت: لا أتذكر شيئًا يا أفندم، لقد نسيت..

فحدجني ببصره وقال: «انتظر لحظة فإن لدي قولاً آخر أريد أن أقوله

(١) يقصد «جواز السفر».

(٢) أي في الغابات، والمعنى أنهما أفاقان مثلهما متشردان.

لك، والتفت إلى الرجل الذي كان بجانبى وسأله: «من أنت؟..» ولم أكن رأيت من قبل أبداً.

وأجابه الآخر: «أقطع وأجر يا افندم».

- أهذا هو اسمك؟...

- نعم يا افندم.

والتفت إلى الثالث وهو يقول: طيب يا سيد اقطع واجر، وأنت؟

وأجاب هذا قائلاً: «أنا معه يا افندم».

- ولكن ما اسمك؟..

- هذا هو اسمى، أنا معه...

- ومن الذى سماك بهذا الاسم، أيتها الشقى؟..

- قوم أخيار يا افندم، إن فى الدنيا قومًا أخيارًا كما تعرف يا افندم.

- ومن هم أولئك الأخيار؟...

- لقد نسييت والله، وأرجو منكم الصفح يا حضرة...

- أنسيتهم جميعًا؟...

- نعم، كلهم يا حضرة...

- ولكن لا بد من أن يكون لك أب وأم، وأنت تذكرهما طبعًا..

- لا بد من أن لى أبًا وأماً ولكنى نسيتهما أيضًا، ربما كان لى والدان حقًا

يا حضرة...

- ولكن أين كنت تقيم قبل الآن؟..

- في الغابات ..

- في الغابات دائماً؟ ..

- دائماً ..

- وماذا تفعل في الشتاء؟ ..

- لم أشهد الشتاء يا حضرة ...

والنتفت إلى الرابع وراح يسأله: «وأنت ما اسمك؟...».

وأجاب هذا قائلاً: «بلطة يا أفندم....».

وسأل الخامس: «وأنت؟...».

وكان جوابه: «بوابة يا افندم».

والنتفت إلى الأخير فقال: وأنت؟ ...

وأجاب هذا بقوله: مَسْنُ يا افندم ..

- ليس فيكم أحد يذكر شيئاً؟ ...

- ليس فينا أحد يا افندم ...

وعندئذ نهض من مجلسه وهو يضحك، ونظروا هم إليه وضحكوا، ولكن من الجائز في مرة أخرى أن يعطيك لكمة تحت الفك، المسألة مسألة حظ، وكان الجمع من الأقوياء الغلاظ المفتولين.

ودار بعينه إلى الجند فقال: خذوهم إلى السجن، سأتكلم معهم فيما بعد، وانشئ يقول لي: «أما أنت فابق» تقدم واجلس؛ ورأيت منضدة وورقاً وقلمًا، وقال: خذ القلم وكتب، فقلت لنفسى ماذا تراه يقصد، وأمسك بأذني وأخذ يشدها، فنظرت إليه كما نظر إبليس إلى القسيس، قلت: لا أستطيع

يا أفندم وعاد يقول: اكتب... قلت متوسلاً: في عرضك... قال: اكتب على قدر اجتهادك، وظل يشد أذني طويلاً، ثم لواها فجأة؛ والحق أقول يا أولاد لقد كنت أفضل أن أخذ ثلاثمائة عصا ولا تشد أذني على هذه الصورة... لقد بدأت النجوم تتلألأ أمام عيني وعاد يقول: «اكتب... هذا هو كل المطلوب منك...».

وسأله أحد السجناء: «ولكن ما حكايته» أكان مجنوناً أم ماذا؟... واستطرد شابكين: «كلا، لم يكن مجنوناً، ولكن حدث من عهد قريب أن كاتباً في مدينة ت... لعب لعبة بارعة، فقد سرق من الحكومة أموالاً وهرب بها، وكانت له أذنان طويلتان كأذني، وأرسلت أوصافه إلى جميع الجهات، وظن الضابط أنني قد أكون ذلك الموظف الهارب، فحاول أن يحملني على الكتابة لكي يعرف خطي».

وقال السائل: أما حكاية، يا ولد... وهل كان التمليص مؤلماً؟... قال: فعلاً، كان مؤلماً...

وهنا ضح السجناء جميعاً ضاحكين.

وعاد السائل يقول: «هه... وهل كتبت؟...»

قال: وكيف كنت مستطيعاً... لقد بدأت أحرك القلم في يدي ثم أحرته فوق القرطاس، ولكنه عدل عن هذا الرأي وضربني اثني عشر «قلمًا» على وجهي، وتركني أساق إلى السجن أيضاً بالطبع.

- وهل تعرف الكتابة؟...

- كنت أعرفها يومًا ما، ولكنني لما رأيت الناس يكتبون بالريشة فقدت هذا الفن...

وبهذه القصص وأمثالها، كنا نقضي الوقت، وننفي عنا الملالة، ربا... ما كان أشد ضجرننا، وأسوأ ملالتنا، فقد كان النهار طويلاً خانقاً، والأيام متشابهات، وليت للمرء كتاباً، فيكون له أنيساً... ومع ذلك كنت لا أقطع عن الذهاب إلى المستشفى، ولا سيما في أيامي الأولى، وأحياناً لأنني مريض فعلاً، وأحياناً أخرى لمجرد الراحة والتهرب من السجن؛ فقد كان المقام فيه لا يحتمل، بل أسوأ مما هو في المستشفى من الناحية النفسية وأشد إيلاماً، ففي السجن ما شئت من البغضاء والعداوة والشجار والحسد، والحملات المستمرة علينا نحن «السادات»، والوجوه الناقمة المهددة... أما في المستشفى فقد كان الجميع على قدم المساواة، والعيش أكثر مودة، وأخف قسوة. وكان أشد ساعات اليوم كآبة ساعة إضاءة القناديل على مطالع المساء وإقبال الليل، فقد أُلِف المرضي الإيواء إلى السرر باكرين التماساً للنوم، وكان للمصباح الضئيل بصيص من ضياء يلوح من بعيد بقرب الباب، أما الجزء الذي تقوم فيه مضاجعنا فقد ظل معتماً، وكان الهواء يتكاثر ويفسد، وقد يأرق أحدهم فيستوي جالساً في مرقده ساعتين أو نحوهما، وهو مطرق كأنما يفكر في شيء، فلا يسع المرء إلا أن ينظر إليه ساعة أو بعضها لقتل الوقت، ويروح يسائل نفسه فيم تراه يفكر، أو يبدأ المرء يحلم ويتذكر الماضي، ويرسم بالخيال صوراً زاهية الألوان روائع الأفق، أو يستعيد ذكريات وتفاصيل ما كان ليستعيدها في وقت آخر، ولا يستشعر منها عندئذ ما هو الساعة مستشعر، وقد يذهب المرء يفكر في المستقبل، وكيف سيخرج من السجن، وإلى أين هو ذاهب، ومتى سيكون ذلك، وهل تراه سيرجع إلى مسقط رأسه... وهكذا يظل يفكر ويتخيل ويتدبر حتى يستيقظ الأمل في أعماق صدره، وفي أحيان أخرى يبدأ المرء يعد واحداً فاثنان

فثلاثة وهلم حتى يغالبه النعاس، وقد عدت مرة إلى ثلاثمائة ألف ولكن لم أنم؛ وقد يتحرك أحدهم في مرقده، أو يسعل أو استيانسيف سعلته المريضة المصدورة ثم يخافت بأنين، ويردد قوله: «رب لقد أثمت...» وإن سماعك هذا الصوت المريض المتقطع المتأوه لغريب في وسط ذلك السكون المَحْطَرَف على العنبر، وفي ركن آخر منه مرضى مسهدون يتجاذبون أطراف الأحاديث وهم راقدون على سررهم، إذ يبدأ أحدهم يقص عليهم شيئاً من ماضيه، أو يروي حادثاً طال الأمد عليه، أو يحدثهم عن تجاوبه، أو عن أولاده وزوجه وأيامه الماضيات، حتى لتشعر من هذا الصوت الهامس البعيد بأن هذا الذي يقصه قد انتهى من عهد بعيد ومن المحال أن يعود، وإن الراوي نفسه قد قطع كل صلة به؛ ويصغي الآخرون لحديثه، فلا يطرق أذنك غير همس خافت رتيب كأنه الماء يقطر من موضع سحيق، وأذكر أنني في ليلة شتاء بطيئة الكواكب سمعت قصة، وكانت في أول الأمر تبدو وكأنها «كابوس» وكأنني كنت محمومًا ورأيتها في المنام وأنا في غمرة غيبوبة...

الفصل الرابع زوج أكولكا - قصة -

كان الليل قد أوهن، أو حوالي الثانية عشرة، وكنت قد نمت، وصحوت وشيكا، وكان ضياء المصباح القائم ينبعث خافتا باهتا في العنبر... والجميع أو أكثرهم نيام، حتى أوستيانتسيف نفسه كان نائما، ويكاد المرء في ذلك السكون المخيم يسمع تنفسه المؤلم والحشجة المتهدجة في حنجرتة عند كل شهقة أو زفرة، وانبعثت فجأة من بعيد في الردهة مواقع أقدام ثقيلة الخطى، وهي أقدام الديدبان جاء ليحل محل الحارس، وصوت بندقية استقر مؤخرها فوق البلاط، وفتح باب العنبر، وتقدم الجندي بخطى محاذرة قصد المرضى ثم أغلق الباب، ووقف الديدبان الجديد وانصرف الحارس، وعادت السكينة غامرة شاملة، وعندئذ فقط تبين لي أن هناك عن شمالي بمكان غير بعيد مريضين ساهدين يتهامسان وكان يحدث أحيانا أن ينام مريضان جنبًا إلى جنب أيا ما بل أشهرًا بلا كلام ولا حديث، وإذا بهما فجأة يشرعان في الكلام؛ لأن سكون الليل أهاج أشجانهما، فينطلق أحدهما يكشف للآخر عن كل ماضيه.

والظاهر أنهما كانا قد شرعا يتحدثان من وقت طويل، ففاتتني البداية، ولم أستطع أن أفهم دقائق الحكاية، ولكنني أخذت شيئاً فشيئاً ألتقط السياق وأفهم كل صغيرة في القصة وكبيرة، وطار النوم من عيني، فلم أجد غير إرهاف سمعي للحديث، وكان أحدهما متحمساً، وهو راقد نصف رقدة، رافع الرأس عن الوسادة، ولاويًا عنقه ليوافقه رقيقه، والظاهر أن الحماسة اشتدت به فأراد أن يروي قصته، وكان المستمع إليه جالساً في وجوم على فراشه لا يبدي اكتراثاً، وإن راح أحياناً يجمعهم بجواب أو إشارة عطف على محدثه، هي أدنى إلى الأدب والمجاملة منها إلى الإحساس الصادق، والرتاء الحقيقي، وهو بين لحظة وأخرى يتنشق - عطوساً - وكان هذا جندياً يدعى «شرفين» من كتيبة التأديب ويلوح في الخمسين، ويكثر من الادعاء والزهو والتكلف والبرود، وكان الراوي يدعى شيشكوف، وهو فتى دون الثلاثين، وأحد السجناء في القسم المدني من سجننا، وكان يشتغل في عنابر الحائكين، ولم أكن إلى تلك الساعة قد عنيت بملاحظته، ولم يحدث فيما بعد شيء يجتذب ناظري إليه حتى خرجت من السجن. وكان يبدو مخلوقاً ضحضاحاً غريب الأوهام، عجيب الأطوار، تراه أحياناً صموتاً واجماً خشناً، حتى لتتقضي الأسابيع فلا ينبس خلالها بكلمة واحدة، وأحياناً تشهده مشتبهاً فجأة في حادثة ما، فإذا به المتحدث عن الفضائح المتحمس في رواية التوافه! منتقلاً بين العنابر يردد الحكايات، والقصص، ولا يكف عن الكلام، هائجاً كالمجنون، ثم يضرب فيعاوده الصمت، فلا ينبس ولا يتلجلج. وكان شاباً هيابة منفراً تعافه النفس، وكان كلهم يعاملونه بازدراء، وكان قصير القامة نحيلًا خلاج العينين لا تستقران، وأحياناً تبدو عليه نظرات شاردة حالمة، وينبث أحياناً يقص قصة، فيتحمس في المطالع، ويشير بيديه، وفجأة

يكف عن السرد، أو يتحول إلى موضوع آخر، منطلقاً مع تيار أفكار جديدة، ناسياً ما كان قد بدأه من الحديث، وكثيراً ما كان يشتجر، وكلما اختلف مع خصم له مضى يعنفه على ظلم ناله من يديه، أو مساءة وقعت له من جانبه، فإذا هو يتكلم بإحساس، ويكاد يذرف الدموع؛ وكان يحسن العزف على «البلايكا»، وهو بالعزف مولع، وفي الأعياد قد يرقص، ويحسن الرقص إذا هم أرقصوه، ومن السهل حمله على تأدية أي عمل؛ لا لأنه المطيع القابل للتعليم؛ بل لأنه يحب المسالمة ولا يمتنع عن عمل شيء لكسب الرضاء...

ولبت لحظة طويلة لا أكاد ألتقط ما كان ماضياً في الحديث عنه، ويخيل لي أيضاً أنه ما فتى في أول الأمر يشرد عن موضوعه، ويأخذ في موضوعات أخرى، ولعله فطن إلى أن شرفين لم يكن ملقياً باله إلى قصته، فأراد إقناع نفسه بأن المستمع إليه كان كله آذاناً له، أو لعله كان سيتأذى كثيراً ويستاء إذا اقتنع بأن الأمر بالعكس.

وسمعه يقول: «... وكان يخرج إلى السوق فينحني الناس له احتراماً، إذ كانوا يشعرون بأنه رجل غني.. هذا هو التعليق الوحيد».

فقال تشفرين: هل قلت إن له تجارة؟..

- نعم، كانت له تجارة، وكان هناك فقراء، بل قل متسولون ملحون على التسول، وقد اعتادت النساء أن يحملن الماء من النهر فوق الجسر المرتفع لري خضرهن، وقد أعياهن الكد والجهد ثم يظفرن بقدر من الجزر يكفي للحساء في الخريف، فكانت الفاقة إذن ضاربة أطباها، فاستأجر قطعة أرض كبيرة واستعان بثلاثة عمال على زرعها، فضلاً عما كان لديه من خلايا النحل، وما كان يكسبه من بيع الشهد، وكانت عنده الماشية، وهي كثيرة في بلادنا كما تعلم، فكان الرجل مرموقاً بعين الاحترام، وكان شيخاً

كبيرًا، في السبعين من العمر، وهن العظم منه، واشتعل الرأس شيئًا، وكان ضخم البدن عريض الكراديس، يذهب إلى السوق مشتملاً بمعطف من جلود الثعالب، فيلقاه الناس بإجلال وإكبار؛ لأنهم شاعرون بقدره، ويحييه أحدهم قائلاً: طاب صباحك يا سيد «أنكوديم تروفمتش» فيحييه «طاب يومك» لأنه لم يكن يتكبر عن مخاطبة أحد ويقول الأول: «لك طول العمر يا أنكوديم تروفمتش» فيرد بقوله: «كيف الحال؟...»، ويجب هذا «الحال قطران، وأنت ماذا تفعل يا سيدي؟» فيقول: «أفعل على قدر ما تسمح لي آثامي وخطاياي»، إنني «أهكع»... ويرد الآخر بقوله: سلمت يا أنكوديم تروفمتش.. وهكذا ترى أنه لم يكن يترفع عن الكلام مع الناس، ولكنه إذا تكلم كانت كل كلمة منه تساوي روبلاً، وكان عاكفاً على قراءة الإنجيل، وهو رجل متعلم لا يكف عن قراءة الكتب الدينية، وينادي امرأته العجوز فيجلسها قبالة ويقول لها: «الآن يا زوجة، اسمعي وعي..» وينشئ يقرأ لها ويفسر، ولم تكن زوجه عجوزاً في مثل سنه، فقد كانت زوجه الثانية، مني بها على أمل أن يرزق بالبنين؛ لأنه لم ينجب من الأولى، ولكنه من الثانية وهي تدعى «ماريا ستيبانوفنا» أنجب ولدين كانا لا يزالان صغيرين، وكان في الستين حين ولدت «فاسيا» أصغر أولاده، بينما بلغت «أكولكا» كبراهم الثامنة عشرة...».

قاطعه تشفيرين سائلاً:

- هل كانت هذه زوجتك؟..

- تمهل قليلاً، لقد بدأت المتاعب أولاً من جانب «فيلكا موروزوف» فقد راح يقول له: «أعطني حصتي، هات أربعة آلاف روبل، هل أنا خادمك... لا أريد الاشتراك في العمل معك، ولا أريد «أكولكا» ابتتك، إنني أريد أن

أحيا كما أشاء، بعد موت أبي وأمي، أريد أن أنفق مالي كله في الشراب وأشتغل بعد ذلك أجيراً، أي أصبح جندياً، وأعود إلى هنا بعد عشر سنوات «مارشالاً»، وأعطاه أنكوديم ماله وصفى معه حسابه فقد كان أبوه شريكاً له في التجارة، وقال له أنت شاب ضائع، فكان جواب الفتى، سواء كنت ضائعاً أم لم أكنه أيها الشيخ الأشيب، ليس الشأن شأنك، إنك تريد أن تعلم المرء كيف يرتضع اللبن من البومة، وتقتر على نفسك، وتقتصد كل درهم، وتشتجر مع القمامة لتصنع منها ثريداً، ولكنني أبصق على الثروة والمال والنشب، إن ما يجمعه الشح تأتي الرياح فتذروه... إن لدي إرادة، ولست أريد «أكولكا» ابتك، فقد نمت معها على كل حال وزهدت النفس فيها، فلا يكاد الشيخ يسمع هذا القول حتى يصيح به قائلاً: ماذا أسمع؟.. أتجرؤ على تلطيخ أنزه ابنة لأنزه أب بالعار!... متى نمت معها أيها الثعبان؟.. وكان الرجل كما وصف فيلكا لي وهو يروي القصة على مسمعي، يرعش ويرتعد، واسترسل فيلكا يقول للشيخ: «سأعمل جاهداً على حرمان «أكولكا» من الظفر بزواج، لا أنا ولا سواي، فلن يرضى أحد بها اليوم، حتى ولا ميكيتا جريجورتش؛ لأنها الآن ملطخة بالعار، وقد كنت على علاقة بها منذ الخريف، ولا أقبل الزواج بها الآن ولا بمال الدنيا... حاول أن تعطيني منها... تجدني الراض الممتنع...».

وهكذا انطلق الفتى يخلع العذار بيننا، ويحدث في البلد دويّاً، واتخذ من بعض الشباب رفقاء، ومضى ينفق المال جزافاً، حتى أضاعه عن آخره في ثلاثة شهور، وكان يقول: «حين أصرف آخر درهم، سأبيع البيت وكل شيء، وأبيع نفسي كذلك؛ لأصبح جندياً، أو أفاقاً»، وكان يلح على الشراب من الصباح إلى الليل، ويتنقل في المدينة في مركبة ذات أجراس وحصانين،

والنساء يتبعنه في كل مكان؛ لأنه كان يجيد العزف على «التوربا».

فسأله تشفيرين:

— إذن هل كان «ماشياً» مع أכולكا من قبل؟...

— تمهل قليلاً، وكنت قد فقدت أبي أنا أيضاً في تلك الأيام، وكانت عادة أُمي أن تصنع الكعك، وكانت في خدمة الشيخ «أنكوديم» وكذلك كنا نعيش عيشة ضنكاً، واعتدنا أن نستأجر قطعة أرض صغيرة وراء حدود الغابة ونزرعها قمحاً، ولكن لم يكن بقي لدينا شيء بعد وفاة أبي، وجنحت أنا أيضاً إلى اللهو والعبث فكنت أستخلص النقود من أُمي بضربها..

واستنكر تشفيرين هذا فقال:

— هذا أمر نكر، تضرب أمك... إنه لأثم عظيم!

— واعتدت أن أسكر من الصباح إلى الليل يا بني، وكان منزلنا مهدهماً، ولكنه كان ملكنا، وإن خلا جوفه كالطبله، فكنا نجوع ولا نجد فيه لقمة تؤكل من نهاية الأسبوع إلى الأسبوع التالي، وطفقت أُمي «تزن» في أذني، ولكن ماذا كان يهمني... فقد كنت أنفق الساعات مع «فيلكا مورزوف» في تلك الأيام فلا أفارقه من الصباح إلى الليل، وكان يقول لي اعزف على القيثارة وارقص، بينما أرقد أنا وأنثر عليك المال نثرًا لأنني غني مفرط الغنى، ولم يكن في الدنيا شيء لم يفعله، إلا أخذ الأشياء المسروقة، وكان يقول: «كله جائز إلا أن أكون سارقاً، إنني رجل نزيه، ولكن هيا بنا نلطح باب «أכולكا» بالقطران لأنني لا أريد أن تتزوج «ميكيتا جريجوريتش»، إنني بهذا الأمر مهمتهم كل الاهتمام، فقد كان مراد الشيخ أن يزوجه ميكيتا من عهد بعيد»، وكان ميكيتا هذا عجوزاً يضع منظاراً على عينيه، وهو أرمل يشتغل بالتجارة، ولكنه

لما سمع حكاية أكلوكا تراجع قائلاً لأبيها: «إن هذا يلوث سمعتي يا أكوديم ترومفتش، ولست أريد الزواج وأنا شيخ» وهكذا ذهبنا فلطخنا باب أكلوكا فضربوها في البيت، وصاحت ماريا ستيبانوفنا قائلة: «سأمحوها من وجه الأرض محوًا»، وقال الشيخ: لو كنا نعيش في السنين الماضيات، وعهد البطارقة الأمجاد لقطعتها إربًا، ولكننا اليوم نعيش في ظلام وفساد وضلال. وكان الجيران الذين يسكنون في الشارع ذاته يسمعون أحياناً عواء أكلوكا وصراخها، لقد كانوا يضربونها من الصباح إلى الليل وكان فيلكا يصيح في أهل السوق جميعاً ليسمعوا قوله، إن أكلوكا امرأة يلذ المرء الشراء معها، «إنك تمشين حالية متجملة، فمن عشيقك خبرينا» ويشني يقول لي «لقد جعلت الناس يعرفون كل شيء عنها، ولن ينسوه أبداً».

وفي ذات يوم التقيت بأكلوكا وهي تحمل الجرادل فصحت بها «طاب صباحك يا أكوлина كوديموفنا، وعلى حسنك السلام... إنك تمشين حالية، فمن أين لك هذا... ومن عشيقك خبرينا.... هذا هو كل ما قلته، ولكن لي الله من نظراتها، لقد كانت ذات عينين نجلاوين، وقد نحلت حتى أمست كالعصا نحولاً، وفيما كانت تنظر إليّ ظنت أمها أنها تضحك معي وصاحت بها لدى الباب: «ما هذا الذي تحملقين فيه هكذا أيتها الفتاة التي لا تعرف الحياء....» وضربتها أمها «علقة» في ذلك اليوم، وكانت تضربها أحياناً ساعة كاملة وهي تقول: لأؤدبها؛ لأنني اليوم بريئة منها.

وعلق تشفرين:

- لقد كانت إذن بنتاً خسرانة...

- اسمع يا شيخ، وكنت أشرب في كل يوم مع «فيلكا» فجاءت أمي في أحد الأيام وكنت مضطجعاً فأهابت بي قائلة: «لماذا ترقد هنا أيها

الشقي؟...» وراحت تسبني، وانشئت تقول: «خير لك من هذا أن تتزوج، فلتقترن «بأكولكا»، إنهم لا يتأخرون عن تزوجها الآن حتى لمثلك، وسيعطونك ثلاثمائة روبل نقدًا»، قلت: ولكنها مدنسة السمعة في أعين الناس. قالت: أنت مغفل، إن خاتم القِران سيمحو كل شيء، وسيكون من الخير لك إذا كانت ستقضي بقية الحياة نادمة على ما فرطت فيه من قبل، وبالمال الذي ستأخذه منهم تستطيع إصلاح أمرنا، والاستواء على سوقنا، وقد تفاهمت مع ماريا ستيبانوفنا، وهي على استعداد لتصني إلى مقترحي، فقلت لها: «إيدك على عشرين روبلاً وأنا أتزوجها»، فهل تصدقني إذا قلت لك إنني لبثت سكران طافحاً من ذلك اليوم إلى موعد العرس، وكان فيلكا موروزوف لا يفتأ يهددني بقوله: سأهشم أضلاعك تهشيمًا يا بعل أكولكا، وسأنام مع زوجك كل ليلة إذا أنا شئت، قلت: اخسأ أيها الكلب، وعندئذ راح يفضحني أمام كل الناس في الشارع، فعدوت أطلب البيت، قلت: لن أتزوجها إذا لم تعطوني خمسين روبلاً في الحال.

- وهل ارتضوا زواجها بك؟...

- ولم لا... لقد كنا قومًا محترمين، ولم يدمر حياة أبي في النهاية غير شباب حريق، وكنا إلى تلك اللحظة خيرًا منهم مقامًا، وأحسن منهم شأنًا، وحين قال لي أنكوديم: «إنك لفقير كالجرذ» قلت له: لقد تكاثر القطران الملطخ به بابك، فقال لي: لا ضرورة للتشهير بنا، أنت لا تعرف أنها دنست شرفها، ولكن أين لنا بكم أفواه الناس، ها هي ذي صورة العذراء، وها هو ذا الباب... لا ضرورة لأخذها، إنما أردد إلينا المال الذي أخذته منا، فتحدثت إلى «فيلكا» في هذا الأمر، وأوفدت إلى الشيخ أنكوديم، «متري بيكوف» يقول له إنني سأفضحه أمام الناس جميعًا. وظللت إلى يوم العرس سكران

ميتاً من شدة السكر، ولم أكف عن الشراب إلا يوم القران، وعندما أقلتنا المركبة إلى البيت بعد العقد، انثنى عمي بترو فان ستينوفتش يقول: «إذا كان هذا القران مدنسًا، فهو على كل حال ملزم، لقد قضي الأمر وانتهى»، وكان الشيخ أنكوديم سكران أيضًا، فبكى وبللت الدموع لحيته، وإني لقائل لك ماذا فعلت، لقد وضعت سوطاً في جيبي، وأعددت قبل العرس وعرفت أن أمثل فصلاً هزلياً مع أكلوكا لكي أعلمها معنى الزواج بهذه الحيلة القذرة، وحتى يعرف الناس أنني لم يضحك عليّ ولم استغفل في هذا الزواج..

- فكرة طيبة أيضًا... واحتياط للمستقبل...

- كلا يا شيخ، اسكت أنت، والعادة في تلك النواحي التي كنا نقيم فيها أن يؤخذ العروسان عقب الزفاف إلى غرفة وحدهما، ويجلس الآخرون في أخرى لمعاقرة الخمر، فلم ألبث أن وجدتني وحدي مع «أكلوكا» وكانت شاحبة قد هرب الدم من وجهها، وهي في فزع ورعب، وكان شعرها أبيض أيضًا كالكتان، وعيناها نجلاوين، وهي ساكنة لا تقول شيئاً كالخرساء، لقد بدت عندئذ غريبة لا كعهد الناس بها، فهل تصدقني يا أخي إذا قلت لك إنني أعددت السوط ووضعت به جانبي فوق السرير، ولكن تبين لي أنها لم تخذعني مطلقاً ولم تظلمني في شيء..

- كلام جد...

- أي والله، لقد كانت بريئة كل البراءة، ولكن ما الذي دعاها إلى احتمال كل هذا العذاب الذي قاسته، ولماذا تركت فيلكا يشهر بها ظلمًا أمام الناس على هذا النحو؟..

- آه.

- لقد جثوت عند قدميها في الحال، وتضرعت إليها قائلاً: أكلينا كوديموفنا.. صفحاً عن غفلي وظني السوء بك، ومغفرة لمجرم أثيم مثلي، فجلست قبالي فوق الفراش تنظر إليّ وتضع يديها فوق كتفي، والعبرات تسيل من عينيها، ولبتت تبكي وتضحك... ثم خرجت إليهم جميعاً، قلت: إذا لقيت فيلكا موروزوف الساعة فهو هالك، أما الشيوخ من أهلنا فلم يعرفوا لأي قديس يصلون صلاة الشكر، وكادت أمها تسقط من طولها، ومضى الشيخ يقول: لو كنا نعرف هذا لما رضينا لكِ بمثل هذا بعلاً يا ابنتنا المحبوبة...

ولما ذهبنا إلى الكنيسة في يوم الأحد التالي وأنا في قلنسوتي «الاستراخان» وسترتي المصنوعة من القماش الرفيع وبنطلوني القטיפي، وهي في سترة من جلود الأرانب ومنديل حريري فوق رأسها، بدونا زوجاً لاثقاً بزوجته، وعروساً صالحة لقرينها، ومشينا نخطر على أعين الناس، وهم منا معجبون، ولست بحاجة إلى الكلام عن نفسي، وأما عن «أكولكا» فلا يمكنني أن أمدحها طبعاً أو أرفعها مكاناً علياً فوق النساء جميعاً، ولا أستطيع أيضاً أن أقول إنها كانت أقلهن شأناً، وإنما الحق أقول إنها كانت تساوي عشرات منهن.

- لقد انتهى الأمر بخير إذن...

- استمع يا أخي... وفي اليوم التالي للعرس كنت سكران فهربت من زائرينا وخرجت من البيت وقلت في السوق صائحاً: «أروني هذا الشقي فيلكا موروزوف، هاتوه أمامي»، لقد كنت سكران منزوفاً من فرط الشرب، ولم أكد أجتاز دار آل فلازوف، حتى حملوني حملاً، ونقلني ثلاثة رجال إلى البيت، وشاع الخبر في البندر وذاع وملاً الأسماع، وأقبل النساء في السوق

يتحدثن به فيما بينهن قائلات: «هل سمعتن يا بنات... لقد ثبت أن أكولكا بريئة طاهرة...».

ولم تنقُض أيام حتى قال لي فيلكا أمام الناس: «بع زوجتك وتعال اسكر، لقد فعل ذلك ياشكا الجندي، فلم ينم مع زوجته، وظل سكران لا يفيق ثلاث سنين سوياً»، قلت: إنك لمجرم، وقال: وأنت مغفل.. لقد كنت سكران حين زفت إليك، فمن أين تعرف وقد كنت ثملاً... فعدت إلى البيت ورحت أصبح بهم قائلاً: لقد زوجتموني وأنا سكران، فبدأت أُمي تنهرني، قلت لها: لقد ملأوا أذنيك ذهباً يا أم فلم تسمعي، هاتوا لي «أكولكا» وبدأت أضربها، وضربتها ساعتين كاملتين حتى لم أعد أقوى على الوقوف وظلت ملازمة الفراش ثلاثة أسابيع.

وهنا قال تشفرين بيروود: «لك حق؛ لأنك إذا لم تضرب النساء فلن... ولكن هل ضبطتها مع عشيق؟».

قال: «ضبطها... كلا لم أضبطها ولكنني شعرت بأنني قد أهنت، واشتد الناس في غيظي ومعاكستي وعلى رأسهم فيلكا، فقد جعل يقول لي: «إن عندك زوجة للفرجة، زوجة للعرض...»، ودعانا «فيلكا» مع آخرين، وكان هذا هو ما حياني به عندما ذهبنا إليه: «إن له زوجاً رقيقة القلب، شريفة مؤدبة تعرف كيف تسلك وتتصرف، لطيفة في كل شيء، وهذا هو رأيي فيها الآن، ولكنك يا فتى نسيت كيف كنت بالقطران تلطخ بابها!»، فجلست سكران، وتناولني من شعري فجأة، وجعل يشدني منه شداً ليشهر بي أمام الناس، ومضى يقول هيا ارقص يا زوج أكولكا، سأمسكك هكذا من شعرك حتى ترقص وتسليني، فصحت به: إنك لمجرم. وقال لي: «سأحضر إليك مع أصحاب لي وأضرب لك أكولكا زوجتك علقه أمامك كما أشاء»، فهل

تصدق إنني خفت الذهاب إلى البيت شهراً كاملاً، لقد خشيت أن أذهب فيفضحني... ولهذا السبب ذاته بدأت أضربها...

- ولكن علام الضرب... إنك تستطيع أن تربط يدي إنسان ولكنك لا تستطيع أن «تربط» لسانه، ولا يصح لك أن تسرف في ضرب امرأتك، أرها العبرة، أعطها درساً ثم ترفق بعد ذلك بها وتلطف إليها، هذا هو المسلك الذي يجب أن يسلكه الرجل مع النساء.

وسكت شيشكوف لحظة.

وعاد يقول: «كنت أقصد الإهانة؛ فأصبح ضربي لها عادة ملازمة، وفي بعض الأحيان كنت أضربها طيلة النهار إلى الليل، وأرى كل شيء تفعله خطأ ونكراً، فإذا لم أضربها مللت وضجرت، وكانت تجلس صامتة لا تقول كلمة، وتطل من النافذة وهي باكية.. لم تكن تكف عن البكاء فكنت أشعر برثاء لها، ثم أعاود ضربها، وكانت أمني لا تفتأ تسبني قائلة: إنك لمجرم معتاد الإجرام... فصحت بها قائلاً: لأقتلنها ولا أدع أحداً يكلمني لأنهم زوجوني إياها بخدعة، وانتصر لها أنكوديم الشيخ في أول الأمر، وجاءني بنفسه يقول: «أنت امرؤ لا في العير ولا في النفير، وإني لمستعد القانون عليك» ولكنه عدل عن ذلك، أما ماريّا ستيانوفنا فقد ذلت وخشعت، جاءتني يوماً متوسلة والدموع في عينيها وهي تقول ضارعة: «لقد جئت لأتوسل إليك يا إيفان سيمونوفتش في أمر يسير، ولكنه صنيع كبير، دعني أعاود الأمل، رقق قلبك لها واعف عنها، إن الأشرار يقدرحون في حق ابنتنا، وأنت نفسك تعرف أنها بريئة حين تزوجتها» وانحنت على قدمي متضرعة، ولكني «تقنصلت» عليها فقلت: «لن أستمع إليك الآن وسأفعل بكم ما بدا لي، لأنني لم أعد أملك نفسي أو أسيطر عليها.. إن فيلكا موروزوف هو

صاحبي، وصديقي الحميم...».

فقال تشفيرين:

- إذن كنتما تسكران معًا في ذلك الحين؟..

- لا شيء كهذا.. فلم أكن أقرب منه، فقد أطار السكر عقله، وأضاع كل ما كان لديه، واشتغل أجيرًا عند صاحب متجر ليحل محل أكبر أولاده في العسكرية، وفي بلادنا عندما يبيع إنسان نفسه ليكون جنديًا.. يستولي إلى اليوم ذاته الذي يجند فيه على كل شيء في البيت ويستحوذ عليه، ويقبض الثمن كاملاً عند ذهابه، وإن ظل قبل هذا يقيم فيه، وقد يمكث فيه أحيانًا ستة أشهر، ويصبح سلوكه عارًا على أهله، وشنارًا لعشيرته، فهو يقول لهم: «إنني ذاهب لأكون جنديًا مكان ابنكم، فأنا إذن المحسن المتفضل عليكم، وعليكم أن تحترموني وإلا رفضت»، وهكذا كان فيلكا مستمتعًا بفترة رغبة في دار التاجر، ينام مع ابنته، ويشد الرجل كل يوم بعد العشاء من لحيته، ويفعل ما يشاء، وكان يستحم كل يوم، ويصر على الاستعاضة بالفودكا عن الماء، ويأبى إلا أن تحملته النساء إلى الحمام بين أحضانهن، وإذا جاء من مشوار وقف في بهرة الطريق وصاح قائلاً: لن أدخل البيت من الباب، اهدموا السور لأدخل. فاضطروا إلى هدم جزء منه بعيد من الباب ليتفضل بالدخول، وأخيرًا انتهت الأيام، وحل موعد الانخراط في الجندية، فتركوه يفيق من السكر ومضوا به، واجتمع الناس في الشارع زحامًا على زحام وهم يصيحون «فيلكا موروزوف» مأخوذ للعسكرية وجعل هو ينحني لهم في كل ناحية، وعندئذ خرجت «أكولكا» من حديقة المطبخ، فلم يكد يراها لدى الباب حتى صاح «قفوا» وقفز من المركبة وانحنى أمامها قائلاً: «يا روحي، يا غاليتي... لقد أحبيتك عامين، وها هم أولاء آخذون إياي إلى الجندي

بالموسيقى ... هلا صفحت عني، أيتها الفتاة النزيهة، ابنة الوالد النزيه ... لقد كنت مجرمًا أثيمًا في حقك، والذنب ذنبي لست أدفعه، وانحنى إلى الأرض مرة أخرى، ووقفت أكلوكا وهي من أول الأمر تبدو مروعة، ثم انحنت أمامه قائلة: «وهل تصفح أنت أيضًا عني أيها الفتى الكريم، فليس في خاطري أثر لسوء فعلته» وتبعته أنا إلى البيت فقلت: ما هذا الذي قلته له يا كلبة؟ ولكنها قالت لي شيئًا أحسبك لن تصدقه، قالت: إنني أحبه الآن أكثر من الدنيا كلها...

- ما هذا الكلام الذي تقوله....

- ولم أفه بكلمة طيلة ذلك اليوم، حتى إذا كان المساء قلت لها: «أي أكلوكا، إنني الساعة قاتلك...» وطار النوم في تلك الليلة من عيني، فخرجت إلى الردهة لأبحث عن شيء من الجعة لأشربه، وكانت الشمس توشك أن تشرق، فعدت إلى الحجرة فقلت لها: «أكلوكا، استعدي للخروج إلى «الغيط»، وكنت متتويًا الذهاب قبل ذلك وكانت أمي تعرف أننا ذاهبان، قالت: حاضر... إننا في موسم الحصاد وقد سمعت أن العامل مريض بمعدته منذ ثلاثة أيام، وأخرجت المركبة وأنا لا أقول شيئًا، وكان في طرف البندر غابة صنوبر تترامى عشرة أميال، ومن ورائها الأرض التي كنا مستأجرينا، ولكن ما كدنا نسير قرابة ميلين حتى أوقفت الحصان، قلت: انزلي يا أكلوكا، لقد دنت نهايتك.. فنظرت إليّ مروعة فزعة، ولبثت حيالي صامتة، قلت: إنني مللتك وزهقت روحي منك فصلي لله وأخلصي.. ثم جذبتها من شعرها، وكانت لها ضفيرتان غزيرتان طويلتان فلويتهما حول كفي وأمسكت بها من خلاف بين ركبتي، وأخرجت سكينتي وشددت رأسها إلى الخلف ومررت به على عنقها مرًا، فصاحت وصرخت وانبجس منها

الدم غزيرًا، فألقيت بالسكين جانبًا، ونشرت ذراعي حول بدنهما، ووقعت على الأرض، فعانقتها أحرَّ عناق، وبدأت أولول عليها، وكذلك لبثنا معًا نصرخ ونولول، وهي ترفرف وتجاهد لكي تتخلص من أحضاني، وكان الدم يقطر منها على وجهي وكفي، فتركها وقد استولى على نفسي فزع شديد، فتركت الحصان وأطلقت ساقِي للريح، عاديًا صوب البيت من خلف الدور، فدخلت الحمام، وكان لنا حمام قديم لم نكن نستخدمه، فاخبت فيه في ركن تحت السلم حيث لبثت إلى دخول الليل...

- وأكولكا؟..

- لا بد من أنها نهضت هي أيضًا من مجثمها بعد ذهابي ومشيت إلى البيت، فقد وجدوها على قيد مائة خطوة من الموضع..

- إذن لم تقتلها؟..

وسكت شيشكوف لحظة ثم أجاب: «نعم لم أقتلها».

وقال تشفرين: «إن هناك عرقًا إذا لم تقطعه قطعًا، بقي الإنسان حيًا لم يمت مهما نزع الدم منه».

- ولكنها ماتت فعلاً، وجدوها ميتة في المساء فأبلغوا البوليس، وبدأوا يبحثون عني، حتى وجدوني ليلاً في الحمام..

وتمهل لحظة ثم عاد يقول: وهأنذا هنا أوشك أن أتم أربع سنين..

وقال تشفرين ببرود وهو يخرج كيس تبغ: «هن.. مؤكده.. إذا لم تضربهن، فارتقب منهن المتاعب»..

وراح يضع عطوسًا كثيرًا في أنفه على فترات.

واستطرد يقول: يلوح لي مرة أخرى أنك كنت مغفلاً تمام الغفلة أيها الفتى، لقد ضبطت زوجتي مرة مع عشيق، فدعوته إلى «الجرن» وطويت اللجام طيتين، وقلت لها: لمن تقسمين إنك الأمانة الصادقة.. وأهويت عليها باللجام ضرباً ساعة ونصف ساعة، حتى صاحت أخيراً قائلة: «سأغسل قدميك وأشرب غسالتهما..» لقد كانت تدعى «أفدوتيا»..

الفصل الخامس

الصيف

ونحن الآن في بداية شهر أبريل، وعيد الفصح على الأبواب، وأخذ الشغل في الصيف يبدأ شيئاً فشيئاً. وراحت الشمس في كل يوم تزداد دفئاً وسطعاً، والجو يعبق بأنسام الربيع ومطالع القيظ تهيج الأعصاب، وإن مقدم الربيع ليزعج السجين الراسف في الأغلال، ويشير في نفسه شهوات غامضة، ورغبات مبهمه، وكآبة حنين شديد، وأحسب أن المرء ليلتوي ألباً من فقدان الحرية، في أشعة الشمس الساعه، أكثر منه في الشتاء البليد المكفهر أو أيام الخريف القاتمة، وهذا كله ظاهر ملحوظ عند جميع السجناء، فلئن سرتهم الأيام الرائقة فلا يلبث أن يشتد في الوقت ذاته قلقهم ويزداد تمللمهم. والواقع إنني لاحظت أن المشاجرات في السجن أكثر ما تكون وقوعاً في الربيع، إذ تكثر فيه الجلبة والصياح والزعيق، وتتفشى المشادات والمجاذبات، وإن لاحظ المرء أحياناً في ساعات الشغل أعيناً حاملة شاردة في الفضاء فجأة، حيث تترامى خلف نهر أريتش سهول «الكرغيز» المترامية

مئات الأميال، أو يسمع الإنسان رجلاً يرسل زفرة عميقة من صدره المفعم، كأنما قد حن إلى استنشاق ذلك الهواء الطلق البعيد، ليخفف به عن صدره المختنق وروحه السجينة المقيدة، وإذا بهذا السجن العظيم يرسل أخيراً آهة عالية، ويلتقط فجأة الفأس متجهماً هائج النفس نافد الصبر، أو يتناول الأجر الذي يطلب منه نقله من موضع إلى آخر، وكأنني به عندئذ قد راح ينفي عنه أحلامه، ويطرد أخیلته، وينثني عن وجومه وتفكيره؛ ولا تمضي لحظة أخرى حتى ينسى تلك الخوارج الفجائية التي هجست في خاطره، ويبدأ يضحك أو يسب ويشتم وفق مزاجه في تلك اللحظة وشعوره، أو يقبل على طريحته إن كان قد عهد إليه بشيء منها، بحماسة غير مألوفة، وحمية سطحية ظاهرة، ويشرع في العمل بكل قوته، كأنما يحاول أن يخنق في أعماقه شيئاً يعتمل فيها ويرهق روحه. وهم جميعاً رجال أشداء أقوياء، أغلبهم في زهرة العمر وميعة الصبا والعنفوان... وما أشد وقع الأغلال في هذا الموسم... ولست في هذا متخيلاً، أو ليس هذا وصف شاعر، بل أنا مقتنع هنا بصدق ما أقوله. وفي أيام الدفء والشمس الساطعة، حين تشعر في كل نواحي نفسك، وسائر كيائك، بأن الطبيعة قد عادت بكل قواتها غير المحدودة تنبعث للحياة من حولك، لا تلبث أن تحس مع ذلك أن أبواب السجن والحراس، وصنوف العبودية والذل، أصبحت أقسى عبئاً مما كانت من قبل وأشد رهقاً، وبغض النظر عن هذا كله، لا يبدأ التجوال في جميع أرجاء سيبيريا وأصقاع روسيا إلا مع مقدم الربيع وعودة القنبرة إلى الصدح والتغريد، ويهرب السجناء من السجن ويلوذون بالغابات ويلجأون إلى الأدغال، ويروحون بعد المحابس الضيقة الخائقة، ودور المحاكم والسلاسل والأصفاد، والضرب بالعصي والمقارع يهيمنون أحراراً على وجوههم حيث شاءوا، وحيث لا رقيب

عليهم، فيأكلون ويشربون ما هم واجدوه، وما الله مرسله إليهم، فإذا جن الليل، ناموا في هدأة تحت عين الله في الغاية أو الحقول، غير مفكرين كثيرًا في المستقبل، أخلياء من كآبة العيش في السجن، كأنهم أطيّار الغاب لا يرون أمامهم أحدًا يحيونه تحية الليل غير الكواكب في السماء.

ولست أنكر أن المرء منهم قد يواجه الشدائد، والسغب واللغوب في «خدمة الجنرال كاكو»، وهي العبارة التي تطلق على التجواب في الآفاق، والهيام على الوجوه، وقد يطوي الليالي بغير خبز، ولا يكف عن الاختباء، بعيدًا عن أعين الرقباء، وقد يضطر إلى السرقة والسطو، وأحيانًا القتل، فإن السجنين الطليق أشبه بالوليد، ما يريده يأخذه، كما يقال عن السجناء المستوطنين في أصقاع سيبيريا وربوعها، وهو قول ينطبق كل الانطباق على الجوابة الشريد، بل قد يجمع هذا إلى هذه الصفة صفات أخرى، فقلما تجد أفاقًا ليس لصًا، ولا سارقًا، وهو في ذلك يصدر عن ضرورة بالطبع أكثر مما يصدر عن احتراف.

وفي سيبيريا أفاقون محنكون، بعضهم يهربون من المستعمرات عقب انتهاء مدة سجنهم، وكان الإنسان يظن أن الرجل منهم كان أولى به أن يرضى ويقنع بالمقام في المستعمرة خليًا من المفاز، ناجيًا من كل قلق، ولكن الأمر ليس كذلك، فإن هناك شيئًا يفتنه، شيئًا يناديه من بعيد ويشير إليه؛ لأن للحياة في الغابة، على شقوتها ورهبها، وإن خلت من كل قيد، وحفلت بكل خطر، فتنة خفية، وجاذبية غامضة، في نفوس الذين عرفوها من قبل وخبروها، وقد تلتقي أحيانًا برجل رزين متئد، تحسبه على الأيام سيصبح مزارعًا قديرًا أو مقيمًا في المستعمرة لا يبرحها، ولكنه لا يلبث أن يفر إلى الغابة، وقد يتزوج الرجل أحيانًا، ويرزق بالبنين، ويولد بموضع ما

خمسة أعوام سويًا، وفي ذات يوم رائق يختفي فجأة، تاركًا زوجته وأولاده والأبرشية كلها في حيرة من اختفائه وعجب عاجب. وقد أروني في السجن جوابة أفاقًا من هذا النوع، وقيل لي إنه لم يرتكب يومًا جريمة معينة، أو على الأقل لم أسمع بشيء كهذا من أحد، ولكن عيبه أنه كثير الفرار، لم ينقطع عنه طيلة حياته، فقد كان يومًا على الحدود الجنوبية لروسيا وراء نهر الطونة «الدانوب»، ويومًا في سهول الكرغيز الشاسعة، وحينًا في سيبيريا الشرقية، وحينًا آخر في القوقاز، بل كان في كل مكان، ومن يدري لعله كان مصبحًا في ظروف غير الظروف التي أحاطت به، وبهذه النزعة القوية للأسفار والتجوال كان «روبنسون كروزو» آخر. ولكني سمعت كل ذلك من أفواه القوم، لا من فمه؛ لأنه كان في السجن لا يتكلم إلا قليلًا، وعند الضرورة فقط، وكان قزمًا في الخمسين من العمر حليمًا متناهيًا في الحلم، ذا وجه هادئ كل الهدوء، فارغ كل الفراغ، إلى حد البلاهة و«العبط»، وكان مولعًا في الصيف بالجلوس في الشمس، يغمغم أبدًا بأغنية لنفسه في مخافتة وهدوء، حتى لا يستطيع أحد أن يسمعه وهو على قيد خمس خطوات منه؛ وكانت ملامح سحته تبدو كأنها «خشبية»، وهو يقل من الطعام، وأكثر طعامه الخبز، ولم يشتر في حياته رغبةً ولا كأسًا من الفودكا، وأشك في أنه حمل يومًا درهمًا أو عرف كيف يعد النقود، وكان يلوح عليه أنه لا يكثرث بشيء إطلاقًا ولا يحفل بأمر، وأحيانًا يطعم كلاب السجن بيديه، وهو ما لم يكن أحد منا يفعل، والواقع أن الروس عامة لا يميلون إلى تغذية الكلاب وإطعامها. وقيل لي إنه متزوج، وأنه تزوج مرتين، وقيل أيضًا أن له أولادًا في موضع ما... ولا أدري كيف دخل السجن، وكان السجناء ينتظرون منه أن يهرب مرة أخرى، ولكن لعل الوقت لم يحن للهرب، أو لعله قد كبر وتقدمت به السن فلم يعد

يقدر عليه، فقد لبث مقيمًا بين ظهرانينا يتأمل في هدوء البيئة الغريبة التي وجد نفسه فيها، ولكن الواقع أن المرء لا يستطيع الاطمئنان إلى مقامه، وإن ظن أنه لم يعد ثمة شيء يغريه بالفرار؛ لأنه لن يكسب منه مغنمًا.

وجملة القول إن حياة الأفاق الشارد في الغابة هي جنة بالقياس إلى الحياة في السجن، وهو أمر لا يصعب فهمه، بل لا مجال فيه للمقارنة، إذ مهما تكن تلك الحياة شاقة، فلا تزال حياة الحرية، وهذا هو ما جعل كل سجين في روسيا، مهما يكن نوع السجن الذي يلقي في غيابه، يصبح قلقًا في الربيع على أول مطالع الشمس وأشعتها الرفيقة الحانية، وكل سجين يريد فرارًا. ولكن المؤكد أن الذين يجسرون على محاولته لا يتجاوزون واحدًا في المائة، للمشقة المقترنة به والعقوبات المقررة عليه، وإن ظل التسعة والتسعون الآخرون يحلمون على الأقل به ويتخيلون الوسائل المعينة عليه، والوقت الذي يصلح له، ويسرون عن نفوسهم بالرغبة ذاتها فيه، وتخيل جواز تحقيقه... وبعضهم يتذكرون كيف هربوا فيما مضى... وأنا أتحدث الآن عن الذين يوفون الأحكام الصادرة عليهم، أما الذين ينتظرون صدورها فهؤلاء بالطبع أكثر مخاطرة من هذه الوجهة من المساجين الآخرين وأشد فيه تفكيرًا، وإنما يلجأ إلى الفرار السجناء المحكوم عليهم بمدد معينة، في بداية دخولهم السجن، فإذا قضى السجين عامين أو ثلاثة أعوام في محبسه، بدأت تلك السنون تتخذ لذاتها قيمة لديه وقدراً في خاطره، فلا يني يعتزم قضاء مدته القانونية والإقامة في المستعمرة مستوطناً، فإن ذلك أفضل من هذه المخاطرة، ومواجهة الدمار إذا هو أخفق في محاولته، والإخفاق جائز كل الجواز، وكلما يوفق واحد في العشرة أو ينجح في «تغيير حظه». وهناك طائفة أخرى من السجناء، يغلب عليهم النزوع إلى الإقدام على الفرار، وهم

المحكوم عليهم بمدد طويلة، كخمس عشرة سنة أو عشرين؛ لأنها تلوح في حسابانهم كأنها «الأبد» طولًا، حتى لتجد كل من يحكم عليه منهم بمثل هذه المدة الرخية المستطيلة يحلم دائمًا بتغيير حظه، حتى ولو انقضت عليه في السجن عشر سنين.

و«الدمغ» بميسم الأجرام لا يزال من بين الأسباب التي تمنع السجناء من محاولة الفرار، وعبرة «تغيير الحظ» اصطلاح فني تواضعوا عليه، حتى ليقول الذي يضبط وهو يحاول الفرار، خلال التحقيق، إنه أراد أن يغير حظه، وهي عبارة تؤدي تمامًا إلى المعنى المراد منها، فكل ملتمس الفرار لا يتطلع إلى الحرية التامة لأنه يعرف أن ذلك يكاد يكون ضربًا من المحال، بل يتطلع إما إلى دخول معهد آخر، أو نقله إلى مستعمرة، أو محاكمته من جديد على جناية حديثة يرتكبها وهو شارد جَوَّابة؛ إذ الواقع أنه لا يهتمه المصير ما دام لا يعاد إلى المكان القديم الذي ملّ المقام فيه، أو السجن الذي ضاق ذرعًا به، فإذا لم يجد هؤلاء خلال الصيف توفيقًا في البحث عن مكان خاص يقضون فيه الشتاء، كأن لا يقعوا على إنسان يرضى لمصلحته الخاصة إيواء لاجئ، وإذا لم يحصلوا ولو بالقتل أحيانًا على جواز ما يهيئ لهم سبل العيش في أي مكان يشاءون، فإما أن يقعوا في قبضة الشرطة أو يذهبوا في الخريف بمحض اختيارهم جماعات وزرافات إلى البنادر والسجون ليملكوا فيها إلى الشتاء، على الأمل طبعًا في معاودة الفرار في الصيف.

وكان لمقدم الربيع أثره في نفسي أيضًا، وإني لأذكر كيف كنت أحيانًا أنظر في لهفة حادة من فجوات السور، وكم كنت أطيل الوقوف مسندًا رأسي إليه، مرسلًا بصري مليًا منهوّمًا لا يشبع من مشهد نضرة الحشائش الثابتة على جدران سجننا، رافعًا عيني إلى زرقة السماء المترامية إلى مكان

سحيق لا تبلغ العين مداه. وكانت كآبتي وقلقي وهياج نفسي تنمو يوماً بعد آخر، ويبدو لي السجن بغيضاً ممقوئاً، وكانت الكراهية التي لا يفتأ السجناء ينظرون إليّ بها «كسيد» خلال السنوات الأولى تزداد إلى حد لا يطاق، وتسمم حياتي كلها بسمومها، وكنت خلال تلك السنين قد ألفت الذهاب إلى المستشفى، وإن لم أكن مريضاً، لمجرد التخلص من السجن، والهرب من مشهد هذه الكراهية الملحة المتعنتة، وكان السجناء لا يفتأون يقولون لنا «إن لكم مناقير من الحديد، وقد نقرتمونا بها حتى أزهقتم أرواحنا»؛ وكم كنت أحسد الفلاحين الذين كانوا يساقون إلى السجن، وأتمنى لو أنني كنت واحداً منهم، فقد كان القوم يتخذونهم في الحال إخواناً، ويعدونهم رفقاء وإخواناً، وهكذا تأثرت نفسي بالربيع وظلاله، وبهجة الطبيعة، ونضرة الكون، فأحسست الكآبة، والقلق العصبي، وفي نهاية «الصوم الكبير»، وأظنه ينتهي في الأسبوع السادس، تناولت العشاء الرباني، وكان كبير الجاويشية قد قسم السجناء في بداية الصيام سبع جماعات، كل جماعة تتناول العشاء في كل أسبوع من أسابيع الصوم، وكانت كل جماعة تتألف من قرابة ثلاثين سجيناً، وقد أحببت كثيراً أسبوع الاستعداد للعشاء؛ فقد أعفينا فيه من العمل، وكنا نذهب خلاله إلى الكنيسة مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، وكان قد طال الأمد على آخر عهدي بالكنيسة، وعادت الصلوات التي ألفتها من أيام الطفولة البعيدة في دار أبي، والابتهالات المقدسة، والركعات والجثوات التي تقترن بها تثير جميعاً في نفسي الماضي القسيّ النائي، وتعيد إلى خاطري أيام طفولتي. وإنني أتمثل الآن ذلك الفرح الذي كنت أجده في المسير فوق ركام الجليد في بكرة النهار إلى بيت الله، مخفوقاً بالحراس الشاكي السلاح وإن لم يدخلوا معي الكنيسة، وكنا نقف بجمعنا أمام بابها

أو على كذب منه؛ لكي نسمع فقط صوت الشماس الجهير، ونلمح بين لحظة وأخرى مسح القسيس ورأسه الأصلع بين جموع المصلين، ولا أزال أتمثل وقفتي أحياناً وأنا طفل صغير في الكنيسة، أنظر إلى الفلاحين وهم مزدحمون بقرب المدخل، مفسحون الطريق بين الصفوف لضابط كبير، أو سيد عظيم أو سيدة تقية، وإن أكثر من الثياب وهم داخلون ليحتلوا أحسن الأماكن، ولا يتورعون عن الاشتجار عليها، وكنت يومئذ أتصور أنهم عند باب الكنيسة لم يكونوا يصلون كما كنا نصلي، وأنهم يصلون بخشوع وحمية واتضاع، وإدراك تام لضعة مكانهم بين الناس.

وهأنذا الآن أقف في المؤخرة، بل كنا كذلك نقف مقيدتين بالحديد مدموغين بميسم المجرمين، يتحامنا الناس، ويخافوننا، ويتصدقون أبداً علينا. وأذكر أن ذلك كان يدخل على نفسي بعض السرور، الخفي الغريب، وكنت أقول لنفسي، ليكن الأمر كذلك... وكان السجناء يصلون صلاة صادقة خالصة، وكل منهم قد جاء معه إلى الكنيسة بدرهمه المتواضع ليشتري به شمعة أو يضعه في صندوق النذور قائلاً لنفسه: أنا أيضاً إنسان، وقد يشعر وهو يبض بالدرهم «بأن الناس جميعاً في عين الله سواسية»، وكناه نتناول الخبز المقدس بعد الصلاة الأولى، وحين يمضي القسيس وكأس القربان في يده يتلو الآية: «اقبلني يا رب مع اللص...» يخر السجناء جميعاً راكعين، فيرتفع مع جثوتهم رنين القيود والأغلال، وكأنهم يطبقون تلك الكلمات على أنفسهم بكل حرفيتها.

والآن حل عيد الفصح، وجادت علينا السلطات فيه ببيضة، وقطعة من خبز أبيض صنع باللبن والبيض، وجاءت من البلدة مرة أخرى أحمال من الصدقات للمساجين، وأقبل القسيس أيضاً يحمل الصليب، وقدم ولاية

الشأن كذلك لزيارتنا وعادوا يقدمون إلينا حساء الكرنب مع لحم كثير، وعاد السجناء إلى الشراب والخمار الذي يعقبه، كما كان الحال في عيد الميلاد، وزيادة، بالتجوال في فناء السجن وتدفئة الأبدان تحت الشمس وأشعتها الساطعة، وبدا أيضًا أكثر مما كان في الشتاء، والفضاء أفسح وأوسع مجالًا، وإن كانت النفس مع هذا كله أشد اكتئابًا، وأصبح النهار الطويل الرخي في الصيف أكثر رهقًا في أيام المواسم والأعياد خاصة، فقد كانت الساعات في أيام العمل العادية تلوح بالعمل أقصر أمدًا.

وتبين لنا أن «طرائح» الصيف أشق كثيرًا من العمل في الشتاء، وكنا جميعًا نستخدم غالبًا في أعمال البناء، فنحفر الأرض ونضع الحجر، ويشغل فريق منا في أعمال التجارة، والحدادة والطلاء، فيما يتصل بالمباني الحكومية، ويرسل فريق آخر إلى مصانع الطوب لصنعه، وكان هذا في تقديرنا أشق الأعمال وأقساها، فقد كانت «القمينة» التي ينضج فيها الطوب على مسيرة ثلاثة أميال من السجن، فينطلق في السادسة من كل صباح جمع منهم قد يبلغ الخمسين إلى المصنع، وكانوا يختارون لهذا العمل السجناء غير المهرة ممن لا يحترفون حرفة معينة، وليست لهم صناعة خاصة فيأخذون خبزهم معهم، لبعد الموضع، على أن يتناولوه في المساء عند أوبتهم. وكانت «الطرائح» تستغرق النهار كله، فنبداً بالحفر وحمل التراب وجلب الماء ودق الحمأ واصطناع قدر كبير من الطوب، أحسبه مائتي لبنة أو مائتين وخمسين في اليوم. وقد ذهبت مرتين إلى هذا المصنع، وكان السجناء يعودون في المساء مكدودين مضمحلي القوى، ولا يكفون طيلة الصيف عن إلقاء العمل على كواهل سواهم، معلنين أنهم يأخذون منه أكبر قدر، ويقومون منه بأشق شطر، وفي ذلك كان عزائهم وإن كان من بينهم قوم

لا يترددون في الذهاب إلى مصنع الطوب؛ لأنه أولاً خارج البلد، وثانياً في الفضاء الفسيح على ضفاف نهر «أريتش»، ومن تجديد المناظر رؤية مشاهد غير السجن وما يحيط به، وفي المصنع يتيسر للسجين أن يدخن كما يشاء، وأن يرقد نصف ساعة أو نحوه، في رضا وارتياح.

واعتدت أن أذهب كما كنت أفعل لدق الحصى أو إلى «الورشة» أو حمل الطوب للبناء، وكنت في ذات مرة قد عهد إليّ بحمله مسافة تقرب من مائة وستين ياردة من جسر النهر إلى الثكنات التي كانت تبني على الجانب الآخر من أسوار السجن وجدرانه، ولبت ذلك شهرين، وكنت أميل إلى هذا العمل وإن كان الجبل الذي أحمل الأجر فيه يحز في كتفي حزاً، ولكنني اغتبطت بشعوري أنني أكسب بهذا العمل قوة عضلات وبأساً جديداً، ولم أكن في بداية الأمر أقوى على حمل أكثر من ثمانين «لبنات» تزن كل واحدة منها قرابة أحد عشر رطلاً، ولكنني على الأيام استطعت أن أحمل اثنتي عشرة بل خمس عشرة، فكان سروري عظيماً؛ فإن القوة البدنية في السجن لا تقل شأنًا ولا ضرورة عن القوة المعنوية؛ لأنها تعين على احتمال المشاق التي يتطلبها هذا الأسلوب اللعين من الحياة.

وكنت أريد أن أعيش وأرتزق بعد الخروج من السجن...

ولم يكن ميلي إلى حمل الطوب لأنني أكسب به قوة عضل فحسب بل لأنه كان يتيح لي الذهاب إلى ضفاف النهر أيضاً، وإذا كنت قد أكثرت من الحديث عنه فما ذلك إلا لأنني كنت من تلك الضفاف أشهد عالم الله والفضاء النقي الفسيح، والسهول الطلقة المترامية التي كان قفرها يحدث في نفسي أثراً غريباً. وعلى ضفة «الأريتش» يتهيا للسجين أن يولي ظهره للسجن فلا يراه، وكانت كل أعماله الأخرى تؤدي داخله أو قريباً منه،

وكنـت من الأيام الأولى لدخولي أكره ذلك الحصن وأمقته، وخاصة بعض أقسامه ومبانيه، فكان منزل «الميجور» يبدو في عيني موضعاً مقيتاً بغيضاً، فكنت كلما مررت به أنظر إليه بكراهية ومقت، أما على ضفة النهر فقد ينسى المرء نفسه، وينظر إلى ذلك المشهد الساكن القفر المترامي على عينيـه نظرة السجين إلى الحرية من كوة محبسه، فكل شيء ثم بديع ممتع للعين: الشمس الساطعة في كبد السماء الزرقاء، والأغاريد المرسلـة أصديتها عبر النهر من الضفة المقابلة. وقد يطلق المرء ناظره في ذلك الفضاء الجميل فيلـم أخيراً بمعالم خيمة سوداء، من الدخان المتكاثر عليها والمتصاعد من جوفها، وامرأة «الكرغيز» منشغلة بنعجتها، والمشهد كله مشهد فاقة وهمجية، ولكنه يعد مشهد حرية وانطلاق من كل قيد. وإن العين لتبصر طائرًا يرف بجناحيه في ذلك الفضاء الأزرق الصافي، فيظل لحظات يتبع رفيقه، فإذا به على صفحة الماء راف، ثم إذا هو يختفي في جو السماء، ثم يعود فيظهر من مكان سحيق كذرة سابحة في الفضاء؛ بل حتى الزهرة الذاوية المصوّحة التي وجدتـها في بكور الربيع داخل شق في صخرة من صخور الضفاف اجتذبت ناظري وآلمت خاطري.

كانت شقوة كل ذلك العام الأول في السجن لا تحتمل، وكان أثرها في نفسي مريعاً مثيراً لأعصابي، وفاتني فيه أن ألاحظ أشياء كثيرة من شدة شقوتي وفرط عذابي وهمي، فقد أغمضت العينين ولم أشأ أن أنظر، ومن بين رفقائي الحاقدين الكارهين لنا في السجن لم أرقب حركات الأخيار منهم، أولئك الذين أوتوا في أعماق نفوسهم تفكيراً ورأياً وشعوراً، رغم قبح قشرتهم الخارجية ودماستها التي تبعث النفور والاشمئزاز. وفي وسط الكلام السيئ القبيح الهُجر، لم أكن أحياناً ألاحظ الكلام الكريم، والقول

الرقيق، والعبارة الحنون، التي يزيد لها قدرًا، ويرفعها قيمة وشأنًا، أنها كانت تقال بغير دافع من مأرب، ولا باعث من غاية شخصية، بل كثيرًا ما تنبعث من أعماق قلب احتمل من الهم والغم أكثر مما كنت أحتمل. ولكن أي خير أو فائدة من التوسع في هذا الحديث، والإفاضة في هذا المعنى بالذات... لحسبي أنني كنت أسر السرور كله حين يشتد بي اللغوب، ويبلغ مني التعب مبلغه، معللاً النفس بأنني سأنام عند عودتي إلى المرقد في العنبر؛ لأن الليالي في الصيف كانت عذابًا شديدًا، بل كانت شرًا من ليالي الشتاء في طولها وتراخيها، ولست أنكر أن الأصائل فيه كانت أحيانًا رائقة ممتعة حين تغيب الشمس عن السجن، وكانت مسلطة عليه سحابة النهار كله، ثم تعقبها طراوة المساء، وتتلوها برودة الليل في سهول سيبيريا وأصقاعها النائية. وقد ألف السجناء الطواف جماعات بأرجاء الفناء؛ انتظارًا لأوان إغلاق أبواب العنابر عليهم، والواقع أن أكثر جموعهم كانت تزدهم في المطبخ؛ حيث تثار عادة مشاكل الساعة، ويقوم بينهم الجدل حول هذه المسألة أو تلك، أو المناقشة فيما ترامى إليهم من الإشاعات والأراجيف، وكثيرًا ما تكون سخيفة بعيدة من المعقول، ولكنها على سخفها تثير اهتمامًا غير مألوف عند أولئك القوم المنقطعين عن العالم بأسره. فقد ترامى إليهم مثلًا أن «الميجور» قد طرد، والسجناء سراع في تصديق ما يقال لهم كالأطفال، ولم يعرفوا أن النبأ مضحك سخيف، وأنه من قبيل «الدردشة» ليس أكثر، وأن راويه شخص سخيف، يدعى «كفاسوف» سبق لهم الإجماع على ألا يصدقوا ما يقوله؛ لأنه لم يكن يفتح فمه إلا ليقول كذبًا، ويفتري افتراءً، ولكنهم قفزوا لهذا النبأ وطفروا، وتحدثوا فيه وتناقشوا، وفرحوا به وتهللوا له، وانتهوا إلى الغضب من أنفسهم والخجل من تصديق راويه.

وانبرى أحدهم يصيح: «من الذي سيطرده، لا خوف عليه، إن له عنقًا سميكا، ورقبة كثيفة، وهو قادر على الدفاع عن نفسه».

واحتج آخر وهو سجين ذكي مجرب، وإن كان أشد السجناء نزوعًا إلى الجدل: «ولكن هناك آخرين من فوقه بلا شك».

وقال ثالث، وكان شيخًا أشيب يوشك أن ينتهي من تناول حسائه في ركن وحده، وهو يغمغم كأنما يكلم نفسه: «إن الغراب الأسحم لا ينقر عيني الغراب الأسحم مثله...».

وأضاف رابع عرصًا، وهو يمر بأنامله خفيًا على أوتار «البلايكا»: «أظن أن رؤساءه سيأتون ليسألوكم هل يطردونه أم لا!»...

وقال الثاني محتدماً: «ولم لا... كل «الغلابة» يستطيعون أن يقدموا عريضة في حقه، فلا بد لكم من التقدم بأقوالكم إذا جاءوا يسألونهم، إننا جميعاً نتصايح ونصرخ، ولكن عند الجد نراجع فلا نفعل شيئاً».

وقال الذي كان على القيثارة عازفاً: «وماذا تريد منا... هذا هو العيش في السجن، فليس الذنب ذنباً».

وانثنى المتكلم المتحمس يقول غير آبه به: «منذ أيام بقي قدر من الدقيق لم يعجن، فجمعناه لكي يباع، ولكنه سمع بالأمر، من «الأسطى»، فأخذه؛ لأنه أراد أن يكسب منه طبعاً... فهل هذا عدل!...».

وقال صاحبه وهو يحاوره: «لمن تريد أن تشكو؟..».

وأجاب الآخر قائلاً: «لمن؟... للمفتش الذي سيأتي...».

قال: أي مفتش؟

وهنا انبرى شاب نشيط على شيء من العلم، وكان فيما مضى كاتبًا،
وكان الساعة يقرأ رواية «دوقة لافالير» أو كتابًا من هذا القبيل:

- هذا صحيح يا أولاد، إن مفتشًا سيأتي..

وكان هذا الفتى لا يكف عن المرح واللهو والمجون، ولكنه كان مرموقًا
بعين الاحترام؛ لأنه ملم بالحياة والعالم، ولم يكثر بذلك الاهتمام العام
الذي أثاره نبأ قدوم أحد المفتشين للتحقيق، بل ذهب رأسًا إلى أحد الطهاة
وطلب قطعة من الكبد، وكان طهاتنا يبيعون هذه الأشياء ونحوها، فيشترون
على حسابهم قطعة كبيرة من الكبد ثم يبيعونها أجزاء صغيرة للمساجين.

وسأله الطاهي: «ربع أم ربعان؟...».

قال: بل ربعان، دع الخلق يحسدونني.. إن جنرالًا سيأتي يا أولاد،
جنرالًا من بترسبرج، ليتفقد سيبيريا بأجمعها.. هذا صحيح، فقد قالوا ذلك
في مكتب القائد..

وأحدث هذا النبأ حماسة غير مألوفة، وتوالت الأسئلة من كل ناحية
واستفاضة، وتساءل القوم من يكون ذلك الجنرال، وما رتبته، وهل هو
أعلى مركزًا من الجنرال الذي عندنا هنا؟... وقد أولع السجناء عادة بالبحث
في رتب كبار الموظفين وأسبقيتهم، ومن الرئيس فيهم والمرؤوس، حتى
إنهم ليختلفون ويتنازعون ويشتجرون على رتب القواد وألقابهم، وإن المرء
ليعجب لهم في هذا كله وأي فارق عندهم، وما أهميته بالنسبة لهم، ولكن
العلم الدقيق بأشخاص القواد وولاة الأمور جميعًا هو عندهم معيار المعرفة
ومقياسها، وميزان الخبرة بالدنيا وشئونها، ويرون أن التحدث عن السلطات
العليا هو أرفع الأحاديث في السجن وأخطرها شأنًا.

وعندئذ انطلق كفاسوف، الذي كان أول من جاء نبأ الميجور، وهو رجل قصير القامة محمر الوجه سريع الهياج غبي ظاهر الغباء: «لقد تبين يا أولاد أن النبأ صحيح، سيأتون إذن لطرد الميجور...».

وقال الشيخ الأشيب الجهم، وكان قد انتهى من حسائه: «ولكنه سيرشوهم».

وقال آخر: «مؤكد، فقد جمع مالا كثيرا، وكانت عنده كتيبة بحالها قبل أن يجيء إلينا، وكان من عهد قريب يريد أن يتزوج ابنة كبير القساوسة».

- ولكنه لم يفعل؛ لأنهم طردوه وقالوا إنه فقير «دقة» وليس مثله نذا لأمثالهم، وهو كلما نهض من مقعد أخذ كل ما يملكه معه، وقد قال «فيدكا» إنه خسر كل ماله على مائدة الميسر في عيد الفصح.

- نعم، إنه ليس بالرجل الذي ينفق، ولكنه لا يعدم وسيلة، للحصول على المال...

وعندئذ انبرى «سكاراتوف» يدخل في الحوار قائلاً: «لقد تزوجت أنا أيضاً يا أخ.. إن الزواج لا يجدي الرجل منا ولا ينفعه، وإذا أنت تزوجت، بدا الليل أقصر ما يكون...».

وقال الفتى الماجن «الهلِيلِي» الذي كان كاتباً: «لكن دعني أقول لك يا كفاسوف إنك غبي سخيف، هل تظن أنه في إمكان «الميجور» أن يرشو جنراً كهذا، وأن هذا الجنرال يقطع كل هذا الطريق من «بترسبرج» ليفتش على «الميجور» دعني أصارحك يا ابني، أنت مغفل».

وقال أحدهم متشككاً: «هل لأنه جنرال لا يأخذ رشوة؟...».

- بالطبع لا يأخذ، وإن أخذ فلا يأخذ إلا رشوة كبيرة.

- مؤكد حتى تتناسب مع رتبته.

ولكن كفسوف قال بلهجة المقرر: «إن الجنرال يأخذ رشى في كل وقت».

وقال باكلوشين فجأة، وقد دخل في الحوار، واتخذ لهجة السخرية والازدراء:

- «هل جربت حضرتك؟ لست أعتقد أنك رأيت في حياتك جنرالاً».

- بل لقد رأيت.

- أنت كاذب.

- الكاذب أنت.

- يا أولاد، إن كان قد رأى فليقل لنا جميعاً من هو ذا الجنرال الذي يعرفه.. هيا أسرع وقل لنا؛ لأنني أعرف جميع الجنرالات.

وهنا أجاب كفسوف بتردد غريب: «رأيت الجنرال زايرت...».

- زايرت ده مين يا أخ، ليس هناك قائد بهذا الاسم، أظنه كان ينظر إلى ظهرك، ولعله كان لفتنانت كولونيل، فتوهمته من خوفك جنرالاً.

وعندئذ صاح سكاراتوف قائلاً: «كلا، أصغ لي... لأنني رجل متزوج، لقد كان في موسكو فعلاً جنرال يدعى «زايرت» من أسرة ألمانية، وإن كان روسي الجنسية، وكان من عادته كل عام أن يعترف لقسيس من الروس، في موسم الصيام، وكان لا يكف مطلقاً يا أولاد عن شرب الماء كالإوز، حتى لقد اعتاد أن يشرب أربعين كوباً من ماء النهر وهو في موسكو، وقيل إنه كان يشرب هذا القدر للتداوي من بعض الأمراض، لقد نبأني بهذا تابعه نفسه...».

فقال العازف على البلا لا يكا: «أراهن على أنه كان يربي سمكاً في بطنه... وإلا فما كل هذا الماء الذي يشربه!...».

وانطلق سجين عجوز «هكار» يدعى «مارتينوف»، كان من قبل جندياً في فرقة «الحصار» يسأل بفضول: «اسكتوا من فضلكم... نحن نتكلم جداً وهم... من يكون هذا المفتش يا إخوان؟...».

وقال أحد المتشككين: ما هذا الكلام الفارغ الذي يتكلمونه، ومن أين أتوا به، وكيف لفقوه تلفيقاً، وهو كله كلام فارغ.

وانثنى كوليكوف، وكان إلى تلك اللحظة معتصماً بجلال صامت يقول بلهجة الباحث العارف: «كلا، ليس بكلام فارغ...»، وكان رجلاً يناهز الخمسين ويبدو عليه شيء من الخطر والأهمية، وله ملامح أخاذة، وبه أنفة وترفع وكان يعرف ذلك في نفسه، وهو به الفخور المزهدي، وكان في ماضيه جراحاً بيظرياً، لعله يرجع إلى أصل «عجري»- من معاصر النور- وقد ألف الكسب من معالجة الخيل في المدينة، وهو يبيع الفودكا في السجن، وكان البارع المجتهد والمجرب الخبير، وهو يلقي الكلام إلقاء كأنه يوزع الروبلات منحاً وهدايا على السامعين.

واستطرد في هدوء يقول: «هذه هي الحقيقة يا أولاد فقد سمعتها في الأسبوع الماضي، إن جنراً خطيراً سيأتي ليتفقد أرجاء سيبيريا كلها، ونحن عارفون جميعاً أنه سيرتشي أيضاً، ولكن لا من مأمورنا ذي الثماني الأعين لأنه لا يجروء على الاقتراب منه، إن هناك يا إخوان جنرالات وجنرالات، من كل صنف ونوع، ولكني أقول لكم إن «ميجورنا» سيقم حيث هو على أية حال، هذا أمر مؤكد؛ لأننا لن نتكلم في حقه، ولن نستطيع أحد من الضباط أن يتكلم عن زميل له من «الشلة» نفسها، وسيطوف المفتش أرجاء السجن

ثم يعود من حيث أتى ليقرر أنه وجد كل شيء فيه على ما يرام...».

- هذا صحيح يا أولاد، ولكن الميجور في أزمة، لقد ظل يسكر من الصباح إلى المساء.

- ولكنه في المساء استقل نوعاً جديداً من المركبات، هذا هو ما قاله تابعه «فيدكا».

- هيهات أن تجعل الكلب الأسود أبيض، وهذه ليست أول مرة يسكر فيها.

- أقول ما العمل إذا لم يفعل الجنرال في الواقع شيئاً... يجب أن يعرف ولاية الشأن حقيقة ما يجري في السجن.

وكان هذا القول متبادلاً بين الجميع، يقوله كل منهم للآخرين.

وشاع نبأ المفتش المنتظر في أرجاء السجن كلها، وراح السجناء يذرعون الفناء قلقين وهم يرددونه بينهم، وإن تعمد فريق منهم التزام السكوت والتظاهر بالاستخفاف، وأكبر الظن أنهم كانوا يحاولون بهذا الصمت وقلة الاكتراث الترائي بأن لهم شأنًا كبيرًا لا ينزل بهم إلى السفاسف، بينما لبث آخرون غير آبهين حقاً ولا مكترئين. وكان السجناء حملة المعازف جلوساً فوق مدارج السلم، ومضى الآخرون يتجاذبون أطراف الأحاديث، وغيرهم يغنون، ولكنهم كانوا جميعاً في هذا المساء قلقين هائجي الخواطر مشغولي البال.

وانهى «التمام» علينا بين التاسعة والعاشرة، وأغلقت أبواب العنابر علينا إلى الصباح، وكانت الليالي قصاراً، وكنا نوقط من النوم بين الرابعة والخامسة، ولم نكن ننام مطلقاً قبل الحادية عشرة، إذ لم تكن الجلبة تنقطع

ولا الحديث يكف قبل هذا الوقت، وأحياناً كانت حلقات الميسر تقام، كما هي الحال في الشتاء، ويشتد الحر حتى ليخنق الأنفاس ليلاً ولا يكاد يطاق، وإن كانت تهب من النافذة المفتوحة نسيمات رطبة في الليل، ويظل السجناء في مضاجعهم متخبطين من الحر كأنهم محمومون، والحشرات تتجمع وتحتشد بالألوف، وهي في الشتاء كذلك متكاثرة، ولكنها تزداد أسراباً في بداية الربيع، وكنت قد سمعت نبأها من قبل، فلم أصدق حتى جربت، وكلما أوغل الصيف ازدادت افتراساً، ولست أنكر أن المرء قد يعتادها؛ لأنني عرفت هذه الحقيقة عن تجربة، ولكن لا يزال العناء منها بالغاً، حتى ليحس المرء في النهاية كأنه في حمى، وأنه ليس نائماً، بل في بحران وهذيان. وحين يدنو الليل من ختامه، وتلوح مطالع النهار، تكف هذه الحشرات، أو ترسب وتهجع، فيهبط المرء في وادي الكرى في ندوة الفجر، ولكنه لا يكاد ينعم بلذة النوم حتى ينبعث صوت «البروجي» القاسي الذي لا يعرف الرحمة من أبواب السجن مؤذناً بنوبة الصبح، فتروح وأنت ملفف في فروتك تلعن تلك الأصوات المرتفعة البعيدة وأنت تعدها، ويتسلل إلى خاطرك في منامك التفكير البشع في دوام الحال، على هذا المنوال، غداً وبعد غد وعلى السنين إلى يوم الإفراج عنك، ونعمة الحرية مردودة إليك، وعندئذ يسائل الإنسان خاطره: ولكن متى يأتي ذلك اليوم؟ وهل تتحقق تلك المنى؟ وأين هي الحرية المنشودة؟ ولكن ما الحيلة، والمرء لا بد من أن يستيقظ، فقد بدأ النهار ودبت الحركة، وارتفعت الضوضاء... والقوم قد أخذوا يرتدون ثيابهم، ويستعدون للخروج إلى العمل مسرعين... ولكن قد يتعزى المرء بأنه قد ينام ساعة في الظهيرة..

وكان نبأ مقدم المفتش صحيحاً.. وزادته الأيام تأييداً.. وعرفنا جميعاً

في النهاية أن «جنرالاً» كبيراً سيأتي من بطرسبرج ليتفقد سيبيريا كلها، بل وصل فعلاً، وهو الآن في طوبولسك، وكانت الأنباء تتوالى في كل يوم على السجن، وتأتي أيضاً من المدينة، وسمعنا أن الرعب قد دب في النفوس وأن الموكلين بأمر السجن يحاولون جاهدين إبراز الجانب الحسن وإخفاء الجانب السيئ. وقيل إن كبار الضباط أخذوا يعدون العدة لحفلات استقبال ومراقص ومهرجان، وأوفد السجناء جماعات لتعبيد الطريق إلى الحصن، وإصلاح الطلاء وتبييض الجدران، ومحاولة إصلاح كل شيء يراه إبرازه في دقيقة واحدة.

وفهم السجناء كل هذا حق الفهم، ومضوا يزدادون حماسة في أحاديثهم، وتحدياً في أقوالهم، وذهب بهم الخيال كل مذهب، بل لقد أعدوا شكوى لتقديمها إلى الجنرال إذا هو سألهم كيف الحال، وإن مضوا في الوقت ذاته يتشاجرون ويتلاحمون.

وكان «الميجور» في أشد القلق، فمضى يكثر من زيارة السجن، ويرفع الصوت بالصياح والصراخ، وينقض على المساجين بالضرب، ويرسل خلقاً كثيراً منهم إلى مبنى الحرس، ويشدد في وجوب التنظيف والتنسيق والترتيب. ومن غرائب القدر أن تحدث في هذا الوقت بالذات حادثة صغيرة لم يضطرب لها بال الميجور كما كان منتظراً، بل ارتاح لها قطعاً، وهي أن سجيناً طعن زميلاً له بمخراز في صدره فيما يعلو القلب، وكان المعتدي يدعى «لوموف» والجريح يعرف بيننا باسم «جفريلكا»، وهو أفاق معتاد، ولست أعرف له اسماً آخر، بل كذلك كان ينادى بيننا، وكان لوموف فلاحاً موفقاً في بندرك في ولاية ت... وكان أهله يقيمون جميعاً في بيت واحد، والوالد الشيخ وأخوه والأبناء الثلاثة، وهم في خير حال؛ وكان يقال في أرجاء

ذلك الإقليم وربوعه أن ثروتهم تقدر بنحو مائة ألف روبل، وهم يحرقون الأرض ويدبغون الجلود ويتجرون، ولكنهم يكسبون أكثر من التسليف وإيواء الأفاقين والمشردين وقبول الأشياء المسروقة وما إليها من العمليات المماثلة، وأن نصف سكان البندر مدينون لهم لا يستطيعون فكاكاً من مذلة ديونهم، وقد عرفوا بالذكاء والمكر بين الفلاحين، وأنهم راحوا متنفخي الأوداج زهوًا وخيلاء، ولا سيما حين ينزل بدارهم كبير على سفر فيتحدث إلى أبيهم ويحمد له سرعة بديهته، وبالغ مقدرته، حتى ظنوا أنهم قادرون على كل شيء، فأوغلوا في تجارتهم غير المشروعة، ومختلف وسائلهم الأثيمة وأساليبهم، وأصبح الناس يشكون منهم، وبات كل منهم يتمنى لو يخسف الله بهم الأرض، وهم يأبون إلا كبرياء على الناس، ولا يزدادون إلا شمخة وصلفاً، ولم يكونوا يأبهون بضباط البوليس ولا بموظفي الضرائب ولا بالجباة، ولكنهم في النهاية أصيبوا بالخراب وحل الدمار بهم، لا جزاء السيئات التي اجترحوها، ولا الجرائم الخفية التي كانوا يقتطفونها، بل الأمر لم يكن لهم يد فيه، فقد كانت لهم ضيعة نائية على مسيرة عدة أميال من القرية، وكان يقيم بها في الخريف ستة من «الكرغيز» يشتغلون أجراء عندهم بعقد لعدة سنين، فإذا بهؤلاء جميعاً يقتلون في ليلة واحدة، واستغرق التحقيق فترة طويلة، وانكشف الستار عن جرائم أخرى في أثنائه، واتهم آل لوموف بقتل أولئك الأجراء، وقيل إنهم قتلوهم للتخلص من دفع أجور كثيرة كانت مستحقة لهم عندهم، فقد كانوا جشعين أشحاء على فرط يسارهم، وخلال المحاكمة والإجراءات القانونية فقدوا كل ما كانوا يملكونه، وقضى الشيخ نحبه، وتفرق الأبناء أيدي سبا، وسيق بأحدهم هو وعمه إلى سجننا لقضاء المدة المحكوم بها عليهما، وهي اثنتا عشرة سنة، وقد روي لنا القصة، ولم

يبقى أحد فيه لم يعرفها. وتبين أنهم جميعًا أبرياء من مقتل أجرائهم، ودخل السجن من بعدهما شقي مشهور وأفاق كبير يدعى «كفريلكا»، وهو مخلوق خفيف الحركة كثير الحيوية والنشاط، كان هو المسئول عن تلك الجريمة وإن لم أسمع أنه اعترف نفسه بها، ولكن جميع السجناء كانوا مقتنعين بأن له ضلعًا فيها، فقد كانت له معاملات مع أسرة لوموف حين كان جوابة أفاقًا، وكان قد جاء إلى السجن من قبل لقضاء مدة قصيرة في قضية فرار من الجيش وتشرّد، واستعان على قتل «الكرغيز» بثلاثة أفاقين آخرين، وكانوا يرجون أعمال السلب والنهب في الضيعة وحمل أسلاب كثيرة منها.

ولم يكن لوموف العم ولا الابن، السجنان معنا، محبوبين من المساجين، ولست أدري لنفورهم منهما سببًا؛ وكان أحدهما، وهو ابن الأخ، لطيفًا ذكيًا لين العريكة، ولكن العم وهو الذي طعن «جفريلكا» بالمخرز في صدره، كان غيبًا نزعًا إلى الشجار؛ حتى لقد اشتجر مع خلق كثير من السجناء، وكثيرًا ما تلقى ضربًا مبرحًا بالعصا، بينما كان الجميع يحبون «جفريلكا» لمرحه وسلاسة نفسه. وكان العم وابن أخيه يتحاميان الاشتجار معه وإن كانا يعرفان أنه المجرم وأنهما يتعذبان ويقاسيان من أجل جريمته، ولكنهما لم يكونا متوددين يومًا إليه، وهو ذاته لم يكن يأبه بهما، حتى وقع فجأة شجار بينه وبين العم على امرأة قبيحة تبعث في النفس أشد الاشمئزاز، فقد بدأ «جفريلكا» يصف جمالها وينوه بمحاسنها ومفاتنها، وكان لوموف منه غيورًا، ففي ذات يوم طعنه بالمخراز في صدره.

وكان لوموف الكبير وابن أخيه، على الرغم من أنهما أصيبا بالخراب خلال المحاكمة، يعيشان عيش الترف في السجن، والظاهر أنهما كانا يملكان مالًا، فقد كان عندهما إبريق نحاسي للشاي «ساموار»، وعرف

الميجور النبأ فاشتد مقته لهما، وكان ظاهرًا لكل ذي عينين أنه كان يتربص بهما، ويبحث في إيقاعهما، وكشف مخبأهما، وكان لوموف يعلل ذلك بأنه يريد رشوة منهما، ولكنهما لم يعرضاها يومًا عليه.

ولو أن لوموف أدخل المخراز بعيدًا في صدر جفريلكا أو غيبه فيه لقتله لا محالة، ولكن الطعنة لم تحدث غير خدش، وأبلغ الميجور النبأ، ولا أزال أذكر كيف جاء بقفز ويعدو لاهثًا، وهو فرح مسرور، وراح يعامل «جفريلكا» برفق عجيب، كأنه ولده، ومضى يقول في حنو بالغ: «هل تستطيع يا بني أن تمشي على قدميك إلى المستشفى... كلا، خير لك أن تنقل في المركبة»، واتثنى يصيح بالجواويز في عجلة هائجة: «أخرج الحصان في الحال...». ووقف جفريلكا يقول:

- «ولكني لا أشعر بشيء يا سعادة المأمور، إنها لا تعدو وخزة».

ولكن الميجور مضى يقول:

- «أنت لا تعرف يا بني العزيز، أنت لا تعرف، نحن الذين سنرى... إنها وخزة في موضع خطر، والأمر كله يتوقف على الموضع، لقد ضربك فوق القلب مباشرة...».

والنفث إلى لوموف فصاح به مزمجرًا:

- «وأما أنت أيها الشقي، سأعرف الآن كيف أشويك شيئًا... هلم أمامي إلى مبنى الحرس...».

والواقع أنه أوجعه وآلمه، فقد حوكم، وتبين أن الجرح كان وخزة خفيفة إلى أبعد حد، ولكن سبق الإصرار كان ظاهرًا لا نزاع فيه، فزيدت عقوبة السجن، وحكم عليه بالضرب ألف عصا، وقد ارتاح الميجور لهذا

الحكم كل الارتياح، وشفى به غليله.

وأخيرًا وصل المفتش، وجاء لزيارة السجن غداة يوم وصوله إلى المدينة، وكان يوم راحة، وكان السجن من بضعة أيام قد نظف وصقل ولمع، ولم تترك فيه ناحية لم تتعهد بنظافة وعناية، كما حلق للمساجين رؤوسهم، وبدت ثيابهم بيضاء نظيفة، وكان الزي في الصيف كما تقرر اللوائح يتألف من جاكete تيل بيضاء وبنطلون، فوضعت على ظهر الجاكete دائرة سوداء يبلغ قطرها نحو أربع بوصات، ودرب السجناء ساعة كاملة على أداء التحية اللائقة إذا حياهم القائد العظيم، وتوالت التمرينات، وكان الميجور كثير الحركة في أرجاء السجن كالمأخوذ، واصطف القوم في أماكنهم قبل ظهور الجنرال بساعة، فكانوا كالخشب المسندة لاصقي أذرعهم بجنوبهم، وفي الواحدة بعد الظهر وصل الجنرال، وكان قائدًا خطير الشأن حتى لأحسب جميع الموظفين قد خفقت منهم القلوب في سيبيريا الغربية بأسرها لنبا مقدمه، وقد دخل إلى السجن عابسًا ظاهر الجلال تتبعه صفوف من رجال السلطة المحليين يمشون في ركابه، ومن بينهم عدة ضباط كبار من رتبة الجنرال، ورتبة الكولونيل، وموظف مدني بارع القد مليح المحيا يرتدي جاكete مستطيلة الذيل، وحذاء قصير الكعب جاء من بطرسبرج أيضًا، وهو حر التصرف طليق في مسلكه وحركته، وكثيرًا ما كان الجنرال يلتفت إليه بأدب ظاهر، مما أدهش السجناء كثيرًا واسترعى اهتمامهم... أ يكون مدنيًا وله كل هذا الاحترام عند مثل هذا القائد المعظم أيضًا... ولم يلبثوا أن اكتشفوا اسمه ومن يكون، وإن اختلفت فيه النظريات، وتباينت الآراء. ويخيل لي أن «الميجور» - وكان يرتدي بذلة عسكرية محبوكة عليه و«ياقة» برتقالية اللون، وعيناه تتقدان كأنهما كأسان من الدم، ووجهه محمر كثير

البشرات والدمامل - أحدث تأثيرًا حسنًا في نفس الجنرال، وكان احترامًا للزائر العظيم قد نزع المنظار عن عينيه، ووقف عن بعد، مستوي القامة، مترقبًا كالمحموم اللحظة التي يراد فيها منه أن يعدو لتحقيق رغبات القائد ومطالبه، ولكنه لم يطلب شيئًا، وإنما انطلق في رحاب السجن وأرجائه صامتًا، وألقى نظرة على المطبخ، وأعتقد أنه ذاق الحساء ليختبره بنفسه، وأشير إليّ وحكى له قصتي وقيل له إنني من طبقة المتعلمين، فكان جوابه: آه.. وكيف يبدو الآن سلوكه؟ فقليل له: سلوكه إلى الآن يدعو إلى الارتياح يا صاحب السعادة.. فأومأ الجنرال، ولم تمض دقيقتان حتى غادر السجن. ولبث السجناء بالطبع مذهولين مأخوذِينَ، فقد ضاعت منهم الفرصة، فلم يتقدموا بشكاواهم من الميجور، وكان هذا مطمئنًا مقدمًا من هذه الناحية كل الاطمئنان.

الفصل السادس

حيوانات السجن

وكان انشغال السجناء وفرحهم بشراء «سوريل» عقب زيارة الجنرال بفترة قصيرة أكثر متعة وألطف أثرًا، فقد كنا نحتفظ بحصان في السجن لجلب الماء ونقل القمامة وغيرهما من الأعمال المماثلة، وكان يعين أحد السجناء لتفقدته والعناية به، واعتاد أيضًا استيقاظه في رفقة حارس بطبيعة الحال، وكان العمل المفروض على الحصان كبيرًا في الصباح والمساء، وكان الحصان القديم قد لبث عهدًا طويلًا في خدمتنا، وكان حصانًا طيبًا، ولكنه تعب وذوت قواه، وإذا به في ذات صباح رائق قبيل عيد القديس بطرس، يسقط فجأة من الإعياء، عقب إحضار برميل الماء المطلوب للمساء، ولم تكد تنقضي بضع دقائق حتى نفق، وحزن السجناء جميعًا لهلكته، وأحاطوا به وراحوا يتناقشون ويختلفون، وطفق الذين سبقت لهم الخدمة في فرق الخيالة، والذين يتسبون منهم لقبائل «العجر»، والجراحون البيطريون منهم، يظهرون علمهم الواسع بالخيول وخواصها وأمراضها وعللها، حتى انتهوا

إلى الشتائم والتلاحي، وإن عجزوا جميعاً عن إيقاف «سوريل» المسكين على سوقه، فلبث حيث سقط ميتاً منتفخ البطن وهم يغرزون أناملهم فيه فعل الخبراء وشأن العلماء المجربين. ولما علم الميجور بأن أمر الله نفذ في الحصان القديم، قرر في الحال شراء حصان جديد.

وجيء بخيل كثيرة إلى السجن لاختيار واحد منها، في صباح يوم عيد القديس بطرس بعد الصلاة عند اجتماعنا في صعيد واحد. وكان المفهوم أن السجناء بالطبع هم الذين يختارون الحصان المطلوب، وكان بيننا فريق من الخبراء بالخيل الجهابذة حقاً، فليس بالهين غش مائتين وخمسين رجلاً من الأخصائيين في هذا الشأن أو التدجيل عليهم، فقد جاء قوم من «الكرغيز» الرحل وتجار الخيل والنور وفريق من أهل المدينة بخيول كثيرة لعرضها، ووقف المساجين نافدي الصبر منتظرين وصول كل حصان، وهم فرحون كالأطفال. ومما زادهم اغتباطاً وازدهاء أنهم سيشترون حصاناً كأنه لهم، وكأنهم هم الذين سيدفعون ثمنه من حر مالهم، فلهم كل الحق في شرائه كما يشتري الأحرار متاعهم. وسيق بثلاثة خيول، ثم صرفت الخيل مردودة، قبل أن يستقروا على الرابع، وكان الباعة الذين قدموا مع الخيل يتلفتون حولهم في شيء من الدهشة، بل ببعض التهيب، ويرسلون أعينهم بين لحظة وأخرى في الحراس الذين يتقدمونهم إلى الساحة، ولا عجب فإن مشهد غوغاء طغام يبلغ عددهم المائتين، حليقي الرؤوس مدموغين بميسم الجريمة، مقيدين في الأصفاد، مطمئين إلى مقامهم في السجن كأنه عشهم، ذلك السجن الذي لا يؤذن لأحد بأن يتخطى وصيده، لم يلبث أن أحدث رهبة في نفوسهم، وطفق زملاؤنا يبتكرون مختلف الحيل والوسائل لاختبار كل حصان يعرض علينا، فيتفحصونه من فوق إلى تحت ويتحسسون كل جزء فيه، بحركة التاجر

المدقق، وشأن الناقد الجدي الخطير، كأن حياة السجن كلها رهن بنتيجة هذا الفحص ومداه، بل لقد تقدم السجناء «الكرغيز» إلى الحصان يركبونه ويجرون خبيًا به، وهم متقدو الأعين، يتحدثون برطانتهم غير المفهومة، وتفتت أفواههم عن أسنانهم البيض، ويومئون برؤوسهم ووجوههم السمر، وأنوفهم التي تشبه الخطاطيف، بينما وقف فريق من الروس حاصري كل اهتمامهم في مناقشات الكرغيز مطيلي النظر إلى أعينهم كأنهم يريدون اختراقها، ويحاولون لجهلهم برطانتهم معرفة مرادهم من خلجات أعينهم، هل يقررون شراء الحصان أم لا يقررون، وهو اهتمام بالغ لم يفت أنظار الحاضرين، وإن المرء ليعجب ويتساءل ما سر هذا الاهتمام الشديد الذي كان السجناء يبدونه، وكيف أن سجينًا ضيعًا لا شأن له ولا قدر حتى لا يجرؤ على رفع صوته أمام أحد من رفقاءه، يعنى بأمر كهذا أبلغ العناية، كأنما يريد شراء حصان لنفسه، أو كأنما شراء حصان دون آخر يكرهه ويعنيه كثيرًا. وإلى جانب الكرغيز والذين سبق لهم الإتجار في الخيل والغجر، وهم أبرز القوم في هذه الجولة ولهم فيها الكلمة الأولى - إلى جانب هؤلاء وقف سجينان كأنهما في مبارزة يتحاوران ويتنازعان، أحدهما يدعى «كوليكوف» كان من تجار الخيل فيما مضى من دهره، والآخر بيطري اكتسب العلم بنفسه، وهو فلاح فطن من أهل سيبيريا دخل السجن من عهد قريب ونجح في أخذ زبائن كوليكوف في المدينة وانتزاعهم منه؛ فقد كان أهلها يقدرون البيطرة منا أكبر التقدير، ولا يقتصر الأمر في هذا على التجار وأصحاب الحوانيت، بل كان أهل الطبقة الراقية أيضًا يلجأون إلى البيطريين في المدينة، ولم يكن لكوليكوف منافس، حتى ظهر «بولكن» الفلاح السبييري على المسرح فوجد «زبائن» كثيرين، واتسع نطاق عمله، وكان ينقد على خدماته؛ وكان

«نوريًا» مخيفًا، ورحالًا كبيرًا، وعلمه أقل كثيرًا من دعواه، وكان يبدو من ناحية المال «أرستقراطيًا» بيننا، وبفضل تجربته، وذكائه، وجرأته، وعزمه، لم يلبث أن اكتسب كرهًا، أو انتزع احترام السجناء انتزاعًا، فكان فينا صاحب الكلمة المسموعة، والرأي المطاع، ولكنه كان قليل الكلام، فإذا تكلم كان كمن ينعم بهدية على سامعيه، ولا يفتح فمه إلا في أخطر المواطن وأهم المناسبات، وكان يبدو أبدًا متأنقًا «غندورًا»، وإن لم يخل من نشاط حقيقي، وهمة بالغة، ولم يعد الرجل في ريعان الشباب، ولكنه لا يزال المليح القوي الدائب الحركة، وكان سلوكه حيالنا نحن معاشر المتعلمين في السجن سلوك أدب جم، ومجاملة رفيعة، وكرامة غير مألوفة، وأعتقد أنه لو ارتدى أحسن الثياب، وقدم إلى أعضاء أحد الأندية الراقية في موسكو أو بطرسبرج بوصفه «كونت» أو وجيهًا كبيرًا لوجد نفسه بينهم، كأحد أهلهم، وعضو بارز فيهم، أو كأنه بين أنداده، وللعجب معهم «الويست» كما يلعبون، وبرع في الحديث كما يبرعون، وقد يقل من الكلام، ولن كلامه سيروح «موزونًا»، ومن يدري. لعل القوم لن يستطيعوا في ذلك المساء كله أن يكتشفوا حقيقة أمره، ويعرفوا أنه ليس «بالكونت» ولا بالوجيه، ولكنه أفاق شرير، وأنا أقول هنا جدًا، فقد أوتي حدًا بالغًا من الحذق وسعة الحيلة وسرعة الخاطر إلى جانب آدابه العالية، وسمته الرفيع، ولا بد من أن يكون مثله قد اكتسب عدة تجارب مختلفة في أدوار حياته الماضية، وإن كان هذا الماضي ملففًا بحجب من الغموض. وكان سجينًا في القسم الخاص، ولكن بعد وصول يولكن الذي كان يسند في حدود الخمسين، ويبدو أخا خبث ومكر، وإن كان فلاحًا من عرض القرى، بدأت شهرة كوليكوف كخبير بيطري تدهور، فلم ينقض شهران حتى انتزع يولكن كل زبائنه أو معظمهم في المدينة، فكان

يشفي بسهولة تامة الخيل التي يئس كوليكون من شفائها، بل لقد داوى منها ما كان الجراحون والأطباء البيطرة الأعلام يعدون شفاءها مستحيلًا.

وكان هذا السجين قد سيق إلى السجن مع آخرين في جريمة تزيف النقود، ولست أدري ما الذي جعل مثله في هذه السن يتورط في فعلة كهذه، وقد اعتاد أن يقول لنا وهو ضاحك من نفسه: إنهم لم يستطيعوا بإذابة ثلاث قطع ذهبية حقيقية غير تزيف قطعة واحدة.. وكان كوليكون ناظمًا أشد النعمة من يولكن وتوفيقه في فن البيطرة، وكان مجده فعلاً بين السجناء قد أخذ في المحاق، وكان له في المدينة خلية ينفق عليها، ويرتدي سترة من المخمل، ويضع خاتمًا من الفضة في أصبعه، وقرطاً في أذنه، ويتنعل حذاء خاصًا مبرقشًا، ولكنه من قلة المال اضطر إلى الإتجار في «الفودكا»، فلا عجب إذا كان القوم جميعًا يتوقعون أن يقوم شجار بين هذين الخصمين على شراء الحصان الجديد، بل لقد توقعوه بلهفة وترقب، وكان لكل منهما أنصاره، وما لبثت الحماسة أن بدت في كلا الجانبين، كل يتشيع لصاحبه، ويسخر منه، وكان يولكن قد زم شفتيه ووجهه الذي ينم عن الخب، وابتسم ابتسامة سخرية متناهية، ولكن تبين أنه هو وأنصاره مخطئون، فإن كوليكون لم يحاول أن يسيء إليهم، وإنما سلك مسلكًا رائعًا، مسلك السيد المسيطر على الموقف، فبدأ يدع الأمر لخصمه بل أخذ يصغي بانتباه إلى انتقاداته، ولكنه وقف عند بعض عباراته، فلاحظ في رفق ولكن في تأكيد أنه قد أخطأ، وقبل أن يتمكن يولكن من الاستدراك وتصحيح عبارته، مضى يثبت له أنه أخطأ في هذه النقطة، وتلك، فبهت يولكن وأخذ فجأة وبراعة، وخرج أنصار كوليكون راضين، وإن ظل يولكن صاحب الموقف وبطله المعلم.

وقال بعضهم: كلا يا أولاد، إن مثله لا يهزم بسهولة، إنه يحسن تأدية دوره.

وقال آخرون بلهجة تنم عن الانتقاص: إن يولكن أوسع معرفة.
وما لبث الفريقان أن راحا يتكلمان فجأة عن توافق وتراض، فقال أنصار كوليكوف إن يولكن ليس أوسع معرفة، ولكنه فقط أخف يدًا، ولا ينبئك عن الماشية مثل كوليكوف خبيرًا، فهو من هذه الناحية لا يضارعه أحد ولا يعلو عليه.

وقال آخر: لقد قلت حقًا، إنه كذلك.

وأمن الثالث على هذا القول: «نعم»، إنه لكذلك..

وأخيرًا اشترينا الحصان الجديد، وكان بديعًا، فتيًا قويًا حسن الشكل، ذا ملامح لطيفة كل اللطف، ظريفة كل الظرف، لا شائبة عليه مطلقًا، ولا عيب فيه طبعًا، وبدأ السجناء يساومون، وطالب التاجر فيه بثلاثين روبلاً ولكنهم عرضوا خمسة وعشرين، وحمي وطيس المساومة وطال أمدها، وطفق القوم يجمعون ويطرحون، وأخيرًا تضاحكوا من أنفسهم على هذا التدقيق العجيب.

قال أحدهم: علام كل هذه المساومة، هل ستدفعون الثمن من جيوبكم؟

وقال آخرون: هل تريدون أن توفروا على الحكومة؟..

- ولكن لا تنسوا يا إخواننا أنها أموال عامة.

- أموال عامة!... حقًا... لا حاجة بأحد إلى زرع مغفلين مثلنا، إننا ننمو

من تلقاء أنفسنا كالنبات «الشيطاني».

وانتهت المساومة بعد لأي وربطت على ثمانية وعشرين روبلاً، وأبلغ الميجور نبأ الاتفاق، وتم الشراء، وجاءوا طبعاً بخبز وملح، وأقتيد «سوريل» الجديد إلى السجن بالاحتفال اللازم، ولا أحسب أن أحداً فيهم لم يربت على عنق الحصان أو لم يلمس أنفه، وفي اليوم ذاته أسرج لنقل الماء ووقف كل سجين ينظر بلهفة وفضول إليه وهو ينقل البرميل، وجعل «رومان» السقاء يتطلع إليه بارتياح غير مألوف، وهو فلاح في الخمسين، يغلب عليه الصمت والغباء، ولا عجب، فإن الحوذيين الروس هم كذلك في الجملة، هادئون صامتون، كأن الاختلاط بالخيول من شأنه أن يكسب المرء سكينه خاصة، ووقاراً، فكان «رومان» هادئاً، متودداً لكل إنسان، لا يكثر من الكلام، وكان من عادته أن يتناول نشقات من التبغ، ولبث من عهد لا تعيه الذاكرة يرعى خيل السجن ويتعهد بها بالعبادة، وكان «سوريل» الجديد هو الثالث بهذا الاسم، وكان السجناء جميعاً مقتنعين بأن لون «سوريل» هو اللون المناسب للسجن، أو بعبارة أخرى هو الأفضل له والأحسن، وكان رومان أيضاً يرى هذا الرأي، ولم يكن شيء ليحفزهم إلى شراء حصان أبلق أو مرقش مثلاً، وكانت شغلة السقاء محتفظاً بها لرومان دائماً، كامتياز خاص، ولم يكن أحد يخطر بباله أن ينازعه هذا الحق. وحين نفق «سوريل» القديم لم يدر بخلد أحد ولا الميجور نفسه أن يلقي اللائمة على «رومان»، بل كانت تلك مشيئة الله، فلا ذنب للسقاء، فقد كان سائقاً حسناً.

ولم يلبث «سوريل» الجديد أن أصبح صاحب الخطوة في السجن، وكثيراً ما جعل السجناء، وهم قوم غلاظ خشنون، يذهبون إليه فيرتبون على ظهره ملاطفين مدللين، وكان يتفق أحياناً أن ينزل السقاء رومان عن أوبته من النهر بالماء، فيغلق البوابة التي فتحتها الجاويش له، فيقف سوريل

بالبرميل في الفناء، لا يتقدم عن مكانه ولا يتأخر، منتظرًا سائقه، ناظرًا إليه بطرف عينيه، فيصيح رومان به: «اذهب أنت وحدك»، فينطلق سوريل حتى باب المطبخ فيقف ريثما يأتي الطهارة وحملة الجرادل ليحملوا الماء فيها، ويصيح به السجناء عندئذ قائلين: «شاطر يا سوريل! لقد جاء بالماء وحده، إنه ليصدع بما يؤمر».

ويقول أحدهم: «انظروا يا قوم! واعجبوا، إنه حيوان، أعجم ولكنه يفهم، إن سوريل مخلوق بديع!».

وعندئذ يحمم ويهز رأسه كأنما قد فهم هذا المديح حقًا وسر به، وعند هذا الحد يأتي قطعًا بخبز وملح إليه، فيأكل ويهز رأسه مرة أخرى، ولسان حاله يقول: أنا عارفك، أنا عارفك، إنني حصان لطيف وأنت إنسان كريم...

وكنت أحب دائمًا أن أحمل الخبز إليه، ويطيب لي أن أنظر إلى وجهه الجميل وأمس على راحتي شفتيه الناعمتين الدافئتين، وهو مبادر إلى التقاط الطعام المقدم إليه.

وكان السجناء عامة ينزعون إلى حب الحيوانات والاستئناس بها، ولو ترك الأمر لهم، لسرهم أن يربوا مختلف أنواع الدواجن والأطيوار والحيوان في السجن، وهل ثمة ما يرقق طباعهم، ويلطف من خشونة أخلاقهم، ويهدئ من ثائرة نفوسهم الموحشة، أبلغ من نزعة كهذه وأكبر أثرًا؟

ولكن الأمر لم يكن متروكًا لهم؛ فإن اللوائح لا تجيزه، وليس في السجن موضع مناسب لمثله.

ولكن كانت في السجن عدة حيوانات في العهد الذي قضيته فيه، فقد

كان لدينا إلى جانب الحصان «سوريل» كلاب وإوز والجدي «فاسكا» وكان عندنا في وقت ما نسر.

وكان «شريك» الكلب الثابت في السجن، كما أسلفت، وهو حيوان ذكي وديع، كنت أبداً على مودة معه، ولكن الكلب عند الفلاحين في كل مكان محدود حيواناً قدرًا قلما يعنى أحد به، فلا عجب إذا لم يجد «شريك» إنساناً في السجن يحفل به أو يرعاه، فكان ينام في الفناء، ويعيش على فضلات المطهى وليس ثمة أحد يوليه اهتماماً خاصاً، وإن كان هو يعرف كل من في السجن ويعدده مولاه؛ وكلما عاد السجناء من العمل، وتردد في الفضاء في جانب مبنى الحرس النداء «عسكر!»، عدا الكلب إلى البوابة ليؤدي التحية لكل جماعة، ويهز ذنبه لكل فئة، وينظر بمحبة وتودد في وجه كل سجين وهو داخل، مرتقباً منه ملاطفة، أو ربة حنان، ولكنه لبث عدة سنين لا يظفر بها من أحد، عداي، فكان لهذا يحبني أكثر من حبه للآخرين.

ولست أذكر كيف جاءنا كلب آخر يدعى «بيلكا» أما الثالث وهو «كوليتامكا» فقد جئت أنا به صغيراً من الموضع الذي كنا نشتغل فيه، وكان «بيلكا» مخلوقاً غريباً دهمته في ذات مرة مركبة نقل فاعوج فقاره العظمي، فإذا جرى خيل إليك أن كلبين اثنين يجريان معاً، وكان أجرب أيضاً وله عينان تفرزان، وكان ذنبه أبداً بين ساقيه، وهو أجرب كذلك ومرقع يكاد يخلو من الشعر، والظاهر أنه كان راضياً بقسمته، فلم يكن يتوجع أو يهر، وما سمعته يوماً ينبح أو «يزوم» في وجه أحد، كأنه لا يجروء على النباح أو لا شجاعة لديه تحفزه إلى الهرير أو العواء، وكان يقيم أكثر الوقت خلف الثكنات على أمل التقاط شيء يأكله، وإذا رأى أحداً منا، انقلب على ظهره، قبل أن يصل إليه ببضع خطوات، عن مذلة، كأنما لسان حاله يقول: «افعل بي ما تشاء،

فأنت ترى أنني لا أفكر في أية مقاومة»، فكان كل سجين يتدحرج هكذا أمامه
يركله بحذائه، كأنما يجد لزاماً عليه أن يفعل هكذا به، وهو يقول: يا لك من
كلب قذر! ولكن «بيلكا» لم يكن يجسر حتى على الصياح، فإن كان الألم
شديداً لا يقوى على احتماله اكتفى بأنين مخافت كالشكاة، وكان يتدحرج
على هذا النحو أيضاً أمام أي كلب آخر إذا اقتضى منه شيء الخروج بعيداً
من السجن وجدرانه، وقد اعتاد أن ينقلب في مذلة على ظهره، كلما بصر
بكلب ضخيم طويل الأذنين يعدو نحوه عاوباً نابحاً، ولكن الكلاب تحب
مشهد الذلة والخنوع لها من الكلاب الأخرى، فلا غرو إذا رأيت الكلب
الضخم قد لان وهداً ووقف متردداً حيال هذا المخلوق الخانع الرائد
أمامه رافعاً سوقه في الفضاء، ثم لا يلبث أن يتقدم في رفق ودهشة فيشمه
من جميع نواحيه. وليت شعري ماذا كان «بيلكا» الراعش الراجف يفكر في
تلك اللحظات؟ أكان يقول لنفسه: ما العمل إذا عضني هذا الشقي الأثيم؟
أكبر الظن أن هذا هو تفكيره، ولكن الكلب الآخر بعد أن يفرغ من شمه ملياً
يتركه؛ لأنه لم يجد شيئاً خاصاً فيه يهتم به، وعندئذ يقفز بيلكا من مجثمه،
فيلحق بالكلاب الأخرى التي تجري وراء كلبة مليحة، وهو يعرف يقيناً أنه
لن يكون يوماً خليلاً لمثلها، ولا كاسباً رضاها؛ ولكنه مع ذلك يجري من
بعيد خلفها، ويجد لذة وعزاء، في هذا العناء، والظاهر أنه كان قد كف من
عهد طويل من التفكير في أمر الكرامة، والعزة، والإباء، بعد أن فقد كل أمل
في حياة طيبة، ومستقبل كريم، وقنع بخبزه اليومي، وعرف المصير. وقد
حاولت مرة أن أربت عليه أو ألاطفه، فكان ذلك مني شيئاً غريباً عليه غير
منتظر بحيث تخاذلت سوقه الأربع وسقط وهو يرعش ويرتجف، وبدأ يعوي
من الانفعال عواءً أليماً. وكثيراً ما كنت أمسح بيدي عليه من الرحمة فظل

كلما لقيني بعد ذلك يبكي ويزوم طويلاً، وما إن يراني مقبلاً من بعيد عليه، حتى ينشج نشيجاً أليماً، وانتهت أخيراً حياته إذ قتلته الكلاب الأخرى عند أسوار السجن وجدرانه الخارجية.

أما «كوليتابكا» فقد كان كلباً من نوع آخر، ولست أدري لماذا جئت به من الورشة إلى السجن وهو وليد أعمى، وكان يروقني أن أطعمه وأقوم على تربيته، ولم يلبث شريك أن أخذه تحت جناحه واعتاد النوم معه، ولما بدأ كوليتابكا يكبر، جعل شريك يأذن له في عض أذنيه وجذبه من فروته وملاعبته، كما يلعب كبار الكلاب وصغارها. والغريب أن «كوليتابكا» لم يزد على الأيام ارتفاعاً، وإن نما طويلاً وعرضاً، وكان شعره وهفاً كثيفاً فيراني اللون فاتحاً، إحدى أذنيه مرتفعة، والأخرى متدلّية، وكان ينزع إلى الحركة، كثير النشاط والحماسة، شأن صغار الكلاب وولدانها، فهي عادة تعوي وتنبح فرحاً وتهللاً إذا رأت صاحبها، ثم تعدو إليه فتلق وجّهه ولا تتردد في إطلاق العنان لسائر انفعالاتها غير مكرثة باعتبارات الأدب واللباقة، إذ كل ما يهملها هو إظهار عاطفتها وحماستها. وإذا كنت في مكان ما وناديتّه، ظهر في الحال من أي ركن أو زاوية كأنما قد انشقت الأرض عنه، وقفز نحوي قفزاً، وهو في فرح مغتبط، وراح «يتشقلب» في الهواء ويطفر ويتدحرج قبل أن يبلغ مكاني، كأنه الكرة. وكنت به مولعاً كل الولوع، ويبدو لي كأن القدر لم يعد له غير الابتهاج والسرور والمزاح، ولكن سجيناً يدعى نيستروف يشتغل بصنع أحذية النساء ودبغ الجلود، رآه يوماً فاهتم به اهتماماً خاصاً، والظاهر أنه أضمر شيئاً في نفسه، فناداه وتحسس شعره وتلطف إليه فلم يكن من «كوليتابكا» إلا أن عوى بفرح؛ وهو بالرجل غير مرتاب. وإذا به يختفي في غداة اليوم التالي. وبحث عنه طويلاً فلم أعثر عليه مطلقاً.

وعرفت عاقبة الأمر بعد أسبوعين، إذ تبين لي أن «نيستروف» كان يمد عينه إلى شعر الكلب ويطمع فيه، فخزه ودبغ جلده وبطن به حذاء من القطيفة لزوجة مراجع الحسابات. وهو الذي أراني الحذاء حين فرغ منه. وكانت البطانة المصنوعة من جلدة الكلب بديعة... واهًا للمسكين كوليتابكا!...

وكان في السجن خلق كثير يحسنون دبغ الجلود، وكثيرًا ما كانوا يحملون إلى السجن كلابًا غزيري الأشعار، لا تلبث أن تختفي، وبعضها كان السجناء يسرقونها، والبعض الآخر يشترونها شراء، وأذكر أنني رأيت مرة سجينين خلف المطهى يتشاوران، وكان أحدهما يربط بحبل كلبًا أسود فخماً، أكبر الظن أنه من النوع الثمين، وكان أحد الخدم قد سرقه من سيده وباعه للحذائين من السجناء لقاء بضعة قروش، وكان هذان السجينان يهمان بشنقه، وهو عمل هين، إذ يسلخان جلده ويلقيان بحشته في البالوعة الكبيرة القائمة في أقصى ركن من الفناء، والتي كانت تنبعث منها أكره الروائح في أيام القيظ الصائفة الشديدة الهجير، وقلما كانت هذه البالوعة تكسح أو يفكر أحد في تنظيفها. ويخيل لي أن الكلب قد فطن إلى ما هو مخبأ له، فمضى يحملق بصره فينا نحن الثلاثة وعيناه قلقتان متلفتتان، وهو يهز ذنبه المتساقط الكثيف الشعر كأنما يحاول بهذه الهزة التدليل على طمأنينته إلينا وثقته بنا، ليرفق قلوبنا له، وتلين مشاعرنا نحوه، فلم أطق على هذا المشهد الأليم صبرًا، وأسرعت منصرفًا، ولا شك عندي في أنهما فعلا به ما أرادا قريري العين راضيين.

وكانت تربيتنا للإوز محض اتفاق، ولست أعرف من كان أول جالب لها، ومن هو صاحبها، ولكنها لبثت فترة من الدهر ملهاة بالغة للسجناء ومصدر تسلية، بل أصبحت شيئًا مألوفة في المدينة. وكانت تفقس في

السجن وتقيم في المطهى، ولما كبرت صغارها لم تلبث أن ألقت السير في أثرهم جماعات وأسراباً إلى محل العمل، فلا تكاد تسمع دقات الطبول وتشهد السجناء الدفين إلى الباب العام حتى تعدو وراءنا صارخة مرفرفة بأجنحتها، واحدة بعد الأخرى، قافزة فوق بسطة الباب المرتفعة، عاطفة على الجانب الأيمن، مصطفة منتظرة ريثما يتأهب المساجين للمسير. ومن عاداتها أن تتعلق بأكبر جماعة فينا، لترعى على كذب وهم يشتغلون، وما أن يبدأ القوم في العودة إلى السجن، حتى تستعد هي الأخرى للرجوع، فكان الحراس يقولون ونحن على مشهد منهم: «هالوه، ها هم أولاء المساجين مع إوزهم!» وكان الناس يقولون إذا التقوا في الطريق بنا: «كيف دربتموها هكذا؟»، ويقول آخرون وهم يمدون أيديهم إلينا بإحسان: «خذوا هذا الشيء اليسير للإوز» ولكنها رغم تفانيها وتعلقها بنا ذبحت جميعاً لبعض الأعياد والمواسم التي كنا نحتفل بها.

أما الجدي «فاسكا» فلم يكن ثمة شيء يحمل السجناء على ذبحه، لولا ظرف طارئ عرض لهم، ولا أدري أيضاً من أين جاء أو من الذي حمله إلى السجن، ولكننا في ذات يوم رائق بصرنا بجدي صغير لطيف يرتع على أعيننا، ولم تنقض بضعة أيام حتى أولعنا به، وطفقنا نتلهى به، بل نجد فيه بعض العزاء، ورحنا نبرر الإبقاء عليه بقولنا: «ما دمنا نملك في السجن اسطبلًا فلا غناء لنا عن جدي» ولكنه لم يقم في الاسطبل، ولكنه كان يقيم أولاً في المطهى، ثم مضى بعد ذلك يشرد في السجن وينام حيث يشاء، وكان جميلاً وشقيًا عابثاً في آن واحد، يعدو نحو من يناديه، ويقفز فوق الأرائك والموائد وينطح السجناء، ولا يكف عن العبث والمرح واللهو، وفي ذات مساء حين كبرت قروونه نوعاً ما، خطر لسجين يدعى «باباي» كان جالساً فوق مدارج

السلم مع جمع من الزملاء أن يناطح الجدي. ولبثا يتناطحان طويلاً. وكانت مناطحته على هذه الصورة بعض تسليلات المساجين. وإذا «فاسكا» يقفز إلى قمة السلم، وما أن تولى «باباي» بظهره، حتى ألقى الجدي على مؤخره، ثم قفز بمقدميه، ونطحه بكل قوة في قفاه، فانقلب من فوق السلم متدحرجاً، وسط ضحكات المشاهدين، وضحكات «باباي» نفسه على الأخص، فقد كان كل إنسان في الواقع مولعاً بهذا الجدي مستخفاً ظله.

ولما استكمل «فاسكا» نموه، استقر الرأي بعد مناقشات جدية طويلة على إجراء عملية معينة له كان الأخصائيون البيطريون بيننا برعة فيها، وكانت حجة السجناء أن لا معدى عنها، حتى «لا يصبح تيساً عرم الشهوة» على حد قولهم، ولكنه ما لبث بعد الجراحة التي أجريت له أن أخذ يسمن ويمتلئ شحماً، وطفق السجناء أيضاً يغذونه ويطعمونه كأنما يريدون تسمينه، حتى بدا في النهاية جدّاً مليحاً كبير الحجم إلى حد غير مألوف، وأصبحت له قرون كالعصي، وكان من عادته أيضاً أن يتبعنا عند خروجنا إلى الشغل، مما كان يبعث السرور في نفوس السجناء والسابلة الذين كنا نلتقي بهم، وأصبح «فاسكا» معروفاً مشهوراً، وإذا اتفق للسجناء أحياناً العمل على ضفة النهر مثلاً، مضوا يجمعون أوراق الصفصاف الطرية وغيرها، ويقطفون الأزهار من فوق الأشجار المزدهرة على الأسوار لتجميل «فاسكا» بها وتكليل فروته بعيدانها، ونثر الرياحين والأزهار على كل ناحية من بدنه، وكان «فاسكا» في رجعتنا إلى السجن يسير في مقدمتنا، ونحن في أثره، ونشعر بزهو به، كلما التقينا بأحد في طريقنا. وقد بلغ الإعجاب بالجدي حدّاً جعل فريقاً منا في مثل فرحة الأطفال يقترح طلاء فروته بالذهب، ولكن الاقتراح لم يتجاوز نطاق الكلام، ولم ينفذ مطلقاً. وأذكر أنني سألت يوماً أكيماً أكيماً الذي

كان بعد إيساي فومتش يعد أحسن الداهنين بيننا، هل في الإمكان فعلاً دهن قرون الجدیان بماء الذهب؟ فأطال النظر ملياً إلى الجددي، وبعد تفكير جدي أجاب بأنه ممكن ولكن الطلاء لن يبقى طويلاً، ولا فائدة منه إطلاقاً، ومن ذلك الحين أغفل الموضوع. وكان من الجائز أن يعيش «فاسكا» أعواماً طويلاً في السجن، وأن يموت في النهاية ميتة طبيعية لولا أنه كان في ذات يوم عائداً في مقدمة صفوف المساجين مكمل القرون بالزهر، وإذا بالميجور يمر في مركبته فيصبر به وإذا به يصيح قائلاً: قف! لمن هذا الجددي؟ فلما علم بالأمر التفت إلى الجاويش قائلاً: ماذا أسمع! جدي في السجن بغير إذن مني، يا جاويش.. فتقدم هذا إليه وتلقى منه الأمر بذبح الجددي في الحال، وبيع جلده في السوق، وإضافة الثمن إلى خزانة السجن، وتوزيع لحمه على المساجين مع الحساء، وما أن سمع القوم بهذا الأمر حتى كثر الكلام وتعالَت الحشرات، ولكن أحداً لم يجسر على عصيان الأمر.

وذبح «فاسكا» فوق «البالوعة» القائمة في الفناء، واشترى أحد السجناء لحمه بجملته لقاء روبل ونصف روبل، ودفع الثمن إلى إدارة السجن، وبهذا المال اشترت الإدارة رغفاناً وتولى السجين بيع اللحم أجزاءً للمساجين، فأكلوها شواء، وتبين أن لحمه طيب إلى حد غير مألوف، شهى للأكليين.

وكان عندنا يوماً نسر صغير، من نسور الأصقاع الشمالية، جاء به أحدهم إلى السجن جريحاً منهوك القوى، فأحاط السجناء جميعاً به، ولم يكن يقدر على الطيران فقد كان جناحه الأيمن متدلياً، وساقه مخلوعة من موضعها؛ ولا أزال أذكر كيف كان يحدجنا ببصره مغيظاً غاضباً، متلفتاً حوله ينقل عينيه في هذا الجمع الفضولي المحيط به، ويفتح منقاره المقوس، متأهباً لبيع حياته الغالية، ولما اكتفوا بإطالة النظر إليه وهموا بالانصراف عنه، انطلق يطلع

على ساق واحدة ويرفرف بجناحه السليم، حتى بلغ أقصى طرف من الفناء حيث آوى إلى ركن أمين.

وقد لبث هذا النسر معنا ثلاثة أشهر، ولم يكن يخرج خلالها من ركنه إطلاقاً فكان السجناء في أول الأمر يذهبون إليه أحياناً ويحرشون الكلب به، فكان «شريك» يثب إليه غضباناً محنقاً، ولكنه يخشى الاقتراب كثيراً منه، فكان هذا المشهد يسر المساجين، وهم قائلون: «يا له من طائر جارح عنيد لا يريد أن يستسلم أبداً أو يذعن». وأخيراً جعل شريك يسيء معاملته ويقسو عليه، حين تغلب على خوفه، فكان كلما حرش به، راح يمسكه من جناحه الجريح، ولكن النسر جعل يدافع بقوة عن نفسه بمنقاره، وهو منزو في الركن ينظر بوحشية وكبرياء كملك جريح يتأمل زحاما من الفضوليين جاءوا «للفرجة» عليه.

وأخيراً مله الجميع «ونسوه» وتخلوا عنه، وإن بدت في كل يوم بجانبه قطع من لحم نبيء وجرة مكسورة من الماء، وهو ما يوحى بأن أحداً من الناس لا يزال يفكر فيه ويتعهده، وكان في أول الأمر يعاف الطعام، وظل مضرباً عنه عدة أيام ثم بدأ يأكل، ولكنه لم يكن يقبل أن يتناوله من كف أحد، أو أمام الناس، واتفق لي يوماً أن وقفت أرقبه وهو لا يراني، فظن أنه وحده لا يشهده أحد، فجعل بين وقت وآخر يخرج قليلاً من الركن ويعرج في مشيته بضع عشرة خطوة على طول السياج، ثم عاد إلى موضعه، وما لبث أن خرج منه مرة أخرى، كأنما يتريض أو يتدرب على المشي، ولكنه لم يكد يراني حتى بادر راجعاً، وهو يطلع ويقفز، ويلقي برأسه إلى الخلف، ويفتح منقاره، وينفش ريشه، كأنما يتأهب للنضال، ولم تكن ملاطفتي له لتشيئه عن خشونته، فجعل ينقر ويأبى أن يتناول اللحم من كفي، وكان كلما وجدني

قريباً منه يطيل النظر في وجهي بعينه الوحشيتين النفاذتين.

وكذلك لبث موحشاً فريداً يرتقب منيته متشككاً مستريباً متحفزاً لقتال، وأخيراً تذكره السجناء فشعروا فجأة بعطف عليه، وإن لم يشر أحد منهم إليه، ولم يفعل شيئاً له طيلة شهرين، وأقبل بعضهم على بعض يقولون إنه لا بد من إخراجه من السجن؛ ليتم إذا لم يكن من الموت بد، ولكن ليس في السجن، وقال آخرون منهم: إنه حر فليذهب حيث شاء؛ لأنه لا يمكن أن يألف المحبس. وانثنى بعضهم يقول: إنه ليس كمثلنا..

— هذا كلام هراء... إنه طائر ونحن ناس!

وقال سكاراتوف: إن النسر ملك الغاب يا إخوان..

ولكن أحداً في هذه المرة لم يصغ إليه.

وفي ذات يوم بعد الغداء، حين دقت الطبول إيذاناً بالخروج إلى العمل، أخذ السجناء النسر معهم، ممسكين بمنقاره؛ لأنه بدأ يتملص ويناضل بقوة، واحتملناه إلى الأسوار، وكان الجمع مؤلفاً من اثني عشر سجيناً، وكلهم متشوق لمعرفة أين سيذهب النسر، والغريب أنهم كانوا يشعرون بسرور وفرح كأنهم هم أيضاً قد أصابوا حصّة من الحرية ونصيياً.

وقال السجين الذي كان يحمله، وهو ينظر إليه بحب ورفق: انظروا إلى هذا الكلب، يحسن المرء إليه، وهو مع ذلك لا يكف عن نقره..

— أطلقه يا ميكتكا.

— يظهر أن لا فائدة من مداعبته، دعه ينطلق.. اترك له حرّيته يذهب حيث يريد.

فألقي به من فوق السور إلى السهل المنبطح، وكان اليوم مقروراً مكفهر
الصفحة، في أواخر الخريف، والرياح صافرة فوق السهول العارية، وإذا
بالنسر ينطلق في خط مستقيم مرفقاً بجناحه المهيض، كأنما يتعجل الابتعاد
عنا، ولبث السجناء يراقبونه بفضول وهو رافع رأسه من خلال العشب.

وانبرى أحدهم يقول في لهجة حالمة: انظروا إليه لقد مضى في وجهه
غير مترقب أنه لم يلتفت وراءه ولا مرة واحدة يا أولاد، إنه يلتمس الفرار!

وقال آخر: هل كنت تنتظر منه أن يرجع لي قدم إليك الشكر؟

وقال ثالث: إنها الحرية.. إنه قد تنسم ريحها..

- هل تلمحونه الآن أيها الرفقاء؟ لقد توارى بالحجاب.

وعندئذ صاح بنا الحراس: لماذا تقفون هكذا.. إلى الأمام!

وانطلقنا إلى العمل واجمين..

الفصل السابع

الشكوى

في مطلع هذا الفصل يشعر ناشر هذه المذكرات التي تركها أليكسندر بترفش جورياتشيكوف قبل مماته بأن من واجبه أن يقدم إلى القارئ البيان التالي:

في الفصل الأول من «منزل الأموات» وردت عبارات عن جريمة شاب قتل أباه، وهما من أهل الطبقة الراقية، ووصف القاتل فيما وصف به على أنه مثل من أمثلة الاستخفاف المتناهي الذي يتحدث السجناء به أحياناً عن جرائمهم، وقيل أيضاً إن القاتل لم يعترف بجرمه خلال محاكمته، ولكن أقوال الذين عرفوا الحادث بكل دقائقه وتفصيله جعلت الوقائع من الواضح بحيث لم تبق خالجة من الشك في إدانته، ولكن هؤلاء الأَشْهاد أبلغوا «ناشر المذكرات» أن المجرم رجل مستخف لا يعبأ بشيء وأنه غرق في ديون كثيرة، فقتل أباه طمعاً في الثروة التي سوف يرثها عنه، وروى القصة ذاتها أهل المدينة التي كان القاتل يقيم فيها، وهي واقعة يملك الناشر معلومات

موثوق بصحتها، كما قيل في المذكرات إن المجرم ظل في السجن مرحاً رائق المزاج، وأنه مخلوق غريب الأطوار، «مهيأص»، تافه، لم يؤت شيئاً من راحة ولا بديهة، وإن لم يبلغ حد الغفلة أو الحمق، وأن المؤلف لم يلاحظ عليه يوماً أية أماراة للقسوة، وختم وصفه للمجرم بقوله: «إنه بالطبع لم يكن يصدق هذه الجريمة...».

وقد تلقى ناشر المذكرات منذ أيام معلومات من سييريا تثبت أن الرجل كان في الحقيقة بريئاً، وأنه قاسى عشر سنوات في السجن والأشغال الشاقة غير جرم اقترفه، وأن براءته تقرر أمام القضاء. وأن الجناة الحقيقيين عُرفوا واعترفوا. وأن البريء السيئ الحظ أفرج عنه. والناشر لا يخالجه شك في صحة هذا النبأ، وليس لديه ما يزيد عليه، ولا حاجة به إلى التوسع في وصف الدلالة المحزنة التي تنطوي عليها هذه الحقائق، أو الحديث عن الشاب الذي تحطمت حياته تحت وطأة هذه التهمة الرهيبة؛ لأن الوقائع في ذاتها لا تحتاج إلى بيان.

ونعتقد أيضاً إذا صح هذا أن صحته من شأنها أن تزيد قصة «منزل الأموات» معالم رائعة، وتضيف «رتوشاً» نهائية إلى الصورة. ولنعد إلى ما كنا بسبيله...

أسلفت عليك أنني اعتدت الحياة في السجن وألفت مكاني منه وإن خالط هذا الإيلاف ألم، ووقع لي بعد مشقة، وتواتى شيئاً فشيئاً، بل في الواقع استغرق مني عاماً أو قرابته، فكان ذلك العام أقسى فترة مرت على حياتي كلها، وأعتقد أنني لا أزال أذكرها ساعة فساعة، وقلت أيضاً إن فريقاً من السجناء لم يستطيعوا اعتياد هذا العيش والسكون إليه، وكنت يومئذ أسائل نفسي أكثر من مرة أي شعور يخالجهم، وهل هم بهذا العيش راضون...

وشغلتنني هذه الأسئلة ونحوها كثيرًا، كما قلت من قبل إن هؤلاء المساجين جميعًا كانوا يعيشون في السجن، كأنهم في «خان» أو فندق، لا في بيوتهم ومنازل أهلهم، أو كأنهم على سفر، وقد نزلوا على الطريق إلى حين، حتى الذين كان محكومًا عليهم بالسجن المؤبد، لبثوا في قلق بالغ، وشقوة مقيمة، وليس من شك في أن كل سجين منهم كان يحلم بشيء يكاد يكون مستحيلًا، فكان هذا القلق المستحوذ الذي كان ظاهرًا، وإن لم يجد في الكلام تعبيرًا عنه، بل هذا التبرم الغريب، والأمل القوي الحاد، الذي كان أحيانًا كثيرة يبدو في كلام يفوه به المتفوه على كره منه، أو ينزلق إليه لسانه رغم إرادته، ذلك الأمل الذي يهيج في وقت ما حتى يكاد يبلغ حدود الهرف والهذيان. وأعجب الأمر فيه أن يلح عليه أفراد أوتوا أكبر نصيب من الرجاحة، والسداد، كأن هذا القلق الغلاب، وذلك الأمل المخالج المداعب، يضيفان على السجين لونًا غريبًا، ومظهرًا قد يكون أبلغ خواصه، وأبرز نواحيه، أن يشعر المرء من اللحظة الأولى أن ليس كمثله شيء خارج جدرانه، فإن جميع الذين ينزلون به حالمون تداعبهم الأماني، وخيالون تستخفهم الآمال، وهو مظهر يدهك لأول وهلة ويروعك. ومما جعل لهذا الشعور قوة ظاهرة أن هذا النزوع إلى القلق بالأمني والأحلام - أو هذا النزوع الحالم - أكسب أكثر السجناء وجومًا يكاد يبدو خارقًا للمألوف، وجعل كثرتهم الساحقة أنزع إلى الصمت والكتمان والكمذ والحق إلى حد الموحدة والرغبة في الثأر، وكرهت إليهم المصارحة بآمالهم، وإظهار آمانيهم، وأحالت الصراحة والبساطة والسذاجة إلى صفات ممقوتة تقابل لديهم بالزراية والاستكاف، وكلما كانت هذه الأماني والأحلام مستغربة ممعنة في الخيال، ازداد إدراك الحالم نفسه لغرابتها وشذوذها، واشتد إصراره على إخفائها في أعماق

جوانحه، واستمكن منه الاستحياء من ظهورها للناس، وإن لم يستطع
التخلي عنها. بل من يدري لعل فريقاً منهم كان في أعماقه مستحيًا خجلان
منها، فإن في خليقة الروس شيئاً كثيراً من الجد و«الواقعية»، والسخرية
الخفية من النفس. وما يدريك لعل هذا الشعور الباطني بالسخرية والسخط
هو الذي جعل هؤلاء المساجين متنافرين متنازعين في مختلف شئون
حياتهم اليومية، وأحالمهم بعضهم هائجاً ساخراً من البعض الآخر، فإذا
كشف أحدهم لشدة سداخته أو قلقه ببعض الكلام الواضح الظاهر عما
يعتمل في نفسه ونفوسهم جميعاً، انطلق مع أحلامه، واسترسل مع أمانيه،
بادر الآخرون إلى كبته وإظهار الزاوية به. ولكن يخيل لي أن أقسامهم عليه،
وأكثرهم سخرية منه قد يكونون هم أنفسهم الذين تداعبهم تلك الأحلام
ذاتها، وتراود أخيلتهم تلك الأمانى، أكثر من مداعبتها له ومرادتها لخاطره،
فإن الصرحاء فيهم والسذج كما قلت معدودون أشد الحمقى، وأسخف
النوكى والمغفلين، فليس لهم عندهم غير السخرية والاحتقار، فقد كان كل
منهم قد أوتي من الكمد والغرور ما يجعله يحتقر كل من سلمت فطرته،
وخلت من الغرور والكبرياء نفسه وطبيعته. ويصح لنا أن نقسم السجناء
الذين ليسوا بالثرثارين، ولا بالسذج والبسطاء الكثيري الكلام، أي معاشر
الصامتين المتكتمين، قسمين، فنقول إنهم فريقان، فريق المتذمرين الكدري
النفوس، وفريق السليمي الطباع، الصادقي الفطر، أو قل فريق المتجهمين،
وفريق الساكنين الرزينين؛ والفريق الأول هو الذي يؤلف الكثرة؛ ومن كان
من هؤلاء بطبيعتهم مكثرين من الكلام، انقلبوا حتماً دسائين مغتابين، أو
وشاة غيابين، يدخلون في شئون الناس، وإن كانوا يكتمون عنهم شئونهم
الخاصة، ولا يفضون إلى أحد بما في قلوبهم؛ أما السليمو القلوب، وهم

قلة، فأولئك يغلب عليهم الهدوء، ويخفون تصوراتهم وأخيلتهم في أعماق صدورهم، وهم بلا شك أنزع من فريق المتدمرين الكدري الأمزجة إلى الإيمان بتلك التصورات، وتصديق تلك الأخيلة، والتعلل بتحقيقها، والاسترسال فيها. ولكنني أحسب أن هناك فريقًا ثالثًا، وهم معاصر اليائسين الذين فقدوا كل أمل، كذلك الشيخ القادم من مستعمرات ستارود بوفشكي، ولكنهم قلة معدودون. فقد كان ذلك الشيخ في الظاهر ساكنًا هادئًا، وقد وصفته لك من قبل، ولكنني أعتقد من عدة أعراض رأيتها أن الألم الذي كان يخفيه في أعماقه شديد، وعذاب نفسه رهيب، وإن كان له من صلواته وتسبيحاته، وإيمانه بأنه من الشهداء، العزاء والسلوة والخلاص؛ وأكبر ظني أن السجين الذي اعتاد قراءة الإنجيل، كما أسلفت عليك، والذي جن جنونه فألقى بحجر على الميجور، كان واحدًا من فريق اليائسين الذين تلاشى كل أمل في نفوسهم؛ ولاستحالة الحياة بغير أمل، وجد عزاءه في هذا الاستشهاد الاختياري أو المصطنع الذي عكف عليه، فقد أعلن أنه هاجم الميجور بغير حقد، ولا شر مضمّر، وإنما ليقبّل العذاب، ويرتضي العقاب، ولا يعلم إلا الله أي تفاعل نفسي كان يجري عندئذ في أعماقه.. إذ كيف تتواتى لامرئ الحياة بغير هدف، ولا جهد في سبيل بلوغه.. وكثيرًا ما يصبح الإنسان الذي فقد كل أمل لديه، وكل هدف في الحياة، حيوانًا مخيفًا في شقوته؛ وكان هدف السجّناء الأوحده هو الحرية والخلاص من السجن.

وأراني هنا أحاول تقسيم أنواع المساجين وتصنيفهم، وهو مطلب لا يكاد يتواتى لأحد، فإن الحياة في تنوعها لا تحد، ولا يجدي في تقسيمها التعميم المجرد، مهما اجتهدت فيه ودققت؛ وهي لا تقبل التحديد، ولا تسائر التمييز والتبويب؛ لأنها تنزع بطبيعتها إلى التباين، وتغلب عليها كثرة

الاختلاف. وقد كانت لنا نحن السجناء أيضًا حياة خاصة بنا وحدنا، ولم تكن وجودًا «رسميًا» فحسب، بل حياة حقيقية خلاجة في قلوبنا مختلفة عن حياة الأحرار والمسرحين.

ولكني كما قلت لم أستطع أن أنغلغل في أعماق هذه الحياة في بداية عهدي بالسجن، فكانت كل حوادثها ومظاهرها الخارجية مصدر ألم دفين لا يوصف بالنسبة لي في ذلك العهد، وكنت أحيانًا أوشك أن أكره أولئك المعذبين معي وأبغضهم، بل لقد كنت أحسدهم لأنهم على كل حال يعيشون بين أندادهم ورفقائهم، يفهم بعضهم بعضًا، وإن كانوا في الواقع مثلي ضجرين متبرمين بهذه الرفقة التي فرضت عليهم بقوة العصا والمقرعة، ملولين من هذه الزمالة «الإجبارية»، وكان كل منهم في أعماقه يتطلع إلى شيء بعيد لا صلة له بالآخرين. وأكرر هنا أنه كانت هناك دوافع مشروعة وبواعث صادقة، لذلك الحسد الذي كان ينتابني في ساعة الملل ولحظات الضيق والضجر. ويخطئ الخطأ كله من يعتقد أن المقام في السجون، أو في منافي سيبيريا ليس أشق على الرجل المتعلم، أو السيد المهذب، منه على أي فلاح من أهل القرى وسواد الريف، فإني أعرف، إذ قد سمعت أخيرًا: أن هناك آراء من هذا القبيل، بل لقد قرأت كذلك عنها، وهي آراء لا تخلو من صدق، أو نزعة إنسانية، فكلنا بشر، ونحن في البشرية سواسية، ولكن هذه الآراء «تجريدية» أغفل أصحابها عدة وجوه «عملية» من الموضوع، وتناسوا عوامل ونوازع لا يعرفها إلا المجربون، ولست أقول هذا على اعتبار أن السيد المتعلم مفروض فيه أنه أرقى شعورًا من العامة وأرفع إحساسًا، وأكثر صقلًا، فليس ثمة مقياس يمكن أن تقاس النفس وأفاعيلها وأطوارها به، بل إن التعليم ذاته ليس معيارًا ولا مختبرًا، وأنا أول من يقرر ذلك ويعلن أنني في

وسط أولئك المعذبين الموطوئين بالأقدام، الأخلياء من العلم، عرفت أمثلة وشواهد على أرفع ضروب التهذيب النفسي بينهم، وأسمى المشاعر في زمرهم. وقد يعرف المرء في السجن أحياناً رجلاً قضى معه السنين الطوال، فاحتقره واعتقد أنه ليس بشراً، بل هو حيوان بهيم، ثم تعرض فجأة لحظات تنكشف فيها نفسه بغتة في نوبة انفجار على غير إرادته، فإذا بك تشهد حيالك رجلاً أوتي من وفرة الإحساس، وسمو المشاعر، ودقة الفهم لما يقاسيه من الآلام، وما يعانیه غيره من صنوف العذاب، بحيث لا تلبث إزاء ذلك كله أن تفتح عينيك على مشهده العجيب وأنت لأول مرة مشدوه لا تستطيع أن تصدق ما رأيت وسمعت. وقد يحدث النقيض أيضاً، فتشهد إلى جانب التعليم أحياناً من الوحشية والإباحية والبهيمية ما تتقزز منه نفسك، وتعاف منه مشاعرك، ولهذا لا تستطيع أن تجد لهذه الآراء والنظريات مبرراً أو عذراً رغم ما يخذو أصحابها من حسن نية، وإخلاص.

ولست أتحدث هنا عن تباين العادات، وأسلوب العيش، وصنوف الغذاء، وما إليها، وإن كانت أقسى بالطبع على رجل من الطبقة الميسورة منها على الفلاحة الذي كثيراً ما يجوع وهو حر طريق، ولكنه في السجن على الأقل واجد ما يأكله، ولست أريد المحاجة على هذا الوجه، ولكن لنفرض أن ذلك كله لا بأس منه ولا ضير فيه على الرجل الذي أوتي قوة إرادة، إذا قيس بالمنغصات الأخرى، وإن كان التباين في العادات أمراً لا يستهان به ولا هو بتافه أو قليل الخطر، ولكن هناك من المنغصات والمتاعب ما يبدو هذا كله حياله من التفاهة وقلة الشأن بحيث يكف المرء عن الاكتراث بالمقازر المحيطة به، والقيود التي يرسف فيها، والاحتجاز الشديد الذي يعيش فيه، والطعام الضئيل القدر الذي يقدم إليه. فإن أرق المتعلمين وأكثر

السادات طراوة ورقة ونعومة قد يستطيع أن يأكل خبزاً أسود ويشرب حساء بالخنافس، عقب العمل المجهد الذي يتفصد الجبين منه عرقاً، والذي لم يؤد مثله، وهو في دنيا الحرية، بل قد يتعوده ويألفه، كما يقال في أغنية فكهة يرددها المساجين في وصف المتعلمين مع زملائهم:

ويقدمون لي الكرب والماء

فألتهمه كأنه الشهي بالهناء والشفاء...

ولكن ما هو أهم كثيراً من ذلك كله أنك بينما ترى السجين العادي لا يكاد ينقضي على وصوله إلى السجن ساعتان، حتى يصبح على قدم المساواة مع السجناء الآخرين، ويحس كأنه في بيته، ومطرحه، ويتخذ من الحقوق ما للباقيين، ويفهمهم ويفهموه، وينظر كل منهم إليه كزميل ورفيق، لا يسهل شيء من ذلك على الرجل المتعلم، ولا يكاد يسيغه، ومهما يكن الصريح المستقيم اللين العريكة الذكي البارع، فسيظل السنين الطوال مكروهاً من الجميع مزدري به، غير مفهوم ولا موضع ثقة، وما هو بصاحب ولا رفيق. وقد يصل على مدى السنين إلى مكان كهذا بينهم، فيكفون عندئذ عن سبابه، ولكنه مع ذلك كله لن يقبل كواحد منهم في يوم من الأيام، فيظل متألماً شاعراً بأنه مقصى عنهم، معتزل، مبعد، ولكن هذا الشعور بالوحدة والإقصاء قد يتلاشى من تلقاء ذاته وبغير وعي ولا إرادة، بل من مجرد انقطاع السجناء عن إضمار السوء له، أو الاضطغان عليه لتباين طبقته، ولا يبقى ثمة غير عامل واحد، وهو أنه ليس واحداً منهم وكفى. وليس في الدنيا شيء أشنع من عيش الإنسان خارج نطاق بيئته، وأما الفلاح الذي ينقل من «تاجانروج» إلى ميناء بتر وبافلوفسك، فلا يلبث أن يجد فلاحين مثله يستطيع التفاهم معهم ويألفهم ويألفونه وشيكاً، فلا تنقضي ساعتان حتى يسكن بعضهم إلى

بعض، ويعيش معهم بسلام في كوخ واحد. ولكن أمر معاشر المتعلمين والسادات يختلف، فإن بينهم وبين الفلاحين بونًا لا يجتاز وخليجًا لا يعبر، ومما يجعل هذا التباين ظاهرًا إلى أبعد حدوده أن يرى المتعلم نفسه بقوة ظروف خارجية محرومًا كل الحرمان من امتيازاته الماضية، متحولًا إلى فلاح، وقد تضطر إلى معاشرة الفلاحين طيلة حياتك، وتختلط بهم أربعين عامًا، سواء من ناحية اعتبارات الوظيفة أو بشكل من أشكال العمل الإداري، أو وديًا، كمحسن وفاعل خير، أو بمعنى آخر، والدِ بار، ولكنك لن تفهمهم حق الفهم في يوم من الأيام، بل سيبقى الأمر كله مجرد صورة خادعة. وأعلم أن الذين سيقراؤن ما أقول سيظنون أنني فيه مبالغ، ولكنني مقتنع بصدقه لأنني لم أصل إلى الاقتناع به من الكبت، ولا من النظريات التجريدية، ولكن من التجربة، وكان أمامي متسع من الوقت للتمحيص والدرس، ولعل الناس على الأيام مدركون صدق ما قلت.

وقد أراد سوء الحظ أن تأتي الأحداث فتؤيد ملاحظاتي من البداية، وتترك في نفسي أثرًا ثابتًا لا حول عنه، فقد مضيت في صيف العام الأول أطوف بأرجاء السجن وحيدًا من الخلان، لا صديق لي ولا صاحب، وكنت يومئذ كما أسلفت القول في حال نفسية لا أستطيع معها أن أعرف من هم السجناء الذين أصبحوا فيما بعد إخوان مودة لي، ولا من هم الذين سوف يقبلون على الرفق بي، وإن لم يعاملوني يومًا معاملة الند للند، والنظير للنظير. وكان لي رفقاء أيضًا من طبقتي، ولكن رفقته لم تخفف عن قلبي ما كان يرهقه ويضنيه، فقد كرهت كل شيء تقع عيني عليه، ولم أجد سبيلًا إلى الفرار منه، وإليك على سبيل المثال حادثًا جعلني من البداية أفهم أنني عن القوم جميعًا غريب، وأن مركزي في السجن شاذ.

فقد حدث في ذات يوم من أيام الصيف، أو أوائل شهر يوليو، في الواحدة بعد الظهر، حين نربح عادة من العمل قبل طريحة «العصر» أن نهض السجّناء جميعاً نهضة رجل واحد وبدأوا يحتشدون في الفناء، ولم أكن سمعت عن حشدهم شيئاً إلا في تلك اللحظة ذاتها، فقد كنت يومئذ مشغول البال بأمر نفسي إلى حد جعلني لا أكاد أشعر بما يجري من حولي، ولكن المساجين كانوا خلال الأيام الثلاثة الماضية في هياج مكبوت، ولعل هذا الهياج كان قد بدأ قبل ذلك اليوم بوقت طويل، كما تبين لي بعدئذ حين تذكرت شذرات من كلام قيل أمامي والشجار المستمر بين المساجين والاكفهار والوجوم والقلق الظاهر عليهم في الأيام الأخيرة، ولكنني ظننت أن ذلك كله يرجع إلى عملهم الشاق وضيقهم بأيام الصيف الطوال المرهقة، والأحلام والأمانى المعتملة في نفوسهم، وتصورات الغابة وحياة الحرية والليالي القصار التي لا تكفي للنوم، ولعل كل هذه العوامل مجتمعة هي التي تعاونت على هذا الانهيار، وإن كان العذر الذي جهروا به هو طعام السجن، فقد ارتفعت منذ بضعة أيام العقائر بالشكوى منه، ولا سيما ونحن مجتمعون في المطبخ على الغداء أو العشاء، فقد سخطوا على الطهارة بل حاولوا تغييرهم بآخرين، ولكنهم عادوا وشيكاً إلى القدامى وكان القوم جميعاً في الواقع في حالة قلق بالغ لا يستقرون منه على شيء.

فقد انبرى أحدهم في المطبخ يزجر قائلاً: إنهم يحملوننا على شغل شاق، ثم يطعموننا «سقطاً»..

وقال آخر ردّاً عليه: إذا لم يرقك فاطلب «مهلبية»..

وأردف ثالث قائلاً: أنا أحب الحساء المصنوع من الكرشة يا أولاد..
الله عليه... إنه لشهي..

وقال رابع: ولكن أترأه يظل شهياً إذا لم تجد شيئاً سواه..

وانثنى آخر يقول: «لقد آن لنا بلا شك أن نطعم لحمًا، إننا نشتغل ونكد في مصنع الطوب، ولا بد للمرء بعد العمل من شيء يأكل، فماذا تفعل الكرشة؟..».

- وإذا لم تكن كرشة فقلب.

- أي نعم، فكرتني، كرشة وقلب، هذا كل ما عندهم لنا ويا له من طعام بديع، أهذا عدل أم ظلم؟

- لك حق.. الطعام رديء..

- أنا واثق من أنه يملأ جيوبه مالا..

- ليس هذا شأنك.

- شأن من إذن؟.. هذا أمر يتصل ببطني، وإذا شكأ أحد منا فلا ريب في أننا سنظفر من الشكوى بشيء..

- شكوى!..

- نعم..

- يظهر أنك لم تضرب كفاية على تلك الشكوى الأولى..

وعندئذ انبرى سجين كان إلى هذه اللحظة معتصماً بالصمت يقول بتذمر: «هذا صحيح، ومجرد الكلام سهل، ولكن نبني ماذا أنت قائل في شكواك؟ من الخير أن تقول لنا هذا أولاً أيها الغبي».

- يا له من حسود خائن للعين، يؤلمه أن يشهد إنساناً سواه بخير.

- لا تنظر إلى ما عند غيرك، وانهض للكسب مثله.

- سأجادلك في هذه النقطة حتى يشيب شعري، أنت إذن غني، ما دمت تريد أن تجلس شابكًا ذراعيك تنظر ولا تحاول شيئًا.

- إن بروشكا ليسمن ويغتني على حس الكلب والقط..

- ولكن لماذا نجلس مكتوفي الأيدي يا أولاد، كفانا صبرًا على استهتارهم بنا، إنهم يسلخوننا سلخًا، فلماذا لا نذهب إليهم؟

- لم لا؟ لأنك تريد أن يجتر لك الطعام اجترارًا ثم يوضع في فمك، هذا هو ما اعتدته.. لأنك في السجن.. ثم تسأل لماذا؟

- إن الجنرال ليسمن كلما رضىنا نحن الغلابة واحتملنا.

- هو كذلك، إن ذا الثماني الأعين قد سمن وترهل... واقتنى زوجًا من الجياد الصافنات.

- نعم، وهو لا يحب الخمر... أليس كذلك؟

- وكان يشجر منذ أيام مع الطبيب البيطري على مائدة القمار، وقد سهرًا عليه الليل كله، وكان صاحبنا في ملاكمة معه استغرقت ساعتين هكذا قال «فيدكا».

- ولهذا أكلنا قلبًا مسلوفاً.

- يا لكم من حمقى.. ليس لأمثالنا أن يتقدموا أو يخطوا حركة إلى الأمام.

- ولكن إذا نحن جميعًا تقدمنا، فسوف نرى ماذا هو قائل للدفاع عن نفسه، يجب أن نصر على هذا.

- دفاع! سيعطيك لكمة وكفى..

- ثم يحاكمنا بعد ذلك.

وجملة القول إن القوم كانوا جميعًا في هياج، وكان غذاء السجن في تلك الأيام رديئًا فعلًا، وجاءت الأمور كلها تباغًا حتى تلاقى، في وقت واحد، زد عليها الكبت العام، والألم الخفي الممض، والسجين بطبيعته نقاد متذمر متمرّد، وإن كان من النادر أن يأتي التمرد عامًا أو يشمل فريقًا كبيرًا من السجناء، بسبب الخلاف المستمر بينهم، والنزاع الذي لا يكفون عنه، وهو أمر يفتن كلهم إليه، وهذا هو سر نزوعهم إلى الكلام العنيف، والقول الجارح، وقلة انبعاثهم إلى العمل والفعل، ولكن الهياج في هذه المرة لم يمر بغير عمل، فبدأوا يتلاقون جماعات في العنابر للنقاش والجدل، ومضوا يتذاكرون وسط اللعنات والأيمان كل ما لاقوه على يد الميجور وفي عهده، ولا يتركون صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها عليه وكان فريق منهم في هياج شديد، وحماسة بالغة، وفي هذه المواطن يبرز عادة المحرضون، ويظهر الزعماء، وهم رجال أهل شخصية ملحوظة، لا في السجن وحده، بل في جماعات العمال، وكتائب الجنود وأشباهها، وهم من نوع خاص، وإن كانوا على الحالات كلها مشتركين في مزايا ومعالم متماثلة، إذ يجمعون إلى حمية الأرواح، اللهفة على العدالة، والإيمان بإمكان إحقاق الحق، والنزاهة التامة، والصراحة المطلقة في الحث عليه، والحض، ولكنهم يتساوون مع الآخرين في الحمق، وإن كان من بينهم في الواقع أفرادًا أوتوا قسطًا بالغًا من الفطنة، ولكنهم في الجملة أشد حمية وأكثر اندفاعًا مع الحمية من أن يستأنوا للتدبر، ويتمهلوا لحساب النتائج. وإذا كان هناك رجال أوتوا القدرة على زعامة الجماهير وكسب قضاياها بالحدق والبراعة، فهؤلاء صنف آخر من الأبطال الشعبيين، وقادة الأمم المفطورين على القيادة، وهو صنف نادر كل الندرة

بيننا، أما المحرضون والزعماء الذين أتحدث عنهم، فهؤلاء أكثر الأحيان يفشلون، ولا يخرجون من المحاولة إلا بالسجن والأشغال الشاقة، وإنما يأتي الفشل من فرط الحماسة، وإن كانت الحماسة هي التي تكسبهم السلطان على الجماهير؛ لأن الناس يبادرون إلى السير في أثرهم، منقادين إليهم بفعل حرارة الإحساس، وقوة الغضب وشدة الانفعال، حتى لينقاد إليهم في النهاية أشد الناس ترددًا وأكثرهم إحجامًا، وإن إيمانهم الأعمى بالنجاح ليعث الثقة في نفوس أكبر المتشككين، وإن كانت هذه الثقة أحيانًا قائمة على أساس واهٍ وتعلات صبيانية، حتى ليعجب الرائي كيف تواتى لهؤلاء الأفراد كسب الأتباع، والظفر بالأشياء والمظاهرين، ولكن الشيء المهم هو أنهم الذين يسيرون في الطليعة، ويتقدمون بلا خوف، ويتصدرون الصفوف بغير وجل، بل إنهم ليندفعون في المقدمة كالعجول الهائجة محني رؤوسهم إلى أدنى، استعدادًا للضرب والنطاح، وكلما يعرفون عن القضية ذاتها شيئًا، ولا يتخذون حيلة ولا تقاة، وليس لديهم شيء من الوسائل العملية التي يستعين بها الرجل الزري السوقي البسيط فيصيب بها أحيانًا النجاح ويبلغ الغاية، وينقذ جلده، أما هم فلهم محتوم الفشل، والخيبة أبدًا نصيبهم؛ لأن هؤلاء الأشخاص هم في الحياة العادية سراع التهيج، محتقرون، كثيرو القلق، متمزتون لا يعرفون سماحة، وهم أكثر الأحياء محدودو الذكاء، وهو في الواقع سر قوتهم، وأشد ما يغيظ في أمرهم أنهم بدلًا من أن ينطلقوا رأسًا إلى هدفهم، ينحرفون غالبًا عنه إلى مسائل تافهة، ويجانبون الطريق المستقيم إليه، منصرفين إلى ما لا خير فيه، ولا جدوى منه، وفي هذا دمارهم، ولكن في وسع الناس أن يفهموهم، وهذا هو مصدر قوتهم وبأسهم.

وأرى لزائمًا عليّ هنا أن أقول شيئًا على سبيل شرح... «الشكوى».

فقد كان في سجننا فريق من المساجين أرسلوا إليه لأنهم قدموا شكوى إلى ولاية الأمور، وكان هؤلاء هم أشد القوم اليوم هياجاً وحماسة، وبخاصة أحدهم، وهو يدعى مارتينوف، وكان من جنود فرقة «الحصار»، وهو امرؤ متهور قلق مريب؛ وإن كان في ذاته الصادق الأمين، وآخر يدعى «فاسيلي أنطونوف» وهو رجل جريء متكبر سافر، وحديد الذكاء إلى أبعد الحدود، وكان هو أيضاً صادقاً أميناً، ولست أستطيع وصفهم جميعاً، فقد كانوا خلقاً كثيراً، وكان بتروف وآخرون معه كثير الرواح والغدو بين الجماعات يستمع إلى ما نقول، ولا يتكلم هو إلا قليلاً، وإن كان ظاهر الهياج، وكان أول من جرى إلى الفناء حين بدأوا يحتشدون فيه.

وجاء الجاويش الموكل بحفظ النظام في السجن يهرع وهو في فزع، فانبرى السجناء وهم في الفناء مصطفىون إلى تكليفه بأدب إبلاغ «الميجور» أنهم يريدون أن يتكلموا معه شخصياً ويسألوه عن نقطة أو نقطتين، وتبع الجنود القدامى جاويشهم فوقفوا صفّاً حيال صفوف المساجين، وكانت الرسالة التي كلف الجاويش حملها غير مألوفة، ففزع منها ونكرها، ولكنه لم يجرؤ على رفض حملها في الحال إلى الميجور، لسببين، أولاً أنه قد يحدث ما لا تحمد عقباه، ما دام الأمر قد وصل بالسجناء إلى هذا الحد، وكان موظفو السجن على بكرة أبيهم يشعرون بخوف غير مألوف من المساجين ويخشون جانبهم، وثانياً إذا لم يقع حادث، وهدأت النفوس، وانصرفوا في الحال، فمن واجب الجاويش أن يبلغ الميجور في الحال حقيقة ما جرى، فلا عجب إذا هو انصرف شاحب اللون راعش الأوصال من الخوف، ومضى مسرعاً، دون أن يحاول سؤال المساجين أو التحدث إليهم؛ لأنه شعر بأنهم سيرفضون الكلام معه.

ولم أكن أعرف عن هذا الأمر شيئاً، ولكنني خرجت أيضاً إلى الفناء فوقفت مع الآخرين، ولم أعلم بتفاصيله إلا فيما بعد، ولكنني ظننت لأول وهلة أن هناك تفتيشاً، ولكنني لم أبصر الجنود الذين يتولونه عادة، فعجبت لهذا الاصطفاف ودرت بعيني فيما حولي مستفسراً، فإذا الانفعال والقلق باديان على الوجوه، بل لمحت شحوباً على بعض السحنات، وهم جميعاً في قلق صامتون، مترقبين ظهور الميجور ليتحدثوا إليه، ولاحظت أن عدة أفراد منهم جعلوا ينظرون إليّ في دهشة غير مألوفة، ثم يشيحون بوجوههم في سكون، والظاهر أنهم كانوا في عجب من وقفتي معهم، وانضمامي إلى صفوفهم، إذ لم يتصوروا أن مثلي جاء ليشترك معهم في الشكوى، ولكن لم يلبث الذين من حولي أن عادوا ينظرون إليّ مستفسرين.

وقال فاسيلي أنطونوف، وكان عنهم في معزل، وهو يسألني بصوت مرتفع صاف: «ما الذي جاء بك؟».

وكان إلى تلك الساعة قد اعتاد أن يخاطبني بلهجة رسمية، ويعاملني بأدب.

فنظرت إليه بحيرة وارتباك، محاولاً أن أفهم الأمر، وقد بدأت أدرك أن هناك حادثاً غير مألوف.

وقال شاب من السجناء في القسم العسكري، عرف بالهدوء والطيبة، وإن لم أكن أعرف شيئاً عنه: نعم، ما الذي يضطرك إلى الوقوف هنا، هذه مسألة لا تعنيك.

قلت: ولكنني رأيتمكم جميعاً مصطفين، فظننت أن هناك تفتيشاً. وصاح أحدهم قائلاً: يا عجباً.. هل زحف هو أيضاً ليخرج معنا؟

وقال آخر: يا ذا المنقار الحديدي..

وقال الثالث باحتقار: يا قاتل الذباب..

وأثارت هذه الكنية الجديدة ضحكًا عامًا.

وانثنى رابع يقول: إنه يجلس معنا في المطبخ تفضلاً منه وتنازلاً.

وقال خامس: إنهم مستمتعون أينما كانوا، حتى في السجن، يأكلون الكعك أو الخبز النظيف ويشترون الخزائير «الأوزي»، وأنتم تأكلون الجراية التي تقدم إليكم.. ما الذي جاء بك إلى هنا يا هذا؟

وقال كوليكوف وهو يتقدم نحوي ببرود ويتناول ذراعي في يده ويخرجني من الصفوف: «ليس هذا مكانك يا أليكسندر بتروفتش».

وكان مصفر اللون وفي عينيه السوداوين بريق، وهو يعض شفته الدنيا، ولم يكن يرتقب «الميجور» في هدوء أو استخفاف كالآخرين، وكنت أحب أن أنظر إليه خاصة في هذه المواقف وأشباهها، أو بمعنى آخر، في المواقف التي يبدو بها على حقيقته، فقد تراءى فرعاً، ولكنه فعل ما كان مضطراً أن يفعل، بحكم الظرف الذي أحاط به، وأعتقد أنه لم يكن ليحجم عن التقدم إلى المشنقة، في رداء وأبهة ورفعة، ألا ترى كيف راح يضاعف أدبه معي في تلك اللحظة التي كان فيها كل فرد منهم فظاً مستهتراً بي، وكيف جاء هذا الأدب معي قصداً منه وتعمداً، وكيف كانت كلماته في الوقت ذاته قاطعة لا تحتمل احتجاجاً، ولا تنتظر رفضاً أو عصياناً، وإن لم تخل من الزرابة والاستخفاف.

ومضى يقول: هذا شأننا نحن يا أليكسندر بتروفتش فليس لك فيه دخل، اذهب أنت وانتظرنا.. إن أصدقاءك جميعاً في المطبخ.. اذهب إليهم..

وأردف أحدهم قائلاً: تحت العرق التاسع من السقف حيث يقيم
«أنتيكا» الرشيق..

ومن نافذة المطبخ المفتوحة رأيت بالفعل إخواننا البولنديين وخيل
لي أيضًا أن هناك خلقًا كثيرًا إلى جانبهم، فذهبت إلى المطبخ مرتبكاً مبلل
الخاطر، تتبعت الضحكات واللغات والصيحات وصفير الاستهزاء.

ولم أكن أهنت في السجن من قبل على هذا النحو فأحسست ألمًا
شديدًا، وإن كنت قد أقحمت نفسي ظالمًا لها، وعند مدخل المطبخ لقيت
ت.... وهو رجل في ربيع العمر قوي الإرادة كريم القلب، وإن لم يتلق قسطًا
كبيرًا من التعليم، على الرغم من عراقة محتده، وكان صديقًا حميمًا للسجين
ب....، وكان السجناء الآخرون قد استثنوه من بيننا نحن معاشر المتعلمين
فجعلوا يتلطفون إليه دوننا، فقد كان شجاعًا ذا رجولة وبأس، تبدو في كل
حركة منه وسكنة.

وصاح بي قائلاً: ماذا تفعل يا جورياتشيكوف... أقبل...

قلت: ما الخطب؟..

قال: إنهم يقدمون شكوى، ألا تعرف... ولكنها لن تجدي نفعًا، إذ
من ذا الذي يصدق قول المساجين... وسيحاولون البحث عن المحرضين،
فإذا كنا معهم فسوف يحملوننا نحن قبل غيرنا تبعة هذا التمرد، تذكر من ذا
الذي جاء بنا إلى هنا، وكل ما سيحدث أنهم سيضربون بالعصي، وسنحاكم
نحن؛ لأن الميجور يمقتنا جميعًا ويسره أن يدمرنا تدميرًا، وسينقذ نفسه من
طريقنا نحن...

وأضاف م.... يقول وهو يدخل المطبخ: وسيسر السجناء أن يخذلونا

ويكشفونا له.

وقالت.....: ثق أنهم لن يتركونا.

ورأيت في المطبخ أناسًا كثيرين، لعلهم ثلاثون إلى جانب السادة المتعلمين، وقد تخلفوا جميعًا ولم ينضموا إلى الشكاية، عن جبانة بعضهم، وعن اقتناع تام من الآخرين بأن الشكوى لن تجدي نفعًا، وكان بين هؤلاء أكيم أكيמתش، فقد كان يشعر بكراهية طبيعية قديمة إلى أمثال هذه الشكاوى ويعدها قاضية على الروح المعنوية والروتين الحكومي، ولكنه لم يقل شيئًا، وكان ينتظر في هدوء تام نتيجة الشكوى، غير متعب نفسه في تدبرها، أو معرفة محصلها؛ لأنه مقتنع كل الاقتناع بأن النظام هو المنتصر حتمًا، وأن مشيئة السلطان هي الغالبة.

ورأيت في المطبخ إيساي فومتش أيضًا، وهو يبدو مرتبًا ويصغي وأنفه متطامن إلى أحاديثنا بانتباه وإشفاق بالغين، فقد كان القلق يساوره، ولقيت كذلك جميع البولنديين الذين من طبقة الفلاحين بجانب مواطنيهم المتعلمين، فضلًا عن جمع من السجناء الهيايين الذين يلزمون أبدًا الصمت ويبدون الخنوع، فقد تخلفوا لأنهم لم يجرؤوا على الانضمام، وقد جلسوا محزونين ينتظرون النتيجة، وشهدت بجانبهم كذلك فريقًا من المساجين الذين لا يفارقهم العبوس والتجهم، وإن لم يكونوا بالخوافين ولا المتهيبين، ولم يتخلف هؤلاء إلا عن عناد، واقتناع سافر بأن هذا التصرف كله حماقة، وأن لا نتيجة له غير الضرر، وإن كان يخيل لي أنهم يشعرون بأنهم باختيار هذا الموقف في حرج، لما كان يبدو عليهم من شدة القلق، وعلى الرغم من يقينهم بأنهم على صواب من جهة عقم الشكوى، كانوا يخشون أنهم قد حذلوا رفقاءهم، أو كشفوهم أمام الميجور.

وكان من المتخلفين أيضًا «يولكن» الفلاح السييري المحكوم عليه في قضية التزييف، والذي استطاع أن ينتزع من كوليكوف البيطري زبائنه في المدينة والشيخ الورع القادم من ستاردوبوفسكي، بينما بقي الطهارة جميعًا بمعزل، وأكبر الظن أنهم كانوا مقتنعين بأنهم قسم من الإدارة، فلا يحمل بهم معارضتها.

قلت لـ... مترددًا: لم يتخلف غير هؤلاء، فالحشد كبير.

وغنم ب... قائلًا: عجبًا... أهذا صحيح..

وأجاب ت... بقوله: «لو أننا فعلنا مثلهم لكان الخطر علينا أكبر وأعظم، ولماذا نفعل.. إنني أمقت أولئك اللصوص، وهل تتصور لحظة أن هذه الشكوى ستنتج شيئًا، لماذا ندخل أنفسنا في هذه الحماقة...».

وقال سجين آخر كبير السن يغلب عليه الصلابة والغضب: «لن يكون لها محصل...».

وبادر «ألمازوف» وكان من المتخلفين إلى التأمين على كلام الشيخ فقال: «غير جلد خمسين سجينًا منهم، وهذه هي كل الحكاية...».

وصاح أحدهم: «الميجور وصل...»، فاندفع الجميع في لهفة إلى النوافذ.

وكان الميجور يسير مسرع الخطى هائبًا ناقمًا محمر الوجه واضعًا منظرًا على عينيه، ومشى في صمت وعزم إلى الصف الأول، وكان في هذه المواقف فعلاً يبدو جريئًا جسورًا حاضر الذهن، فضلًا عن أنه لم يكن لحظة ليفيق من الشراب، بل هو أكثر الوقت ثمل، وكان كل شيء فيه يثير الفزع في تلك اللحظة حتى قلنسوته ذات الشريط البرتقالي واسبلاطه الفضي القدر،

وجاء في أثره «دياتلوف» الكاتب، وهو شخصية خطيرة في السجن، بل هو الذي كان في الحقيقة المسيطر على كل من فيه، حتى الميجور نفسه، وكان رجلاً داهية شديد المكر، وإن لم يكن رجل سوء، وكان السجناء يحبونه، وأقبل من خلفه جاويشنا و الظاهر أنه كان ينتظر تعنيفاً مخيفاً، ويرتقب بعد ذلك شيئاً آخر أسوأ من ذلك عشرة أمثال، ومن خلفه أقبل ثلاثة أو أربعة حراس ليس أكثر.

أما المساجين الذين ظلوا وقوفاً حاسرين منذ اللحظة التي أوفدوا فيها الجاويش ليدعو الميجور، فقد استنوا على مقدمه منتصبين القامات مشرئبي الأعناق، وكل منهم ينقل قدماً بعد أخرى، وقد سادهم صمت رهيب، ولبشوا جامدين في أماكنهم يرتقبون أول كلمة من الميجور أو على الأصح أول صيحة من حنجرته.

وجاءت الصيحة على الفور، فلم يكذب يلفظ بكلمتين اثنتين حتى رفع عقيرته على آخرها، بل كاد يصرخ صراخاً، وهو في غضب شديد، حتى لقد استطعنا ونحن عند النوافذ أن نراه وهو يعدو على طول الصف الأول، مندفعاً نحو السجناء يسألهم، ولكننا لم نستطع لبعد المسافة أن نسمع أسئلته ولا أجوبتهم، وإنما سمعناه يصرخ بصوت مارق في الفضاء: «متمردون.. عصاة.. زعماء عصابة.. هل أنت زعيم منهم؟.. وأنت، هل أنت زعيم؟..». وهكذا جعل يصرخ وهو يتوثب ويكاد ينقض على واحد بعد الآخر.

ولم يبلغ أسمعنا جواب، ولكن لم تكذب تمضي لحظة حتى رأينا سجيناً منهم يغادر الجمع ويسير صوب مبنى الحرس، وبعد أخرى شهدنا آخر يتبعه ثم ثالثاً.

ولمحنّا عند النوافذ المُفتّحة فصرخ قائلاً: «الكل مقبوض عليهم..
لأؤدبنهم تأدياً.. من هؤلاء الذين في المطبخ.. هاتوهم.. سوقوا بهم في
الحال...».

وجاءنا الكاتب دياتلوف في المطبخ، فقبل له إننا لم نتقدم بشكوى فعاد
في الحال وأبلغ الميجور النبأ.

قال: لم يتقدموا بشكوى، ثم خفض من صوته، والظاهر أن النبأ أَرْضاه
واطمأن إليه، فعاد يقول: لا يهم... هاتوهم جميعاً هنا...

فخرجنا إلى الفناء، وشعرت بحياء، واستنكاف وأنا أخرج معهم إليه،
والواقع أننا مشينا صوبه مطرقي الرؤوس.

واستقبلنا الميجور قائلاً بصوت لين ولكن سريع وهو ينظر إلينا برفق:
«آه، بروكفيف... ويولكن أيضاً... أهذا أنت يا أَلمازوف... قفوا هنا جميعاً،
وأنت يا م... أيضاً.... اكتب أسماءهم يا دياتلوف اكتب في الحال قائمة
بأسماء الراضين منهم، وأخرى بأسماء الساخطين، ولا تترك منهم أحداً
وأحضر القائمتين لي... سأضعكم جميعاً في الحجز، وسأعلمكم أيها
الأوغاد...».

وكانت فكرة تدوين الأسماء فعالة الأثر، فقد انبرى فجأة أحد فريق
الساخطين يقول في شيء من التردد، وبصوت كالصرير: «نحن راضون...».
فصاح الميجور قائلاً: آه... أنتم راضون... من هم... فليتقدم الذين هم
راضون...

فصاحت أصوات متعددة في نفس واحد: نحن راضون؛ نحن راضون.
وعاد الميجور يقول: أراضون أنتم... أيها الرجال، لقد أضلوكم، لقد

كان هناك إذن محرضون خدعوكم ولعبوا بعقولكم، فعليهم السوأة، والنكال لهم أدهى.

وسمع من جانب الجميع صوت يقول: «يا رب... ما هذا الذي حدث؟».

وهنا زأر الميجور مندفعاً نحو الجهة التي انبعث هذا الصوت منها وهو يقول: «من هذا الصائح؟ هل أنت يا راستورجيف... أنت الصارخ... إلى مبنى الحرس...».

وعندئذ خرج من الصف راستورجيف هذا، وهو فتى عملاق منتفخ الوجه ومشى في الحال صوب المبنى، ولم يكن هو الذي صاح، ولكن بما أنه هو الذي نودي عليه لم يتردد في الذهاب، وصرخ الميجور في أثره وهو منصرف: «إنك لا تدري أي نعمة أنت فيها، أيها الوارم الوجه، سأكتشفنكم جميعاً، أيها الراضون تقدموا خطوة».

وهنا غمغم عشرات بأصوات مكتئبة: «نحن راضون يا سعادة المأمور»، بينما لبث الباقون في عناد صامتين، ولكن كان هذا حسب الميجور، وكان من الخير له أن يختم هذا المشهد عاجلاً، وأن ينتهي منه برفق، فذهب يقول في عجلة: آه، الآن كلهم راضون... لقد كنت أعرف ذلك، واثق به... إنه من عمل المحرضين... لا بد من أن بينكم محرضين، والتفت إلى دياتلوف فقال:

- يجب أن تبحث في هذا الأمر بدقة، أما الآن، فقد حان وقت الشغل... فلندق الطبول...

وحضر بنفسه مشهد خروج السجناء إلى طرائحهم المختلفة وانصرف

هؤلاء صامتين إلى عملهم محزونين، وإن سرهم على كل حال أن يتواروا عن عينيه سراً فاشلين، وما أن انصرفوا حتى ذهب الميجور إلى مبنى الحرس وعاقب «الزعماء» وإن لم يشتد مع ذلك في القسوة عليهم، بل «كلفت» الحكاية بسرعة، وعرفنا فيما بعد أن أحدهم طلب إليه الصنف، فلم يتردد في العفو عنه، وكان من الجلي أنه لم يكن مستريح البال، بل لعله كان مروغاً إلى حد ما قلقاً، فإن الشكوى لا تزال مسألة دقيقة ولا يكاد احتجاج السجناء يسمى بشكاة؛ لأنه لم يقدم إلى سلطة عليا، ولكن قدم إلى الميجور نفسه، ولكنه على كل حال أمر غريب، ولم يكن يصح، وكان أشد ما شغل باله أن جميع السجناء أو جلهم اشتركوا فيه، فلا مفر له من إخماده بأي ثمن، ولم يلبثوا أن أفرجوا عن الزعماء، وجاء الطعام في الغداء حسناً، ولكن هذا التحسن لم يستمر طويلاً، وبدأ الميجور بعد ذلك يختلف إلى العنابر، ويكثر من المؤاخذات، حتى راح جاوِشنا يطوف أرجاء السجن حائراً قلقاً مرتبكاً، كأنما لا يستطيع التغلب على ما أصابه من ذهول. أما السجناء فلم يستقر لهم قرار عدة أيام، وإن هداؤاً قليلاً، وغمرتهم حيرة خرساء وذهول صامت، وبدأ فريق منهم في أشد الحزن والوجوم، وفريق آخر مضوا يعبرون عن سخطهم في إيجاز، وذهب كثيرون غيرهم من الكمد والغيط العظيم يخرون من أنفسهم ويهزأون كأنما كانت سخريتهم على هذا النحو عقاباً لهم على ذلك الاحتجاج، إذ ينبري أحدهم فيقول: «ضعها في قصبتك ودخنها، أو بلها واشرب من مائها...».

فيردف آخر قائلاً: لقد كانت نكتة ونحن الآن ندفع ثمنها.

ويقول ثالث: وأي فارة تقدر على وضع الجرس حول رقبة القط...

ويمتد الحوار بينهم على هذا النحو.

- لا يؤدبنا شيء غير العصا، كلنا نعرف هذا، ولكن الحمد لله على أنه لم يأمر بجلدنا جميعاً.

- بعد اليوم فلنفكر كثيراً ولنتكلم قليلاً، فذلكم خير لكم...

- ومن الذي نصبك معلماً فينا يا هذا؟..

- أنا نفسي طبعاً معلّم..

- ومن أنت حتى تضع نفسك في الطليعة؟..

- أنا رجل فمن تكون أنت؟..

- أنت عظمة كلب، هذا هو أنت..

- هذا هو أنت لا أنا..

وعندئذ ترتفع الأصوات من كل ناحية صائحة بالمتخاصمين:

- كفاية... كفاية... علام هذه الضجة!..

وفي مساء يوم الشكوى لقيت بتروف خلف الثكنات عند أوبتي من الشغل، وكان يبحث عني، وتقدم نحوي مغممًا بكلام لم أتبينه، ولكنه ما لبث أن هبط في صمت شارد، وراح يمشي بجانبني ساكنًا لا يتجمجم، وكانت مسألة الشكوى لا تزال تؤلمني، وخيل لي أن بتروف قد يشرح لي ما خفي عني.

قلت: نبئني يا بتروف، هل هم غضاب منا؟..

قال، وكأنه قد استيقظ: من هم الغضاب؟..

قلت: السجناء، منا نحن السادات..

قال: وعلام يغضبون منكم؟..

قلت: لأننا لم نشترك معهم في الشكوى...

قال، وإن كان يحاول أن يفهمني: ولكن لماذا تشكون وأنتم تشترون طعامكم بنقودكم.

قلت: يا لله... ولكن فريقاً من الذين اشتركوا معكم يشترون طعامهم أيضاً، وكان أولى بنا أن نشارككم كرفقاء لكم.

قال في حيرة: ولكن كيف يمكن أن تكونوا لنا رفقاء؟...

ف نظرت إليه، وتبين لي من نظرتي السريعة أنه لم يفتن إلى مرادي مطلقاً، ولم يعرف إلى أي شيء أقصد، ولكنني فهمته حق الفهم في تلك اللحظة، فقد وضحت أخيراً لي فكرة ظلت مقلقتي معتملة في أعماق نفسي ملاحظتي فترة طويلة من الزمن، وفهمت فجأة ما لم أكن قد أصبت من قبل فهمه، وهو أنهم لن يرضوا مثلي أبداً رفيقاً لهم، وإن كنت مثلهم سجيناً، حتى ولو كان محكوماً عليّ بالسجن المؤبد، أو سجيناً في القسم الخاص. ولا أزال أتمثل وجهه بتروف في تلك اللحظة، فقد كان سؤاله لي: «كيف يمكن أن تكون لنا رفيقاً... مليئاً بالبساطة الصادقة، والحيرة الساذجة البريئة»، وساءلت نفسي: أكان في ذلك السؤال شيء من السخرية أو التهكم الخبيث، ولكنني أدركت أنه لم يكن فيه أثر من ذلك أو نحوه، وكل ما في الأمر أننا لسنا رفقاء لهم وكفى. فإن لنا شأننا، ولهم شأنهم..

و كنت في الواقع أنتظر بعد الشكوى أن يقسو السجناء علينا ولا تأخذهم بنا رحمة، فتصبح حياتنا في السجن مرهقة لا قبل لنا بها. ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. فلم نسمع منهم كلمة عتب، ولا تلميحاً بتعذير، ولم يزد الاستياء في نفوسهم منا، وإنما جعلوا يتهمون قليلاً بنا في بعض

المناسبات كما كان من قبل ديدنهم. فلم يكونوا منا غضابًا على الإطلاق ولا هم بحاقدين على السجناء الآخرين الذين تخلفوا في المطبخ ولم يشتركوا معهم في الشكوى، ولا على الذين تعجلوا القول بأنهم راضون، بل لم أسمع أحدًا من المساجين يشير إلى ذلك الحادث أو يفتح السيرة، وكان هذا هو ما أحرني حقًا وأدهشني أبلغ الدهشة...

الفصل الثامن الرفقاء

كنت بطبيعة الحال أنزع وأميل إلى الأفراد الذين من وامي، وهم السجناء المتعلمون، وبخاصة في أول الأمر، ولكن من بين الروس الثلاثة الذين كانوا معنا في السجن من أهل هذه الطبقة، وهم أكيم أكيماش والجاسوس.. والشاب الذي كنا نعتقد أنه قتل أباه، لم أكن أعرف أو أتحدث إلا للأول منهم، ولا يسعني إلا الاعتراف بأنني إنما لجأت إلى أكيم أكيماش، في فترات اليأس، واشتداد الضجر والضيق وحين لا أجد بارقة أمل في الكلام مع أحد سواه، وقد حاولت في الفصل الأول من هذا الكتاب أن أقسم السجناء أقسامًا وفئات، ولكني الآن وقد تذكرت أكيم أكيماش أشعر بأنه من الجائز أن أضيف إلى تلك الأقسام قسمًا آخر؛ لأنه الوحيد في الحق الذي يمثله، ونعني به فريق السجناء المتناهين في الاستخفاف، الذين يستوي لديهم المقام في السجن، والعيش أحرارًا في خارجه. وكان المرء يظن أن ليس لهذا النوع من الناس في هذه الحياة وجود، ولكني أحسب أكيم أكيماش

مثلاً بارزاً لهذا النوع، فقد استقر في السجن فعلاً كأنما اعتزم أن يقضي فيه طيلة الحياة، فإن كل ما حوله: مرتبه ووساداته وأوانيه وسراويله، يوحي بنية الاستقرار، فليس ثمة شيء يحرص عليه إلى حين، أو يقتنيه لميقات معلوم، وكانت أمامه عدة سنين يقضيها قبل توفية مدته، ولكنني أشك في أنه فكر يوماً في مغادرة السجن، ولكن رضاه عن مكانه لم يكن عن ميل، وإنما كان تسليماً، وهما في أمره خاصة سيان، وقد كان الرجل طيباً، وأعاني في البداية حقاً بالنصيحة والخدمة الكريمة، ولكنني لا أكتمك أنني كنت ولا سيما في البداية، أحس منه انقباضاً شديداً، كان يزيد في ألمي وتعذبي، وإن كان هذا الألم هو الذي كان يسوقني إلى الحديث معه، فقد كانت تأتي عليّ فترات أتلهف فيها على كلمة من فم إنسان حي، مهما تكن مريرة أن تنم عن مضض أو حقد أو نقمة، فحسبي على الأقل أن تتبادل السخرية من الحظ الذي جمع بيننا، ونضحك بمرارة مما نحن فيه، ولكنه كان صامتاً، أو منشغلاً بلصق ورق على زجاج مصباحه، أو إذا تحدث، كان الحديث عن المجلة التي كان يكتب فيها عام كذا، أو عن اسم القائد الذي كان يتولى قيادة فرقته، وما هو الاسم المسيحي الذي كان له، وهل كان راضياً عن تلك المجلة أم غير راض، وكيف تغيرت الإشارات في المدفعية، وكان ذلك كله من أحاديثه وكلامه بذلك الصوت الرتيب، واللهجة المنسقة المرسلة كالماء المسكوب قطرة قطرة، إذ قلما كان يبدي شيئاً من الحماسة أو الحرارة، حتى وهو يحدثني كيف استحق وسام «شريط القديسة» أنه «ليوضع على مقبض سيفه لبلائه الحسن في بعض معارك القوقاز»، وإن كان صوته قد استحال في تلك اللحظة على غير المألوف وقوراً رهيباً، ثم هبطت نبراته فكانت مخافتة غريبة وهو ينطق باسم تلك القديسة، ثم لبث بعد ذلك ثلاث دقائق صامتاً

هادئًا لا يقول شيئًا.

وكانت تعتريني في العام الأول نوبات أبدأ أشعر خلالها فجأة، ولغير سبب معلوم، بشيء كالكراهية لأكيم أكيمتش، وألعن الظروف والمقادير التي جعلتني أضع رأسي بجانب رأسه على الفراش، ولكن لا تكاد تنقضي ساعة أخرى حتى ألوم نفسي على ذلك الإحساس الذي انتابني.

ولكن ذلك إنما كان يحدث في العام الأول، فقد مضيت فيما بعد على وفاق معه، راضيًا به، ساكنًا إليه، مستحيًا من حماقتي، وكنا في الظاهر، وأمام القوم، على مودة باقية.

وإلى جانب أولئك الروس الثلاثة، كان هناك ثمانية آخرون، وهم مساجين بولنديون من الطبقة الراقية كانوا في السجن على عهدي، وكنت قد عرفت فريقًا منهم حق المعرفة وسرني أن أكون لهم صديقًا، ولكن الأمر لم يكن كذلك معهم جميعًا، فقد رأيت خيارهم مُربدين شواذ متزمطين إلى أبعد حد، حتى لقد امتنعت عن الكلام إطلاقًا مع اثنين منهم في البداية، ولم يكن فيهم غير ثلاثة أصابوا قسطًا حسنًا من التعليم وهم ب... وم... وز....، وكان الأخير أستاذ رياضة وشيخًا لطيفًا لين العريكة غريب الأطوار، لم يؤت أية براعة رغم علمه الواسع؛ أما م... وب... فكانا من طراز آخر، وكانت صلتني بأولهم من أول الأمر حسنة، فاحترمه ولم أشتجر يومًا معه، وإن لم أشعر يومًا بميل إليه أو محبة، فقد كان شديد الريبة بالناس، مر المذاق، أوتي مقدرة عجيبة على ضبط النفس، وهو ما نكرته منه، إذ أحسست أنه لن يفتح لأحد قلبه، ولكن لعلني كنت مخطئًا، فقد كان رجلًا ذا خلق قويم، وشخصية نبيلة، وكانت براعته المتناهية، التي كادت تبدو في مثل براعة «الجزويت»، وحيطته في الصلات بالناس تمنان عن تشكك نفسي شديد،

ولكنه مع ذلك كله كان فريسة لهذه النفسية «المزدوجة»، نفسية المتشكك، ونفسية ذي الإيمان الثابت العميق ببعض آماله وعلاياته ومعتقداته؛ ولكنه على شدة اجتهاده في مهادنة الناس وأخذهم على راحتهم، كان خصمًا مُبِينًا لرفيقنا ب... وعدوا لا هواده لديه، وكان لصديق ب.... وأعني به ت... كارهاً معاديًا، وكان ب... رجلًا معتلًا على استعداد لذات الصدر، عصبيًا، سريع البادرة، وإن كان في أعماقه طيب القلب، بل عظيم النفس ساميها، وكانت عصبية أحيانًا تبلغ قمة التزمّت وغبابة الأطوار، فلم أكن أحتمل منه حدة مزاجه، وفي النهاية قررت الانصراف بتأنا عنه، وإن لم أكف عن حبي له؛ أما م... فلم أشتجر يومًا معه ولا وقعت في خلاف، وإن لم أحبيه، ووجدتني بسبب قطع صلاتي برفيقنا ب... مضطرًا إلى الإعراض أيضًا عن ت... الذي تحدثت عنه في الفصل السابق حين وصفت «الشكوى»، وقد أسفت لذلك جد الأسف، فلم يكن ت... متعلمًا، ولكنه كان كريم العاطفة، ظاهر الرجولة شهيمًا، وكان فتى بديعًا في الواقع، وقد بلغ به الحب لصاحبه ب... والاحترام لمكانته أن جعل كلما رأى أحدًا مختلفًا ولو قليلًا مع ب... يتخذه خصمًا له، وينظر إليه نظرة عدو، وأعتقد أنه انتهى يومًا إلى الانقطاع عن م... بسبب ب... وإن قاوم هذا النزوع طويلاً، ولكنهم في الجملة كانوا أناسًا مرضى النفوس ضيقى المرائر سريعى البادرة نافرين من الناس وبهم مستريبين، ولهم العذر، فقد كانت حياة السجن أشق عليهم منها علينا، فقد كانوا نائين عن بلادهم، وقد طال على بعضهم أمد المنفى، عشرة أعوام أو اثني عشر عامًا، وما هو أدهى، أنهم كانوا ينظرون إلى كل من حولهم نظرة عصبية شديدة، أو نكرة بالغة، ولا يرون من السجناء غير حيوانيتهم، فلا يلمسون فيهم مزية طيبة، ولا صفة حسنة، ولا أية ذرة من البشرية فيهم، بل لا

يكلفون أنفسهم أيضًا عناء البحث عن شيء منها، فلا عجب إذا كان لهم هذا الرأي في المساجين، بحكم الظروف، أو مشيئة المقادير، وليس من شك في أن حالته في السجن كانت سوأى بالغة السوء، أما نحو الجراكسة والتر وإيساي فومتش فقد كان شعورهم ودبًا طيبًا، وأما من عداهم من السجناء فقد كانوا ينظرون إليهم بعين المقت والنفور، وإن كان الشيخ الورع القوام وحده قد ظفر منهم بالاحترام. ومما هو جدير بالذكر أنني لم أر طيلة مقامي في السجن أحدًا من المساجين يعيرهم بجنسيتهم أو دينهم أو أفكارهم، وإن كان هذا هو أحيانًا، أو نادرًا شأن الفلاحين الروس مع الغرباء، وخاصة الألمان، ولعلمهم لا يتجاوزون مع هؤلاء الأخيرين حد الضحك منهم، وإن بدا الألماني أبدًا في عيني الفلاح الروسي شخصًا يثير أشد الضحك، والواقع أن السجناء كانوا يعاملون الغرباء باحترام في السجن، بل أكثر مما يعاملون به الروس «المتعلمين» أنفسهم، ولم يكن أحد منهم يمسسهم يومًا بسوء، ولكن أصحابنا البولنديين لم يشاءوا تقدير هذه الحقيقة، أو يعنوا بملاحظتها، وقد حدثتكم من قبل عن السجين ت.... وهو الذي عمد وهم قادمون من أول منفى أرسلوا إليه، إلى حمل زميله ب.... بين ذراعيه طول الشقة أو أكثرها، حين رآه ضعيفًا واهنًا، متهاكمًا على الطريق من الإعياء، قبل أن ينتهوا من مسيرة نصف يوم، وكانوا قد نفوا أولًا إلى إقليم أ.... وسمعت منهم أنهم كانوا فيه أهون حالًا مما هم في سجننا، ولكنهم تلقوا في ذلك المنفى أو تبادلو رسائل وكتبًا لا ضير مطلقًا منها مع منفين آخرين في بلد آخر، فرئي من المحتم نقل هؤلاء الثلاثة إلى هذا السجن ليظلموا فيه تحت عين موظف كبير. وكان زميلهم الثالث هو ز.... وكان م.... البولندي الأوحده في السجن قبل مجيئهم. فبالله ما كان بلا ريب أشد شقائه في العالم

الأول... وأسوأ حاله!

وكان ز... هذا، هو الشيخ الذي لا ينفك عن الصلاة كما أسلفت عليك، وكان السجناء السياسيون معنا جميعاً من الشباب، وبعضهم من الأيفاع والأحداث، عدا ز.... فقد كان رجلاً تجاوز الخمسين، وكانت نزاهته لا غبار عليها، وإن كانت من نوع غريب، وكان زميلاً ب... وت... يكرهانه كراهية بالغة، ولم يكونا يكلمانه، ولا ينفكان عن وصفه بأنه كثير الشجار عنيد «مهياص»، ولست أدري إلى أي مدى كان هذا القول عنه صحيحاً، وأعتقد أن الناس في السجن وحيث يحتجزون أو يقيمون جماعات على كره منهم أنزع إلى الشجار والتباغض منهم وهم أحرار طلقاء، وتشتبك في أحداث هذه الظاهرة عدة ظروف وعوامل وأفاعيل، ولكن ز.... كان غيباً أو لعله كان شخصاً منفراً، ولم يكن أحد من زملائه الآخرين على وفاق معه، ولم تكن علاقتي أنا به طيبة على الأخص، وأعتقد أنه لم يكن يعرف شيئاً غير مادته، وهي الرياضيات؛ وأذكر أنه كان لا يفتأ يشرح لي بروسيته المهشمة نظاماً فلكياً ابتدعه، ونبئت أنه طبع يوماً كتاباً عنها، ولكن العلماء ضحكوا منه ساخرين، وأحسبه كان إلى حد ما «مختلاً» أو «مشعوراً»، فقد كان يقضي أياماً متوالية جاثياً يتلو صلواته ودعواته، وكان السجناء لهذا يحترمونه إلى يوم مماته، فقد اخترمته المنية في المستشفى أمام عيني بعد علة قاسية، وكان احترام المساجين له من اللحظة الأولى عقب حادثته مع الميجور، ولم يكن أولئك البولنديون في سفرهم من إقليم أ... إلى سجننا قد حلقوا أذقانهم حتى نمت عليها اللحي، فلما أدخلوا على الميجور لساعتهم، غضب أشد الغضب من هذه المخالفة للقانون، وإن لم يكن لهم ذنب فيها.

وراح الميجور يزمجرجراً قائلاً: «ما هذه الأشكال؟ هؤلاء متشردون، قطاع

طرق... لصوص!

ولم يكن ز... يعرف يومئذ من الروسية إلا قليلاً، فلما سئلوا هل هم أفاقون، أم لصوص، أنشأ يجيب: لسنا لصوصاً ولكننا سجناء سياسيون.
فزأر الميجور قائلاً: ماذا... تقول!! أنت وقح... وقح، خذوه إلى مبنى الحرس، واضربوه مائة عصا في الحال.

وضرب الشيخ، ولبث تحت العصي لا يصرخ ولا يشكو، عاضاً على يده من المضض، محتملاً العقاب بجلد، لا صراخ ولا أنين ولا حركة، وفي الوقت ذاته ذهب ب... وت... إلى السجن حيث كان م.... في انتظارهما لدى الباب، فلم يكذبصرهما حتى أقبل عليهما يعانقهما، وإن لم يكن رآهما من قبل، وكانا مضطربين من ذلك اللقاء الذي استقبلهم الميجور به، فقصبا عليه ما كان من أمر ز.... ولا أزال أذكر كيف روى لي م.... ما جرى.

قال: لقد جن عندئذ جنوني، ولم أدر ماذا أصابني وجعلت أعرش كالمحموم، وانتظرت ز.... لدى الباب، وكان منتظراً أن يخرج رأساً من مبنى الحرس حيث وقعت العقوبة عليه، ولم يلبث أن فتح الباب، وخرج منه شاحب اللون مسفوحاً وشفته تترعشان وهم مبيضتان، وشق صفوف السجناء غير ملتفت، وكانوا قد احتشدوا في الفناء وعلموا أن أحد السادات المتعلمين قد جلد، وسار إلى العنبر، ومشى إلى المكان الذي خصص له، وبلا كلام جثا وبدأ يصلي، فتأثر السجناء من مشهده واهتزت منهم المشاعر.

ومضى م.... يقول: وحين رأيت ذلك الشيخ الأشيب الذي ترك من ورائه زوجاً وأولاداً صغاراً في وطنه، حين بصرت به راکعاً يصلي بعد ذلك العقاب الذي يبعث الاشتمزاز في النفس، انطلقت أريد معزلاً، فذهبت إلى

خلف السجن ولبث ساعتين لا أشعر ما أنا فاعل... لقد كنت في حالة جنون...

ومن ذلك الحين احترمه السجناء وأكبروه، و ظلوا يعاملونه على هذا النحو إلى النهاية، وكان أشد ما أعجبهم منه أنه لم يصرخ ولم يتوجع من ألم العقاب.

ولكن ينبغي أن نكون عدولاً منصفين، فليس في وسع أحد أن يحكم على سلوك ولاية الشأن في سيبيريا إزاء السجناء المتعلمين مهما يكونوا بولنديين أو روساً من هذه الحادثة بالذات؛ لأنها إنما تدل على أنه لا يبعد أن تجد بين أهل السلطان رجل سوء، ولا سيما إذا كان هذا الرجل السيئ ضابطاً كبيراً مستقلاً في عمله، مطلق المشيئة في مكان ما، فإن مصير السجن الذي يستهدف لكراهيته يصبح مضطرباً لا طمأنينة إليه، ولكن يجب أن نعترف بأن السلطات العليا في سيبيريا التي تتوقف عليها تصرفات القواد والضباط وأمزجتهم ومظاهر سلوكهم، لا تزال تنظر نظرة خاصة إلى المنفيين من أهل الطبقة الراقية، وتنزع في بعض الحالات إلى معاملتهم بشيء من الرعاية الخاصة بالقياس إلى غيرهم من السجناء الفلاحين، وأسباب ذلك واضحة، فأولاً أن هؤلاء الحكام هم من الطبقة ذاتها، وثانياً أنه قد حدث من قبل أن بعض أولئك المنفيين أبى أن يرقد ليتلقى الجلد، وهاجم الضباط أنفسهم واعتدوا عليهم، وكانت لذلك نتائج سيئة، وثالثاً: أن أهم سبب في اعتقادي أن حشدًا كبيراً من أفراد الطبقة الراقية أرسلوا منذ ثلاثين عامًا جملة واحدة إلى سيبيريا، فنجح هؤلاء المنفيون خلال هذه الفترة في طبع شخصيتهم في مختلف أصقاعها، فلم يعد في وسع الحكومة في أيامنا نحن بسبب هذا التقليد المكين إلا أن تنظر إلى السجناء السياسيين كفتة تختلف جد الاختلاف

عن المساجين العاديين، واعتاد الضباط الأصغر أن ينظروا إليهم هذه النظرة ذاتها، متأثرين بما لمسوه من كبار أهل السلطان، ومحتزين حذوهم. ولكن كثيرًا من هؤلاء الضباط الصغار كانوا حمقى، ولم يكن تروقهم التعليمات والأوامر التي تصدر إليهم، بل كانوا ينتقدونها سرًا، وإن لم يعلنوا رأيهم جهراً، وكان بودهم لو أنهم استطاعوا تدبير الأمر كما يشاءون، بلا رقابة عليهم، ولا صادم لمشيئتهم؛ ولدي من الأسباب الوجيعة ما يحملني على هذا الاعتقاد وإنني هنا شارحها:

لقد كان القسم الثاني من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وهو القسم الذي كنت فيه - أي القسم الذي تشرف عليه قيادة عسكرية - أقسى إلى حد لا يقاس من القسمين الآخرين، وهما قسم العمل في المناجم، وقسم الأشغال المطلوبة للحكومة، ولم تكن قسوته على المساجين السياسيين وحدهم، بل كانت أيضًا على السجناء عامة، لا شيء سوى أن إدارة هذا القسم كانت كلها في أيدي العسكريين، ولا تشبه الكتائب التأديبية؛ لأن الحكم العسكري بطبيعته أقسى، والنظم أدق، والسجين لا يريح يومًا من الأغلال، ولا من الحراسة، ولا من المقام خلف القضبان والأقفال، وليس شيء من هذا متبعًا في القسمين الآخرين، أو هكذا على الأقل ما كان السجناء معنا جميعًا يقولونه، وكان من بينهم قوم يعرفون حق المعرفة ما هم يتحدثون عنه، وكانوا جميعًا يتمنون لو أنهم انتقلوا إلى القسم الأول، الذي يعده القانون أقسى الأقسام كلها، بل لعلهم كانوا يحلمون به كثيرًا ويتراءى لهم في المنام على الأيام. وكان الذين أقاموا في كتيبة التأديب يتحدثون عنها أحاديث بشعة معلنين أنه ليس في سيبيريا كلها محابس أقسى منها وأشد عنتًا، وأن سيبيريا جنة إذا قورنت بالعيش فيها، فإذا وجد في هذه الأحوال والظروف

القاسية التي تشاهد في سجننا تحت حكم العسكريين ضباط مشكوك في ولائهم للحكم القائم في البلاد، ينظرون إلى فريق من السجناء السياسيين نظرة لين ورفق، أمام عين الحاكم العام نفسه، ورغم احتمال ما قد يدسه عليهم أحد من الحاقدين عليهم، والغيورين سرًا منهم - وهو احتمال يحدث أحيانًا - أقول إن السجناء السياسيين في هذه الظروف لا يزالون يعاملون معاملة أكثر لينًا ورفقًا في القسمين الأول والثالث، وإذا صح هذا، كان لي أن أعتقد أنه في إمكاني أن أحكم من هذه الوجهة على ما يجري في سجون روسيا كلها بما ألمسه في هذا السجن الذي كنت فيه، وقد جاءت الروايات والأقاويل التي بلغتني من المنفيين في هذين القسمين مؤيدة لهذا الاستنتاج، والحقيقة أننا معاشر السجناء السياسيين جميعًا كنا نعامل برفق على خلاف ما يعامل به الآخرون، ولست أدعي أن شيئًا من الرعاية أو التسامح كان متاحًا لنا فيما يتصل بالشغل أو الظروف الخارجية الأخرى، فقد كنا نشتغل نحن والسجناء العاديون سواء بسواء، وتوضع في أرجلنا القيود كما توضع في أرجلهم، ونحتجز مثلهم خلف القضبان والأقفال، وبالجملّة كنا في كل شيء سواسية، والواقع أنه كان من المستحيل التهوين علينا، أو التخفيف من حالنا، وأعرف أنه كان في العهد الماضي خلق كثير من الجواسيس والعيون والناصبي الفخاخ لبعضهم البعض، فكان من الطبيعي أن يخشى المشرفون على السجن دسيّة تحاك لهم، أو نميّة تنم عليهم. وهل ثمة أروهاب انتهائًا، من أن يقال في ذلك العهد إن ضابطًا يظهر الحظوة والرفق بالسجناء السياسيين... فلا غرو إذا رأيناهم جميعًا خائفين متوجسين، ولا عجب إذا كنا على سواء نحن والمساجين العاديين، إلا من حيث العقوبة البدنية، فقد كان الأمر مختلفًا إلى حد ما، والواقع أنهم لم يكونوا ليترددوا في جلدنا إذا

استحق أحدنا هذا العقاب، أي حين نرتكب وزراً، أو نقترف ذنباً، ولكنهم ما كانوا ليجلدونا خبط عشواء، أو بدافع اللحظة، وباعث الظرف، كما كان يحدث للآخرين تعمدًا ورغبة في الأذى، وخاصة من جانب الضباط الصغار الذين يطغيهم السلطان، وتفتنهم الرياسة، ويلذ لهم التحكم والتخويف والإرهاب. وقد علمنا أن الحاكم العام للسجن كان غاضباً أشد الغضب على «الميجور» حين عرف ما فعله بالسجين ز.... وأوجب عليه العمل بعد اليوم على ضبط شعوره، وكبح جماح هواه، وهذا ما سمعته من كل سجين معنا في العنبر، كما كنا نعرف أن الحاكم العام أيضاً دعا «الميجور» للمثول أمامه وأنبه تأنيباً شديداً على هذا التصرف، وإن كان يثق به ويميل إليه إلى حد ما ويعده رجلاً على شيء من الكفاية، واحترام واجبه، وأن «الميجور» وعى هذا التأنيب وحفظه، وكان يود من صميم فؤاده مثلاً لو استطاع أن يضع يديه على م.... الذي كان يمقته مما كان يسمعه من حكايات أ.... الذي كان له دالة عليه، ولكنه لم يستطع يوماً أن يجلده، فاكتمى باضطهاده، ولبث يتربص به ليجد فرصة مواتية للانقضاض عليه، ولم يلبث أهل المدينة جميعاً أن عرفوا بقصة ما جرى للسجين ز... فاستهجن الرأي العام تصرف الضابط، واستنكره منهم خلق كثير، وراح بعضهم غضاباً عليه حانقين.

وأذكر هنا كيف كان أول لقائي بالميجور، وكنت في «طوبولسك» مع السجين السياسي الآخر الذي دخل معي السجن قد سمعت قبل مقدمي حكايات بشعة عن صرامته ووحشيته ألقت الرعب في قلبي، ولقيت فريقاً من المنفيين السياسيين القدامى الذين قضوا في سيبيريا زهاء خمسة وعشرين عاماً في طوبولسك فعطفوا علينا أنا وصاحبي عطفًا بالغًا، وظلوا على صلة بنا طيلة مقامنا في السجن الذي كنا سننقل منه إلى هذا السجن،

وراحوا يحذروننا من هذا المأمور، ويعدوننا بأن يذلوا كل مسعى ممكن عند بعض الكبراء لحمايتنا من عسفه، والواقع أن للحاكم العام ثلاث بنات كن قد جئن من روسيا للمقام مع أبيهن، فتلقين رسالات منهم وتحديثن إلى أبيهن عنا، ولكن ماذا كان في وسعه أن يفعل... لم يفعل شيئاً سوى أن نبه الميجور أن يكون أدق وأكثر يقظة، ولما وصلنا إلى المدينة أنا وزميلي حوالي الثالثة بعد الظهر، استاقنا الحراس في الحال إلى الميجور، ووقفنا في المدخل نرتقب مقدمه، وفي الوقت ذاته دعي الجاويش إلى الحضور، فلم يكدها يظهر، حتى خرج إلينا الميجور كذلك، وإذا بوجهه الغضوب المكفهر المزرق الكثير البثور يحدث فينا أسوأ التأثير، كأن عنكبوتاً خبيثاً قد جرت لكي تنقض على ذبابة مسكينة وقعت في خيوطها.

وسأل الميجور زميلي: ما اسمك؟...

وكان يتكلم بسرعة وحدة وتوثب، كأنما أراد أن يخيفنا.

وأجاب زميلي قائلاً: «اسمي كذا».

وقال وهو يخاطبني محملاً البصر من خلف منظاره: «وأنت؟...».

فذكرت له اسمي.

قال: يا جاويش، خذهما إلى السجن في الحال، واحلق لهما في مبنى الحرس، نصف الرأس فقط كالسجناء المدنيين، ولتغير لهما القيود غداً.

واسترعى نظره المعطفان الرماديان والدوائر الصفرة على ظهريهما، وهما معطفان لقيناهما ونحن في طوبولسك، وظللنا مشتملين بهما ونحن في حضرته العلية... فمضى يقول فجأة: «هذا زي جديد... لا بد من أن يكون زياً جديداً... قالب مستحدث...» وأضاف قائلاً، وهو يسائل الحارس:

أليس معهما شيء؟... فقال هذا وهو محفل: «لديهما ملابسهما الخاصة يا أفندم...».

وكان كل إنسان يعرف الميجور أو سمع به، خشي بطشه.

قال: انزع منهما كل شيء، ولا تردّ إليهما غير ثيابهما الداخلية، وإذا كانت لديهما ملابس فانتزعها وبع الباقي بالمزاد وليضف الثمن إلى صندوق السجن.

ونظر إلينا عابسًا واستطرد يقول: لا ملكية لسجين، وليكن سلوككما حسنًا.. ولا تدعاني أسمع عنكما وإلا... فليس عندي غير العقاب البدني على أقل مخالفة... العصا...

ولم أكن قد ألفت في حياتي هذا الاستقبال الذي استقبلت به، فلبثت طيلة المساء كله متألمًا منه، بل كدت أعيأ به، وزادني تأثرًا ما شهدته بعيني في السجن، ولكن لا حاجة بي إلى وصفه، فقد تحدثت فيما سلف عليك عن ساعاتي الأولى فيه.

وقد سبق لي أن قلت إن ولاة الشأن لم يبدوا، ولا جرؤوا أن يبدو شيئًا من الرعاية لنا، أو يحاولوا تخفيف العمل عنا، ولكنهم في مناسبة معينة حاولوا ذلك فعلاً، فقد اعتاد ب... وت... أن يذهب إلى مكتب المهندس لتأدية أعمال كتابية، ولبثوا على هذه الحال ثلاثة أشهر سويًا، ولكن ذلك جرى سرًا، وروعي فيه أشد الكتمان، وكان المهندس هو الذي اتخذ هذا التدبير بنفسه، أي إن جميع الموظفين الآخرين المختصين كانوا يعرفون ذلك وإن ادعوا أنهم يجهلون. وقد حدث هذا عندما كان ج... يتولى القيادة، وكان اللفتنان كولونيل ج... هذا في أعين السجناء رحمة من الله أرسلت إليهم

في الفترة القصيرة التي قضاها معنا، وهي لا تتجاوز ستة أشهر، أو لعلها أقل، إذا لم تخطئني الذاكرة، وقد ترك قبل عودته إلى روسيا أثرًا غير مألوف في نفوس المساجين، فلم يحبوه فحسب بل عبده عباداً، بأفئدتهم من اللحظة الأولى، فلم ينفكوا يقولون طيلة إشرافه على مكتب الهندسة إنه بمثابة والد لنا... نعم الوالد... لم نعد بحاجة إلى أب سواه... وأعتقد أنه كان شخصية مسرفة على نفسها كل الإسراف، وكان قصير القامة تبدو على وجهه الجراءة والثقة بالنفس، ولكنه كان في الوقت ذاته كريماً، حذباً حانياً على السجناء، وكان في الواقع يحبهم حب الوالد، ولست أدري ما الذي حببهم إليه ولكنه لم يكن يبصر بأحد منهم إلا وجهه إليه كلمة كريمة أو قولاً ليناً، وإن لم يمزح معه أو يضاحكه، وأحسن ما فيه أنه لم يكن على مسلكه حيالهم إثارة من سلطان، أو أثر لنفوذ، أو نزول إليهم من علياء، أو مجرد تسامح رسمي لا أكثر ولا أقل، بل كان زميلاً لهم وواحدًا منهم تمامًا. ورغم ديمقراطيته بالسليقة، في سلوكه وشعوره، لم يحدث يومًا أن استغل السجناء ألفته بهم، أو انصرفوا مرة عن احترامه، بل العكس كان وجه السجين ينطلق ويتهلل كلما لقيه، وكان يحسر عن رأسه ويبتسم له، حين يراه مقبلاً عليه، فإذا تحدث الضابط إليه، أحس كأنه تلقى منه منحة. وفي الدنيا رجال محبوبون من الناس من هذا الطراز، فقد كانت سمات الرجولة عليه بادية، وكان يمشي مشية المستوي بقوامه الجسور المعتد بذاته حتى اعتاد المساجين أن يقولوا عنه إنه «كالنسر» مهابة وجلالاً، ولم يكن في وسعه بالطبع أن يخفف من شقائهم؛ لأنه لم يكن سوى رئيس للمكتب الهندسي الذي نص عليه القانون، واستقرت فيه الأوضاع، وسار العمل فيه ثابتاً لا حول عنه ولا تبديل له، مهما تبدلت الرئاسة، أو خلف أحد على قيادته، وإذا صادف أن التقى في طريقه بعصبة

من السجناء انتهوا من عملهم، أذن لهم بالعودة إلى العنابر قبل دق الطبول لمعادهم، بدلاً من تركهم وقوفاً أو جلوساً ينتظرون، ولكن السجناء كانوا يحبون منه ثقته بهم، وسكونه إليهم، وانصرافه عن تعقب الأغلاط، وهدوءه، وخلاء كلامه من السباب أو الألفاظ الجارحة، في علاقاته الرسمية بهم، وتصرفاته معهم، ولو ضاع منه ألف روبل فالتقطها سجين حيث سقطت منه، لردّها في اعتقادي إليه، وإن كان أسوأ لص في السجن وشر السراق جميعاً، أي والله، إني من هذا لعلّى يقين. وما كان أشدّ عطف المساجين وأصدق مشاعرهم نحوه، حين علموا أن شجاراً عنيفاً حدث بين «نسرهم» وبين الميجور المقيت، وكان ذلك خلال الشهر الأول الذي أقامه ج... في السجن، وكان الميجور قد خدم معه فترة من الدهر، ثم التقياً بعد فراق أعوام كصديقين وجعلاً يشربان معاً، ولكن يبس الثرى بينهما فجأة ووقع خصام، ثم اشتجرا، فأصبح ج... عدوه اللدود، وأشيع يومئذ أنهما تضاربا، وهو أمر ليس بمستغرب، فيما يتصل بالميجور؛ لأنه كثيراً ما كان يصل في شجاره إلى هذا الحد، ولشد ما كان فرح السجناء حين علموا بهذا النبأ، ومضوا يقولون كأن ذا الثماني الأعين بالرجل الذي يصلح أن يكون قرناً لرجل مثله، إنه نسر، أما الميجور فهو.... وتتلو هذا منهم عادة كلمة يعف الكاتب عن ذكرها. وكان السجناء في شوق شديد لمعرفة أيهما المنذر المهزوم، ولو ظهر أن الإشاعة لم تكن صحيحة، ولعلها كانت كذلك، لغضب السجناء في اعتقادي واشتد بهم الغيظ، فقد كانوا يقولون: «تأكدوا أن الكولونيل هو بلا شك الغالب؛ لأنه رجل شجاع، على قلة بدنه، بل لقد سمعنا أن الميجور متسلل تحت الفراش للفرار من وجهه...».

ولكن ج... ما لبث أن غادرنا، فعاد الحزن يستولي على نفوس السجناء،

وإن كان جميع القواد الذين تولوا الإشراف على هذا القسم أخيراً طيبين، وقد تعاقب على هذا المنصب في عهدي ثلاثة أو أربعة ضباط، وإن ظل السجناء يقولون عنه: «ولكننا لن نشهد يوماً رجلاً على غراره، لقد كان نسرًا، وكان لنا وليًا نصيرًا».

وكان ج... هذا يحبنا نحن معاشر السجناء السياسيين، واعتاد في النهاية، أو قبيل نقله، أن يدعونا أنا وب... إلى العمل أحياناً في مكتبه، ولكن بعد سفره أعيد الأمر إلى أقرب من هذا مساواة بين الجميع؛ وكان بعض الناس يعملون في هذا القسم، وبخاصة واحد معين من بينهم، كثير العطف علينا، فكنا نذهب عادة لننسخ الأوراق، وبدأت خطوطنا تتحسن بالمتابعة، وإذا بأمر عاجل يصل من السلطات العليا بوجوب إعادتنا إلى أعمالنا السابقة، والظاهر أن أحدهم تجسس ودس علينا، وكان من الخير لنا أن نرد إلى تلك الأعمال، فقد كنا أنا وب... قد بدأنا نسأم المكتب أشد السأم ولبثنا أنا وهو عامين كاملين نؤدي عملاً واحدًا لا يفارق أحدهما صاحبه، وأغلب الأحيان كان هذا العمل في «الورش»، فكنا نتحدث عن آملنا، ونتبادل آراءنا وأفكارنا، وكان صاحبي بديعاً ممتع الحديث وإن كانت له أحياناً آراء شاذة غريبة، وفي الدنيا فئة من الناس، على قدر كبير من الذكاء، ولكن لهم بعض الأحيان آراء ومذاهب غريبة كل الغرابة، وإن كانوا قد شقوا بها كثيرًا في حياتهم، ودفعوا عنها ثمنًا غاليًا، فأصبح من الأليم لهم، بل يكاد يكون مستحيلًا عليهم، أن يعدلوا عنها، أو ينصرفوا، وكان ب... يصغي إلى كل نقد أوجهه إلى آرائه متألماً، ضائقاً به صدره، ويرد عليه بمرارة. والحق أقول، إنه كان أدنى إلى الحق والصواب مني في أشياء كثيرة، وأخيراً افترقنا، وكنت على الفراق منه حزينًا، فقد تقاسمنا عدة أشياء وعشنا معاً دهرًا طويلاً.

وأما زميلنا م... فقد أصبح على السنين أشد أسى واكتئاباً واستولى الانقباض الشديد على نفسه، وكان في الأيام الأولى عقب مقامي إلى السجن أكثر حديثاً وتكاشفاً بخوالجه وأحاسيسه، وكان قد قضى في السجن عامين قبل وصولي، وكان في بداية الأمر معنيًا بمتابعة حوادث العالم وأنبائه في العاملين الأولين، فجعل وهو منها خالي الذهن يسألني ويصغي إلى قلبي متنبهاً متأثراً، ولكنه على السنين بدا منطويا على نفسه، محتبساً في غيابة خاطره، وإن كشف الرماد عن الجذوة الخابية فيه، وكثر ترديده لهذه العبارة أمامي بالفرنسية: «إنني أمقت هؤلاء اللصوص...»، وهو يلقي نظرة كراهية شديدة صوب السجناء، بينما كنت أنا قد عرفتهم حق المعرفة، وازددت بهم خبراً، وإن كان كل قول أقوله في الدفاع عنهم ذاهباً أدراج الرياح، فلم يكن يفقه قلبي، وإن مضى أحياناً يؤمن عليه وهو غائب الذهن، ثم إذا به في غداة اليوم التالي يعاود قوله: «إنني أمقت هؤلاء اللصوص...»، واعتدنا أن نتحدث أحياناً كثيرة بالفرنسية، حتى ألف جندي من سلاح المهندسين يدعى «درانشكوف» أن يلقبنا «بالدكاترة»، وإن كنت لا أدري من أين أتى هذا اللقب الذي خلعه علينا.

وكان م... لا يستحمي في الحديث إلا إذا عرض لسيرة أمه فيقول إنها عجوز ومريضة، وهي تحبني أكثر من أي شيء في هذا العالم، وأنا هنا لا أدري أهى إلى اليوم في الأحياء أم ذهب الموت بها، وكان علمها بأنني أتعذب كافياً لهدم قواها...

ولم يكن م.... من أهل الطبقة الممتازة، وكان قبل إرساله إلى المنفى قد تلقى عقوبة بدنية، واعتاد أن يصرف بأسنانه ويشيح بوجهه كلما عاودته الذكرى، وأصبح في النهاية أكثر الأحيان ينطلق وحده يمشي لا يريد أن

يصطحب أحداً.

وفي ذات يوم، قبيل الظهر، دعاه الحاكم إلى المثل في حضرته فقال له حين وقف حياله: «نبئني يا م... ما الذي كنت تحلم به في الليلة الماضية؟...».

قال- كما نبأنا فيما بعد- فارتجفت، وأحسست كأن نصلاً غاب في صدري، وأجبتة بقولي: لقد كنت أحلم بأني تلقيت كتاباً من أمي...

واستطرد الحاكم قائلاً: «هناك ما هو خير من هذا، وأفضل... أنت حر طليق، فقد قدمت أمك عريضة عنك فأجيبته إلى طلبها، وها هو ذا كتابها والأمر الصادر بشأنك، وستغادر السجن في الحال...».

وعاد إلينا شاحب الوجه، غير متمالك قواه من أثر الصدمة، فهأناه، وتناول أيدينا في يديه الباردتين الراعشتين فهزها شاكرًا، كما أقبل عليه خلق كثير من السجناء العاديين يهنئونه، وهم في فرح بهذا الحظ السعيد الذي واثاه.

وأطلق سراحه فلبث في المدينة «مستوطنًا»، ولم ينقض وقت طويل حتى عين في إحدى الوظائف، وكان في بداية الأمر يأتي إلينا في السجن كثيرًا، أو كلما سنحت له الفرص لمزارنا، فكان يحدثنا عما يجري من الأحداث وكانت السياسة أهم شيء يعنى به.

وإلى جانب هؤلاء الأربعة م.... و ت.... و ب.... و ز.... كان معنا فتیان محكوم عليهما بالسجن مدة قصيرة، وهما صغيران لم يتلقيا تعليمًا كبيرًا، ولكنهما وفيان، ساذجان مستقيمان، وسجين ثالث يدعى «أنشوكوفسكي»، وهو أبله ليس في أمره ما يستحق الذكر، ورابع يدعى

ب....م، وهو كهل أثار في نفوسنا جميعًا نفورًا شديدًا منه، ولست أدري كيف أصبح مثله سجينًا سياسيًا، بل لقد كان ينكر كل صلة له بالسجناء السياسيين، وهو يبدو خشنًا كأنه بائع متجول، ففيه كل طباع التاجر الذي اغتنى بالاحتيال على الناس ليكسب منهم بالغش دراهم معدودات، فلم يصب قسطًا من التعليم، ولم يكن يعنى بغير مهنته، فهو نقاش من الطراز الأول، ولم يلبث ولادة الشأن أن سمعوا بموهبته وبدأ أهل المدينة يطلبونه لنقش جدرانهم وسقوفهم، ولم ينقض عامان عليه حتى كان قد أتم طلاء الأبنية الحكومية كلها أو معظمها، وكان أصحابها يدفعون له أجر بياضه من جيوبهم، فكانت حاله لا بأس منها، ولكن الداهية أن رفقاء له كانوا فيما بعد يرسلون للعمل معه، فأخذ اثنان منهم يتعلمان الصنعة منه، حتى أصبح أحدهما على الأيام نقاشًا ماهرًا، لا يقل عنه مهارة، وكان الميجور يسكن في دار حكومية فأرسل في طلب ب...م لطلاء جدران البيت وسقوفه كلها فبذل أقصى جهده في العمل، حتى أن دار الحاكم العام نفسه لم تكن متقنة الطلاء كدار الميجور، وكانت تبدو متداعية قبيحة الشكل خشبية البناء من طبقة واحدة، ولكنها من الداخل نقشت حتى أُمست كأنها القصر البديع زخرفًا، فسر الميجور لذلك أشد السرور، وراح يفرك يديه ويعلن أنه قد وجب إذن أن يتزوج، قائلاً بلهجة جد: «لأن المرء الذي أوتي دارًا كهذه لا غنى له عن الزوجة»، وظل يزداد رضا عن هذا النقاش على مر الأيام، وسرورًا بالسجينين الآخرين اللذين كانا يعملان معه، واستغرق العمل شهرًا كاملاً، وقد غير الميجور فيه رأيه في السجناء السياسيين وأخذ يرعاهم، وانتهى الأمر بأن دعا يومًا السجين ز.... من السجن.

قال: اسمع يا ز... لقد ظلمتك، حين جلدتك بلا سبب، إنني أعرف

ذلك وآسف له... هل أنت فاهم هذا... إنني آسف..

فأجاب ز... بأنه فاهم.

واستطرد: هل أنت فاهم أنني أنا قائدك، قد دعوتك الساعة لأسألك
الصفحة، هل أنت شاعر بهذا الذي أقوله... من أنت ومن تكون إلى جانبي...
أنت دودة... بل أقل من دودة، أنت سجين في اليمان... وأنا بحمد الله^(١)...
ميجور، هل أنت فاهم..

فأجاب ز... بأنه فاهم أيضًا.

ومضى الميجور يقول: أنا الآن أصالحك، فهل تشعر بذلك هل تشعر به
تمامًا؟.. أو بكل معانيه، هل أنت قادر على فهمه؟.. تذكر أنني أنا الميجور..
وما إلى هذا الكلام وأشباهه.

وقد حدثني ز... عن هذا الذي جرى كله؛ لقد كان عند هذا الرجل
السكرير المولع بالشجار، النزاع إلى الأذى والشر، إثارة من شعور إنساني،
وإذا نحن راعينا أفكاره وخلاؤه من الثقافة، فقد يبدو هذا التصرف منه
عظيمًا، ولكن أكبر ظني أن للسكر دخلاً كبيراً فيه.

ولم تتحقق أحلامه، فلم يتزوج، وإن كان قد اعتزم الزواج، عقب فراغ
النقاشين من تجميل داره، بل لقد صدر الأمر باعتقاله، وأكره على تقديم
استقالته وفي محاكمته ظهرت كل آثامه القديمة وجرائمه، وكان فيما مضى
يشغل وظيفة «الحكمدار» في المدينة، وهوت الضربة عليه بغته، ولم تكن
في حسابه، وعم الفرح السجن لهذا النبأ، فكان يوم عيد، بل يوم فوز ونصر..

(١) كان هذا التعبير مألوفاً في أيامنا، لا يعتمد إليه الميجور وحده، بل يدور على ألسنة كثير من الضباط
الصغار، وخاصة الذين راقوا من الصفوف، أو «من تحت السلاح».

وقيل إن الميجور جعل يولول كالمرأة العجوز، ويزوب عبرات
ودموعاً... ولكن لم تكن ثمة حيلة، فقد اعتزل المنصب، وباع جواذيه
الأسحمين وكل ما كان يملكه، وغمرته الفاقة. وقد لقيناه فيا بعد، فإذا هو في
زي مدني، يرتدي سترة ناصلة اللون، ويضع على رأسه قلنسوة ذات إطار،
وانثنى ينظر شزراً إلى السجناء ويثأرهم بعين الشر والحقد، ولكن كل هيئته
القديمة ذهبت مع ذهاب زيه العسكري، فقد كان فيه رهيباً بطاشاً متألّهاً، أما
في الثوب المدني، فلم يك شيئاً مذكوراً، بل كان يبدو كأنه خادم أو حاجب
أو وصيف، فما أعجب صنع البذلة «العسكرية» بنفوس هؤلاء المخلوقات
وأمثالهم...

الفصل التاسع

فرار

ولم تلبث بعد نقل الميجور أن حدثت تغييرات أساسية في السجن، فلم يعد مكانًا مخصصًا للمساجين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، بل استعاض ولاية الشأن عنه بكتيبة مساجين على غرار كتائب التأديب الروسية، ومعنى هذا أنه لن يؤتى إلى سجننا بعد اليوم بسجناء من القسم الثاني، وبدأ السجن في ذلك الحين يمتلئ بمساجين من القسم العسكري، أي ممن لا يحرمون من حقوقهم المدنية، أو جنود كسائر من عرفت من الجند إلا أنهم يستوفون عقوبة في السجن لمدة قصيرة، لا يتجاوز أقصاها ست سنوات، ثم يعودون إلى وحداتهم جنودًا كما كانوا أول مرة، وإن كان الذين يعودون إلى السجن منهم لارتكاب جريمة أخرى، يحكم عليهم بالسجن عشرين سنة. وكان هناك قبل هذا التغيير قسم من السجناء العسكريين، ولكنهم كانوا يقيمون معنا، إذ لم يكن ثمة مكان آخر يستوعبهم. وكذلك أصبح سجننا كله محتجزًا لهذه الفئة من العسكريين، والذين حرموا من حقوقهم المدنية،

باعتبارهم سجناء مدنيين، ودمغوا دماغه المجرمين، وحلقت ناحية واحدة من رؤوسهم، لبثوا طبعاً في السجن حتى يتموا مدد عقوباتهم، لا يجد عليهم «جديد» ولا ينزل بهم نازل، وكلما أتم أحدهم مدته خرج، فلا ينتظر بعد عشرة أعوام أن يبقى في سجننا أحد.

ولكن بقي القسم الخاص على ما هو، يرسل إليه من حين إلى آخر مساجين من القسم العسكري ممن اقترفوا جرائم خطيرة، فيظلون فيه ريثما تنهياً في سيبيريا أشغال تحتاج إلى الاستعانة بهم على إتمامها.

وهكذا مضت الحياة بنا في الواقع كما كانت من قبل، ظروفًا وأغذية، وأنظمة ولوائح، ولكن الضباط تغيروا، وتكاثروا عددًا، فقد عين للسجن «أركان حرب»، وقائد كتيبة وأربعة ضباط كبار ليتناوبوا العمل، وألغي أيضاً نظام الجنود القدامى، وعين مكانهم اثنا عشر جاوياً وصولاً، وقسم السجناء عشرات، وعين «أوناشية» من بين المساجين أنفسهم بالاختيار طبعاً، وأصبح «أكيم أكيتمش» في الحال «أوناشياً»، وبقي السجن بعد كل هذه التنظيمات الجديدة، وتعيين كل أولئك الأشخاص، تحت إشراف حاكم السجن، باعتباره السلطة العليا فيه، وكان هذا كل ما جرى.

وأحدث هذا التعديل بالطبع هرجاً ومرجاً بين السجناء في بدايته، فكثرت الأحاديث، واشتد الحذر، وحاول المسجونون معرفة أخلاق قوادهم، واكتشاف شخصيات المهيمنين الجدد عليهم، ولكنهم حين بدا لهم أن كل شيء في الواقع يجري كما كان من قبل، أخذوا يهدأون، ويسكنون إلى العيش الذي قدر عليهم، وإن كان الحدث العظيم أننا تخلصنا جميعاً من ذلك «الميجور»، وشعر كل منا بأنه بدأ يتنفس ملء رئتيه، ويزداد سكوناً إلى الحياة واطمئناناً، وتوارت سمات الفرع التي كانت بادية عليهم،

وعرف الجميع الآن أنه إذا اقتضت الحاجة فزعوا إلى السلطات، وأن البريء لن يؤخذ بجريرة المذنب إلا خطأ، وظلت «الفودكا» تباع كما كانت وعلى الطريقة ذاتها، وإن كان الوسطاء قد تغيروا، فأمسوا هم الجاويشية، وكانوا من قبل الجنود القدامى، وتبين أن أولئك الجاويشية في الحملة قوم أهل رجاحة يفهمون مركزهم، وإن ذهب بعضهم في بداية الأمر يجنح إلى السيطرة، ولكن هذا الفريق ما لبث أن عرف مكانه أيضًا، وكان من قلة خبرته يريد أن يعامل السجناء كأنهم جنود، وأما الذين كانوا بسطاء في فهم الواقع فقد تولى المساجين أنفسهم شرح الأمر لهم وفهم المراد منهم، وكانت تقع بين الفريقين مشادات أحيانًا، فقد يحاول المساجين مثلًا إغراء جاويش بالشراب معهم حتى يسكر، ثم يبينون له فيما بعد، على طريقتهم طبعًا، أنه قد شرب الخمر معهم، وأنه لهذا ينبغي أن... وينتهي الأمر بنزوع الجاويشية إلى الإغضاء عن الفودكا المجلوبة إلى السجن في «المنافع» وبيعها فيه، بل جعل الجاويشية أيضًا يذهبون إلى السوق كما كان يفعل الجنود القدامى ليشتروا للمساجين أرغفة ولحمًا وسلعًا مختلفة، لا تكشف ولا تفضح ولا تلفت الأنظار. ولست أدري علام إذن أحدثت تلك التعديلات، ولماذا أنشئت تلك الكتائب، وقد حدث ذلك كله في العام الأخير لمقامي في السجن، ولكن كان أمامي سستان أقضيتهما في ظل هذا النظام الجديد.

وهل أصف تلك الحياة كلها، وكل تلك السنين التي قضيتها في السجن وسلختها؟

لست أظن ذلك، إذ لو أنني وصفتها بحسب وقوعها، ونظام متابعتها وسير أحداثها وشرحت كل ما جرى، وكل ما شاهدت وخبرت، في تلك السنين لامتد بي نفس الكلام ثلاثة أمثال أو أربعة أضعاف ما حشدته في هذا الكتاب،

ولكن وصفًا كهذا يصبح بالضرورة رتيبًا، وتبدو الحوادث كلها على وتيرة واحدة، ولا سيما إذا كان القارئ قد استطاع من الفصول التي مرت به تكوين فكرة وافية لحياة السجن في القسم الثاني، فقد أردت أن أرسم صورة حية ملموسة بارزة المعالم لما قاسيته في تلك السنين، ولست أدري هل بلغت من ذلك غايتي أم لم أبلغ، وليس لي أنا أن أحكم، ولكني مقتنع بأن في وسعي أن أنهي هنا من قصتي، وفضلاً عن ذلك أراني أحياناً أحس انقباضاً في نفسي من هذه الذكريات، وليس في إمكاني أن أتذكر كل شيء، وقد أمحت من ذاكرتي الأعوام الأخيرة التي قضيتها سجيناً، وأنا واثق أن هناك ظروفًا كثيرة نسيتها كل النسيان، وكل الذي أذكره أن كل تلك الأعوام التي تشابهت كثيرًا انقضت في وحشة وبؤس وشقوة، وكانت أيامي فيها طوالة رتيبة كقطرات الماء التي تقطر من السطح عقب المطر، وأذكر أن الرغبة القوية الجياشة المحترمة في النهوض من العثار، واستئناف الحياة، هي وحدها التي كانت تقويني على الانتظار، وتبعث في نفسي موات الأمل. وأخيراً استطعت التغلب، والمصابرة، والتطلع، وعد كل يوم يمضي، ولئن بقي أمامي ألف يوم، فقد ظللت أعدها يومًا بعد يوم فرحًا بعدّها، مسرورًا بإحصائها، وكلما انقضى منها يوم دفتته، وتطلعت في فرح نحو اليوم المرقوب؛ لأنه لم يبق أمامي ألف أخرى منه، وإنما بقي تسعمائة وتسعة وتسعون.. وأذكر أيضًا أنه كان لي يومئذ مئات من الرفقاء، ولكني على كثرتهم كنت أشعر بوحدة أليمة، وانتهى بي هذا الإحساس إلى الرضا بوحدي والطمأنينة إلى عزلي، فقد مضيت في تلك العزلة النفسية أراجع حياتي الماضية، وأعود بالخاطر إلى كل صغيرة وكبيرة فيها، وأفكر مليًا في الماضي، وأقسو في الحكم على نفسي، لا أعرف رحمة ولا هودة، وكنت أحياناً أحمد للقدر أن هيا لي هذه

العزلة ذاتها، إذ لولاها لما توانى لي الحكم على النفس بهذه القسوة، ولا مراجعة الماضي بهذا الجد الشديد، ويا لله كم من آمال جعلت قلبي ينبض ويخفق في تلك الأيام...! لقد آمنت، واعتزمت، وأقسمت أمام نفسي أن أجعل أيامي القادمة خلواً من أغلاطي القديمة، وفترات الفراغ الماضية، وعاد الإيمان الأعمى بمقدرتي على صون تلك العزمات، والوفاء بتلك الأيمان، ينهض في صدري مرة أخرى، ورحت أطلع إلى الحرية في لهفة بالغة، وأدعو الله أن تأتي سريعاً، وتاقت نفسي إلى تجربتها واختبارها في كفاح ظريف، ونضال جديد، وكان القلق العصبي أحياناً يغالبني فيصرعني، ويردني محسوراً، وإنه ليؤلمني الساعة أن أستعيد ذكرى حالتي النفسية في ذلك الحين، ولا شك في أن هذا كله لا يهم أحداً سواي، ولكنني كتبت هذا كله لاعتقادي أن كل إنسان سيفهمه؛ لأن مثله واقع له حتماً إذا هو قضى عليه بالسجن عدة سنين وهو في زهرة الشباب وذروة القوة والبأس.

ولكن علام هذا الحديث عنه؟... لخير لي أن أصف شيئاً آخر، حتى لا ينقطع السياق فجأة.

ويخيل لي أن رب سائل يسأل أكان من المستحيل على أحد الفرار من السجن، أو لم يهرب أحد في كل تلك السنين؟..

وقد قلت فيما مر بك أن السجين يبدأ بعد عامين أو ثلاثة أعوام في السجن يعلق أهمية على تلك الفترة، ولا يسعه في النهاية إلا أن يقرر في نفسه أنه من الخير له أن يقضي البقية الباقية من المدة بلا مغامرة ولا مجازفة، حتى يغادر السجن مفرجاً عنه، طبقاً للقانون، لينتقل منه إلى أحد المستعمرات، فيصبح «مستوطناً». ولكن هذا القرار إنما يتهياً للسجين المحكوم عليه مدة قصيرة، أما الآخر الذي لا تزال أمامه سنون عدة بقضيها فقد يعمد إلى التفكير

في المغامرة بأي شيء، ولكن هذا لم يكن يحدث كثيرًا في سجننا، ولست أدري هل كان ذلك لأن السجناء فيه كانوا هيايين خوافين، أم كانت الرقابة دقيقة عسكرية بنوع خاص، أم أن موقع المدينة في السهل المترامي لم يكن من عدة وجوه معينًا على طلب الفرار، فإن البت في هذه المسائل متعذر، وإن كنت أعتقد أن لهذه الاعتبارات مجتمعة تأثيرها، والواقع أن الفرار من سجننا كان شاقًا عسيرًا، وإن حدث شيء من هذا القبيل على عهدي، فقد أقدم سجينان على الفرار، وكانا من أخطر المجرمين شأنًا.

وكان أ.... وهو السجين الذي كان يعمل جاسوسًا للميجور، قد وجد نفسه بعد ذهاب مولاه، متبذًا من القوم لا صديق يظاهره، ولا نصير يحميه ويرعاه وكان لا يزال شابًا وإن كانت شخصيته قد ازدادت على السنين قوة وثباتًا، فإذا به على الأيام الجريء المقدام، بل الذكي المتقد الذكاء كذلك، ولو أنه وجد مجالًا لظل يتجسس، ويصيب الرزق من مختلف الأعمال السرية، وجملة صورها وأشكالها ولما ضبط من جراء حماقته وطيشه، ليدفع ثمن الحمق والطيش غالبًا، فقد مضى وهو في السجن يصطنع جوازات مزيفة في بعض الأحيان، وإن كنت لا أقطع بصحة هذه القصة التي رويت عنه، وسمعتها بأذني من أفواه المساجين، فقد قيل إنه كان مسترسلًا في هذا التزييف في الفترة التي اعتاد فيها الاختلاف إلى مطبخ «الميجور» وتمكن طبعًا من التقاط كل ما تواتى له فيه التقاطه. وجملة القول فيه إنه كان لا يتورع عن إتيان أية فعلة «لتغيير الحظ» كما ألف المساجين أن يقولوا عن أمثاله، وقد سنحت لي الفرصة فعرفت أخلاقه، وخبرت نوازعه، فأدركت أن الاستهتار والاستباحة بلغت عنده حدود الجرأة المتهورة، والفحّة المستخفة، والسخرية الباردة من كل شيء، حتى لتبعث الاشمئزاز، وتشير

في النفس النفور. وأعتقد أنه لو قامت في نفسه رغبة ملحة في كأس من «الفودكا»، ولم يجد سبيلاً إليها غير ارتكاب جريمة قتل؛ لارتكبها يقيناً، إذا استطاع أن يرتكبها سرّاً حتى لا يكشف أحد خافيتها. وقد تعلم في السجن الحرص والفتنة، وقد لفت هذا الرجل نظر كوليكوف إليه، وفتنه، وكان كوليكوف سجيناً في القسم الخاص، وقد أسلفت عليك قصته، وهو رجل لم يعد في ميعة الشباب، وإن عرمت شهوته، واشتدت قوته، وطال بأسه، وتعددت مقدرته، وكان لا يزال تواقاً إلى الحياة راغباً فيها، وأمثال هذا الرجل يحسون مثل ظمئه إلى الحياة حتى وإن امتد بهم العمر إلى المشيب. ولئن عجبت كيف لم أشهد أحداً في السجن يحاول منه الفرار، فلا يزال كوليكوف هذا أول من كنت أظنه قديراً على هذه المحاولة، وقد تحقق ما كاد يراود خيالي فأقدم أخيراً واعتزم، وقد تسألني أيهما كان أكبر نفوذاً في نفس زميله، أهو أ.... أم كوليكوف؟ فأقول إنني لا أعرف، إلا أنهما كانا ندين كفؤين، صالحين لهذه المغامرة، وتوثقت المودة بينهما ويخيل لي أن كوليكوف كان معتمداً على أ.... في تزييف جوازين لهما. وكان أ.... من طبقة «السادات» ينتمي إلى المجتمع الراقى، وهي مزية تبعث الأمل في النجاح، إذا هما استطاعا الوصول إلى روسيا، ومن ذا الذي يعلم كيف اتفقا وأي آمال كانت تداعب خاطريهما؟... وإن كان من المحقق أنهما كانا يرجوان شيئاً يختلف كل الاختلاف عن مجرد النية في التجوال في آفاق سيبيريا والتشرد في مختلف ربوعها. وكان كوليكوف بطبيعته ممثلاً وفي وسعه أن يؤدي عدة أدوار مختلفة على مسرح الحياة، وقد تمتد عينه إلى أشياء كثيرة طماعية وطموحاً، وأكبر ظني أن وطأة السجن كانت شديدة على أمثال هذين الرجلين، فاتفقا على الهرب...

ولكن الفرار مستحيل إذا لم يستعن عليه بحارس، فكان عليهما أن يراودا حارسًا لينضم إليهما. وكان في إحدى الكتائب المربطة في الحصن «بولندي» عرف بالبأس والنشاط، ولعله كان أحق بحظ أفضل مما وقع له، وكان مكتهلاً رزينا مليئة قوة وحمية، وكان في شبابه، عقب مجيئه كجندي إلى سيبيريا قد فر من الجندية لفرط حنينه إلى بلاده، ولكنه ضبط وعوقب وأبقي عامين في كتيبة تأديب، وحين أعيد إلى الجندية كما كان، أثاب وعرف أن المحاولة لا تجدي، فتحمس لعمله وأقبل عليه يؤديه مخلصًا، حتى رقي لحسن خدمته «أونباشيا»، وكان أخا طموح وطماعية واعتداد بالذات، يعرف قدره، ويدرك قيمته، وكان يتكلم ويبدو كذلك عليماً بشأن نفسه وخطرها. وكنت قد لقيته عدة مرات في تلك السنين بين حراسنا، وحدثني عنه أيضًا البولنديين الذين كانوا معنا، ويبدو لي أن حنينه لوطنه استحال في نفسه إلى كراهية دفينه خرساء ثابتة لا تتغير. وكان هذا الرجل قديرًا على إتيان أي عمل، وقد أصاب كوليكونوف في اختياره رفيقًا لهما فيما اعترماه، وكان يدعى «كوللر»، وتم الاتفاق بينهم على اليوم المضروب، وهو أحد أيام القيظ في شهر يونيو، وكان الجو في مدينتنا هادئًا مستقرًا، ففي الصيف حر مستمر، وهجير ثابت، وهو ما يلائم الأفاقين، ولم يكن في استطاعتهم طبعًا الانطلاق رأسًا من الحصن، فإن المدينة قائمة على مرتفع من الأرض مكشوف من الجهات الأربع، ولا تقوم الغابة إلا على مسافة طويلة من حولها، وكان لا بد لهما من خلع ثيابهما وارتداء ثياب عادية، ولا سبيل إليها قبل بلوغ طرف المدينة حيث يقوم بيت كثيرًا ما كان كوليكونوف يختلف إليه، ولست أعرف هل كان أصحابه الذين يقيمون فيه على بينة تامة من هذا السر أم لا، ولكن لا بد للمرء من افتراض علمهم وإن لم تتحقق هذه النقطة تمامًا

عندما عرضت القضية للمحاكمة وكانت في تلك السنة امرأة تعيش في ركن منعزل في أقصى المدينة، وهي شابة مليحة أخاذة يقال لها «فانكا تانكا»، تبدو عليها بؤار مستقبل حسن، وإن لم تكن يومئذ قد بدأت الحياة العملية بعد، وكان لها لقب آخر، وهو «النار» وأعتقد أيضًا أن لها ضلعًا في الفرار، فقد لبث كوليكون ينفق عليها عامًا كاملاً بسخاء.

وخرج البطلان كالعادة إلى فناء السجن في الصباح، ونجحا ببراعة وحيلة متقنة في إفادهما مع سجين يدعى شيلكين ويشغل ببناء المواقد والطلاء، ليقوم بدهن الثكنات الخالية التي غادرها الجنود منذ فترة قصيرة للمقام في الخيام، وذها معهما ليحملا الأدوات، وجاء كوللر ليكون أحد حارسيهما، فقد كان المطلوب حارسين لكل ثلاثة سجناء، ولم يمانع أحد في ذهاب كوللر لأنه جندي قديم وأومباشي، مع حارس «مستجد» ليدربه ويعلمه واجباته. وأكبر الظن أنه كان لهذين السجينين كوليكون وصاحبه سلطان بالغ على هذا الجندي، وأنه كان كبير الثقة بهما، ما دام قد رضي المسير معهما، بعد خدمته الطويلة وتوفيجه فيها خلال الأعوام الأخيرة، ورغم حكمته وذكائه ورجاحته.

ووصلوا إلى الثكنات في السادسة من الصباح، ولم يكن فيها أحد سواهم، فاشتغلوا ساعة أو نحوها، وعندئذ قال كوليكون وأ... لشيلكين إنهما ذاهبان إلى «الورشة» للقاء أحد الأفراد وإحضار بعض العدد، والظاهر أنهما كانا قد جاءا دون إحضارها، وكان لا بد لهما من إحكام الحيلة طبعًا، والظهور بأنهما في حالة طبيعية قدر إمكانهما، وكان الرجل من صناع الأفران والمواقد في موسكو، وهو ذكي مراوغ ثرثار لا حساب للكلام عنده، وكان هشًا ذابل العود، وكان أولى بمثله أن يظل في صداره وجلبابه، على «موضة»

العمال في موسكو وأزيائهم، ولكن القدر خانته، فلبث هائماً على وجهه أفافاً فترة طويلة من الدهر ثم جاء إلى السجن فاستقر به المقام في القسم الخاص، الذي يساق إليه أشد المجرمين من الجنود خطراً، ولا أعرف كيف استهدف لهذه العقوبة، ولكنني لم أفطن يوماً إلى بادرة سخط تلوح عليه، فقد كان سلوكه حسناً معتدلاً، وإن ألح أحياناً على السكر، ولكنه حتى في هذه الحال كان حسن السلوك مقبولاً، وليس من شك عندي أنه لم يكن مشتركاً في تلك المؤامرة، وأنه كان حديد البصر يقظان حريصاً، وغمز كوليكوف له بطرف عينه ليوحي إليه أنهما ذاهبان لإحضار شيء من الفودكا، وكان قد وصل منها قدر إلى الورشة في اليوم السابق، وكان هذا كافياً للتأثير في نفس شيلكين، فتركهما ينصرفان وليس في نفسه خالجة من ريبة، وبقي هو مع الجاويش الشاب «المستجد»، بينما انطلق كوليكوف وأ.... والحارس كوللر حتى تواروا بالحجاب.

وانقضى نصف ساعة، ولما يعودوا، فبدأ شيلكين يفكر في الأمر، وتذب الريبة في نفسه، وكان رجلاً محنكاً رأى كثيراً في زمانه، وأخذ يتذكر أشياء لم يساوره من قبل الشك في مراميها، فقد بدا له كوليكوف غريب الأطوار أخيراً، على غير عهده به، وتذكر أنه شهد أ... يهمس له مرتين، وأن كوليكوف غمز له بعينه مرتين كذلك، وتبين له أن كوللر أيضاً لم يكن «على بعضه» حين انصرف معهما، بل انطلق يوصي الحارس الآخر بتشديد الرقابة في غيابه، وهو على أقل تقدير لم يكن طبيعياً منه، وهكذا كلما أوغل شيلكين في التفكير، ازدادت هواجسه، واشتدت ريبه وظنونه، ومر الوقت ولم يعودوا، فتناهى القلق به، وأدرك الخطر الذي أحرق به كل الإدراك، وهو أنه من المحتمل أن يرتاب ولالة الأمر فيه، فيظنوا أنه هو الذي تركهما

يهربان، وكان على علم، بل كان متفاهماً معهما، وبدا له أيضاً أنه إذا تراخى في إبلاغ نبأ اختفائهما، كان تراخيه ادعى إلى زيادة الارتياب فيه، فلم تبق أمامه لحظة يضيعها، وعندئذ تذكر أن كوليكوف وأ... كانا من عهد قريب يكثران التفكير والتهامس والمسايرة خلف السجن بعيدين من أعين الرقباء، ونظر إلى حارسه متأملاً، وكان هذا مرتكناً على بندقيته يتشاءب ويعبث بأنفه خالي البال فارغ الخاطر، فلم يشأ شيلكين أن يكشفه بما يعتمل من الريب والشكوك في نفسه، وإنما طلب إليه أن يتبعه إلى مكتب المهندس ليسأل في المصنع هل حضرا إليه، ولكنه علم أن أحداً لم يرهما وعندئذ زالت الريبة من نفسه، وراح يقول لخاطره: «لا بد من أنهما ذهبا ليسكرا ويلهوا في أقصى المدينة كما كان كوليكوف يفعل أحياناً» ولكن هذا غير معقول، ولو كان الأمر كذلك لكاشفاه؛ لأنه أمر لا يستحق إخفاءه عنه، فلم يلبث أن ترك عمله، ولم يعد إلى الثكنات، بل قصد إلى السجن رأساً، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة أو نحوها حين تقدم إلى كبير الجاويشية وأبلغه ما جرى، فبهت الجندي ولم يشأ في بداية الأمر تصديق النبأ، وكان شيلكين قد أفهمه أن ذلك كله الذي رواه لا يعدو حد الريبة والحدس، ولكن الجاويش أسرع إلى إبلاغ القائد، وهذا رفع الأمر إلى الحاكم، فلم ينقض ربع ساعة حتى تم اتخاذ الإجراءات المطلوبة، فأبلغ الحاكم العام؛ لأن المجرمين الهاربين كانا من أخطر السجناء شأنًا، وقد يكون فرارهما مثار متاعب من جانب السلطات العليا في بطرسبرج. وكان أ.... معدودًا، إن حقًا أو خطأً، من بين السجناء السياسيين، بينما كوليكوف في القسم الخاص، أي مجرمًا من الطراز الأول، ومجرمًا عسكريًا كذلك. ولم يحدث من قبل أن لجأ سجين في هذا القسم إلى الفرار، وتبين عرضًا أن الأوامر تقتضي بأن يصحب كل

سجين فيه يخرج إلى العمل حارسان، أو كان أولى بأن يكون لكل سجين حارس خاص، فلماذا لم تراعى اللائحة في هذا الأمر بالذات... وهكذا بدت الحكاية محرّجة، وأوفد الرسل إلى القرى والأقاليم المحيطة بها معنّين فرار الهاربين وأوصافهما، وأرسل القوزاق للحاق بهما واعتقالهما، وكتب إلى الولايات والمراكز المجاورة في هذا الشأن، والواقع أن أولياء الأمور فزعوا لهذا الحادث أيما فزع.

أما في السجن فقد كان الهياج من نوع مختلف، فقد علم المساجين عقب عودتهم من العمل بما جرى، فاستطار الخبر في كل ناحية، وتلقاه كل إنسان بفرح خفي خارق للمألوف، ولم يبق من قلب إلا خفق له ونبض، فإن هذا الفرار، على ما فيه من غرابة تزيل السّامة المقترنة بالحياة في السجن، وتقلب قرية النمل رأسًا على عقب، صادف هوى في كل نفس ولمس حبة كل قلب، وضرب على أوتار مهجورة من زمن بعيد، أنشودة كالأمل، ولحنًا كالجرأة، وأغنية كتغيير الحظ وأثار كل روح، وأوقد كل مشاعر، ومضى كل سجين: لقد هربا... فلماذا إذن.. نبقى نحن؟... وعلى منبثق هذا الخاطر راح كل منهم ينادي جرأته، وينظر متحدّيًا إلى زملائه، والظاهر أنهم جميعًا شعروا فجأة بكبرياء وزهو، وبدأوا ينظرون إلى الجاويشية والحراس نظرة ترفع واستعلاء، وبالطبع ذهب ولادة الأمور يكتسحون السجن في الحال اكتساحًا، ويجتاحون كل ركن فيه اجتياحًا، فجاء الحاكم بنفسه، وكان السجناء «هايصين» مرحّين ينظرون بجرأة وازدراء، وهم صامتون متكبرون، كأنما لسان حالهم يقول: «إننا نعرف كيف ندبر لفرارنا إذا شئنا فرارًا»، وكانوا بالطبع قد عرفوا أن ولادة الأمور سيحيثون إلى السجن، وسيحدث تفتيش وتحقيق، فبادروا إلى إخفاء كل شيء ممنوع، وكانوا يعلمون أن

السلطات في العادة تتشدد عقب أي حادث من هذا القبيل، وهذا هو ما حدث فعلاً، فقد كثر الكلام، واشتدت الحركة، ولم يبق شيء إلا فحص ودقق فيه الفحص، ولكن لم يعثر القوم طبعاً على شيء، وأخرج المساجين بعد الظهر إلى الشغل يحرسهم عدد كبير من الجنود، وقبيل المساء جعل الديدبان يطل على العنبر كل لحظة، وكررت نوبة «التمام» مرتين، ونودي السجناء بالأسماء، وصححت الأغلاط مراراً للمراجعة والتدقيق، مما أدى إلى مزيد من الاضطراب فقد طلب إلى السجناء العودة إلى الفناء ليعدوا مرة أخرى ولما دخلوا العنابر تمت عليهم ثانية، وهكذا كثرت الحركة، واشتد الهرج والمرج، وطال التدقيق.

ولكن السجناء لم يراعوا ولم يجزعوا إطلاقاً بل لبثوا ينظرون كأنهم «متفرجون» لا عليهم بتاتاً، وكما هو الحال في هذه المناسبات، مضوا في تصرفهم طيلة المساء مراعين اللباقة وملتزمين الوقار، كأنما يقولون: «لن تجدوا شيئاً يقتضي المؤاخذه...» وكان ولاية الشأن بالطبع يتساءلون: هل ترك الهاربان من ورائهما أعواناً لهما في السجن وأنظاراً.. وراحوا يصدرون الأوامر بوجوب مراقبة المساجين والتجسس عليهم، فلم يسع هؤلاء غير الضحك ساخرين، يقولون: «كأن المرء يمكن أن يترك شركاء له من خلفه في مسألة كهذه... إن أمراً كهذا إنما يعتزم اعتزاماً في خفية من الآخرين.. أو كأن رجلاً مثل كوليكوف أو... من الغفلة بحيث يتركان أثاراً تدل عليهما، لقد كان تصرفهما بارعاً كل البراعة، لقد أخفيا كل المعالم، إنهما من طراز فذ، رجال رأوا وشهدوا وجربوا، وأمثالهم يخرجون من الأبواب الموصدة، وينفذون من الحديد...!».

والواقع أن المجد الذي اكتسبه كوليكوف وصاحبه ظل يزداد في كل

يوم تألقاً، وأصبح كل سجين بهما فخوراً، يعتقد أن ما فعلاه سينتقل حديثه إلى الأجيال الخالفة.

وانبرى أحدهم يقول: يا لهما من معلمين بارعين!..

وأردف آخر: لم يكن أحد من قبلهما يعتقد أن الفرار من هذا المكان ميسور، ولكنهما مع ذلك تمكنا منه.

ودار ثالث بعينه فيما حوله وألقى نظرة متكبرة، ثم قال: أتتحدث عن هربهما... فمن هما اللذان هربا... أتظن أنهما من أمثالكم؟

وما كان السجين الذي أريد بهذا القول ليتردد في مقام آخر غير هذا المقام في مواجهة هذا التحدي والدفاع عن كرامته، ولكنه صمت في هذا الموقف مستحيماً مفكراً، ثم انثنى يقول: نعم، في الحقيقة نحن لسنا في شيء مثل كوليكوف وأ.... يجب أن نعرف ماذا نستطيع أن نفعل قبل أن نتكلم.

وقال رابع بعد سكوت ساد القوم لحظة: «ولكن لماذا نظل هنا مقيمين يا صاح على هذا النحو؟».

وكان المتكلم يجلس جلسة متواضعة بقرب نافذة المطهى مسنداً خده إلى كفه، وكان صوته مليئاً بحماسة وعاطفة وشعور، وهو يردف قائلاً: «ما الذي يبقينا هنا، لسنا أحياء وإن كنا نحيا، ولسنا في قبورنا وإن كنا أمواتاً... إيه...!»

- ليس هذا حذاء، تستطيع إن شئت له خلعاً... ما فائدة «إيه» هذه وما جدواها؟

وانبرى فتى من المتهورين المتحمسين يحاول أن يقاطع قائلاً: ولكن كوليكوف كما تعلمون...

ولكن أحدهم عاجله ونظر إليه باحتقار مرددًا قوله: «كوليكونف..
كوليكونف...!»، كأنما يريد أن يقول له: «وهل من أمثال كوليكونف هنا
كثير؟»..

- وأ... أيضًا يا أولاد إنه حاد «كالقشاط».

- صح... وفي إمكانه أن يدير كوليكونف نفسه حول أصبعه ولن تستطيع
أن تمسك به.

- لأود لو أعرف هل تراهما الآن قد بُعدا وأوغلا في الهرب يا أولاد؟
وعندئذ دارت مناقشة فيما يحتمل أن يكونا قد بلغا في مسيرهما، وأي
اتجاه تراهما اتجها، وما هو خير طريق يسلكانه، وأي الأقاليم منهما أقرب؛
وكان من بينهم قوم يعرفون الأقاليم المحيطة بالسجن كله، فاصغى الآخرون
إليهم باهتمام شديد، وهم يتحدثون عن أهالي القرى المجاورة قائلين: إنهم
ليسوا ممن يوثق بهم أو يعتمد عليهم؛ لأنهم يسكنون بجوار مدينة فلا يكون
مثلهم من السذج، ولا يرضى أحد منهم مد يد المعونة إلى سجين، بل
يقبضون عليه ويسلمونه إلى الشرطة.

- إن الفلاحين الذين يقيمون حولنا هنا قوم حاقدون ناقمون يا
أصحاب... إنهم والله كذلك.

- ولا يعتمد عليهم.

- إنهم سيبيرون، ملاعين، إن استفردوا بك قتلوك.

- نعم، ولكن صاحبانا.

- تأكدوا أنه لا يعرف أحد من الذي سينجح منهما، إن رجالنا ليسوا
بالزبائن الذين يسهل الضحك عليهم.

- من يعيش ير .

- لماذا يذهب بك الظن إلى أنهما سيقبض عليهما؟

وهنا صاح أحد المتحمسين وهو يضرب المنضدة بجمع كفه: «لا أعتقد أنهم سيقبضون عليهما».

- هذه مسألة حظ .

وعندئذ تدخل سكاراتوف في الحوار فقال: أقول لكم رأيي يا أولاد... لو كنت أفافًا هاربًا لما قبضوا عليّ أبدًا.

- أنت؟

وتضحكوا، وإن تظاهر بعضهم بأنهم لا يحبون أن يسمعوا ما هو قائل . ولكنه لم يكف، ومثل سكاراتوف لا يحول شيء بينه وبين الكلام، فقد مضى يقول بقوة: إنني كثيرًا ما أفكر في هذه المسألة وأعجب لنفسي يا أولاد، إنني أعتقد أنني لن أعدم شقًا أختبئ فيه قبل أن يضبطوني .

- لا خوف! ستجوع فتلجأ إلى فلاح تسأله خبزًا .

فضحك القوم .

- أسأله خبزًا.... كلام فارغ..

- ما بالك تهز لسانك هزة ذنب الكلب، أنت والعم «فاسيا» قتلتما الطاعون البقري^(١) ولهذا السبب جئتما إلى هنا .

وهنا اشتد الضحك وازداد، وعلت وجوه الرزينين منهم سحابة غضب

شديد .

(١) أي أنهما قتلأ امرأة أو رجلًا لأنهما ظنا أنه فعل ما يشبه السحر حتى نفقت الماشية وفشى الطاعون فيها، وكان من بيننا سجين من هذا النوع .

وصاح سكاراتوف: هذا كلام فارغ، ونكتة من اختراع «ميخا» ولم تكن عني، بل عن «فاسيا»، وإنما جروا إليها رجلي... أنا من موسكو، وقد نشأت من طفولتي على التشرد والضرب في الأفاق، وكان المعلم وهو يلقني القراءة يشدني من أذني ويحملني على ترديد الآية: «لا تدخلي يا رب في تجربة» فلم ألث أن اعتدت ترديد هذا القول: أدخلني يا رب برحمتك قسم البوليس...! هذا هو ما ألفته من الطفولة.

فكاد كل منهم ينفجر من الضحك، وكان هذا هو كل ما أراه سكاراتوف؛ لأنه لم يكن يستطيع أن يغالب المجون، وما لبث السجناء، أن انصرفوا عنه وعادوا إلى حديث جد، وكان الشيوخ منهم هم الحجة في هذا الأمر وأمثاله، فأنشأوا يشرحون رأيهم، بينما لبث الشباب والمتضعون من المساجين يصغون إليهم بسرور ولذة، ويقبلون عليهم مرهفي الأسماع واحتشد في المطهى خلق كثير، ولم يكن بينهم طبعًا جاويز وإلا لما تكلموا على هذا النحو أحرارًا.

وقد فطنت إلى أحد الذين كانوا يستمعون بلذّة إلى أحاديث الشيوخ، ورأيته يصغي مسرورًا فرحًا، وهو سجين من «التتر» يدعى «مامتكا»، وكان قزمًا بارز عظمة الخد، ويلوح مضحكًا إلى أبعد حد، وكان يتكلم الروسية بصعوبة شديدة، ولا يكاد يفهم شيئًا مما يقال وإن أقبل يسمعه، وأرهف إذنه بلذّة بالغة.

فلم يكن من سكاراتوف، وقد انصرف الجمع عنه وحار لا يدري ماذا يصنع بنفسه، إلا أن «يلزق» له، فأقبل عليه يقول: إيه يا «مامتكا» يا كشي^(١)..

(١) لفظ تترى أو تركي.

فأجابه التتري بحماسة شديدة، وهو يهز له رأسه: «يا كشي... يا كشي...

قال:... لن يقبضوا عليهما... يوك^(١)؟

وهنا أخذ «مامتكا» يردد هذه الكلمة وهو يشير بيديه: «يوك... يوك...!». .

- أنت إذن تكذب... أنت لا تفهمني.

وهز مامتكا رأسه موافقاً وهو يقول: «نعم... نعم يا كشي».

ومضى سكاراتوف وهو يدفع بكفه قبعة التتري حتى جعلها تتراخى

على عينيه قائلاً: يا كشي... مؤكدا!

وخرج من المطهى وهو مرح، تاركاً مامتكا حائراً مشدوهاً.

واستمر التشدد المتناهي في النظام أسبوعاً كاملاً، وتابع ولاية الأمر

البحث والتنقيب عن السجينين الهاربين في القرى المجاورة بدأب وإلحاح،

ولست أدري كيف يتسنى للسجناء الظفر بمعلومات عاجلة صحيحة عن

حركات الشرطة ومباحثهم خارج السجن، وكانت الأنباء التي وردت في

الأيام القليلة الأولى سارت فيما يتصل بالهاربين، فلم يعثر أحد عليهما ولا

سمع بهما، ولا وقع لهما على أثر، وتلقى المساجين هذه الأنباء ضاحكين،

وزال كل ما كان يساورهم من قلق على زميليهما، فكانوا يرددون بسرور

قولهم: لن يجدوا شيئاً، ولن يقبضوا على أحد منهما...

- لا شيء مطلقاً.... لقد انطلقا كالقذيفة.

- عليهما السلام... ولهما الوداع.

(١) كلام تتري أو تركي، ولفظة «يوك» تعني لا... أو ليس، والمعنى أن الاعتقال لن يحدث.

وكان المعروف في السجن أن الشرطة أفلقوا جميع الفلاحين في القرى المجاورة، وفتشوا جميع الأماكن المشتبه بها، وكل الغابات والأودية المترامية حولها.

وراح المساجين يقولون ضاحكين: سخافة وحمق... لا بد من أنهما وقعا على صاحب لهما يقيمان عنده الساعة...

وقال الآخرون: بلا شك، إنهما ليسا مغفلين، بل لا بد من أنهما استعدا لهذا الأمر قبل الإقدام عليه...

ولم يقف القوم في افتراضهم عند هذا الحد، بل أوغلوا، قائلين: إنهما قد يكونان الساعة في بعض ضواحي المدينة ذاتها، وإنهما يعيشان في «حاصل» حتى تهدأ النفوس، ويطول شعرهما، وقد يقتضي ذلك بقاءهما حيث هما ستة أشهر أو عامًا كاملاً، قبل أن يواصل المسير.

وهكذا كان كل فرد منهم ينزع إلى الإيغال في الخيال، ولكن ظهرت فجأة، وبعد ثمانية أيام من الفرار، إشاعات توحى بأن الباحثين وقعوا على «مفتاح» قد يكشف ما استغلقت من أمر هذا الحادث وخافيته، ولكن السجناء لم يصدقوا بل قابلوا هذه الإشاعات في الحال باحتقار، وما أن حل المساء حتى تأكدت الرواية وبدأ القوم يقلقون، ولما طلع النهار قيل في المدينة إن الهاربين قد اعتقلا وهما في طريقهما إلى السجن كرة أخرى، ووردت تفاصيل جديدة في الأصيل، فقيل إن اعتقالهما حدث في قرية قائمة على مبعدة خمسين ميلاً أو قرابتها من السجن، وأخيراً ورد نبأ قاطع حاسم، فقد عاد أونباشي من حجرة «الميجور» فأنبأنا أنهما سينقلان في هذا المساء بالذات إلى «مبنى الحرس»، وأن هذا النبأ محقق لا ريب فيه، وإنني لعاجز عن وصف الأثر الذي أحدثه في نفوس السجناء، فقد بدوا في أول الأمر غضباً

منقبضي الصدور، ثم تراءوا محاولين السخرية، مصطنعين الاستهزاء، مسترسلين في ابتداع نكات، لا يراد بها ولاية الشأن في هذه المرة ولا المطاردون المتعقبون، بل الهاربان بالذات، إلا أهل الجد منهم والحصافة الذين لا تؤثر فيهم المجانة، ولا تغير من تفكيرهم النكات، فقد مضى هؤلاء يهزأون بسطحية الجمهرة وسخفها صامتين.

والواقع أن المساجين أنحوا باللائمة على كوليكوف وصاحبه، وأسرفوا في الهزؤ بهما كإسرافهم من قبل في مديحهما والتنويه ببطولتهما، كأنما قد أساء إلههم مساءة بالغة، ومضوا يرددون القول بروح السخرية والزراية: جاعا حتى لم يقويا على الوقوف، فأويا إلى قرية يسألان أهلها خبزا، وهو أسوأ وهدة يبلغها أفاق. ولم تكن هذه الروايات صحيحة، إذ الواقع أن المطاردين اقتفوا أثرهما حتى تبينوا أنهما اختفيا في الغابة، فطوقوها بحصار حتى يئسا، فلم يجدا مفرا من التسليم.

ولكن حين سيقا في المساء يحيط بهما الحراس وهما مشدودا الوثاق، خرج المساجين جميعا إلى السياج ليشهدوا ماذا سيفعل بهما، ولكنهم لم يشهدوا بالطبع شيئا غير مركبتي « الميجور » والحاكم العام خارج مبنى الحرس، ووضع الهاربان في محبس انفرادي، منفصلين مقيدين، وفي الغداة قدما للمحاكمة، فلم تلبث أن توارت سخرية السجناء منهما، واختفى كل احتقار كانوا يبدونه نحوهما، فقد عرفوا ظروفهما بتفاصيلها ودقائقها، وأدركوا أنه لم يكن في وسعهما غير التسليم، وبدأوا جميعا يتابعون سير الإجراءات بعطف ورناء.

قال أحدهم: سيأمرون بضرب كل منهما ألف عصا..

وقال الآخرون: ألف عصا... صح.. هذا يكفيهما.. ولعلمهم سيخصّون

أ... بها، ولكنهم سيضربون كوليكون حتى يخدموا منه الأنفاس؛ لأنه من القسم الخاص.

ولكنهم أخطأوا التقدير..

فقد أخذ أ... خمسائة، إذ شفع له حسن ماضيه، وروعي أيضاً أن هذه الجناية كانت الأولى له، وأما كوليكون فاعتقد أنه تلقى ألفاً وخمسمائة، وإن امتزج التنفيذ بشيء من الرحمة والرفق، وكان من حكمتها أن أحداً منهما لم يلقِ التبعة على صاحبه خلال المحاكمة، بل راح كل منهما يدلي بأجوبة واضحة وردود دقيقة، وقالاً إنهما فرا رأساً من الحصن، ولم يقيما بموضع ما في المدينة، وكان أشد حزني وألمي لكوللر، فقد فقد كل شيء، وأضاع كل آماله وأمانيه، وكان الحكم عليه أشد وأقسى، وأعتقد أنه ألفان من العصي ونقل إلى سجن آخر كسجين.

وكان تنفيذ العقوبة في أ... بفضل الأطباء خفيفاً روعيت فيه الرحمة، ولكنه تراءى صلفاً متكبراً مستخفاً، ومضى في المستشفى يرفع الصوت قائلاً: إنه مستعد لكل شيء، فلم يعد يبالي أمراً، أو يقيم للدنيا وزناً. وأما كوليكون فقد ظل، كدأبه، حرياً على الكرامة واللياقة والأصول، وحين عاد إلى السجن بعد العذاب، بدا كأنه لم يغادره أبداً، وإن اختلفت نظرة السجناء إليه، ولكنه كان يعرف في كل مكان كيف يعتز بنفسه، ويدود السوء عنها، وبدأ القوم يعدلون في أعماق نفوسهم عن احترامهم القديم له، ويعاملونه بألفة، ويرفعون الكلفة معه. والواقع أن مجده هوى وهبط من ذلك الحين، ولا بدع، فإن للنجاح عند الناس حساباً أي حساب...

الفصل العاشر

كيف غادرت السجن

جرى ذلك كله خلال العام الأخير لي في السجن، وقد بقيت ذكراه ماثلة في خاطري كالعام الأول، ولا سيما أيامي الأخيرة فيه، ولكن أي جدوى من الإسهاب، وأي خير في التفصيل.. وكل ما أذكره أنني في تلك السنة، رغم قلقي وتلهفي على انتهاء مدتي، وجدت الحياة أهون مما كانت تلوح لي في جملة السنين الماضية، وكان لي في العام الأول أصحاب وأهل مودة يتمنون لي الخير، ويدركون طيبي، ويؤمنون بسلامة سريري، وقد أخلص لي كثير منهم وتفانوا في خدمتي. وكاد «الرائد» يذرف العبرات حين شهدني وزميلًا لي في اليوم الذي غادرنا السجن فيه، وكان عقب خروجنا ومقامنا شهرًا في المدينة يأتي كل يوم لزيارتنا، لا شيء سوى أن يرانا، وإن بقي فريق من السجناء على ديدنهم، نافرين مني غضابًا إلى النهاية، كأنما يستكثرون الكلام معي، ويضنون به ضنًا، وكأن بيني وبينهم حاجزًا لا سبيل إلى تخطيه.

وكنـت قبل النهاية أكثر استمتاعاً بالمزايا وضروب التسامح مني في الأعوام الأولى، واكتشفت بين الضباط الذين يخدمون في المدينة بعض المعارف، ومنهم زملاء كانوا معي في المدرسة ونحن صغار ناشئون، فجددت الصلات بهم، واستطعت بفضل سعيهم أن أظفر بقدر من المال، وأن أكتب إلى أهلي، وأن أتلقي كتباً كذلك، وكانت قد انقضت علي أعوام لم أقرأ فيها شيئاً، وإنني لعاجز أن أصف الأثر العجيب الغائر النائر الذي أحسسته عندما تناولت أول كتاب في السجن لأقرأه. وأذكر أنني بدأت القراءة في المساء حين أغلق العنبر علينا، وقضيت الليلة كلها ساهراً عاكفاً عليه، حتى مطلع الفجر، وكان الكتاب عدداً من إحدى المجلات، فأحسست كأنني أتلقي أنباء من دنيا أخرى وتراءت حياتي الماضية حيالي مليئة بضياء وألوان، وحاولت مما قرأته أن أتمثل إلى أي مدى تخلفت عن ركب الحياة، ومضيت أسائل الخاطر: هل جرت أحداث كثيرة وأنا بعيد، وأي الأحاسيس تضطرب اليوم في أخلاق البشر، وأي المسائل تشغل منهم الأذهان؟... وأكبت على كل كلمة أطلعها، وأحاول أن أقرأ ما بين السطور وأكشف على المعاني الخفية والصور الدقاق ما قد يتصل بالماضي، وأن أتطلع لما قد بقي من أثر لما كان يشغل بالنا في زماننا، ولشد ما كان شجعني حين أدركت مدى بعدي من الحياة الجديدة، ومنقطعي عن زحمتها ومختلف مشاغلها وسائر نواحيها، ورأيتني بحاجة بالغة إلى إيلاف كل ما جد، واعتياد كل ما استحدث، ومعرفة كل ما يمت إلى الجيل الجديد، وأقبلت في لهفة على استيعاب البحوث التي وجدتها مهمورة بتواقيع مؤلفين كنت أعرفهم، وكتاب كانت صلتني رقيقة بهم، ولكنني وجدت أسماء جديدة أيضاً، وكتاباً في الطليعة لم أسمع من قبل بهم، ورحت أتلهف على التعرف إليهم. وغاظني أنني لم أكن أو مل أن أظفر

بأكثر من بضعة كتب وأنه من العسير الظفر بها، وكان من الخطر الشديد على عهد الميجور في الأيام الخالية تهريب كتاب إلى السجن، إذ لو حدث تفتيش يجري في الحال استجواب وتحقيق لمعرفة كيف جاء الكتاب، وممن أتى، ولاستنتج المحققون أن الذي تلقاه لا بد له من معارف وأصحاب في المدينة، وماذا كنت مجيباً إذا سئلت، فلا عجب إذا أنا مضيت مع الحرمان من الكتب في شغل شاغل بنفسي وأنا لا أدري، مصطنعاً لها مشاكل وعقداً، لكي أحاول أن أجدها حلاً، مكدود الخاطر أحياناً في الاهتداء إليها... ولكن هيهات... ليس لي على وصف كل هذا ونحوه يدان...

وكان مقدمي إلى السجن شتاء، ومخرجي منه شتاء، في اليوم ذاته الذي جئت فيه، فما كان أشد لهفتي وأنا أتطلع إلى حلول الشتاء، وأي لذة كنت أشعر بها على مختم الصيف، وأنا أرقب أوراق الشجر وهي تذبل، والحشائش في السهول وهي تذوي، ولما انقضى الصيف، هبت رياح الخريف صافرة مزمجرة، وتساقطت القطرات الأولى من الجليد، وأخيراً حل الشتاء الذي كنت في أشد الشوق إلى مقدمه، فأحسست قلبي ينبض وتشتد ضرباته لتصوري الحرية دانية، ولكن الغريب في أمري، أنني ازدددت صبراً، كلما اقتربت الخاتمة، ودنت النهاية. والواقع أنني في بضعة الأيام الأخيرة دهشت لنفسي، وجعلت ألومها وأعنفها، إذ بدا لي أنني أصبحت غير مكترث بالأمر ولا معني به، وإن مضى خلق كثير من السجناء يتحدثون إليّ ويهتئون كلما التقوا بي في الفناء خلال أوقات الفسحة والرياضة.

وقال لي أحدهم: «ستخرج وشيكاً إلى الحرية يا أليكسندر بتروفتش، نعم، وشيكاً، وتتركنا وحدنا نحن الشياطين المساطين».

قلت: وأنت يا مارتينوف، هل ستنتهي مدتك قريباً؟..

قال: أنا.... بدري علي... لا تزال أمامي سبع سنين أتلوى فيها من العذاب.

وزفر الرجل ولبث في مكانه جامدًا، وبدا مستغرقًا في تفكيره كأنما يرسل البصر إلى المستقبل البعيد... أي والله، لقد جاءني خلق كثير يهتئونني صادقين مسرورين، وخيل لي أنهم بدأوا جميعًا يصبحون أكثر مودة نحوي وألطف معشرًا، والظاهر أنهم أخذوا يشعرون بأني لم أعد واحدًا منهم، وبدأوا يودعونني توديعًا. وكان كتشنلسكي، أحد البولنديين المتعلمين، وهو فت هادئ رقيق، مولعًا مثلي بالمشي في الفناء ساعة الفراغ، إذ كان يرجو بالرياضة واستنشاق الهواء النقي المحافظة على صحته، ومعالجة الأثر السيئ الذي يحدثه المبيت في العنبر طيلة الليالي الخافتة.

قال وهو يتسهم حين لقيني ذات يوم في الفناء ونحن نمشي ذهابًا وجيئة في رحابه: إنني متطلع بفارغ الصبر إلى يوم الإفراج عنك، ويوم تغادر السجن تبقى أمامي سنة واحدة ليس أكثر.

ويصح أن أذكر هنا بين قوسين، أن أحلامنا وابتعادنا الطويل من الحقيقة جعلتنا نتخيل الحرية شيئًا أكثر حرية من الحرية الحقيقية ذاتها، فقد كان السجناء يبالغون في تقديرها، وهو شعور طبيعي أبرز ما يكون عند السجين المحروم منها. وكنا ننظر إلى أي تابع من أتباع الضباط كما ننظر إلى ملك، أو إن شئت قل إلى المثل الأعلى للإنسان الحر بالقياس إلينا نحن السجناء، لمجرد أنه لم يكن حليق الرأس مثلنا، حرًا يذهب حيث يشاء، طليقًا من القيود والأصفاد.

وفي المساء السابق لليوم الأخير مضيت أمشي عند الغسق - للمرة الأخيرة - حول السور كله، فبالله كم ألوف المرات مشيت حذاءه خلال تلك

السنين الطوال... وكيف اعتدت في عامي الأول المشي ذهابًا وحيث خلف البناء وحيدًا، منقطعًا، يائسًا، مهمومًا، وكيف أُلْتُ يومئذ أن أتخيل آلاف الأيام الباقية لي... ربه، أي عهد طويل كان ذلك وأي أمد رخي... هنا في هذا الركن عاش «النسر» أسيرًا، وهنا كان بتروف عادة يلتقي بي، بل هو إلى الآن لا يكف عن جواربي، ولا ينأى عن موضعي، بل إنه ليعدو حين يلمحني حتى يسايرني، في صمت، كأنه يعرف أفكارني، مترائيًا كأنه هو أيضًا مفكر في أعماق نفسه مخلد إلى أخيلته... وذهبت أودع بخاطري جدران السجن السوداء الخشنة الأخشاب، وأتمثل كم كانت تبدو لعيني بغیضة منفرة في أيامي الأولى، إنها هي الأخرى قد كبرت الآن وطال عليها الأمد، وإن لم أشهد عليها فارقًا، أو اختلافًا. وكم من شباب دفین خلف تلك الجدران بغير جدوى، وقوات عظيمة ذوت وراءها على غير طائل... ولكن لا معدى للمراء عن قول الحق، بل كل الحق، وهو إن أولئك الأفراد هم شواذ، فلعلهم أكثر أهل الدنيا مواهب، وأشد أناسيها قوة وبأسًا، ولكن مواهبهم تلك وقواهم بددت في أمر لا نفع منه، وذوت وأفنيت، شدوذًا، وظلمًا، ويأسًا من خير أو صلاح... ومن المذنب في هذا ومن يكون المعلوم...

هذا هو السؤال... من المعلوم؟..

لقد مضيت في بكور كل صبح، عند مطالع الضياء، وقبل خروج السجناء، للعمل، أتقل بين العنابر لوداع الجميع، فكم من يد قوية خشنة شائكة امتدت إليّ بمودة، وبعضها وهي ليست بكثيرة، هزت يدي مصافحة هزة أيدي الأصحاب، والأصدقاء، وآخرون أدركوا كل الإدراك أنني يجب أن أعد من الآن نوعًا آخر من الرجال يختلف عنهم كل الاختلاف، وهم يعلمون أن لي في المدينة أصحابًا، وأنني خارج من السجن رأسًا لمخالطة

«السادات» والمهذبين، أجالسهم مجالسة الند للند، وأخالطهم مخالطة القرين للقرين. لقد كانوا يفهمون ذلك، ولئن ودعوني توديع المودة والإخاء، فقد أبوا أن يتحدثوا إليّ حديث الرفقاء، وإنما تحدثوا إليّ كسيد ليس من وأمهم، بل أشاح بعضهم عني ولم يستجب لتحية، ولم يبادر لوداع، وآخرون راحوا ينظرون إليّ بشيء من الكراهية والبغضاء...

ودقت الطبول، وخرج الجميع إلى العمل، ولبت أنا في العنبر لا أريم، وكان سوشيلوف أول من استيقظ في ذلك الصباح، وراح يحاول أقصى جهده لإعداد الشاي لي قبل انصرافه... مسكين سوشيلوف... لقد بكى حين أعطيته ثيابي في السجن، وأقمصتي، وأعطية قيدي وفضلة من المال... وانشئ يقول لي وهو يغالب شفتيه الراعشتين: «ليس هذا هو ما أريد... ليس هذا ما أريد... إن فقدنا إياك هو المرعب الأليم يا إليكسندر بترفتش، ماذا أنا فاعل هنا من دونك؟...».

وقلت وداعًا لآخر مرة لأكيم أكيמתش كذلك، وقلت:

– «وأنت عما قليل خارج أيضًا».

ولكنه غمغم يقول وهو يشد يدي:

– «لا يزال أمامي مقام طويل هنا...».

وتهالكت على عنقه أقبله...

ولم تنقض عشر دقائق على خروج السجناء حتى خرجنا نحن أيضًا، أنا والزميل الذي دخل السجن معي في يوم واحد؛ لكي لا نعود إليه أبدًا، وكان علينا أن نذهب رأسًا إلى الحداد ليحطم قيودنا، فذهبنا إليه بغير حرس مسلح في أثرنا، بل ذهب الجاويش وحده معنا، وتولى بعض السجناء في ورشة

المهندسين إزالة القيد عنا، وبينما كانوا في شغل بصاحبي، وقفت مترقبًا دوري، ثم تقدمت أخيرًا إلى «السندان»، وأدارني الحدادون حتى يكون ظهري إليهم، ورفعوا ساقي حتى استقرت فوق السندان، وهم ناشطون جاهدون لهذه العملية التي بلغوا بها ذروة البراعة والإتقان.

وصاح بهم كبيرهم: «المسمار... أديروا المسمار أولاً، وأمسكوا به... هكذا... تمامًا... والآن اهووا عليه بالمطرقة...».

وسقطت القيود، فرفعتها من مسقطها، لقد أردت أن أمسك بها في يدي، وأن ألقي عليها النظرة الأخيرة، وقد خيل لي أنني لم أكن أدري أنها كانت مقيدة ساقي من لحظة واحدة..

وعندئذ أنشأ السجناء يقولون بأصوات خشنة متهدجة، لا تخلو على خشونتها وتهديجها من رقة وسرور:

- «على بركة الله... اذهب... على بركة الله...».

أي والله، على بركات الله ورحمته... إلى الحرية، والحياة الجديدة، والبعث والنشور...

يا لها من لحظة رائعة...

الفهرس

٥	المؤلف وأسلوبه
٩	تعريف بالكاتب والكتاب
١٧	مقدمة
٢٥	القسم الأول:
٢٧	الفصل الأول : منزل الأموات
٤٧	الفصل الثاني : مشاهداتي الأولى
٧٢	الفصل الثالث : مشاهداتي الأولى
٩٤	الفصل الرابع : المشاهدات الأولى
١١٨	الفصل الخامس : الشهر الأول

١٣٩ الفصل السادس : الشهر الأول

١٦٠ الفصل السابع : معارف جدد - بتروف

١٧٨ الفصل الثامن : المستيئون - لوتشكا

الفصل التاسع : إيساي فومتش - الحمام-

١٨٨ قصة باكلوشين

٢١٣ الفصل العاشر : عيد الميلاد

٢٣٦ الفصل الحادي عشر : التمثيليات

٢٦٥ القسم الثاني :

٢٦٧ الفصل الأول : المستشفى

٢٨٨ الفصل الثاني : المستشفى

٣٠٨ الفصل الثالث : المستشفى

٣٣٤ الفصل الرابع : زوج أكلوكا - قصة-

٣٥٠ الفصل الخامس : الصيف

٣٧٥ الفصل السادس : حيوانات السجن

٣٩٣ الفصل السابع : الشكوى

٤٢٠ الفصل الثامن : الرفقاء

٤٤١	الفصل التاسع: فرار
٤٦٢	الفصل العاشر: كيف غادرت السجن
٤٦٩	الفهرس
